الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الحادي والثلاثون

دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

رواية شاهد عيان عن حروب رتشارد قلب الأسد

في

قبرص والأراضي المقدسة

مع رحلة حج

— سيولف الأنكلو سكسوني (١١٠٢)

— الراهب دانيال الروسي (١١٠٦)

— ورسالة فيتيلوس في وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون

دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يشعر كل باحث في تاريخ الحروب الصليبية بالأهمية القصوى لأحداث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويعجب كيف انتهت انتصارات صلاح الدين المدوية في يوم حطين ثم تحرير القدس بفاجعة سقوط عكا وانتكاسة صلح الرملة، ويتساءل عن الأسباب: هل هي راسية في إقدام رتشارد قلب الأسد وتدفق النجدات من أوربا، أم كان هناك خلل عظيم في بناء دولة صلاح الدين العسكري والإداري؟ أم أن سبب الداء رسا في بناء أسرة صلاح الدين؟ فقد كان أبرز أفراد هذه الأسرة تقي الدين عمر من الجانب العسكري، والملك العادل من كافة الجوانب،فقد تخلى تقي الدين عمر عن صلاح الدين في ساعة الحرج، وذهب إلى الجزيرة يغامر في سبيل تأسيس ملك واسع له، وبذلك فقد صلاح الدين العبقرية العسكرية التي أسهمت بالدور الرئيسي في حطين وسواها، أما العادل فكان طالب ملك بأي ثمن، والملك كما هو معلوم عقوق وعقيم، أنشأ علاقة ممتازة مع رتشارد قلب الأسد، وأنقذه في النهاية بالتوصل — إن لم نقل بإملاء — شروط صلح الرملة.

هذا ولسلوك العادل وأفراد البيت الأيوبي وحواشيهم فقد صلاح الدين في أواخر أيامه السيطرة على قادة جنده وانتابه التعب العظيم، ويبدو أن المعلومات عن الأوضاع داخل المعسكر الفرنجي كانت تحجب عنه، علماً بأنه امتلك جواسيس كانوا يعرفون كل ما يجري داخل صفوف الأعداء.

لقد حقق رتشارد قلب الأسد بعض التفوق العسكري، ونجح سياساً إلى أبعد الحدود، فقد تخلص من غي ملك القدس أيام حطين، وأزاح كونراد صاحب صور من علي مسرح الأحداث بالتعاون مع الحشيشية، وفرض ابن أخته هنري ملكاً على مملكة القدس الثانية التي بعثها إلى الوجود، وهكذا أطال عمر الحروب الصليبية قرناً آخر، والقرن ليس بالزمن القصير.

ولما تقدم من أسباب وأسباب أخرى، اهتممت كثيراً بمصادر أخبار الحملة الثالثة لأن الحملات بعدها أمواج شاردة، ولأن مواد المصادر العربية لا تكفي، ولحسن الحظ تمكنت من تحصيل كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري الذي كتبه واحد من الفرنجة البلديين، وهذا الذي أقدم له، وقد كتبه واحد من الفرنجة البحرية الوافدين بركاب رتشارد قلب الأسد، ونضيف إلى هذين المصدرين ما ورد في المجلد المتقدم وما سيرد في المجلد المقبل — إن شاء الله —، هذا ولن أتحدث عن مؤلف مصدرنا الحالي، فهذا قد ورد في مدخل الكتاب وسيرد المزيد حوله في المجلد المقبل.

وإتماماً للفائدة اخترت ثلاثة نصوص هامة جداً، كتبها بعض الحجاج الأوربيين الذين زاروا فلسطين فيما بين: ١١٠٢ و ١١٣٠م ، هذا ولدي المزيد من النصوص ستأخذ محلها في مجلدات مقبلة، والنصوص المقدمة اليوم هامة جداً، لأنه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت هناك أوضاع خاصة في فلسطين وبالقدس بالذات نراها من خلال الجغرافيين العرب، وبعض الشيء من خلال رحلة أبي بكر بن العربي صاحب العواصم من القواصم، ثم جاء الاحتلال الصليبي وأحدث الفرنجة الكثير من التغييرات، وتلا هذا حطين وتحرير القدس وإقدام صلاح على إعادة النظر بأحوال المدينة المقدسة: في تطهير المسجد الأقصى وإقامة بيمارستان ومدرسة مع منشآت أخرى.

ومن هنا تنبع أهمية هذه النصوص، فضلاً عن أنها تومىء إلى ما أغفله المؤرخون، حيث واضح من خلالها أن شعب فلسطين العربي قاوم الاحتلال الصليبي بشتى السبل، وأن هذه المقاومة بلغت من الفعالية إلى درجات جعلت الفرنجة لا يرتحلون إلا على شكل جماعات محروسة، ولا يتجرأ أحد منهم على العيش، أو الظهور خارج أسوار القدس وغيرها من المدن المحتلة.

ولا شك أن القارىء الكريم سيجد المزيد من الفوائد، والله تعالى أسأل العون والسداد، وعليه جل وعلا دوماً أتوكل، والحمد لك اللهم أولاً وآخراً، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه إلى يوم الدين.

سهيل زكار

دمشق ٢/ ذي القعدة ١٤١٨هـ

٣٠/ آذار ١٩٩٨م

مدخل

توفي النبي محمد ﷺ في عام ٦٣٢م، وتمكن العرب خلال المتبقي من هذا القرن من فتح معظم العالم المعروف آنذاك، وحررت القدس في سنة ٦٣٧، وظلت العلاقات لقرابة أربعة قرون بين الحكام المسلمين والحجاج المسيحيين جيدة،حتى أن بعضهم يزعم ـ بدون توثيق ـ أن الخليفة هرون الرشيد ذهب إلى حد الاعتراف بملكية شارلمان لكنيسة القيامة، وبحمايته للمسيحيين في القدس، ولم يحدث تغيير في المعاملة حتى حلول سنة ١٠١٠، ففي تلك السنة أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان شديد التعصب، ومتهماً بعقله، على إصدار أوامر قضت أن الحماية قد سقطت، وانتهت، وأمر بهدم كنيسة القيامة.

وفي القرن الحادي عشر، عبر الغُزّ إلى خراسان، وانتزعوها بزعامة السلاجقة من أيدي أبناء دينهم، أي من أيدي الغزنويين، واحتلوا العراق ثم اجتاحوا آسيا الصغرى وسورية بما فيها فلسطين، واستولوا على القدس في سنة ١٠٧١، ولئن كان هؤلاء همجاً وعلى درجة عالية من التوحش في معاملتهم لأبناء دينهم المسلمين، فقد كانوا أكثر همجية وأشد وحشية تجاه المسيحيين الذين وقعوا في أيديهم. ودعا في سنة ١٠٩٥م البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى وقال:«إذا أردتم إنقاذ أنفسكم قاتلوا في سبيل المسيح».

ولم يحمل أيا من الشخصيات الملكية «شارة الصليب» في تلك الآونة، وكان أعلى الناس رتبة ممن انضم إلى تلك الحملة هو غودفري دي بويلون. ومن بين جميع الوحدات التي زحفت في الحملة الأولى، وحدته فقط هي التي لم تعان من مأساة قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة،

واستولى بلدوين أخو غودفري سنة ١٠٩٨م، على مدينة الرها، كما وتم الاستيلاء الصليبي على أنطاكية في السنة التالية،واقتحم الصليبيون القدس في سنة ١٠٩٩، وهكذا كانت هذه الحملة أنجح الحملات الصليبية جميعاً، ونجم عنها تأسيس المملكة اللاتينية في القدس، التي امتد سلطانها على الفرنجة حتى مدينة الرها، بما في ذلك إمارة أنطاكية مع كونتيتي طرابلس والرها.

وانتخب غودفري ملكاً، غير أنه رفض أن يلبس التاج الذهبي حيث لبس يسوع تاجاً من شوك، وآثر عدم استخدام أي لقب أعلى من لقب «كونت»، وجرى بناء القلاع لحماية المملكة، وشحنت هذه القلاع بجنود انتموا إلى الرهبانيات العسكرية،التي حصلت على العون من المقاتلين المؤقتين من بين الحجاج من أوربا، وتأثر الصليبيون الذين مكثوا بشكل دائم في المملكة بالسكان المحليين، وأصبحوا بسرعة الأشبه بأهل المشرق.

واستولى في سنة ١١٤٤م، زنكي أتابك الموصل، على الرها، مما دفع برنارد أوف كليرفو للتبشير بالحملة الصليبية الثانية، وتطوع كل من لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا لقيادتها، وكادا بعد كثير من المشاكل أن يستوليا على دمشق، غير أنهما أعيقا بعدد كبير من المعيقات ولقيا مقاومة فعالة، وفي سنة ١١٤٩، عاد الأحياء الذي بقوا من هذه الحملة إلى أوطانهم.

ويحكى أنه عندما هددت دمشق من قبل الصليبيين، عاش في تلك المدينة فتى كان في حوالي العاشرة من عمره، وكان ابناً لواحد من ضباط زنكي، الذي كان من أصل كردي، واسمه أيوب، وولد الفتى لدى توجه أسرته من العراق إلى الجزيرة، وكان ذلك سنة ١١٣٨، وكان اسمه يوسف غير أنه شهر أكثر بلقبه وهو «صلاح الدين» فهكذا عرفه الصليبيون، وقد نشأ هذا الفتى في سورية، وبات صاحب أشهر اسم في تاريخ الصليبيين كله.

واصطرعت القبائل التركية مع القبائل العربية التي قُهرت من قبلهم، بشكل متواصل، ويعو الفضل في استمرار المملكة اللاتينية حية في القدس لمدة طويلة معتبرة في وسط الجسم الإسلامي، بالدرجة الأولى إلى أنها كانت القوة الوحيدة الموحدة في المنطقة، وقد تحالفت من وقت إلى آخر مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة ضد الأتراك، وبات واضحاً أكثر فأكثر عندما وصل صلاح الدين إلى سن الرجولة أن المشرق الإسلامي إذا لم يتحد سيزول من الوجود، وقرر صلاح الدين وجوب توحده، ولقد كان هو الرجل الأكثر موائمة للوصول إلى هذه الغاية وتحقيق الوحدة.

وكان حاكم بلاد الشام آنذاك هو نور الدين بن زنكي، وفي سنة ١١٦٤، بعث نور الدين بشيركوه عم صلاح الدين إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان صلاح الدين وقتها في السادسة والعشرين من عمره، وقد ذهب برفقة عمه بمثابة مساعد له ونائب، وعندما توفي شيركوه خلفه صلاح الدين، وقد قبل نور الدين بحلوله محل عمه، وكانت النتائج مرضية جداً، فعندما كان الخليفة الفاطمي في سنة ١١٧١ يحتضر كان صلاح الدين هو وزير مصر وحاكمها، وكانت سورية ومصر موحدتان في دولة واحدة.

وإثر وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤، اضطربت الأوضاع في سورية، واضطر الفتى الصالح اسماعيل وريث نور الدين إلى مغادرة دمشق إلى حلب، فجاء صلاح الدين فضبط البلاد ووسع ممتلكاته حتى حلب، وتمكن في السنوات التالية من الاستيلاء على حلب نفسها، وهكذا بات سلطان مصر والشام، وفي العامين التاليين مدّ صلاح الدين سلطانه إلى ما بعد الفرات، ووحد المشرق الإسلامي تحت رايته. وأمضى الحقبة ما بين ١١٨٠ و ١١٨٤ بالحرب ضد المملكة اللاتينية، ووقع في السنة الأخيرة معها هدنة مدتها أربع سنوات، وخرقت هذه الهدنة وتعطلت سنة ١١٨٦ من قبل أرناط (رينودي شاتيلون حاكم أنطاكية، ثم

صاحب الكرك)، وهكـذا امتلك صلاح الدين المسوغ لإعـلان الجهاد من أجل طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة، ولـدمج ممتلكاتهم داخل دولته الكبرى؛ ومـع هذه النقطـة بدأ المؤرخ حـديثـه، أي مع الغـزوة الناجحـة لصلاح الـدين ضـد مملكة القدس، فهنـا تكمن بـداية الحملـة الصليبية الثالثة، وعندمـا انتهت هذه الحملة بهدنة ٢ـ أيلـول ١١٩٢، وعلى الرغم من جهود رتشارد الأول ملك انكلترا، كـان صلاح قد أزال مملكة القدس من الـوجود، ووحـد المشرق الإسلامـي، لكن نصره الشخصي عـاش لمدة وجيـزة لأنـه مـات في دمشـق في ٤ـــ آذار ١١٩٣، وهـو في الخامسـة والخمسين من عمره.

وكان صلاح الديـن أنبل الحكام المسلمين وأقدر القادة الذيـن توجب على الصليبيين القتـال ضـدهم، وكـانـت إنسـانيتـه وفـروسيته مـدهشـة واستثنائيـة في عصر العنف الـذي عاشـه، ومثل دومـا بأخـلاقه وسلـوكه وتصرفاتـه أرقى النماذج المثـالية التي بشرت فيهـا الديـانة التـي آمن بها، ومع أنـه كان في بعض لحظات الضيـق من الصليبيين كان يقول: دعـونا نزيل الهواء الذي يتنفسونه، لقـد عامل أسراه من الصليبيين بشكل أفضل بكثير مما عامل به الصليبيـون أسراهم من المسلمين، ومجد المرأة واحترمها، وحمى الضعيف، وعبر عـن إعجابه بشجاعـة عدوه، ولقد نظر هـو والملك رتشارد إلى بعضهما نظرة عالية وقـدرا بعضهما بعضاً، وكان من الممكن في أوقات سعيدة أن يكونا صديقين متقاربين.

ويـرى بعضهم أن رتشـارد كـان جنديـاً متفـوقـاً على الجندي صـلاح الدين، لكن صلاح الدين كان قـائداً أعظـم، اعتمد على ما بثته قيادته في نفوس رجالاته، وعلى مـا قام به من توحيد للمسلمين، ومـن ثم ايمانه أن هذا سيحقق النصر لعسـاكره في القتال، وهو لم يتعلم كيف ينظـم جيوشه بشكل صحيـح، وهكذا لم تكـن هذه الجيـوش قط أكثـر من حشـود غير منظمة لكـن شجاعـة ومتحمسة، ونادراً مـا قاد هو قـواته شخصيـاً أثناء

القتـال، بمباشرة الحرب بنفسـه على رأس الصفـوف، وليـس مـرد هـذا لافتقاره إلى الشجـاعة، فقـد كان شجـاعاً، بـل لأنه رأى أنـه ليس مـن واجـب السلطـان مبـاشرة الحرب شخصياً، بـل إدارة المعـركـة والإشراف عليها، وكـان في الواقع، كما أشار مـؤرخنا، قد وجه النقـد إلى تهور رتشارد وإصراره على أن يكون الأول في سـاحة الـوغى،وصحيـح أنه تفـوق كثيراً على رتشارد كرجل دولة، لكنـه افتقر إلى الحزم، ولم يكن عبقرياً في الإدارة، ولذلك توزعت دولته الكبرى بين أقربائه ورجاله إثر موته.

وكان رتشارد أصغـر سناً من خصمه الكبير بتسع عشرة سنـة، ذلك أنه ولد سنـة ١١٥٧، لكل مـن هنري الثـاني واليانـور الأكوتـانية، وفي سنـة ١١٧٣ كـان رتشارد مـع اثنين مـن إخوانـه في حـرب ضـد أبيهم، لكـن الرجـل مالبث أن تصالـح مع والده سنـة١١٧٥، ثم رفض تقديـم الولاء إلى أخيه الأكبر هنـري، وأعقب هذا نشـوب حرب بين الأخويـن، انتهت بـوفـاة هنري في سنـة ١١٨٣، واقترح وقتهـا وجـوب تنازل رتشـارد عـن أكوتين لصـالح أخيه الأصغر جـون، وأدى هذا إلى نشوب حـرب أخرى، طلب خـلالها رتشارد العـون من فيليب ملـك فرنسا ضـد كل مـن أخيه وأبيه، وحدث في هـذه الآونة أن قدم رتشارد الولاء لفيليب عـن ممتلكاته في القارة الأوربيـة، وبعدها هـزم رتشارد والده، وأرغمـه على الاعتراف به ولياً لعهده وخليفة له.

وأدت وفاة هنري الثاني، واعتـلاء رتشارد العرش إلى الخلاف بين الملك الجديد لانكلترا وبين صديقه المتقدم فيليـب، وامتلك المؤرخ (الذي كان رتشارد بنظره دومـاً كاملاً ولايمكن أن يقترف الخطأ) كثيراً مـن التفاصيل ليرويها حول تطـور هذا الصراع، وعنـدما كـان رتشارد في حـوالي الرابعـة والثلاثين مـن عمره، قام بالمشـاركة بالحملـة الصليبية الثالثة، وتعـد هذه المشـاركة القسـم الوحيـد في تاريـخ حياتـه وأعماله الـذي أكسبه حسـن السمعة والمكانة.

ولم يسبق لرجل انكليزي، أن عدّ مملكته مجرد مصدر للمال لينفق على مطامحه العظمى، وكان ما سعى إليه من استخلاص القدس من المسلمين،مع طرائقه في استخراج المال من رعاياه، بلا رحمة قد سبب كثيراً من المعاناة والمصاعب، وعندما أثنى المؤرخ على كرم رتشارد نحو ضيوفه، وإنفاقه بسخاء على الحملة الصليبية، ينبغي ألا ينسينا فعله هذا دافع الضرائب الذي استخرجت منه الأموال.

ورأت انكلترا خلال السنوات العشرالتي حكمها فيها رتشارد، هذ الملك لعدة أشهر فقط، وفي الحقيقة لقد حكمت بشكل أفضل أثناء غيابه (فيما عدا الاضطرابات التي سببها أخوه جون، الملك المستقبلي) مما لو كان حاضراً، لأن المستشارين من الكنيسة والدولة الذين رست السلطة في أيديهم، بذلوا أفضل جهودهم للحكم بشكل جيد، تبعاً لمعطيات أيامهم.

حتى عندما عاد الملك رتشارد من الحملة الصليبية، أمضى عدة أسابيع قليلة في انكلترا، فقد كان اهتمامه أعلى بممتلكاته في القارة الأوربية، وبحروبه الصغيرة مع فيليب وجيرانه، وهناك لدى المؤرخ إشارات كثيرة لاستخدام الزنبورك، أو القوس العقار، الذي كان للتو قد جرى استخدامه، ذلك أن القوس الطويل لم يكن قد عرف بعد بين الأسلحة الانكليزية، وكان رتشارد نفسه بارعاً باستخدام الزنبورك، ولقد استخدم هذا السلاح الجديد بتأثيركبير وفعالية في معاركه الفلسطينية، وحدث أنه من جراء إصابته برمية من قوس عقار قد توفي لدى حصار كالو Chalus في نيسان عام ١١٩٩،وكان عمره وقتها اثنتان وأربعين سنة.

وكان رتشارد رجل عصره، كرس نفسه عن إيمان لتحرير الأماكن المقدسة، ومع ذلك كان خسيساً دنيئاً وبلا قيم، عندما كان مثل هذا السلوك يوصله إلى غاياته، وكان بخيلاً قذراً وخائناً، أو نبيلاً فارساً،

وتعلق ذلك كله بعواطفه وأحواله في ساعة من الساعات، وكانت ثقافته عالية جداً،ولكن شاردة متقلبة الأطوار مثل صاحبها، وكان من الممكن أن يجهش بالبكاء أثناء انفعاله لدى سماعه الموسيقى، التي أحبها وأغرم بها إلى أبعد الحدود، ومع ذلك امتلك عاطفة مماثلة وتعطشاً أعظم للقتل وللقتال، فهذا الرجل الذي يقال بأنه تولى ترقية ابن أخي صلاح الدين إلى مرتبة الفروسية بيده نفسه، أمر بتنفيذ مذبحة عكا، لا بل باشر قتل الأسرى بنفسه، ونادراً ما عاد من حملة ومعه أقل من عشرة رؤوس بشرية إلى اثني عشر رأساً قد علقها من أطراف سرج حصانه كبرهان على بسالته وقدراته الخارقة.

وجعلته رعونته وطباعه العنيفة حليفاً من الصعب جداً تحمله، لكن بلاريب كان أقدر جندي في أيامه، وكسبت تكتيكاته في الأراضي المقدسة إعجاب العدو والصديق، وكان على السواء معلماً سيداً في كل من حرب حصار المدن وفي معارك الالتحام، وكان شخصياً لا يعرف الخوف تماماً، وغالباً ما غامر بنفسه حيث خاف جنوده من اللحاق به، وجعلته قوته الجسدية وبراعته في استخدام جميع أنواع الأسلحة المقاتل الأكثر إرعاباً ممن وجد على كلا الطرفين، وشهر بتفوقه على جنوده أثناء الساعات الحرجة والعمل الصعب، بقدر ما تفوق بشهرته على القادة الآخرين في التكتيك. .

وكان في أثناء حياته، وبعد مماته بوقت البطل الأثير جداً لدى الشعراء المتجولين والرومانسيين، ذلك أنه لم يكتف بايثارهم وحبهم كثيراً، بل إنه عدّ نفسه واحداً منهم، وكان يسر إذا نظر إليه على أنه واحداً منهم، وتمتع بدون سبب في إظهار غنائه وصوته الجميل على القيثارة من نظمه الخاص، وفي الحقيقة لقد بقي عبر القرون شخصية زير النساء وموضع الإعجاب، وهكذا استمر الحال حتى أن السير وولتر سكوت قدمه في سنة ١٨٢٥ بمثابة بطل رومانسي في «الطلسم»، وهي رواية قادت إلى إحياء

شعبيته في القرن التاسع عشر بين أوساط الشعراء والرومانسيين.

وكانت الحملة الصليبية الثالثة آخر محاولة قامت بها المسيحية الموحدة، ومع موت كل من بطلي المسيحية والإسلام، أخذت حرارة الروح الصليبية تغدو مع الأيام أكثر ضعفاً حتى جاء الوقت الذي انطفئت فيه تماماً.

وأرغم أباطرة بيزنطة على إقامة الصداقة مع جيرانهم الأتراك، وهكذا أصبحوا موضع شك لدى بني دينهم المسيحيين، ونجم عن ذلك تعمق الانشقاق، وعلى ذلك لم تكن الحملة الصليبية الرابعة لعام ١٢٠٣، صليبية على الإطلاق، بل كانت حملة ضد القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وقادت إلى إقامة الامبراطورية اللاتينية التي عاشت خلال نصف القرن المقبل، وجرى أثناء الحملة الخامسة التي استمرت من ١٢١٨ إلى ١٢٢١، الاستيلاء على مدينة دمياط في مصر، لكنها أخفقت في تحقيق أي تقدم أكثر، وكان الصليبيون سعداء في الموافقة على عقد معاهدة سلام لمدة ثمانية أعوام؛ وتمكن فردريك الثاني الألماني في الحملة الصليبية السادسة من الحصول على القدس، بوساطة المباحثات، وتتوج ملكاً في سنة ١٢٢٩، لكي يتعرض لغضب البابا غريغوري التاسع لأنه توصل إلى التصالح مع المسلمين، وفي سنة ١٢٤٤ ساعد الغزاة الخوارزمية الذين اجتاحوا آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام، على استرداد القدس.

وقاد في سنة ١٢٤٩ لويس التاسع ـ القديس لويس ـ ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة ضد مصر، لتكون مقدمة لتحرير الأراضي المقدسة، لكنه هزم ووقع أسيراً في المنصورة مع الجزء الأكبر من جيشه، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما دفع فدية كبيرة جداً، ثم أقلع في سنة ١٢٧٠ في الحملة الصليبية الثامنة، لكنه لم يتجاوز مدينة قرطاج (تونس) حيث توفي، وتولى إثر ذلك الأمير إدوارد الانكليزي القيادة، ووصل إلى فلسطين، واستولى على عكا، لكنه أدرك في سنة ١٢٧٢، أنه لا أمل من حملته، فعاد

إلى وطنه بعدما أعد اتفاقية هدنة لمدة عشر سنوات.

وثابر في السنوات العشرين التالية فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية على الاحتفاظ بعكا وصور وبعدد قليل من الحصون في فلسطين،لكن لم تُبذل أية محاولات جديدة جادة لاسترداد الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا بأيدي المسلمين في سنة ١٢٩١، حيث تبعها بسرعة استسلام صور مع بقية الممتلكات الصليبية.

وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة التجارة وتبادل المؤثرات بين الشرق والغرب، وكان تبادل الأفكار هاماً، لأن النظرة الضيقة لكلا الجانبين قد توسعت كثيراً، فالناس الذين عادوا من الحملات الصليبية جلبوا معهم إلى أوربا أنواعاً من الأطعمة والتوابل لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في الغرب،وذلك بالإضافة إلى معدات مفيدة وآلات تراوحت فيما بين الطواحين الهوائية إلى السجاد، وظهر السجاد في أوربا في القرن الثاني عشر، واستخدم في البداية لتغطية المناضد والموائد، وذلك قبل أن يتحول الاستخدام إلى تغطية الأرض، وارتفع مستوى المعيشة في أوربا، وبالإضافة إلى ذلك توفر عطاء دائم لاحترام متبادل، لأن المسيحيين والمسلمين أظهروا أفقاً واسعاً واستمرارية وصبراً في الصراع المرير، وهي سمات قدرها المتصارعون على ساحات القتال تقديراً عالياً.

إن كاتب التاريخ رجل مجهول، وبناء على معطيات المخطوطة، ساد اعتقاد أنه كان غيوفري دي فنسوف Vinsauf، لكن اكتشف في ١٨٧٣ م.غاستون الباريسي أن النص موجود شعراً، وقد ترجم من النورماندية الفرنسية إلى اللاتينية الوسيطة في شعر ثماني المقاطع منسوب إلى أمبرويز Ambroise، وهو شاعر جوال نورماندي رافق الملك رتشارد وذهب معه إلى الحملة الثالثة، وعرف العمل الأصلي باسم Carmen Ambroisii، والترجمة الشعرية باسم «رحلة حج وأعمال الملك رتشارد»، وتعرف الآن باسم «صليبية رتشارد قلب الأسد».

وهذا التاريخ أفضل مصدر حول الحملة الصليبية الثالثة، علماً بأن كل أمة اشتركت في هذه الحملة توفر لديها مؤرخوها .

-وقال نيكولاس تريفي Nicolais Trivet وهو كاتب فرنسيسكاني كان في أوائل القرن الرابع عشر، بأن شماساً كان هنا اسمه رتشارد من الثالوث المقدس في لندن قد كتب «رحلة هذا الملك [رتشارد الأول] نثراً وشعراً»، ونقل نصوصاً من التاريخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون رتشارد الثالوث المقدس هذا هو «رتشارد دي تمبلو»، الذي انتخب رئيساً للثالوث المقدس في سنة ١٢٢٢، والذي توفي في حوالي سنة ١٢٥٠، ولا يستبعد أن تكون «دي تمبلو» هي كنيته، وأن معناها هو أنه كان من الداوية Templar، ولعله كان شماساً في تلك المنظمة ولم يكن فارساً.

وهناك خلافان صغيران بين نصي الشعر والنثر، وقد يكونان مهمان، فلقد جرى في الشعر استخدام الشخص الأول مفرداً، واستخدم في النثر الشخص الأول جمعاً، وإذا صح أن دي تمبلو قد ترجم بالفعل الكتاب، لعله استخدم لغة الجمع ليضم نفسه، على أساس أنه هو نفسه خدم في الحملة الصليبية الثالثة، وتتضمن هذه الفرضية بحقيقة، أنه في الوقت الذي نجد فيه معظم الكتاب عبارة عن ترجمة قريبة جداً، نلاحظ وجود بعض الإضافات الصغيرة أضيفت إلى القسم الأول الذي عالج الأحداث في فلسطين قبل وصول رتشارد، وفي إحدى الفقرات يقول الكاتب: «لكم توقعنا وصول الملك وانتظرناه بقلق وشوق»، ويومىء هذا إلى أنه كان في عكا قبل وصول كل من فيليب ورتشارد، ومع هذا كتب ما أشار به إلى أنه كان في أسطول رتشارد أثناء الرحلة إلى عكا، ولعل المسألة مردها إلى تحريف صدر عن المترجم، أو إقحام جملة من قبله.

ولقد اعتقد بعضهم أن أمبرويز ربما، هو الذي كتب نصي الشعر والنثر، وأن نيكولاس تريفي أخطأ في عزو الكتاب إلى رتشارد، في حين أن الصحيح هو التأكيد أن الكاتب نفسه كان المسؤول عن النصين،

لكـن يبـدو أن هذا أقـل احتمالاً مـن القـول أنهما ترجما مـن قبـل مترجمين مختلفين، وعلى كل حـال من غير الممكـن تأكيد هـوية شخصيـة المؤلـف، وستبقى المسألة موضع شك.

وفي ضـوء تكـريـس المؤلـف نفسـه بشكـل مطلـق للملـك رتشـارد، وملاحظـاته حـول سلوك الايرل جـون، حينما كان في فلسطين، يبـدو من المشكوك فيـه أن يقدم على المغامـرة بالظهور في البـلاط عندما كـان جون ملكـاً، لهذا مـن المستبعد أن يكـون الكـاتـب الأصيـل للشعر هـو أيضـاً الكاتـب لدى الملك جون، والـذي حمل الاسم نفسه، وهو الـذي دفع في ٢ـــ تشرين أول سنـة ١٢٠٠، شلنا واحـداً، من أجـل غناء تـرتيلة أثنـاء تتويج الملك جون.

وقد طبعت منتخبات من هذا التاريـخ في هانوفر سنة ١٦١١ من قبل جاكـو بونغـار Jacques Bongars في كتابـه «أعمال الفرنجـة»، ونشر للمرة الأولى كامـلاً في سنة ١٦٨٧ من قبل غيـل وفيل Gall+ Fell في «مجمـوعهما»، وأعيدت طبـاعة النـص الـلاتيني في سنـة ١٨٦٤ من قبـل و.ستب W.stubbs ، في الجزء الأول من كتـاب «تواريخ ومـــذكرات حكم رتشارد الأول»، وتقدم على هذه الطبعة نشر ترجمة انكليزية لا نعرف صاحبها لصالح مكتبة بوهن أنتيكواريان Bohn Antiquarian وكانت قـد نشرت سنة ١٨٤٨، وجـرت الإفادة مـن هذه الترجمة كثيراً في عملنـا هذا.

كتاب
حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

نحن الذين نعالج تاريخ القدس

جديرون بالتصديق حقا، لأننا أوردنا مارأيناه

ودوّنا بالقلم هذه الأعمال بينما ماتزال ذاكرتنا واعية لها. وإذا ما أراد قارىء متشدد اسلوباً

أكثر رشاقة، عليه أن يتذكر أننا كتبنا عندما كنا

بالمعسكر، ولم يسمح لنا ضجيج الحرب بالهدوء والتفكير العميق.

كيف هاجم صلاح الدين فلسطين

في سنة ١١٨٧ لتجسيد كلمة ربنا، عندما كان أوربان الثالث يرأس حكومة الكرسي الرسولي، وفردريك الأول امبراطورا لألمانيا، واسحق الثاني يحكم في القسطنطينية، وفيليب الثاني في فرنسا، وهنري الثاني في انكلترا، ووليم الثاني في صقلية، وقعت يد الرب بثقل فوق شعبه، إذا صح أن ندعو هؤلاء «شعبه»، لأن دنس حياتهم، وعاداتهم، وبشاعة شرورهم، قد أبعدتهم عن إحسانه، لقد غدت آثامهم واضحة إلى حد أنهم جميعاً (رموا جانبا برقع الحياء) وانغمسوا كلياً، في وضح النهار في حمأة ذنوبهم.

وسيكون عملاً طويلاً، لايتوافق مع هدفنا الحالي، أن نكشف مشاهد الدم، والسرقة والزنا التي لطختهم (إن عملي الحالي تاريخ وليس رسالة في الأخلاق)، ولكن عندما نشر عدونا القديم قرباً وبعداً، روح الفساد، استولى أكثر بشكل خاص على أراضي سورية وفلسطين، وهكذا أخذت الأمم الأخرى الآن تنهل الدنس من المنهل نفسه الذي زودهم من قبل بعناصر الديانة، فهذا ما جعل الرب، وقد رأى أرض ميلاده، وشهد مكان آلامه، قد سقط في حمأة الموبقات عامل باهمال ورثته، وجعل من صلاح الدين عصا عذابه، وصب غضبه في سبيل تدمير ذلك الشعب العنيد، لأنه بالحري كان يؤثر بأن تصبح أرضه خاضعة لوقت قصير للطقوس الدنسة للكفار على أن تبقى في حوزة أناس ليس لديهم تقدير لما هو صحيح ولما يحول دون الأخذ بالأشياء غير الشرعية.

وبناء عليه قام صلاح الدين بعدما حشد وحدات مقاتليه، بالهجوم بكل عنف على فلسطين، وبعث أمامه أمير الرها مع سبعة آلاف من الترك للقيام بالعيث فساداً في الأرض المقدسة، وبعد ما زحف هذا

الـرجـل بعيـداً حتـى الأمـاكـن مـن حـول طبريـة اصطـدم بجيرارد دي ردفـورت، مقدم الـداوية، وروجـردي مولين مقـدم الاسبتاريـة، وقد هـزم هزيمة ساحقة واحداً منهما، وقتل الثاني في هجوم مفاجىء.

وعُزل في هـذه المعركة (١ــ أيار ١١٨٧) عـدد من جنودنـا وحوصروا من قبل حشـد كبير مما أدى إلى تحقق واقعة تستحق التدويـن: كان هناك فارسـاً من الداويـة، من أصل ألماني اسمـه جاكويـن دي ميللي، استطاع بشجاعتـه المفرطة أن يحول هجـوم الأعداء ضده، فقـد كان أصحابـه من الجنـود، وعددهـم نحـو خمسمائة، قد وقعـوا إمـا بـالأسر أو قتلوا، وصمـد وحده يتحمل ثقـل المعركة كلها، فلقـد كان بطلاً حقيقياً لشريعـة الرب، وأخيراً طوق تمامـاً من قبل عساكـر الأعداء، وافتقر إلى المساعـدة البشرية، وعندمـا رأى الآلاف المؤلفة تندفـع نحوه من كـل جانب، جمع شجـاعته كلها وواجه بـإقدام العدو وحده، وجـذبت شجاعته اعجـاب الأعداء، فامتلأوا بالعطف عليه، ودعـوه باخلاص إلى الاستسلام، غير أنه واجههم بأذن صماء ولم يستجـب لما رغبوه به، ولم يكـن خائفاً مـن الموت في سبيل المسيـح (وبعد مـا أثقـل بحمـل النشاب، والحجـارة، والحراب، استمـر يقاوم ولم يسقـط) غير أنه وبعد مصاعـب جمة قتل، وتحول موته بـالحقيقة إلى مجد وفخـار، لأنه استطـاع بسيف واحـد أن يحيـط نفسه بـأكوام مـن القتلى.

وسرّ صلاح الـدين بهذا النصر سروراً عظيماً، وحوّل ذهنـه نحو أفـاعيل أعظـم، فبعدمـا استنهـض جميـع القوى في مملكتـه، هـاجـم بقوة وجـرأة أراضي القدس، وعلى مسـافة قصيرة من طبرية، وفي مكـان اسمه حطين، امتحن الرب شعبه بالسيف، وجـرح الكثيرين، وألقيت أعداد كبيرة جداً بالسجن، حتى أن تدمير شعبنا استدر عطف أعدائهم.

وتـمّ الاستيـلاء على صليـب الصلبـوت، الـذي صلـب عليـه ربنـا ومخلصنـا، ولـوث بـأيـدي غير المؤمنين، ولقد سقـط حـامـلاه معـه وهما:

أسقف عكا، وأسقف القديس جرجس (اللد)، فقد قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً.

لقد جرى أسر ملك القدس وصليب الصلبوت معا، وتم حفظ شطر من الأسرى دون أن يلحقهم أذى، ليوضعوا تحت تصرف المنتصر، ولاقى شطر مصيره بالسيف، وكان بين هؤلاء أرناط، أمير أنطاكية، وقد اقتيد أولاً إلى حضرة السلطان، وقام ذلك الطاغية فقطع رأس ذلك الشيخ بيده، وذلك بسبب شدة تعصبه أو حسداً منه وغيرة من هذا الرجل العظيم، وأمر أيضاً بإعدام جميع أسرى الداوية، ولم يوفر سوى مقدمهم، فقد امتلك رغبة في محق هؤلاء الذين تميزوا عن سواهم بالشجاعة اثناء القتال.

وعندما خمدت أصوات المعركة، رفع صلاح الدين عينيه نحو السماء، وقدم الشكر لله على النصر الذي ناله، ولقد قيل أنه قال: نحن لم ننتصر بقوتنا، لكن ذنوبهم أسلمتهم إلينا فانتصرنا، وهكذا تلاشى بلحظة واحدة مجد مملكة القدس كله، وزال عنها وخمد، ونال المصير نفسه حشد قوات المملكة كلها، فقد جمعها الملك تحت إمرته في سبيل المعركة الحاسمة، وبقي فقط يتولى حراسة المدن والقلاع، الضعفاء والنساء، والشيوخ، والذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح.

وكان السلطان واثقاً أن قلاع المملكة ستسقط له بسهولة (بعد ما تم قتل المدافعين عنها)، ولهذا حمل معه الملك الأسير في موكب نصر، لعرضه أمام المدن التي رغب بالاستيلاء عليها، مستهدفاً بذلك ارغامها على الاستسلام، وقد زحف أولاً إلى عكا، واستولى عليها دونما جهد، وسمح لسكانها بالمغادرة، والسفر إلى حيث أرادوا ومعهم كل مقتنياتهم.

وحدث في الوقت نفسه أن البحارة منا، كانوا يتابعون رحلاتهم المعتادة نحو عكا، قادمين من البلدان المسيحية، وكان بعضهم محملاً

بالبضائع التجارية، وبعضهم الآخر بالحجاج، وباللأسف لم يكونوا قد سمعوا بما حدث، ولهذا دخلوا إلى الميناء المعادي ووقعوا أسرى.

وكان المركيز كونراد أوف مونت فرّات، بين آخرين، في طريقه من القسطنطينية، وقد رمى مراسيه خارج ميناء عكا، وكان الوقت يومها عند غروب الشمس، لذلك بقي حيث هو حتى الصباح، وقد أوجد الهدوء الذي لف المدينة في نفسه الريبة، حيث جرت العادة في غير ذلك من الأوقات بقيام صراخ عام وصيحات التهنئة بالقدوم، عندما يظهر أي مركب، كما أن رنوك وشعارات السلطان التي رؤيت في مختلف أجزاء المدينة قدمت السبب لمزيد من الخشية، وشوهد بالوقت نفسه قدوم عدد من المراكب الاسلامية واقترابها، وهذا ما أنذر الملاحين والبحارة، فأمرهم المركيز بلزوم الصمت وانتصب واقفاً وتقدم ليتحدث باسمهم، وعندما سأله المسلمون من هو ومن معه، أجابهم، أن سفينتهم تجارية، وهو مقدمها، وأنه قد سمع بما حدث، وبما أنه عبد مخلص للسلطان، سينتظر حتى انبلاج الفجر ثم يقوم بالنهار بعرض بضائعه.

وجاءت في تلك الليلة ريح طيبة مواتية، وأبحر إلى صور، وتولى هناك مهام الدفاع عنها.

وحدث بعد الاستيلاء على عكا أن استسلمت بيروت وصيدا، وتوقع السلطان أن يأخذ صور بالسهولة نفسها، لكنه رد عن أسوارها بشكل مهين، فقام برفع الحصار، وحمل معه ملك القدس وتوجه من هناك إلى عسقلان، ونصب مجانيقه وآلات حربه لرميها بالحجارة، ثم بدأ بالهجوم عليها.

وطبعاً كان من السهل الاستيلاء عليها نظراً لأن الحامية المدافعة عنها كانت ضعيفة، وذلك على الرغم من أن دفاعاتها قد أظهرتها قوية جداً لاترام، وأنها مشحونة بما يكفيها من جند، وكان المهاجم المتلهف،

متشوقاً للاستيلاء على هذه المدينة قبل كل شيء. ثم إنه لم يكن يثق تماماً بقدراته للاستيلاء عليها عنوة، لأنه لم يكن على بينة بأحوالها وراء الأسوار، ولا كيف أنها كانت تعاني من نقص بالسلاح، والرجال والطعام، ولذلك وافق على شروط استسلامها، التي قضت بأن يسمح لسكانها بالمغادرة بكل حرية وبحمل جميع ممتلكاتهم، وأن يجري اطلاق سراح ملك القدس مع خمسين آخرين من أعيان الأسرى، بأقصى سرعة ممكنة.

ولقد بات الآن أمر سقوط القدس محتوماً، وقام المنتصر بالزحف نحوها بسرعة عظمى لايوازيها سوى كراهيته، وباشر بحصار المدينة، وأنشأ آلات الحرب، ولوث الأماكن المقدسة بأعمال آثمة تدل على عدم الاحترام، وحاول سكان المدينة الدفاع عنها بقدر ما كانوا يستطيعون، غير أن جميع جهود رجالنا كانت بلا فعالية، فقد استخدموا النشاب والحراب والرماح وغير ذلك بدون فائدة، لأن الرب كان غاضباً، وسقوط المدينة أمراً تقرر.

وكانت أعداد كبيرة من الناس قد تدفقت معا على المدينة، واضعة ثقتها بقداسة المكان، أكثر منها بقوة دفاعاته، وكان من المستحيل أن يجد المرء في وسط هذه الحشود العظيمة أربعة عشر فارساً، وقام الكهنة ورجال الدين بتولي أعمال الجند (مع أن ذلك كان معاكسا لاختصاصهم)، وذلك بموجب حالة الطوارىء، وقاتلوا بشجاعة في سبيل بيت الرب، غير أن السكان، وكانوا جهلة ومرعوبين، فتجمهروا حول البطريرك والملكة، اللذان خلفا في موقع المسؤولية عن المدينة، واشتكوا بمرارة، وأعلنوا بصدق أنهم ربما سيطلبون من السلطان منحهم شروط استسلام.

وأخذت المدينة، وتجاوزت تكبيرات المسلمين قمة الصخرة المقدسة، ونشروا هناك شريعتهم الزائفة، لقد نشروها في المكان الذي ذاق فيه المسيح طعم الموت على الصليب، وقام الأعداء بعمل مغيظ آخر: فلقد

- ٨١١ -

ربطوا حبالاً حول صليب، كان موضوعاً فوق قبة كنيسة الاسبتارية (المسجد الأقصى) وسحبوه إلى الأرض، حيث بصقوا عليه، ودحرجوه، وجروه — استهانة بعقيدتنا — وسط جميع قاذورات المدينة.

حصار عكا

أطلق سراح غي لوزغنان، ملك القدس، من قبل صلاح الدين، بعد ما أمضى سنة بالأسر، وذلك بعدما أعطى مواثيق مشددة أنه سيتولى التخلي عن المملكة، وسيغادر البلاد نافيا نفسه إلى ماوراء البحار في القريب العاجل، لكن رجال الدين حللوا الملك من مواثيقه وأيمانه، لسببين : أن ما قام به كان تحت الإكراه ويستحق الشطب، ولأن جموعاً من المؤمنين كانت في طريقها إلى الأرض المقدسة، وكانت ستجد فيه الرأس والقائد.

وقام الملك بعد برهة قصيرة، بحشد جيشه، وشرع في أواخر آب، في يوم القديس أوغسطين، أي بعد عامين من الاستيلاء على عكا من قبل الترك، هناك بأعمال ذلك الحصار الطويل والصعب، والذي استغرق أكثر من عامين، وذلك قبل استسلام المدينة.

ووصلت القوات البيزية — التي اختارت السفر بالبحر لأنه أقصر وأسهل — بسفنها إلى مقربة عكا، بانتظام ، وبشجاعة استطاعت أن تحتل الساحل، وما أن أنجز البيازنة تأمين قاعدة، حتى شرعوا بأعمال الحصار من جهة البحر، بشجاعة وتصميم،ونصب الملك مع بقية جيشه خيامهم على تلة مجاورة، تدعى عموماً جبل تورون Turon استطاع منه (نظراً لارتفاعه عن الأرض) أن يراقب الطرق البرية والبحرية الموصلة إليها.

وفي اليوم الثالث الذي تلا يوم الوصول، قام المسيحيون بالهجوم على المدينة، وادراكاً منهم أنه كان من العبث انتظار تأثير أحجار المناجيق وبقية الآلات، اعتمدوا على دفاعات ترستهم فقط، وحملوا سلالم تسلق حتى يركبون بها الأسوار، وكادوا في ذلك اليوم أن يحصلوا نهاية سعيدة،

لولا خداع العدو القديم، ووصول معلومات زائفة، أحبطت انتصارهم عندما كاد أن يكتمل، فقد روي أن صلاح الدين قد بات وصوله وشيكا، ولهذا رجع رجالنا إلى المعسكر مسرعين، لكن عندما أدركوا أن الذين وصلوا مجرد قوة صغيرة جاءت قبل سواها، عبروا عن غضبهم بدلاً عن أسفهم، لأن النصر اختطف منهم.

وكان السلطان في ذلك الوقت يحاصر قلعة الشقيف في الجليل، وعندما علم بما كان يحدث، زحف مسرعاً مع جيش كبير إلى عكا، وبما أن رجالنا كانوا غير قادرين على التصدي له ومنازلته، أبقوا أنفسهم داخل حدود المنطقة المتقدم وصفها، وهاجمهم الأتراك باستمرار، في الصباح وفي المساء، وجربوا كل وسيلة للتوغل حتى قمة الهضبة، وهكذا فإن أولئك الذين جاءوا لحصار آخرين، باتوا أنفسهم الآن محاصرين.

وبينما كان رجالنا، في هذا الوضع، شاهدوا اقتراب خمسين سفينة، تحمل نجدة قوامها اثني عشر ألفاً من الرجال، وأقام هؤلاء معسكرهم فيما بين المدينة وجبل تورون، ثم صرفوا قواهم العملاقة نحو تدمير الأعداء، وبعدما ازدادت أعداد المؤمنين على هذه الصورة، تقرر بالاجماع مهاجمة المعسكر المجاور لغير المؤمنين، وكان بينهما سهل واسع، قدم رقعة جيدة لاتخاذها ساحة للمعركة.

ووقف الترك بتصميم للدفاع عن معسكرهم، لكن عندما دنا رجالنا واقتربوا فتح الرجالة (الذين كانوا بالساقة) صفوفهم، وقامت قواتنا المحمولة بالانقضاض بكل شجاعة على الأعداء، ولحقت الهزيمة بغير المؤمنين، وتخلوا عن معسكرهم، ثم إن المسيحيين توقفوا عن أعمال المطاردة، رغبة منهم في الحصول على الغنائم، وتم الاستيلاء على خيمة السلطان نفسه، واندفع بالوقت نفسه حشد كبير من الأعداء من داخل المدينة، وزحفوا من المكان الذي لم يكن محاصراً، واستمروا في سيرهم نحو الجبل بوساطة ممر خلفي، بالحقيقة زحفوا عن عمد عبر ممر دائري،

بهدف أنه بينما يكون رجالنا في حيرة لايعرفون هل يقصدون مهاجمة المعسكر أم الجيش، ربما يكون بإمكانهم الانقضاض فجأة على الجيش من المؤخرة.

وكان الداوية، الذين لم يكونوا أدنى شهرة وإيماناً من أحد، قد تمكنوا في هذا الوقت من خرق صفوف الأعداء، ولو أن بقية الجيش تابعت خلفهم في أعمال المطاردة لنالوا في ذلك اليوم حظ الانتصار بالاستيلاء على المدينة وكذلك في المعركة، لكن عندما كان الداوية في جهدهم قد ابتعدوا كثيراً وتوغلوا طويلاً في متابعة حظهم، تعرضوا فجأة للهجوم وغلبوا، وذلك من قبل أهل المدينة، مع أن انتصار الأعداء لم يتم دون قتل عدد كبير من رجالهم.

وفي جزء آخر، بينما كان الألمان مشغولين جداً بأعمال النهب، عرض المخادع القديم أمام أبصارهم حصاناً فاراً، ورأوا جمعاً من الناس يطاردونه، فافترض البقية أنهم كانوا يفرون، وحدث بهذا الحدث التافه، لكن الحاسم، أن الخوف عم وسط الجيش كله، وتوجهوا جميعاً بعقولهم نحو الفرار.

ورأى قادتنا بعد هذا الحادث، أنه من الأفضل التمنع عن أعمال القتال في السهل، وشغلوا أنفسهم في تقوية المعسكر، وأقاموا حوله سوراً من الأتربة الممزوجة بالأعشاب والنباتات، مع خنادق عميقة من البحر إلى البحر، وبذلك أصبحت المدينة مغلقة من جهتي البر والبحر، وبينما كان رجالنا مشغولين في صنع الخنادق هاجمهم الترك بشكل متواصل، على شكل حملات قامت بها فرقة تلو أخرى من الصباح حتى الليل.

وعندما طوق رجالنا عكا من جميع الجهات، بدأ سكانها يعانون من مجاعة شديدة، ذلك أنهم كانوا قد استهلكوا جميع المؤن التي كانت لديهم، ولذلك عرضوا تسليم المدينة على شرط أن يسمح لهم بالمغادرة

مع مقتنياتهم دون أن يلحقهم الأذى، ولم تقنع هذه الشروط مقدمينا الذين قرروا إما إرغامهم بوساطة التجويع على الخضوع لإرادتهم، أو أن ينالوا فخار اقتحام المدينة عنوة، لكن عندما كانوا يناقشون ببطء أمور تسليم المدينة، قام السلطان بتحميل خمسين سفينة بالرجال والمؤن والسلاح من الاسكندرية وأرسلهم لمساعدة عكا، ووصل هؤلاء مساء عيد جميع القديسين، وعندما رؤيت هذه السفن عن بعد، قال بعضهم: إن العدو بات في متناول اليد، وقال آخرون: إن نجدة جاءت لعون المسيحيين، وفيما هم في حيرة غير متأكدين، دخل الأعداء إلى المدينة، وحملوا معهم بالقوة إحدى سفننا التي وجدوها بالميناء ، ولدى تقوية المدافعين عن المدينة بالمؤن، قام هؤلاء بالضغط علينا بشجاعة أعظم.

واستمر بالوقت نفسه الجيش التركي الذي كان موجوداً خارج المدينة بحملاته المتواصلة على رجالنا الذين كانوا خلف الخنادق، وبذل المسلمون جهودهم لطم الخنادق، وأكملوا ردم بعضها برمي التراب فيها، غير أن المسيحيين وإن تعرضوا للضغط الشديد من قبل أهل المدينة من جانب ومن هجوم الجيش من الجانب الآخر حافظوا على مواقعهم برجولة، وأقاموا الحراس على الخنادق، وبذلك تمكنوا من رد الهجمات من كلا الجانبين.

واشتكى رجال العامة الآن من عدم فعالية المقدمين، ومن استمرار الانغلاق بلا فائدة، وضاقوا ذرعاً بالحصار، ولدى قيام المقدمين بتقدير الموقف، رأوا بعد بعض الوقت الذي أمضوه في معرفة ما هو الأفضل للقيام به، أنه ينبغي مهاجمة العدو في الخارج والاشتباك معه في معركة عامة، لأنه إذا ما أرغم الجيش المعادي على الانسحاب، سيكون أمر اقتحام المدينة أكثر سهولة.

وبناء عليه قام قادتنا في اليوم التالي لعيد القديس مارتن بقيادة قواتهم، وقد تعبأوا وانتظموا للقتال، وعند غروب الشمس أكملوا زحفهم

ونصبوا خيمهم، وهنا قدم سكان المدينة، ودخلوا المنطقة التي أخليت، وانقضوا على الأثقال لنهبها، لكن رجالنا استقبلوهم برجولة وأرغموهم على الفرار.

وفي تلك الليلة أمر السلطان بنقل جميع خيمه وأثقاله إلى الجبال، والذي لم يمكن نقله آنئذ أحرق، وهذا الذي حدث فيه دليل على روح مهزومة وعلى تردد، لأنه رفض القتال في المنبسط ودمر أثقاله، وتراجع إلى الجبل، وعندما عثر على بقعة لم يكن من السهل الوصول إليها، توقف ، وأرسل عدداً كبيراً من الرجالة والنبالة لإيقاف من فكر بالملاحقة من قوات العدو وصده، وبذلك بات بإمكانه من علو إغضاب هؤلاء الذين خاف من الاشتباك معهم عن قرب، وشعر رجالنا بأنهم خدعوا وأنهم لن يتمكنوا من الالتحام في معركة، وأنهم أيضاً عاجزين عن ملاحقة الأعداء عبر الطريق الصعب، لهذا حملوا أنفسهم وعادوا دون الإصابة بأضرار، ودون الحصول على المجد.

وازدادت في الوقت نفسه الحاجة إلى المؤن في جيشنا يوميا، وأضاف المناخ الحار رعباً إلى رعبهم فيما يتعلق بالمجاعة القائمة.

خبر ملكي انكلترا وفرنسا

بينما كـانـت هـذه الأمـور تحدث في فلسطين، انتشرت أخبـار في جميـع أرجاء العالم بأن مدن الأراضي المقدسـة باتت في أيدي الكفار، وأن الآثار المقدسة تعـامل بإزدراء وتداس بالأقدام. وأن المسيحيين تعـرضوا للنهب والإهانة.

وتحرك أباطرة أوروبا نتيجـة لاثارتهم من قبل البابا غـريغوري الثامن، وثار عـدد كبير من مختلف الأمم، وحمل الفـرنسيون والانكليز قبل سـواهم عن إيمان عـلامة الصليب، واستعدوا بكـل ما أوتوه من قـوة للاسراع إلى عـون الأراضي المقدسـة، وكانـت الحماسة للحـج الجديد هـائلة حيـث لم يبت السؤال: من سيحمل الصليب، بـل من لم يحمله بعد، وأرسل بعض الأشخاص إلى بعضهم هدايا تكونـت من مغزل وصوف، وذلك في إشارة إلى أن كل من رفـض المشاركة بالحملـة سينظر إليه باستخفـاف واحتقار، وكأنـه انسان قـادر على القيام بواجبـات النساء فقـط، وحثت الـزوجات أزواجهـن والأمهـات أولادهـن ليكـرسـوا نفـوسهـم لهذا الصراع النبيـل، وأسفن أن ضعفهن لكونهن نسـاء قد منعهن من الذهاب أيضـاً، وهاجر الكثيرون من بيـوتهم إلى المعسكر، واستبدلـوا معاطفهـم بالسوابـغ وتخلوا عـن تعلم الآداب إلى دراسـة العمل بـالسـلاح، وبشر رجال الكنيسـة في كنائسهـم، وبينوا محاسن التـوقف عـن شرب الخمرة، وحثوا جميـع الناس وأمروهم بالتخلي عما اعتادوا عليه من أسباب الرفاهية، وتم الاتفاق أيضاً على ضمان الحجاج الذين كانوا فقراء.

ومـع أن فـردريـك امبراطـور الألمان كـان آخـر حـاكـم تعهـد بحمـل الصليب، كـان أول من نفذ تعهده، ولكـن عندما كان على حـدود أرمينيا (كيليكيه)، وبينما خيول النقـل والأثقال تقوم بجواز نهر غـوكسو (السن)،

استعد للجواز من أقرب نقطة مـن النهر، حتى يحصل في الأمام، ويمتلك الحرية في متابعة سيره، ولكن المياه قهرته فغرق ومات.

ووصـل رجـال جيشه بعـد ضيـاع وتشرد طـويـل جداً إلى أنطـاكيـة، فأطلقوا لأنفسهم العنان في الأكل وإشباع الـرغبات، ونتيجة لذلك مات عدد كبير منهـم بسبب التخمـة المفاجئة، وهكـذا هلك العـدد الأكبر من هذا الجيش بهذه الطريقـة المعيبة، وعاد معظم الذين بقيـوا على قيد الحياة إلى بلدانهم.

وكـان رتشارد — الـذي كان وقتـذاك كـونت بـواتو — أول مـن حمل الصليب ومعه حشـد هائل من الناس، ولكنهم لم ينطلقـوا بسبب خلاف نشب فيما بين فيليـب ملك فـرنسا، وهنـري ملك انكلترا، والـد رتشارد، وكان رئيـس أساقفة صُور (الـذي حمل إلى العالم المسيحي أخبار الفـاجعة العظيمة) قـد بذل بـإخلاص جهده للمصـالحة بينهما وحدد اليـوم الذي سيلتقيان فيه لحمل الصليب.

وعزمـا في ذلك اليـوم أن يحمل كل واحـد منهما الصليب، ويغـادر من بلاده، وبـدا هذا اجـراءاً احتياطيـاً سلبياً حتى لايقـوم أي منهما بمهاجمة مملكـة الآخـر، ذلك أن أيـا منهما لـن يغـادر مـا لم يغـادر الآخر، ثـم قـام الملكـان بتبـادل قبـلات السلام وحملا الصلبـان (وتميـز كـل منهما بلـون صليبـه، فقد كـان لـون الصليـب الفرنسي الأبيـض، والانكليـزي الأحمر، والفلمنكي الأخضر)، غير أن الملك هنري مات يـوم عيد الرسولين بطرس وبولـص في سنة ١١٨٩، لتجسيـد ربنا، وفي السنـة نفسها، وبعـد موت أبيه، قام رتشـارد كونت بواتـو بعدما رتب شـؤونه في نورمانـدي، أي بعد حوالي الشهـرين من الـوفاة، بالعبـور إلى انكلترا، وكان ذلك في يـوم عيد القديس جايلز، وقد استقبل في وستمنستر بموكب تشريف احتفالي.

وبعد مضي ثلاثة أيـام، في الثالث من ايلول رسم ملكـاً وتوج من قبل

رئيس الأساقفة بلدوين، وكان أخوه جون حاضراً وقت التتويج وكذلك أمه إليانور مع عدد كبير من الكونتات والبارونات، وحشد كبير من الناس والجند، وهكذا أسندت المملكة وآلت إلى أيدي الملك رتشارد.

على هذه الصورة وفي سنة ١١٨٩، لتجسيد الرب جرى تتويج رتشارد ملكاً في يوم أحد، واحتفل بالمناسبة لمدة ثلاثة أيام، تم خلالها استقبال الضيوف في القصر الملكي في وستمنستر، وأكرم الجميع بتوزيع المال عليهم بدون عد وإحصاء، وأعطى الجميع تبعا لمراتبهم، وبذلك عبر عن كرمه وعظمته الكبيرة.

لقد امتلك شجاعة هكتور، وسموآخيل، وعادل الاسكندر (ولم يكن أقل من رولاند) في الشجاعة، وكان كرم تيتوس كرمه، و (كل شيء نادر وجد في جندي كان فيه)، وكان مفوها له فصاحة نستور وحكمة يوليسيس Ulsses وعبر عن نفسه وأظهر عظمتها في أثناء تنفيذ الأعمال، وجعله النجاح أكثر موائمة للعمل، لأن الزمان يرعى دوماً الجريء، ومع أنه كان يظهر سروره ممن يريد ويضفي بهجته على من يحب، لم يعان رتشارد قط من الهزيمة بالمتاعب والخصومات.

فلقد كان طويل القوام، جميل المحيا، بشعر ما بين الأحمر والخرنوبي،، وكانت أطرافه مستقيمة ومرنه، وامتلك ذراعين أقرب إلى الطول، لايمكن موازاتهما في العمل بالسيف أو الضرب به، وتناسب طول رجلاه مع باقي بنيته، وفي الوقت الذي كان مظهره أخاذا وفيه جلالة، وأخلاقه وعاداته موائمة، كان ماناله من مكانة من نسبه الرفيع أدنى مما حمله من محاسن تزين بها، ولم يحتج إلى إطراء كبير، ذلك أن حاجته إلى المديح كانت قليلة، والمديح كان دوماً المرافق الأكيد لأعماله العظيمة.

كان متفوقاً كثيراً على الآخرين في كل من المزايا المعنوية والقوة، ومذكوراً من أجل قوته في القتال، حيث أن أفعاله الجبارة فاقت في

لمعانها جميع الأوصـاف البراقة التي يمكن أن نضفيهـا عليها، وكان والحق يقال لانظير له في أعماله الرائعة، وكان السبـب الوحيد لمعاداته هو روعته، وأنه الباحث عن الصفات الحميدة، ولم يكن عبداً للآثام والشرور.

وعندمـا انتهت احتفـالات التتويـج، انتصب رتشـارد في مكان أبيـه، وتلقى يمين الـولاء من النبلاء حسبما جرت العـادة، ثم غادر لنـدن، وقام بجولة في مختلف المناطق، وبعد هذا قـام بالحج إلى القديس ادموند الذي اقترب حلول موعـد عيده، ووافق على تعيين عدد من الأسـاقفة في بعض الأسقفيات، وبعد ما أعد كل شيء من أجـل الرحلة، ورتب شؤون مملكة انكلترا بقدر مـا سمح له الـوقت، عاد إلى نورمـاندي حيث احتفـل بعيد ميلاد ربنا.

وجعلته نـواياه بالشروع بالـرحلة والوفـاء بما تعهد به متلهفاً، ذلـك أنه حكـم أن التأخير خطير، ولـذلـك قام في سنـة ١١٩٠، لتجسيـد مولانـا، بحث الملك فيليب صاحب فرنسا على أن يكون مستعداً أيضاً.

وكـان الاسطول الملكـي، قد وجهـه الملك رتشـارد وأمره بـالارتحال إلى (صقلية) فـوصل إلى هدفـه وهو ميناء مسينا، وذلـك بعد ما تخطـى جميع مخاطـر المحيط، وانتظـر هناك وصـول الملك، الـذي كـان يزحـف براً مـع جيشه.

وعندمـا غادر الملك تـور مع قواته، مـن الذي كان بـامكانه أن يـذكر عدد القوات التـي رافقته، وأنواع أسلحتهم، وقطار النبلاء، وفـرق المنازلة المختـارة؟ أو من كـان يستطيع أن يصـف قوات الـرجالـة وكتائب حملـة المقاليـع بينهم؟ وقام الذيـن رأوهم بالبكاء والتـوجه أيضاً بالشكـر للرب من صميم قلوبهم. من أجل الملك الجديـد، والذي قام في بداية حكمه، ودون أن يذوق طعـم الراحـة، بالتخلي عن ايمان وبكـل سرعة عـن جميع المسرات، وتولى القيام بعمل عظيم ومفيد جداً، ومتعب وكذلك ضروري.

ياللتنهدات وبكاء الذين عانقوا بعضهم أثناء الفراق! ويالـلأماني الطيبة للذين كانوا مسافرين، وياللعيون المثقلة بالدموع، والحسرات التي قطعت كلمات المتكلمين وسط قبلات الذين كانوا عزيزين عليهم، ولقد حزنوا، وفقد بعض الذين كانوا منطلقين وعيهم من شدة الأسى، وذلك أثناء الفراق، وبعد ما تبادلوا تحيات الوداع وقفوا قليلاً أكثر ورددوا العبارات لكسب بعض التأخير، وأخيراً انتزعوا أنفسهم من وسط أصوات التحيات، وانطلقوا نحو الأمام حتى يخلصوا أنفسهم من بين أيدي الذين حبسوهم.

وعلى هذه الصورة، انطلق رتشارد، ملك انكلترا، في السنة الأولى لتتويجه من تور، وأخذ الطريق نحو فيزلي، حيث التقى الملكان ومعهما قواتهما، وبما أن كلا الأمتين كانتا أكبرمن أن تحصيا عدداً، فقد انتشرت الخيام والسرادقات فغطت وجه الجبال طولاً وعرضاً، وكذلك سطح الأرض من حولها مع الحقول المزروعة، وأعطى ذلك الانطباع بشكل مدينة، وتمتن هذا الانطباع أكثر بتعدد أنواع السرادقات واختلاف ألوانها التي ميزت بعضها عن بعض.

وكان بإمكانك ان ترى الشباب العسكريين من أمم مختلفة شاكي السلاح، مستعدين للحرب، يبدون وكأنهم قادرين على اخضاع الأرض كلها بالطول والعرض، وأن يهزموا جميع أمم العالم، وأن يخرقوا صفوف مختلف القبائل، وان يحكموا أن ما من مكان شديد الصعوبة أو ما من عدو قوي جداً بحيث يستحيل قهره، ولقد بدوا وكأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن ينصاعوا للخطأ ماداموا قادرين على عون بعضهم بعضاً، ومساعدة أحدهم للآخر بفضل شجاعتهم.

ومع هذا فإن ذلك الجيش، الفخور بأعداده الكبيرة، والمحمي بقوة أسلحته، كان مشحوناً بالمتاعب، ممزقاً بالخصومات والخلافات، مغلوباً على أمره بعدم الاتفاق، ولو أنه ظل موحداً بالنظام العسكري والإرادة

الطيبة، لبقي غير قابل للقهر بالنسبة لأي سواه، ولكنه بتمزيق روابط التبعية واجه سقوطاً مريعاً، وتخلى عنه الأصدقاء وابتعد عنهم، ذلك أن البيت الممزق ضد بعضه يغدو خاوياً.

وانطلق الملكان نحو الأمام ومعهما رجالهما، وأعدا الخطط لزحفهما، وعقداً اجتماعات دورية بأبهة عظيمة، ولدى مرورهم خلال المدن والقرى بعتاد عملاق هائل وبأسلحة الصدام، كان السكان يرددون في دهشتهم: أيتها السماء، ما هذا الحشد الهائل من الرجال وماذا يريد؟! أيها الجند النبلاء في زهرة شبابهم ما أروعكم! أيها الشباب السعداء كم هو جمالكم عظيم! أي أرض ولدت مثل هؤلاء الجنود الشبان الرائعين؟.

وهكذا تابع الجيش زحفه مبتهجاً من فيزلي إلى ليون على الرون، ووقتها غادر ملك فرنسا مع جميع قواته واتجه إلى جنوى، وكان المتفق عليه أن الذي يصل إلى مسينا في صقلية أولاً يتوجب عليه أن ينتظر وصول الآخر، وبعد مضي ثلاثة أيام غادر الملك رتشارد إلى مرسيليا، حيث مكثنا هناك لمدة ثلاثة أسابيع، ثم أقلعنا في اليوم التالي ليوم رفع العذراء المباركة إلى السماء، لنعبر البحر إلى مدينة مسينا.

ولدى انتشار خبر قدوم ملك انكلترا النبيل بين سكان مسينا، اندفعوا بحماس وتجمعوا لرؤيته، فلقد تجمهروا على طول الشاطىء حتى يلمحوه، ولدهشتهم رأوا البحر عن بعد، مغطى بالمراكب، وكانت أصوات الأبواق عالية وحادة، طرقت فوق أسماعهم، وكانت المراكب محملة ومزينة بالأسلحة من كل نوع، وكانت أعلامهم وراياتهم تخفق بالهواء وهي لاعدّ لها ولاحصر، وكانت مقدمات المراكب متميز أحدها عن الآخر، بمختلف ألوان الطلاء، وكانت ترستهم تلمع بالشمس، وكان بإمكانك أن ترى البحر يفور تحت المجاذيف، ثم يالـلأبهة، وقف الملك الرائع على مقدمة مركب كان أعلى من البقية وأكثر زينة، وكان مرتدياً ثياباً فاخرة، وانطلق البحارة مع بقية الحاشية أمامه ليقوموا باستقباله

بالتهـاني، ولكي يجلبـوا الخيول، التـي كان سيركبهـا مع أركـانه، وتجمهـر السكان المحليـون من حـوله وأحـاطوا بـه من جميـع الجهات، واختلطـوا برجاله ، ولحقوا به إلى نزل ضيافته.

وتحدث عامة النـاس بإعجاب عن مجده العظيم، واتفقـوا على أنه كان جديراً بحكم امبراطـورية، ويستحق أن يحكم أمماً وممالـك: « لأن شهرته التي سمعنـا عنها مـن قبل وضحـت أنها أدنى بكثير مـن الحقيقة عنـدما رأيناه».

-٨٢٤-

كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية

كان موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر أن على الانكليز والفرنسيين تمضيه الشتاء في صقلية، حول مدينة مسينا، المليئة بالأشياء الجيدة، مع أن سكانها هم أشرار، وعرق خبيث.

كان الملك تانكرد صاحب صقلية غني جداً، في كل نوع من أنواع الثروات، وكان قد خلف منذ أمد قصير الملك وليم الثاني على العرش، وفي هذه الآونة كانت أرملة الملك المتوفى تقيم في بلرم، وكانت أختاً للملك رتشارد، ملك انكلترا، الذي تبنى قضيتها، وأرغم الملك تانكرد على أن يعطيها ما يرضيها، وذلك فوق البائنة — الدوطة — التي تستحقها وزيادة عليها.

وبقي رجال الاسطول خارج المدينة حتى وصول الملك رتشارد، وذلك بسبب صفاقة أهلها التي لاتحتمل، لأن هذا الشعب الشرير (الذي يعرف بشكل عام باسم: غريفون) (أي اغريق حسب اصطلاح الصليبيين اللاتين) كانت أكثريته من أصل اسلامي، وهؤلاء كانوا معادين لأفراد شعبنا، وكانوا دوما يوجهون الإهانة إليهم بالاشارة بأصابعهم إلى أعينهم، وتسميتهم « كلاب قذرة»، والسخرية منهم بطرق أخرى كثيرة، وقد قتلوا بعضهم على انفراد، ورموا بآخرين في مجاري القاذورات، حيث اقترفت فيها بعد جرائم كثيرة، وهددوا بطرد رجالنا من مدينتهم، لأنهم كانوا غرباء غير معادلين لهم بالعدد.

والآن عندما رأى الغريفون، أن الملكين قد نزلا إلى اليابسة ومعهما قوة عملاقة، ضبطوا رعونتهم بعض الشيء، لأنهم أدركوا أنهم أدنى في الشجاعة والمظهر، لكن اللومبارد (الناطقين بالايطالية والمرابين) لم يتوقفوا عن أعمال الاهانة والتحدي لرجالنا، واثارتهم بالشتائم والإيذاء،

وقد أثارتهم غيرتهم على زوجاتهم، اللائي كان رجالنا يتحدثون معهن، غالبا بقصد إغضاب الأزواج، وليس بنية اغوائهن، وبسبب الخصام هذا، ومن خلال الحسد، كان اللومبارد دوماً معادين لنا، يفعلون كل ما يستطيعونه لاغضابنا، وقاموا بالوقت نفسه باعلاء أسوار ودفاعات أبراجهم وبتعميق الخنادق المحيطة بهم.

وكان في أحد الأيام واحد من رجالنا يتساوم مع امرأة حول رغيف خبز جديد كانت عارضة إياه للبيع، وقد هددها بالقيام بوزن الرغيف، ولأن الرجل رفض أن يعطيها السعر الذي طلبته انفعلت المرأة، وأهانته بعبارات شريرة، وتجمع عدد كبير من أهل المدينة لدى سماعهم أصوات المرأة وصراخ شتائمها، فأمسكوا بالرجل وضربوه بلا رحمة، وبعدما نتفوا شعره، وجرحوه جراحات كثيرة، داسوا عليه بالأقدام، وتركوه ليموت.

وعندما رفعت شكوى، تقدم الملك رتشارد بالرجاء من أجل السلام والصداقة، وأكد أنه جاء بسلام ليقوم بأداء حجه، وانه لن يتوقف عن الصلاة حتى يعود كل فريق بهدوء إلى مقره.

لكن حدث في اليوم التالي أن تجدد الخلاف بين سكان المدينة والحجاج، وفيما الملكان كانا مجتمعان مع قضاة صقلية وأعيان أهل المدينة، من أجل معالجة قضايا السلام والأمن، سمع صراخ عظيم وأصوات تقول بأن سكان المدينة كانوا يقومون بذبح رجال ملك انكلترا، ولم يصغ الملك إلى هذا، لسبب أساسي هو أن اللومبارديين أكدوا له أن ما قيل ليس صحيحاً، ثم مالبث أن جاء رسول آخر، أعلن أن سكان المدينة كانوا يهاجمون الحجاج،وهنا بادر الملك وخرج مسرعاً من الاجتماع، وامتطى على ظهر حصان، وتقدم بنية ايقاف النزاع وإقامة سلام بين المتخاصمين.

وعندما وصل، كان الفريقان في حالة هياج شديد، لم يعودا يتصارعان

بالكلمات بل بالأيدي والهراوات، وبدلاً من أن يستجيب اللومبارد لجهود الملك بالفصل بين المتنازعين هاجموه بالشتائم، وبعبارات الاهانة، وقد انزعج من إهاناتهم له، فحمل سلاحه وبدأ بحصارهم في مدينتهم.

وكان الفرنسيون في الوقت نفسه لايدرون ما الذي سيفعله سيدهم، لذلك أخذوا يركضون بهذا الاتجاه وذاك بحثاً عنه، وعم الهياج في أرجاء المدينة، وحمل كل انسان ما وصل إلى يديه، وتحدثوا بتبجح أنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى النهاية، وذهب اللومبارد إلى الملك الفرنسي وطلبوا منه العون والمساعدة، وعرضوا عليه أن يضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرفه ورهن اشارته، فيما لوقام بالتفريج عن مدينتهم، ومنع الهجوم الذي يتولاه ملك انكلترا، وأن يصبحوا من رعاياه مع مدينتهم، وعلى الفور أجابهم ملك فرنسا بأنه يؤثر تقديم المساعدة إلى اللومبارد على الوقوف إلى جانب رجال ملك انكلترا.

ولدى رؤية اللومبارد أن القتال بات الآن جديا، وأنهم حوصروا بكل عزيمة، قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، ووقفوا في أعالي الأسوار، وقذفوا من هناك الحجارة والنشاب من قسيهم، والحراب مثل زخات المطر، وبهذه الصورة تمكنوا في بداية دفاعهم الشديد من الحاق إصابات كثيرة برجالنا، فبعضهم قد قتل، وبعضهم أصيب بكدمات، ولقد جرح بعضهم بعضهم الآخر، وقطعوا أطراف كثيرين.

وكان الملك رتشارد في اليوم الثاني لوصوله قد تجول حول أسوار المدينة مع اثنتي من مرافقيه فلاحظ وجود باب خلفي مهمل من قبل سكان المدينة، ومن خلال هذا الباب، توفر الآن مدخل بوساطة القوة والإقدام الكبير والعنف، وقام الذين دخلوا بتدمير الباب، وبذلك سمحوا لبقية الجيش بالدخول إلى المدينة، ثم قاموا بذبح وأسر كل من قابلوه من سكان المدينة وقاومهم، ولقد سقط في هذا الصراع عدد منهم ومن اللومبارد وكذلك من رجالنا.

وسار رجالنا الآن خلال المدينة المقهورة كمنتصرين، يتقدمهم الملك رتشارد، الذي كان دوما هو الأول في كل هجوم، وسار خلفه حوالي عشرة آلاف رجل، وقاموا بنهب المدينة كلها. وكان بإمكانك أن تسمع هناك أصواتاً مرعبة بلغات مختلفة ومتداخلة، فمن جانب كان رجالنا يحثون بعضهم بعضاً على المطاردة، وبالمقابل كنت ترى اللومبارد الفارين يصرخون برعب من رجالنا، لأن رجالنا ضاعفوا ضرباتهم لهم، فاندفعوا أمامهم مثل سنابل قمح قوم تصدوا بهم للسيوف، وعندما اقتحمت بيوت اللومبارد، رموا بأنفسهم من الأسطحة، مدركين أنهم ببخلهم وسوء معاملتهم للضيوف استحقوا فقدان كل حق بالرحمة.

وهكذا استولى الملك رتشارد على مسينا، بضربة واحدة، وبوقت أقصر مما احتاجه كاهن لترداد ترتيلة طقوسه. وكان من الممكن سقوط المزيد من سكان المدينة، لولا انه أمر بتوفير حياتهم، وكان هذا كرماً منه، لكن الذهب والفضة وكل شيء ثمين وجدوه بات ملكاً للمنتصرين، وأحرقوا سفن الأعداء، خشية أن يفروا ويستردوا قواهم للمقاومة، وقام المنتصرون أيضاً بأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهن معهم.

ثم إنه ياللعجب، حدث بعد هذا كله، أن رأى الفرنسيون أعلام الملك رتشارد تخفق فوق أسوار المدينة، فشعر ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك رتشارد استمرت طيلة حياته، وقادته فيما بعد إلى غزو نورماندي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، أرسل ملك فرنسا، بناء على مشورة ديوانه، أوامر إلى الملك رتشارد لينزل أعلامه، واستبدالها بأعلام فرنسية، وذلك اعترافاً منه بتفوقه وسيادته(*) ، وغضب الملك رتشارد من هذا

*— كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، أن ملك انكلترا بحكم أملاكه في فرنسا، عدّ واحداً من أتباع الملك الفرنسي، غير أن رتشارد عدّ نفسه مساوياً للملك الفرنسي، يضاف إلى هذا ما تقدمت روايته حول خرق رتشارد للاتفاق مع الملك الفرنسي بالزواج من أخته أليس، وزواجه بدلاً عنها من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس ملك نافار، وتقدمت تفاصيل ذلك في المجلد المتقدم.

الطلب، ولم يبعث لـه بجواب، خشية أن يُرى أنـه يتخلى عن حقه، لكن تمّ مـن خلال جهود الـوسطاء اطفاء غضـب الملك رتشارد، ووضـع حد لهذا الخصـام، واستجاب لتهـدئة الأصـدقـاء له، واستجـاب إلى مطلـب ملـك فرنسـا في أن يتخلى عن حـراسـة الأبراج التـي استولى عليهـا، وأن يوضـع فيها حراس مـن كلتا الأمتين، وذلـك حتى يعلمان مشاعـر الملك تانكرد تجاه ما حصل، ولذلك تمّ رفع أعلامهما معا فوق أسوار مسينا.

وبعد اجتماع عام، تقرر وجوب ارسال رسـل من قبل الملك رتشارد إلى تانكـرد بغية طلـب تعويضـات عن الأضرار البـالغة التـي لحقت بشعبـه نتيجة الاضطرابـات، وأن يعطي الملكة الأرملة جـوانا «بائنة» تـرضيها مع حصتها من أموال الملك التي آلت إليها والتي هي حق لها.

وأثـار الملـك الفـرنسي في الـوقت نفسـه مشكلـة حـول نهب المدينـة، وطالـب بحصته، ولأن الملـك رتشارد رفـض بحنق طلبـه، لم يتوقـف عن إزعاجه وإثارتـه بمثيرات خبيثة ومنغصات مزعجة، وبناء عليـه قرر الملك رتشارد رفـض صداقته، وأمر سفنـه أن تكون مستعدة للمغادرة مـع جميع أثقالها، فهو قد آثر السير وحده مع رجاله فقط لانجاز حجة على أن تكون له أدنى معاملة مع رجل حسود، وعنـدما وصلت معلومات هذا الأمر إلى مسامع ملك فرنسـا، قبل بوساطة جهود الوسطاء بـاعادة تجديد الصداقة المقطوعـة، وأن يعود تعـايشهما كما كان مـن قبل، على شرط اقتسـام كل شيء بالتساوي سيتم الحصول عليه من الآن فصاعداً.

وبحث الـرسل الذيـن توجهوا إلى الملـك تانكـرد معه تقديـراته وآرائه بالقضايا المثارة معـه، فأجاب باجابات غامضة، وأكـد أنه سيتولى ارضاء الملكين وفقاً لمشورة نبـلاء البلاد، في الوقت المنـاسب، وفي المكان الموائم، وبالطريقة التي تخص الموضوعات بشكل محدد، وقيل بأن ملك فرنسا قد حث الملك تانكرد بوساطة رسالة بعثها إليه، على عدم الاستجابة لمطالب ملك انكلترا، بـل أن يظهر صلابة في الموقـف وفي الدفاع عن حقـوقه في

كل شيء، وأكد لـه أن ملك فرنسا سوف لن يشـارك الملك رتشارد في أي عمل يقوم به ضده، بل إنه سيكون مخلصاً وفياً لتانكرد.

وأعاد هذا الخصـام الشجاعة إلى السكان المحليين، فبعـد ما أثيروا من قبل ملـك فرنسـا، بذلـوا غايـة جهودهـم لإيذاء الملـك رتشارد ورجـاله بالقدر الممكن لهم: لقد منعوا تزويد المؤن لهذا الجيش الكبير، وأمروا بعدم عـرض أي شيء للبيـع، واستهـدفوا مـن وراء ذلـك إرغـام الانكليـز على إخضاع أنفسهم لسلطان السكان المحليين.

وبذل الملك رتشارد جهوداً كبيرة، ويقظة ونشاطاً في سبيل إنشاء قلعة أطلـق عليهـا اسـم « ميتغـريفـون Maetgriffon: «*» ، وارتعـب الغريفـون كثيراً، لأنهم رأوا أنها صممت مـن أجل تـدميرهم، وقـد شيد البناء على رابية محاذية للمدينة، وكـان موائماً كثيراً للتقهقر والتراجع، وكان الجيش سيعاني كثيراً من نقص بالمؤن، لـولا أنه استخدم المؤن التي جلبها بالاسطول كاحتياطي ضد العوز المستقبلي.

وهكذا تأرجحت الأمـور، ثم إن الملك تانكرد اقتنع بـأن الملك رتشارد لـن يتوقـف حتى يحصـل على ما رغـب بـه، فأرسـل رسلاً عـرضوا عليـه السلام، وسـألوا باستعطـاف المصالحة، وتـم الاتفاق على شروط الصلح، وبـذلك ختمـت القضية، ثـم كـان أن صدرت فتـوى عن وولتر رئيـس أساقفة روان Rouen ، قضت أن كـل من لايعيد جميع مـا نهب من ذهب ومن الفضة سيكون خاضعاً للحرمان واللعنة.

---

* — معنى هذه « صد الغريفون»، وكانت هذه القلعـة مصنعة من ألواح من الخشب كانت جاهزة، تمّ تثبيتهـا داخل اطارات جاهزة بوسـاطة المسامير، ودعمت من الخلف بـدعائم، وعندما غادر رتشارد مسينا، فكها وأخذها معه حيث أقيمت حول عكا من الخارج.

وهكذا جرى استرداد كل شيء، وبذلك بدا ظاهرياً أن السلام قد توطد، وعبر سكان المدينة عن سرورهم لسلامتهم، والحجاج لحصولهم على الهدوء، وجددت الصداقة بين الملكين، لكن التنافس الذي كان قائماً بينهما استمر.

واحتفل بعيد الميلاد بوقار خاص، لتوفر الحاجة أكثر من ذي قبل لانقاذ الجنس البشري، وقام الملك رتشارد، على شرف هذا العيد، بتوجيه الدعوة إلى ملك فرنسا لحضور مائدته، وتوجه بالدعوة بوساطة المنادي العام إلى كل ذي روح بأن يمضي العيد بفرح وسرور، واستجابة لهذه الدعوة اللطيفة جاء ملك فرنسا مع مجموعات كبيرة من النبلاء وحشد من الناس الآخرين.

وتمّ استقبالهم بترحاب كبير وتكريم في قلعة ميتغريفون، وجلس كل واحد هناك وفقاً لمرتبته : من كان بإمكانه إحصاء الصحون المختلفة، وأنواع الكؤوس، أو حشود الخدم أو الملابس والمظاهر الرائعة؟ وما من شيء كان هناك لم يكن ثميناً له قيمته وهو موائم، فلقد كانت الصحون على اختلاف أحجامها من الذهب أو من الفضة، وكانت الأوعية مصنوعة وعليها أشكال رجال أو حيوانات وضعت على الحواف أو الأطراف، ورصعت بأحجار كريمة، زد على هذا كانت هناك وسائل سارة ظهرت للجميع مما أضفى بهجة على العيد، وتمتع الضيوف برؤية عروض سارة وأعمال مبهجة، وذلك بالاضافة لأنواع اللحوم والأشربة وزيادة عليها.

ولدى انتهاء الاحتفال، وضع الملك رتشارد أمام ملك فرنسا أجمل الأقداح وأعطاه خيار الإنتقاء منها على شرف المناسبة، ثم قدم لكل واحد من النبلاء هدية تبعاً لمرتبته، لأنه مثله مثل تيتوس (الامبراطور الروماني ٧٩ — ٨١م) عدّ اليوم الذي حدث ولم يعط به شيئاً يوماً خاسراً.

كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة

في السنة١١٩١ لتجسيد مولانا ، ولدى انتهاء أشهر الزوابع من فصل الشتاء الكسول ، وحلول الأيام المشرقة ، امتلأ الناس بهجة بعودة موسم الإبحار والملاحة ، لأن الملكان أقاما في مسينا من عيد القديس ميكائيل حتى أيام الصوم ، ثم عقدا اجتماعاً حول نقل رجالهما، وارتأيا عدم موائمة التأخر أكثر، بسبب توفر المناخ الجيد، وبسبب أن وسائلهما سوف تحبط وتتلاشى بلا فائدة في إضاعة الوقت بلا عمل، ولأن رفاقهم في عكا كانوا يعانون وفي أمس الحاجة إليهم.

وبينما كل واحد يعد العدة ليتابع رحلته، وصل رسل حملوا أخباراً إلى الملك رتشارد أن أمه اليانور تخف الخطى وهي مسرعة للحاق به، وحيث أنها كادت أن تنهي رحلتها، فقد بات وصولها وشيكاً، وكانت جالبة معها النبيلة بيرنغاريا، المعدّة لتكون زوجة له، وكان منذ وقت مضى، حينما كان كونتا لبواتو سحره حسنها وأبهتها ، وسمو مكانتها وأصالتها، وجاذبية أنوثتها، فشعر بعاطفة قوية نحوها، وبناء عليه، أودعها أبوها ملك نافار إلى أم رتشارد لتتولى العناية بها، ولتحملها إليه، بغية أن يتمكن من الزواج منها، قبل عبوره البحر، حسبما كان ناوياً، ولقد ابتهج الجميع بقدومها.

وكان في الوقت نفسه ، قد أكمل ملك فرنسا إعداد جميع تجهيزاته ، فاغتنم فرصة توفر الريح الطيبة ،فأقلع ومعه اسطوله في يوم السبت بعد يوم عيد بشارة مريم العذراء المباركة ، وقد شيعه الملك رتشارد وهو على ظهر مراكبه ومعه أعيان نبلائه لبعض الطريق ، ثم عاد لأنه لم يكن شخصياً قد تهيأ بعد لعبور البحر ، حيث لم يكمل جمع سفن شحنه ، ورأى أن هذه لم تتجهز بجميع المؤن المحتاجة ، زد على هذا كان قد

سمع بأن أمه قادمة ومعها بيرنغاريا الـرائعة، ولهذا عندما ترك ملك فرنسا يمضي في طريـق رحلته بسلام رجـع بوساطـة طريق الفـاروس إلى ريغيو دي كالابيرا، حيـث سمع بـوجود أمـه الملكة وبيرنغـاريا فيهـا ، وبعدمـا تلقاهما على ظهـر سفينته بسرور عظيم، عـاد إلى مسينا، حيث بقـي هناك لوقت قصير، أسنـد وقتها إلى أمه شؤون العنـاية بالمملكة ، وتـركها تغادر برفقة وولتر، رئيس أساقفة روان، وكان شخصاً عظيم الفضائل.

وأبقى الملك رتشارد معه الفتاة التي كـان سيتزوج منها ، وبعدما جهز نفسه بكـل شيء كان ضرورياً للـرحلة، استعد تبعـاً للاتفاقـات ، للحاق بملك فرنسـا بقدر ماهو ممكـن من السرعة، وقد عين روبـرت دي تورنهام ليقود الأسطول وليتولى العنـاية به، وبعث بزوجته مـع أخته الملكة الأرملة لصقليـة، ليرحـلا قبله عبر طـريـق مبـاشر نحو الشرق، وذلـك على ظهـر إحدى السفن التـي تدعى عادة بـاسم «درمون» ، ووضع بـالسفينة عدداً من الفرسـان ، مع حشد كبير من خدم الحاشيـة، في سبيل تأمين راحتيهما وسلامتيهما.

وبقيت المراكـب بلا حراك، حتى أقـام الملك وليمة، احتفـل بها بوداع السكان المحليين ، وبـات الآن جاهـزاً للانطلاق وإيكـال نفسه للـرياح الطيبة ولأمـواج البحر، ثم أقلعـت جميع السفن المحشـودة، وصارت على وجه البحـر، تدفعها أعداد هـائلة من المجذفين ، ويحق لمدينـة مسينا أن تفتخـر بكـل حـق ، بـأنـه لم يحدث في القـرون الماضيـة أن رأت تلـك السواحل أسطولاً بهذه العظمة، ولن ترى مثيلاً له في العصور المقبلة.

وهكـذا دخـل الملك رتشـارد مـع سفنـه الكثيرة عرض البحـر، وكـان بعضها يُـوجه بـالأشرعة ، وبعضهـا الآخر بـالمجاذيـف ، وبقيت السفـن الحربيـة بالخلـف ، فهذا مـا خطط لـه الملك رتشـارد ، وخطط أن تبقـى السفـن قـريبـة مـن بعضهـا بعضـاً بقـدر الإمكـان ولا تفترق، وخففـت الغلايين مـن سرعتها عـن قصد ، ولازمـت البقاء على مسـافة مـن سفن

الحمولة بهدف حمايتها.

وتوقفت حركـة الريح، لهذا أرغم الأسطول على البقاء راسياً بلا حركة بين كالبيرا وجبل إتنا، غير أنه في اليوم التـالي (يوم عشاء الرب) قام الذي أوقف حـركة الرياح، بـإرسال الريـاح من خزائنـه، لقد بعث إلينا بـريح استمرت طوال اليوم، حيـث لم تكن قوية جداً، بل كافيـة لدفع الأسطول لأن يسير بسرعة لطيفة، لكن في الليلة التالية اختفت الرياح تماماً.

وفي يوم الجمعـة المقدسة سـاقت ريـاح معاكسة الأسطـول إلى الخلف وهـاج البحر (لأنـه أثير بـذلك كثيراً) وفـار مـن أعماقـه، وبينما تلاطمـت الأمواج ازدادت قـوة العاصفة ، وكانـت أصوات زئير الأمواج المتـلاطمة، وأنين السفن التي كانت تواجه الرياح العنيفة العاتية، قد أصابت الجميع برعـب عظيم، ولعتـو الرياح ، بـاتت إدارة السفن وقيـادتها عاجـزة كلياً، لأنـه لم يعد بـإمكـان أي قبطان تحريـك سفينتـه، وحُـملت السفـن بهذا الاتجاه وذاك، ففقدت نظامها، وذهبت كل سفينة باتجاه مخالف.

ويئس البحارة مـن الحصول على عون أرضي، لذلك سلمـوا أمرهـم إلى الرب، وقـرروا، بقدر ما سمح بـه الضعف الإنساني ، أن يتحملـوا الأمور بصبر، تحت نـاظري مخلصنـا، الـذي عانـى في ذلـك اليـوم من مـوت لا يستحقه، وذلك مـن أجل خلاصنا،وفيها السفن تتقاذفهـا الأمواج في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتمضي بها باتجاهات مختلفـة، بدأت بطون الرجـال تشعر بآلام الغثيـان، وأصيبوا بـدوارات بحر عنيفـة، وجعلهم الشعـور بالغثيـان أشبه بـالمجانين تجاه المخاطر التـي أحاقت بهم، ولكن مـع اقتراب المساء غدت الأحوال هادئة إلى حـد بعيد، وتوقفت الرياح المجنـونة مع الأمواج الصاخبة.

وانتشرت الآن ريح طيبة توافق رغباتنا، واسترد البحارة قواهم وثقتهم، وبذلنا جهودنا للمحافظة على الطريق المباشر لرحلتنا.

وبقي الملك رتشارد هـادئاً، وسط هذه الحالة من الفوضـى، ولم يتوقف عـن تهدئة ومواسـاة الذيـن كانـوا يائسين، حـاثاً إيـاهم على التشجـع، والأمل بحظ أفضـل، وحسبما جرت العادة كان لديه ضـوء شمعي داخل مصباح، علقه عـالياً في سفينته ليعطي الضوء لبقية الأسطـول، وليوجههم على طريقهـم، وكان معـه على ظهر سفينته أكثـر البحارة خبرة، وقـد بذل هـؤلاء كل جهـد يستطيـع الإنسان أن يقـوم به، واستخـدمـوا كل حيلـة لمواجهة الـرياح الغـاضبة، وبقـي الملك واقفـاً لبعض الـوقت بهدف جمع الأسطول، الذي تقاطرت سفنه للتجمع حـول الضوء، وهذا شابه دجاجة تولت جمع صيصانها معاً.

وبدأنا بعد هـذا بريح طيبة، وأبحرنا باستمـرار دون أن نواجه عقبة أو نعاني مـن أذى، وذلك يوم سبت فصـح اليهود حتى يوم الأربعـاء التالي، واقتربنا في هـذا اليوم مـن كريـت حيث تـوقف الملـك للراحـة، وعندمـا اجتمعت السفن معاً، تبين فقدان خمس وعشريـن منها، الأمر الذي سبب حزناً كبيراً للملك.

وفي يوم الخميس عـاود الملك وجيشه كله الدخـول إلى سفنهم، حيث بدأت الـريح تصبح أشـد قوة، ومع أنها ظلـت موائمـة، كانت قـوية في دفعنا نحو الأمـام، لذلك تحركنا بسرعـة بوساطة أشرعـة منتفخة، وسواري منحنية بعـض الشيء، ليس بـدون شبه لطيـور طائرة، ولم تهدأ أبـداً طوال الليل، وساقت عند فجر النهار اسطـولنا بعنف نحو جزيرة رودس، حيث انتشرت الأمواج والزبـد على طول الشاطىء، وهكذا لم نكـن قادرين على الوصـول إلى الميناء، وعلى كل حال عنـدما تمكنا في يوم الاثنين التـالي من الرسو، تمتعنا براحتنا بشكل جيد لأننا كنا بحاجة إليها تماماً.

وكانت رودس في العصـور القديمة مدينة كبيرة ، لا تختلـف عن روما، وهناك بقايا الكثير مـن البيوت، وأجزاء عديدة من الأبـراج ساقطة، لكن بقـايـاهـا ما تـزال قـائمـة، وآثـار رائعـة لأبنيـة وأسوار عمـرانها جـديـر

بالإعجاب، ومـن الصعب تقدير امتدادهـا، كما ما يزال هناك أيضـاً بقايا قلـة من الأديـرة الكثيرة، لأن معظـم الأجزاء كـانـت مهجورة ، مـع أنها كانت فيها مضى مسكـونة بأعداد كبيرة من جماعات الـرهبان، وقدم منظر مـدينـة عظيمة بهذا القـدر (مـع أنها الآن مبـددة) شواهـد وبـراهين على وجود عدد كبير من السكـان، لكن توفر الآن عدد قليل مـن السكان ممن كانوا بإمكانهم بيعنا الطعـام، وبما أن الملك كان متعباً، فقد استراح هناك لبضعـة أيام قليلـة، انتظـر خلالها وصـول السفـن التـي أضلت سبيلهـا، وشردت عنا، وانتظر أيضـاً وصول الغلايين التي سارت تابعـة للأسطول، وقـام أيضاً بـالتقصي حول اسحـق، الطاغيـة الوحشي، امبراطـور قبرص، الذي اعتاد على حبس الحجاج الذين كانوا يرسون في مينائه.

وبعدمـا أمضينا عشرة أيام في رودس التي كـانت جزيرة خصبـة جداً، ومنتجة، صعـدنا ثـانية إلى ظهـور سفننا، وتـابعنا سفـرنا، وكـان ذلك في الأول من أيار، وحملتنا سفننا ونحن في طـريقنا إلى أعظم الأماكن خطورة، الـذي يعرف بـاسم خليـج أضاليـا، حيـث تتصارع تيـارات عنيفة جـداً تشكل وصلـة بين أربعة بحار، وتصطدم مـع بعضها بعنف شديـد، وكل منها ينـدفع ضـد الآخر ويقاومـه، وعندمـا كنا على حافـة الدخـول إليه، عندها يا للعجـب، حملنا تيار عائدين إلى المكان الذي شرعنـا منه، وكأنه أراد سلامتنا، لكن قامت الـرياح، التي تهب دوماً في تلك الأجزاء وتتغير، بعد وقـت قصير بدفعنا عـائدين ثانية إلى الخليـج، وصاحب ذلـك خطر ازداد لازدياد عنف الريـاح، وخشية منا من نتائج هياج الـريح، فعلنا كل ما نستطيعه لحماية أنفسنا ضد مخاطـر المكان، وعبرنا فوق الأمواج الهائجة التي كانت ترغو وتزبد من حولنا.

وكانت السفينة الملكيـة تسير دوماً بالأمام، وعندما رفع الملـك ناظريه، رأى تحت السماء الهادئة سفينة كبيرة جـداً من النوع الـذي يعرف بـاسم

بصّ *Buss، وكانت متجهـة نحونا، وعائدة مـن مملكة القدس، وبادر الملك مسرعـاً فبعث ببعض الـرجال ليحصلوا مـن الرجـال الذين كـانوا على ظهـر السفينة على معلـومات فيما يتعلـق بحصار عكـا، فأخبروه بـأن ملك فرنسـا وصل سالماً إلى عكا يوم السبت في أسبـوع الفصح، وانشغل بنشاط في صنع آلات حربية، وذلك بـانتظار وصول ملك انكلترا، وعندما سمع الملـك رتشارد هـذا، تابعت البـصّ طريقها، وقـام هو بصنـع جميع الاستعدادات بروح معنويـة عالية، ولم تكن الرياح طيبة، ولقـد بذل غاية جهـوده للسيطـرة على تقلبـاتها، لكـن الأسطـول أرغـم بهبـات الـريـح المتضـادة، والأمـواج الصـاعدة والهابطـة، على العـودة، وسيـق إلى وسـط عرض البحر.

وكان في الـوقت نفسـه قد وصل الغليـون [الدرمـون] الذي أبحـر من ليون مـع الملكتين إلى ميناء ليماسـول، في جزيرة قبرص، لكـن عوضـاً عن النـزول إلى البر، ألقى مـراسيه على مسـافـة داخل البحـر،واعتادت مملكـة القدس أن تحصـل من هـذه الجزيرة سنويـاً على مرابـح كبيرة، لكن الآن بعد رفعهـا لنير الخضوع، تمنعت عـن تقديـم أي شيء، وذلك بتوجيـه من طاغيتهـا اسحق، الـذي اغتصب السلطـة الامبراطوريـة، وكان مـن أكثر النـاس سوءاً وشروراً، وقـد تفـوق على يهوذا بالخيـانـة، وعلى جدعـون في التآمـر، وقد أراد فقط تعذيـب الذي اعتنقوا الـديانة المسيحية، وقـد قيل بأنه كان صديقاً لصلاح الدين، وقد حكي أنهما شربا دماء أحدهما الآخر كعلامة شاهـدة على عهدهما المتبادل، فبمزج دمهما ظاهريـاً قد يصبحان أقربـاء حقيقة، وقد تـأكد هذا فيما بعـد ببعض البراهين، فبعدمـا اطمئن

* — bucca أو buzzos — وهي سفينة تجاريـة من سفن البنادقـة، ذات تجويف كبير، وقدرة على التخزين، وقـد استخدمت بمثابة سفن خزن وحمولـة، وأطلق الصليبيون على مثل هذه أحياناً اسـم «درمون» أو «بص» دونما تمييز، وكثيراً ما أرادوا بذلـك السفن الكبيرة، مع أن هذا النوع كان متميزاً عن سواه.

هذا الطاغية بهذه الخطوة، وبعدما ألغى خضوعه المتوجب عليه، اغتصب السلطة وادعـى زيفاً اسم الامبراطـور، واعتاد على إلقاء القبـض على كل واحـد نزل إلى الجزيـرة طوعـاً، أو لأن الريـاح قـذفته بقـوتها إليها، وكـان يستخرج من الغني فـدية، ويرغم الفقير على العبودية، وبنـاء عليه عندما سمع خبر وصول درمون غريب، قـرر إلقاء القبض على جميع من كان على ظهر السفينة، وأن يقوم بسلبهم جميع أموالهم، والاحتفاظ بهم أسرى لديه.

حول الملك رتشارد في قبرص

في عشية اليوم السالف لعيد القديس مرقص الرسول، وقبل غياب الشمس بوقت قصير، غطت غمامة داكنة الأفق، وهبت عاصفة عاتية، وحرك عنف الريح المياه، وبينما كانت بعض سفننا التي بعثرتها الرياح تحاول الوصول إلى جزيرة قبرص قبل اشتداد العاصفة، دفعت بها الأمواج المضادة والريح إلى الصخور، ومع أن الملاحين بذلوا غاية جهودهم لمقاومة الريح التي هاجمتهم، فإن ثلاثة من سفن الملك امتلأت بالماء، وتحطمت إلى قطع، وغرق بعض الذين كانوا على ظهرها، وواتى الحظ بعضهم الآخر، حيث أمسك كل منهم بقطعة من حطام سفينة، واستطاعوا (لكن ليس بدون بذل جهود كبيرة وسط البحر الهائج) بهذه الوسيلة الوصول إلى الشاطىء، وقد وجدوا أنفسهم عراة مفلسين، وكان بين الذين غرقوا روجر الذي كنيته كاتولوس Catulus ، وكان يحمل خاتم الملك، وضاع الخاتم، لكن عندما قذف تيار البحر بالجسد إلى الشاطىء، وجد أحد الناس الخاتم معه، فجلبه إلى الجيش ليبيعه، وبذلك تمّ انقاذه.

ورحب سكان الجزيرة بسرور، تحت شعار غطاء السلام ،بالبحارة الذين وصلوا إلى الشاطىء، وتظاهروا أنهم يريدون تأمينهم فقادوهم إلى أحد الحصون بالجوار، وقام الغريفون بتجريد جميع الذين وصلوا إلى الشاطىء سالمين من أسلحتهم، وقادوهم إلى المكان نفسه، وكانوا يؤكدون لهم أنهم إذا دخلوا الحصن وهم يحملون أسلحتهم فسيبدون وكأنهم جواسيس، أولديهم نوايا عدوانية بمهاجمة الجزيرة، وأن عليهم الانتظار حتى يحصلوا على ثقة الملك وإرادته.

وكان النبلاء منا قلقين بشأن أحوال الرجال الذين وضعوا رهن

الاحتجاز، فبعثوا إليهم بالملابس وبالأشياء الأخرى الضرورية لهم، وبعث إليهم ستيفن دي تورنهام وكان حاجب الملك وخازنه، بكميات كبيرة من المؤن، التي (عندما جلبت إلى مدخل الحصن) نهبت من قبل الغريفون، وحراس المدينة، وعلى كل حال قاموا بتهدئة رجالنا ومواساتهم بكلمات ناعمة، ولم يظهروا بعد نحوهم عداوتهم بشكل مكشوف، غير أنهم رفضوا إطلاق سراحهم ومنحهم حرياتهم حتى يتم إخبار الامبراطور بما حدث، ووعدوا بالوقت نفسه بكلمات منمقة أن يزودوهم بكل شيء ضروري، ثم إنهم وجهوا الدعوة إلى نبلاء البلاد، وعقدوا مشاورات معهم في سبيل إلقاء القبض على أكبر عدد من الحجاج بمختلف الأساليب الخادعة، ومن ثم يتولون قتلهم.

وعندما بات هذا معروفاً لدى رجالنا، حشدوا أنفسهم وتجمعوا داخل الحصن وعزموا على الدفاع عن أنفسهم، غير أن بعضهم قتل من قبل السكان المحليين،وهكذا قدروا المخاطر حق قدرها، وأنهم فعلاً معرضون لها، ولذلك اختاروا مواجهة المخاطر في القتال على أن يموتوا جوعاً بعد وقوعهم في أيدي الكفار الذين يتولون تعذيب المسيحيين، وبناء عليه تقدموا من خارج الحصن حتى وصلوا إلى أحد السهول، وبدأ السكان المحليون بحصارهم وقتلهم، ومع أنهم كانوا غير مسلحين، ولا يحملون سوى ثلاثة أقواس كانوا قد أخفوها عن السكان المحليين، فقد قاوموا بقدر ما استطاعوا، وأوقعوا في صفوف أعدائهم عدداً من القتلى لم يكونوا أقل من العدد الذي فقدوه.

وكان بينهم روجر دي هاردكيرت Hardecurt وقد صدف أن وجد فرساً هناك فركبه وهاجم حشود الذين تصدوا له، وكان كذلك وليم دي بويس Bois(وهو نورماندي كان من أبرع الناس بالرمي) الذي تمكن أولاً من تفريق مجموعة ثم فرّق مجموعة أخرى، بوساطة رميهم بالنشاب والسهام نحوهم بدون توقف، ورآهم الجنود الذي كانوا ما يزالون على

ظهور السفن، فبادروا مسرعين لنجدتهم وتخليصهم بقوة السلاح، ومع أن الغريفون أعاقوهم بنشابهم وقسيهم بقدر ما استطاعوا، ومنعوهم من النزول إلى البر، لقد نجحوا أخيراً، تحت حماية الرب، بالنزول من سفنهم.

وبعدما تفرق الغريفون، ودفعوا نحو الخلف، شق الحجاج طريقهم إلى الميناء، حيث وجدوا هناك رجالنا الذين نزلوا من سفنهم يقاتلون بكل طاقتهم ضد الغريفون الذين واجهوهم، ولدى تمكن رجالنا من الاتصال ببعضهم فرقوا الغريفون، واستولوا على ميناء ليماسول، حيث وجدوا الملكتين، اللتان لجهلهما بأوضاع الجزيرة، وخشية منهما من وحشية الامبراطور وخيانته بقيتا بالسفينة ولم تنزلا إلى اليابسة، وقرابة مساء ذلك اليوم وصلت أخبار ما حدث إلى امبراطور قبرص، ولدى اطلاعه على أن الحجاج وصلوا ، جاء إلى المدينة، وعندما شكا إليه الحجاج ما لحقهم من أذى ومضار، وعدهم بكل ما يرضيهم، ووافق على أن يعيد إليهم الأموال التي أخذت من الرجال الذين تحطمت سفنهم، وحصلوا على حق الدخول إلى مدينة ليماسول والخروج منها، بشرط تبادل أربعة رجال بمثابة رهائن.

وفي الوقت نفسه، أعطى الامبراطور الأوامر بحشد جميع المقاتلين في امبراطوريته، وهكذا شكل جيشاً قوياً، وأرسل في اليوم الذي وصل فيه رسالة تغرير إلى الملكتين، يطلب منهما النزول إلى اليابسة لأنها أكثر أماناً، وأن تتجولا حسبما ترغبان دون خوف من أذى أو إساءة معاملة من قبل شعبه، ولدى رفضهما بعث إليهما في اليوم التالي، على سبيل التكريم بخبز، ولحم كبش، وخمرة، من عصير عنب قبرص، التي قال لا مثيل لها بمزاياها في جميع أنحاء العالم، وحاول في اليوم الثالث مرة ثانية أن يخدعهما، وأن يأسرهما زيفاً بكلمات لطيفة في رسالة منمقة، وضعتهما في حالة من الإرباك عظيمة، فإذا ما أصغيتا إليه ربما سيجعلهما أسيرتين لديه، وإذا ما رفضتا بعناد لا بد من أن يخشين من التعرض لبعض

العنف، وكان الحال غير معروف بعد الوقت المتوقع فيه وصول الملك، أوالحالة الجيدة لأسطوله، ولقد تركتا الامبراطور في وضع غير مؤكد بإجابته إجابة مبهمة، وقالتا إنهما في الغد ستمثلان بحضرته وستكونان تحت تصرفه، ولتوقع الامبراطور قيامهما بتنفيذ ما وعدتا به لازم الهدوء.

وحدث فجأة في اليوم التالي أنه بينما كانت الملكتان في وضع مضطرب كثيراً، وواقعتان تحت تأثير قلق عظيم، وكانتا تتناقشان وتتحادثان وتقلبان أوجه الأمور،بينما هكذا كان الحال ، فجأة ظهر بالأفق البعيد مركبان وكأنهما غرابان فوق ذرى الأمواج المتحركة، وكانا يتحركان نحو الأمام، ويسيران نحوهما بسرعة كبيرة ، وفيها الملكتان ومن معهما في شك حول ما كانا، لمحت بعض المراكب الأخرى قادمة من بعيد، وإثر هذا كان ممكناً رؤية بقية الأسطول، وكله قادم بسرعة يؤم الميناء، ولدى معرفتها أنه كان أسطول الملك، فرحتا فرحاً عظيماً، وقدرتا أنه جاء في الوقت المناسب لإنقاذهما من الوضع السيء والمحرج الذي عاشتا به.

ووصل الملك رتشارد، بعد تجاوزه لعدد كبير من المخاطر، تقوده عناية الرب وتوجهه إلى ميناء قبرص، وفي يوم عيد القديس جون أمام البوابة اللاتينية (٦ـ أيار) ألقى مراسيه في ميناء ليماسول ومعه جميع أسطوله، غير أنه لم ينزل إلى اليابسة.

وعندما علم الملك بالمخاطر التي أحاقت برجال السفن المحطمة، وكيف أنهم سلبوا من مقتنياتهم، وذلك مع جميع ما حدث في تلك الآونة، غضب غضباً شديداً، وبعث في اليوم التالي باثنين من فرسانه إلى الامبراطور يطلب تعويضه بما يرضيه بشكل سلمي، وذلك عن الأذى الذي لقيه وعن المال الذي قام بسلبه [من رجاله]، وكان الامبراطور غاضباً غضباً شديداً تجاه هذه المطالب، ورأى أنه هو الذي لحقه الأذى وأنه هو الإنسان المصاب، ولهذا انفجر يتفوه ويقذف بكلمات شتائم وإساءة قائلاً: «عاهر، مأفون»، وأعلن أنه لا شأن له بالملك، وتبجح

بحمله لقب امبراطور، وأنه يمتلك السلطات الامبراطورية، وأنه واثق من تأييد السماء له، وأنه عمل فقط بما يرضيه.

وعندما عاد الرسولان يحملان هـذا الجواب، انزعج الملك بسبب رعونه الامبراطور، وبسبب جوابه المهين، وكـان فقدانه لـرجاله لـه تأثيره الكبير، ولهذا صرخ بصوت مرتفـع:«إلى السلاح»، وهـو أمرٌ أطاعـه رجالـه على الفور، وبعدما سلـح الملك نفسه تماماً، اعتلى ظهر مركـب من النوع الذي يدعى «أفعى»، وكـذلك فعل جنوده، وذلك في محاولة منـه للاستيلاء على الميناء، وكان الامبراطور قـد قام بإغلاق الميناء حتى يمنعـه، فطوقه بجيش كبير، وأغلق المدخل بكل نـوع توفر له من وسائل الحجـز والإعاقة، حيث اقتلع الأبـواب والنوافـذ من البيـوت،وجلب حطـام الأشياء، وركـام كل شيء وجده، والمقاعـد والسلالم مع قطع طويلة مـنَ الخشب، جعلها على شكـل عـوارض مصلبة، وجـاء كـذلـك بـالـدروع والترسة، وبـالمراكـب القـديمة، والأوعيـة المهجورة والتـي كانـت قذرة لإهمالها ورميهـا جانبـاً، وجاء أيضـاً بكل أداة مهما كانت، وبكلمـة موجزة، قام الغـريفون بهدف التصدي للهجوم على الميناء بوضع ركـام كل شيء توفر لهم من خشب أو حجـارة، وأمكـن لهم العثور عليـه في مـدينـة ليماسول، زد على هـذا قـام الامبراطور معه قواته بالزحف صعوداً ونزولاً على طول الشاطىء.

ولكم كـان حشد الامبراطـور مسلحاً بشكـل رائع، فقد حملـوا أسلحة غاليـة الثمن، لا بـل ثمينة جداً، وارتـدوا أردية ذات ألـوان كثيرة، وركبوا خيول حـرب تسابـق الريـح، وعلى بغال جميلـة، وزحفوا إلى الأمـام وإلى الخلـف جاهـزين للقتـال، وكانـت أعـلامهم ورايـاتهم التي لا تعـد ولا تحصى ترفـرف بالهواء، وكان لديهم أيضاً بعـض العرادات والقسي وخمسة مـراكب جيـدة التسليـح وقفت مـع الشـاطىء، وكـانـت مملوءة بشبـاب بارعين في القتـال البحري، ولـدى محاولة رجـالنا جـاهديـن الوصـول إلى الشاطىء، حـاول الغريفون قتالهم بصرخـات مرعبة، وكانـوا أشبه بكلاب

تنبح وتزمجر، وشتموهم وكأنهم ممن حلت عليهم اللعنة، وأخبروهم أنهم يسعون وراء ما هو محال انجازه.

وبدت عساكرنا وكأنها أدنى من الأعداء، لأنهم كانوا مكشوفين داخل مراكب صغيرة،كما وكانوا أيضاً منهكين نتيجة متاعب ركوب البحر لمدة طويلة، فضلاً عن هذا لقد كانوا رجّالة يحملون أسلحتهم الفردية فقط، وعلى عكسهم كان السكان المحليون، فقد كانوا في بلادهم، وبإمكانهم فعل كل شيء حسبما يرغبون، ولذلك عندما اقترب رجالنا في مراكبهم، قرروا الاقتراب بقدر الإمكان ليهزموا رماة العرادات والمقاليع والنشاب الموجودين داخل المراكب، وهكذا توجهت رمايات عراداتنا ونشابنا ضدهم، وبعدما فقد الغريفون كثيراً من رجالهم، تخلوا عن مواقفهم، لأنه لم يعد بإمكانهم تحمل ثقل المعركة.

فعندما تطايرت الرمايات بكثافة، قام في وقت واحد ثلاثة أو أربعة من الغريفون بالقفز من المراكب إلى البحر، وغطسوا تحت البحر، وهلكوا بسبب اصطدام أحدهم بالاخر لدى محاولتهم الحصول على منجاة الآن الاستيلاء على المراكب، وباتت مراكبنا على الشاطىء، وتشجع رماتنا بسبب النجاح الذي تحقق، فأرسلوا بزخات من النشاب مثل الأمطار ضد الذين كانوا يحرسون مكان الرسو، ولم يستطع الغريفون مواجهة الحملة، فتراجعوا من الشاطىء إلى أرض أكثر ثباتاً، وفي أثناء ذلك تابع رماتنا ورماتهم قذف بعضهم بعضاً، وهكذا أظلم الجو من زخات النشاب، وبدا النهار وقد تحول إلى ظلام وليل، وفي هذا الوقت اكتظت المدينة بالعساكر، وامتلأت المناطق المجاورة بحشود من الناس يعدون آلاتهم الحربية ويستخدمونها.

ومضى وقت طويل والنصر معلق بين الطرفين، فالشك ظل قائماً حول أي الفريقين هو المنتصر، وأيهما كان المتفوق، ذلك أن قواتنا، مع أنها بذلت غاية جهدها وقاتلت بكل قواها،لم تحقق تقدماً يذكر، ولاحظ

الملك أن رجاله لم يكونوا يمتلكون ما يكفي من جرأة ليغادروا مراكبهم، وليسيروا نحو الساحل، ولهذا قفز أول الناس من مركبه إلى الماء وقاتل الغريفون بإقدام، ثم حذا جندنا حذوه، وكانوا متشوقين لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فقاموا بالضغط على قوات العدو، وأرغموها على ترك مواقعها والتراجع.

ووقتها كان بإمكانك رؤية زخات من النشاب المتطاير، وصفوف الغريفون وقد تمزقت، وكان بقدرتك سماع دمدمة القراع والنزال، وأنين الذين كانوا يموتون، وعويل الذين كانوا يتراجعون، ثم تحرك رجالنا كتلة واحدة، فأرغموا الأعداءعلى الهزيمة والتخبط بالفوضى، وبعد هذا ساقوهم أولاً إلى داخل المدينة، ومن هناك إلى السهول الواقعة خارجها.

وضغط الملك بشدة في عملية مطاردة للامبراطور، فقد عثر على حصان عادي، فامتطاه بكل سرعة، واستعان برمح كان مركوزاً خلف السرج، وركب مسرعاً مستخدماً أربطة عوضاً عن الركائب، ولم يتوقف عن مطاردة الامبراطور، ونادى بأعلى صوته:«مولاي الامبراطور، أدعوك إلى المبارزة الشخصية»، لكن الامبراطور، كان أشبه بالأطرش، فقد تابع الهزيمة بكل سرعة أوتيها.

وبعدما استولى الملك على المدينة، جعل الملكتين تهبطان إلى اليابسة، وتغادران السفينة، ومن ثم تقيمان في ليماسول، فقد حصلتا بعد تعب الرحلة ورعبها على الأمن، وأمضى الملك الليلة نفسها في سرادقه، وأمر فأنزلت خيوله إلى اليابسة بوساطة عبارات خاصة، بينما تظاهر الامبراطور بعدم الخوف من أي شيء، لذا أمضى الليل في معسكر على مسافة مرحلتين.

كيف سلم الامبراطور قبرص

في اليوم التالي ، وفي حوالي الساعة الثانية ، ركب الملك حصانه واكتشف وجود بعض الاغريق واقفين ليس بعيداً ، في حقل زيتون ، ومعهم أعلامهم المرزولة ، ولدى مبادرتهم إلى الفرار ، تولى مطاردتهم ، لكن بما أن خيولنا قد عقرت بسبب حبسها قرب البحر لحوالي الشهر كاملاً ، فقد احتفظ رجالنا بهم ووفروهم ، وساروا بخطى وئيدة حتى رأوا جيش الامبراطور ، الذي أمضى الليل في واد هناك ، وهنا توقفوا عن أعمال المطاردة ،

وبدأ الاغريق الذين يصرخون ويولولون بشكل مرعب ، بتوجيه الاهانات لرجالنا ، وبسبب الصراخ أفاق الامبراطور من نومه ، وامتطى ظهر حصانه ، وزحف ببطيء مع رجاله نحو رجالنا حتى وصل إلى رابية قريبة ، حيث تمركز ليقوم بمراقبة الاشتباك .

واستخدم الاغريق قسيهم وحرابهم ، وصرخوا عاليا بأن رجالنا لا يمكن تحريكهم وزلزلتهم ،ثم تقدم الى الملك أحد الكتاب المسلحين ، واسمه هوغو دي مارا ، وقال مخاطباً إياه :« مولاي الملك ، يبدو من الحكمة تبني خطة تقضي بالتراجع لبعض الوقت أمام مثل هذا الحشد الكبير والقوي من الناس»، ورد عليه الملك قائلاً :«أيها السيد الكاتب ، دعنا وما نختص به ، والأحسن بالنسبة لك أن تشغل نفسك بالكتابه ، وتدع الحرب لنا ، وانتبه واحرص أن تبتعد عن الحشود ، وحاول آخرون مثل هذا أن يقنعوا الملك بالاقلاع عن القتال ضد حشد هائل مثل ذلك الحشد ، وفي الحقيقة لم يكن إلى جانبه في ذلك الوقت أكثر من خمسين رجلاً ، غير أن تشجع من هيجان الأعداء ، فوضع مهمازين لفرسه وانقض بشكل مفاجىء في هجوم ضد الأعداء ، واندفع خارقاً لصفوفهم ،

فمزقهم ، وأخذ يقاتل الأول فالذي يليه ، مشدداًضغطه بدون توقف ، وعندما أدرك جيشهم أن خصومه كانوا يتجمعون تلاشت شجاعة رجاله ، وشرعوا بالفرار ، ولقد نجا منهم الذين امتلكوا خيولاً سريعة وصبورة ، لكن الرجالة والناس العاديين ، الذين كانوا أقل قدرة على الفرار فقد تعرضوا للذبح في جميع الاتجاهات بدون تفريق ، ولم يعد بإمكانهم الفرار بسبب وصول الملك .

وبينما كان الامبراطور يشجع رجاله ويحثهم على القتال ، انقض عليه الملك بشكل مفاجيء وبكل سرعة ، ورماه أرضاً عن ظهر حصانه بضربة من رمحه ، غير أنه ما لبث أن حصل على حصان آخر بكل سرعة ونجا وسط الحشد ، علماً بأ ن بعض أتباعه لاقى حتفه .

آه ، كم من الخيول الأصيلة كان بإمكانك أن ترى قد ذبحت هناك ، وكم من السوابغ ، والبيض والسيوف والرماح والرايات قد سقطت أرضاً وكم من الأجساد الميتة المضرجة بالدماء كانت هناك ، وكم من الذين كانوا يلفظون أنفاسهم !

وعند ادراك الامبراطور لشجاعة رجالنا واقدامهم ، ولحال قتال رجاله ، هرب بأقصى سرعة أمكنته نحو الجبال ، ورمى الملك أرضاً حامل راية الامبراطور ، وأعطى الأوامر أن يحتفظ بالعلم الرائع والجميل له ، ثم طارد خيالتنا الفارين بقدر ما استطاعوا ، أي لحوالي الميلين ، وبعد هذا عادوا يسيرون بخطوات عادية ، ثم وصلوا بكل هدوء .

ثم التفت الناس نحو الغنائم ، فأخذوا كثيراً من الأسلاب من أسلحة وأثواب ثمينة مع خيمة الامبراطور ، التي عثر فيها على آنية مصنعة من الذهب والفضة فقط ، وكذلك مع جميع مفروشات الامبراطور وثيابه الرائعة ومحتويات البيت ، وذلك بالاضافة الى عدد من السوابغ والبيض ، والسيوف المختارة والخيول والبغال ، وكثيراً من الغنائم من أغنام وسائمة

وماعـز ، وخيول أصيلـة وبغال ، وبـط وأوز ودجاج ، كما وجـدوا أنواعـاً منتخبة مـن الخمر والمؤن من جميع الأنـواع ، كما وحملوا معهم حشـداً من الأسرى ، ولقـد كانـت الكميات هـائلـة الى حد أنهم شعـروا بالتخمـة ، وبكلمة موجـزة بات كل فكر مشغـولاً بالغنائم ، وكانـت متراكمة بشكل عظيم ، ولم يبد أحـد منهم اهتماماً بأي شيء ثمين ، حتى عندمـا قدمت هذه الأشياء إليهم .

وبعدمـا صنعت هذه الأشيـاء ، أعلن الملك مـرسومـاًبوساطـة صوت المنادي في أن بإمكان كل واحد من السكان قابل بالسلام ، أن يذهب ويعود حسبما يشاء دون أن يتعرض للأذى من قبـل رجاله ، بل أن يتمتع بحرية كاملة ، لكن كل من عدّ الملك بمثابة عدو له ، عليه الانتباه حتى لا يقـع بيديـه ، وينطبـق هذا على رجـالة الجيـش ، لأن مـن المؤكد أنـه سيعاملهم بمثابة أعداء ، وفقـد الامبراطور بهذه الوسائط عدداً كبيراً جداً من رجاله ، ذلك أنهم تخلوا عنه باستمرار ، وأخيراً عندما وجد الامبراطور نفسه في حالة مـن الفوضى والأسى لأنه أخفق في مقـاصده ، حمل نفسه والتجأ الى حصن قوي اسمه نيقوسيا .

وفي يوم السبت التـالي ظهر بالأفق ثلاث شواني وصعـد الملك ، الذي كان دومـاً متعجلا، إن لم نقل كان مغـامراً ، الى ظهر مركـب صغير، دفع بقوة المجاذيف ، وذهب لملاقاة هذه الشـواني ، ولمعرفة القادمين من هم ، ومن أين جـاءوا ، ولدى اجابتهم له ، قـالوا إن فيها غي لـوزغنان ، وعاد الملك مسرعاً وأمـر بإعداد عشاء فـوري للضيوف القادمين ، وعندمـا نزل الملك غـي إلى اليابسة ، استقبلـه بحفاوة عظيمـة جداً ، وعاملـه بلطف زائد.

وجاء الملك غي إلى عند الملك رتشـارد يسأل نصيحته ، ويطلب عونه ضد ملـك فرنسـا الذي خطـط لجعل مـركيز مـونتفرات ملكـاً للقدس ، وخلع غي ، ورحب الملك رتشارد به بلطـف ، وأكرمه بمنحه هداياه لأنه

كان فقيراً ومحروماً من الامكانيات ، وأعطاه ألفي مارك فضي وعشرين كأساً لها ثمنها ، الذي يعادل مائة وخمسة ماركات ، فقد كان كأسان منهن من الذهب الخالص .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم الأحد ، الذي وافق عيد القديس بانكراس Pancras احتفل بشكل مهيب بزواج الملك رتشارد وبيرنغاريا النافارية في ليماسول ، وكانت سيدة على درجة عالية من الحكمة ، والأخلاق المصقولة ، ووقتها توجت ملكة ، وكان من بين الحضور وقت الاحتفال رئيس الأساقفة ، وأسقف أوف إفرو Evreux وأسقف بانيريا Baneria وعدد كبير آخر من الرؤساء والنبلاء الآخرين وكان الملك في أروع حالاته في هذه المناسبة السعيدة ، وأظهر نفسه مرحاً ، ودمثاً للغاية واحتفل بعد يوم واحد بالزفاف بشكل مهيب وبطرائق ملكية ، ووصلت الى قبرص جميع الشواني الملكية ، التي انتظروصولها بقلق وكانت مجهزة ومدافع عنها بسلاح رائع وما من واحد رأى سفناً أفضل أو أعظم سلامة ، وضم الملك إليهم الشواني الخمس اللائي أخذهن من الامبراطور وبهذه الصورة امتلك أربعين شينياً مسلحاً وستين سفينة من أنواع أخرى بحالة جيدة .

واقترح الملك أن يطارد مع جيشه الامبراطور حيثما كان ، وأن يأخذه بالقوة ويرغمه على الاستسلام ، لكن بناء على وساطة وطلب مخلص تقدم به مقدمو اسبتارية القدس تقرر وجوب عقد مؤتمر بين الملك والامبراطور ، وندب الامبراطور خسارة رجاله ، وأنه قد أرغم على الفرار مجللاً بالعار الى نيقوسيا ، من وجه الملك ، وخشي من المطاردة ، أكثر بسبب أن السكان المحليين هجروه ، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدتهم .

وبعدما استدعى الملك إليه أكبر عدد ممكن من الناس امتطى فرساً اسبانياً ، عالي الظهر ، عظيم الحجم ، جميل الشكل ، وسار الى

سهل واسع جداً فيما بين البحر والطريق العام ، قرب مدينة ليماسول ، وكان سرج فرسه يتألق بالذهب ، ووشي ورصع بالأحمر ، وكان على الجزء الخلفي منه أسدين صغيرين من الذهب استدارا نحو بعضهما بأفواه مفتوحة ، وكان على الجزء الأمامي أيضاً اثنين يشيران نحو بعضهما ، وكأنما أقعيا للالتهام ، وزينت قدما الملك بمهمازين ذهبيين ، وارتدى قميصاً لونه زهر ، طرز بصفوف من الأهلة الفضية المصاغة ، وكان يشع مثل أفلاك الشمس بأشعة سميكة ، وهكذا سار الملك المكسو هكذا نحو الأمام ، وكان متمنطقاً بسيف مجرب مقبضه من الذهب ، والنطاق منسوج بالذهب ، وكان فم الغمد مغلفاً بالفضة ، وارتدى على رأسه قبعة قرمزية ، مزينة بأشكال مختلف الطيور ، ومخيطة ومطرزة بالابرة ، وحمل عصا بيده ، وعبر مظهره العام وبرهن أنه كان عسكريا من الطراز الأمثل ، ومنح البهجة العظيمة لكل من رآه .

وبعد تقديم العديد من المقترحات على كلا الجانبين بين الملكيين ، عرض الامبراطور أخيراً أن يقسم للملك يمين التبعية في كل شيء ، وأن يرسل قوة مكونة من خمسمائة فارس إلى أرض القدس خدمة للرب ، ولتكون تحت تصرف الملك رتشارد وتطيع أوامره ، وعرض بالاضافة إلى جميع هذه الأشياء (حتى يرضي الملك تماماً ولا يترك في نفسه أدنى شك)أن يضع جميع قلاعه وحصونه في أيدي حراس الملك ، وقدم بالاضافة إلى ذلك ثلاثة آلاف وخمسمائة مارك بمثابة ترضية وتعويض للذين فقدوا أموالهم ، أو تعرضت للسلب ، وتبعاً للاتفاق بينهما ، إذا ما وجد الملك أنه ورجاله قد قاتلوا بإخلاص ، يتوجب وقتها أن يعيد اليه جميع قلاعه وحصونه ، وأن تبقى الصداقة بينهما نفسها إلى الأبد .

وعندما أحال الملك هذا العرض الى رفاقه للفحص ، أجابوا بأنه محترم جداً ، ويتماشى مع احترام الملك ومكانته ، وكانوا راضين تماما به ، وعلى الفور أقسم الامبراطور أن يحترم جميع الشروط المتقدم ذكرها بكل

اخلاص للملـك ، وبعدمـا تبادلا قبـلات السلام أقـاما التحـالف وفـق السمات الموصوفة .

وقـام الامبراطـور في الليلة التـاليـة ، بنـاء على مشورة فـارس خـائن ، بـالفرار الى فيها غـوستـا ،لأن الفـارس أخبره أن الملك رتشـارد عـازم على إلقـاء القبـض عليه ورميـه بـالأغـلال ، ولدى سماع الملـك رتشـارد بهذا انطلق يطارده ، متهماً إياه بالتدليس وحنث اليمين .

وعندما وصل الملك الى فيها غوستا ، وجدها مهجورة ، لأن الامبراطور وجد أنه غير مضمـون الأمان بالنسبة لـه أن يتخذ فيها موقـف المدافع ، ولهذا أخفـى نفسه داخـل الأحراش ، حيـث الـوصول اليـه كان صعبـاً ، وإذا ما غـامر رجالنـا بالمرور بها ، سيكون بـإمكانـه مهاجمتهم مـن خلال الكمائن ، وأعطى الملـك الأوامر بوجـوب حراسة الموانـيء بدقة مـن قبل شوانيه ، بغية إلقاء القبض على الامبراطور إذا حاول الفرار .

وبعدمـا مكث هناك لمدة ثـلاثة أيام جـاء اليه أسقف بـوفياس Bea- vais ودروغودي ميرل ، وهـو نبيل واسـع الشهرة ، جـاء ا اليه رسـلاً لحثه على عبور البحـر بدون تأخير ، وليؤكـدا له أن ملك فرنسـا لن يقوم بالهجـوم على عكا قبل وصولـه ، وأضافا الى ذلـك كلمة نقد قائلين بـأنه أهمل المسائل الضروريـة ، وأنه أضاع جهـوده في مهام عبثية ، وأنـه يتولى بلا تـوقف تعذيب ومطـاردة مسيحيين أبرياء ، في حين هنـاك آلاف من المسلمين يتوجب عليه حربهم في البلاد المجاورة .

ورد الملـك على هذه الـرسالـة بطريقـة غاضبـة ، ليس مـن المناسـب ادراجها هنا ، ذلك أنـه بدا له من المفيد جداً بـالمحصلات اخضاع مثل هذه الجزيـرة الضرورية جـداً والمفيدة لمملكـة القدس ، ثـم تحرك الجيش نحـو نيقـوسيـا لانشاب القتـال ، لأنهم علمـوا أن الامبراطـور عـازم على نصب كمين لهم ، وزحـف الملك في السـاقة ، للحمايـة ضد المهـاجمين ،

عندما اندفع الامبراطور بشكل مفاجيء من مكان اختبائه وهاجمهم مع حوالي سبعمائة من الغريفون ، وبذل رماة أقواسهم العقارة والعرادات غاية جهدهم ضد طلائع قواتنا ، لكن قواتنا حافظت على التحامها وتماسكها في نظام جيد لذلك لم تعان من التمزق ، وآنذاك زحف الامبراطور على الجناح للاستطلاع ، وانصب بقضه وقضيضه إما بهدف تمزيق صفوفنا ، أو أن يقف على مكان الملك ورميه ، وعندما وجد أن الملك كان في الساقة سدد نحوه بسهمين مسمومين ، مما أشعل غضب الملك عليه ، فلبس مهمازين ، وركب حصانه ، وانقض على الامبراطور بهدف طعنه برمحه ، لكن الامبراطور تجنبه وهرب بالسرعة التي أمكنته ، وهو حانق ومضطرب لأنه لم ينجح في تنفيذ رغباته ، ولم يطارده الملك بعيداً لأنه شك في قدرته على أسره لأنه كان ممتطياً لفرس كميت له سرعة وقدرة على الاستمرار ما من أحد رأى ما يماثلها أبداً .

ثم زحف الملك الى نيقوسيا مع جيشه ، وخرج سكان المدينة كتلة واحدة لتهنئته واستقبلوه ورحبوا به وكأنه سيدهم ، واستقبلهم الملك بسلام وفقط جعلهم يحلقون لحاهم ، وذلك علامة وبرهان على تغييرهم لسادتهم ، وكان الامبراطور عظيم الغضب لدى سماعه بهذا ، وطلب من رجاله إلقاء القبض على كل واحد من رجالنا يستطيعون ، ومن ثم قلع عينيه ،وقطع الأنوف ، وتشويه الأيدي أو الأرجل بغية ارضاء غضبه وانتقامه ، واطفاء حزنه .

وقسم الجيش الى ثلاثة أقسام ، قاد قسم منها الملك غي لالقاء الحصار على ثلاثة حصون ، وتم الاستيلاء على الأول ، وعثر على ابنة الامبراطور وعلى أمواله ، وعندما سمع الامبراطور بهذه الخسارة استولى عليه اليأس ودفعه الى حد الجنون .

وزحف الملك غي الى حصار الحصن الثاني ، واستمر المحاصرون لأيام عدة يرمون على المهاجمين الحجارة والحراب والنشاب ، حتى تلقوا أمراً

من الامبراطور بالاستسلام والتخلي عن الموقع ، وعندها وضع الملك فيه ابنة الامبراطور حتى يحول دون أسرها ثانية ، ومن هناك عاد الملك غي الى نيقوسيا ، حيث استلقى الملك رتشارد مريضاً ، وما أن عوفي حتى هاجم الحصن الثالث واقتحمه ، وهو حصن عدّ حتى الآن لايرام .

وارتأى الامبراطور بعدما قدر الموقف أن ابنته قد أسرت (ذلك أن حياته تعلقت بها) وأنه ليس هناك من أمل ترك للمقاومة ، بعد هذا قرر التماس السلام والرحمة ، وبناء عليه بعث برسل الى الملك رتشارد يلتمسون المسامحة ، وتبعهم في ثياب حزينة ، وفي حالة يائسة .

وعندما مثل في حضرة الملك رتشارد ، سقط على ركبتيه في حالة تذلل أمامه ، قائلا إنه يضع نفسه كلياً تحت رحمته ، ويرجو ألا يلقيه بالأغلال ، وتحرك الملك عطفاً عليه وأنهضه وأجلسه الى جانبه ، وأمر بإحضار ابنته اليه ، وعندما رآها الامبراطور سرّ سروراً عظيماً ، وعانقها بشكل عاطفي جداً ، وغمرها بقبله ، بينما أخذت الدموع تتساقط من عينيه ، والقى الملك الامبراطور بالأغلال ، لكن ليس بأغلال حديدية بل أغلال فضية .

وهكذا تملك الملك قبرص في مدة خمسة عشر يوماً ، وأعطاها الى رجاله لسكناها ، وعهد بأمر الامبراطور وشؤون اعتقاله الى الملك غي ، وسلم ابنته الصغيرة الى ملكته للعناية بها وتربيتها وتثقيفها .*

ثم أعاد الملك رتشارد جيشه وخدمه مع الأثقال إلى ليماسول، حيث كانت الملكتان، وأعطى الأوامر باعداد الاسطول لجواز مباشر للبحر، وانتشرت في هذه الآونة تقارير أفادت أن عكا باتت على حافة السقوط، وعندما سمع الملك بهذا تنهد بعمق وقال:«بعد ماحوصرت عكا هذه

* تبعاً لمصدر آخر ، رافقت رتشارد في عودته الى نورماندي ، وحاولت بعد وفاته العودة الى قبرص ، غير أنها أوقفت في مرسيليا ، فأرغمت على الزواج من ريموند صاحب طولوز، ثم كان زوجها الثاني فارس فلمنكي ، حاول عبثاً الادعاء بأحقيته بعرش قبرص من خلالها ، ولكونه زوجها .

المدة الطويلة، علّ الرب يؤجل سقوطها حتى قدومي، فعندها سيكون النصر بعونه أكثر روعة».

وبعدما وضعوا الأثقال على ظهور السفن، أقلع الاسطول من الشاطىء بريح مواتية، والملكتان ذهبتا أيضاً برفقة الملك.

كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية كبيرة ووصلوا أخيراً إلى عكا

ومـن فيها غوستـا أقلع الملـك على واحـدة من أكبر شـوانيه وأسرعهـا، (وكما كانـت عادته) تحرك نحو الأمـام بالطليعة، وكان عـديم الصبر تجاه التأخير، في حين سـارت السفن الأخرى في أعقـابه بـأقصى ماأوتيـت من سرعة، ولم يكـن هناك مـن قوة، لم تكـن لتخاف عـن حق وتـرتعب مـن سرعتهن، وفي الـوقت الذي خـاضوا فيه غمـرات البحر، أخذت مـلامح الأرض المقـدسـة للقدس تظهـر عـن بعـد أمـامهم للمـرة الأولى، وكـان الحصن المسمى المرقب أول بقعة تأتي أمام أنظارهم.

وعنـدما كـانوا على مقـربة مـن بيروت، رأوا عن بعـد مركبـاً مشحونـاً بالمسلمين الـذين جـرى اختيارهم مـن الدولة الاسـلامية، وكـان المركب موجهـاً من قبـل صلاح الدين لنقل المعونـات إلى المحاصرين في عكا، ولم يكـن بمستطاع الـذين على ظهـر المركب تـأمين مدخـل سريع إلى مينـاء عكـا، خشيـة من المخـاطر التـي صدرت عـن الجيش المسيحـي، وكانـوا ينتظـرون لحظة مناسبـة لدخول الميناء بشكل مفاجـىء، وما أن رأى الملك السفينة حتى استـدعى بيتردي بار Barres وكان قائداً لإحـدى شوانيه، وأمره أن يجدف بسرعـة ليعرف ويسأل مـن كان قـائداً للمركب، وعنـدما أجـابوه أنهم يعـودون إلى ملك فـرنسـا، اقترب الملك بلهفـة من المركـب وبسرعة، لكنه لم يعثر على أية علامة أنـه فرنسي، كما أنه لم يحمل أية شارة مسيحية أو راية، وعندمـا تفحصه الملك عن قرب، بدأت تعلـوه الدهشة بسبـب حجمه الهائل، وصنـاعتـه المحكمة، فقـد كـان على ظهـره ثلاثـة سـواري(السفـن الأوربيـة امتلكـت حتى القـرن الثـالـث عشر سـاريـة واحـدة)، وكانـت أطرافـه معلمـة بشرائح حمراء وصفراء، وكـان مفروشـاً

بشكل جيد وفيه كل مـايلزم من عتـاد، إلى حد أن مـامن سفينة كـانت متفوقة عليه، كما كان مشحوناً بوفرة من الامدادات وبجميع أنواع المؤن.

وقال واحد ممـن كان على ظهر سفينة الملك، أنه عنـدما كان في بيروت شاهد هـذا المركب محملاً بمائة حمل جمل من السـلاح، والرماح، والقسي، والحراب، والنشـاب، وكـان على ظهـره سبعـة أمـراء وثمانين مـن نخبـة الأتـراك، وذلك إلى جـانب كميـات هائلـة لاتدخـل تحت الاحصاء مـن جميع أنـواع المؤن، وكان معهـم على ظهر المركـب كمية كبيرة مـن النفوط (النار الاغريقيـة) في قوارير، ومائتين من الأفـاعي القاتلة مـن أجل تدمير المسيحيين.

وجرى بناء عليه ارسـال آخرين للحصول على معلومات مـؤكدة أكثر، وعندما أعطوا بدلاً مـن الاجابة المتقدمة، اجابة جديـدة، حيث قالوا إنهم جنويين وجهتهم إلى صـور، بدأ رجالنا بسماع هـذا الجواب المتغير يشكون بصدقهـم، وأصر واحد مـن رجالنـا الذيـن كانـوا على ظهر السفينـة أنهم كانوا مسلمين، ولدى سؤال الملك له قال: «إنني أسمح لك بقطع رأسي، أو شنقـي على شجرة إن لم أبـرهن بـأن هؤلاء الـرجال مـن المسلمين، دع الشيني يمضي مسرعاً خلفهـم، لأنهم يحاولون الابتعاد، ولاتقدمـوا لهم أية نوع من أنواع التحيات، فبهـذه الطريقة سنمتلك برهاناًمؤكـداً عن ماهية مقاصدهـم، وإلى أي مدى يمكن تصديقهم، ثم انطلـق الشيني بناء على أوامـر الملـك خلفهـم بسرعـة كـاملـة، ولـدى الاقتراب مـن مـركبهـم، والتجديـف إلى جانبه بدون تقـديم تحية صـداقة لهم، بدأ البحارة يـرمون الحراب والنشـاب نحـو رجالنـا، وعنـدمـا رأى الملـك هذا أمـر بمهـاجمة السفينـة على الفـور، وبعـد تبـادل الـرشقـات مـن السهـام، انخفضـت سرعتها، لأن الريح حملتها بسرعة منخفضة.

ومع أن رجال سفينتنا جدفوا مراراً حـول السفينة، وتفحصوها بدقه، لم يجدوا نقطة موائمـة لمهاجمتها، لأنها بدت صلبـة ومحكمة إلى أبعد الحدود،

ومصنعة مـن مواد قـوية، زد على هـذا كانت محمية بوساطة حرس من المقاتلين، الـذين استمـروا في رمي النشاب نحوهـم، ولم يستمتع رجـالنا أبداً بـرماية النشـاب، ولابالارتفاع العظيـم للسفينة، لأنه مـن الممكن أن تصطرع مـع عدو وتقـاتل ضـده على مستوى واحـد، لكن عنـدما تـرمى الرمايات من أعلى دوماً تؤذي الذيـن هم بالأسفل، لأن رؤوسها الحديدية تسقط نحـو الأسفل، وعنـدما بدأ جهـدهم يسترخـي، ازداد حماس الملك صعوداً، ورفـع صوته يقول متسـائلاً:«هل ستدعـون السفينة تمضي وتهرب دون أن تلمـس أو تصـاب بـالأذى؟ العار لكـم! هـل تحولتـم إلى جبنـاء نتيجـة تقاعسكـم، بعـد كثير من الانتصـارات؟ العـالم أجمع يعرف أنكـم مكرسـون لخدمة الصليب، ولسـوف تعانون من أشـد العقوبات وأقسـاها إذا ماسمحتـم للعدو بـالنجاة وهـو على قيد الحيـاة، وذلك بعـدما ألقـي أمامكم على طريقكم».

وبنـاء عليه أرغمـت الحاجـة رجالنـا، فقفـزوا بنشاط نحـو الماء، تحت طـرف السفينـة، وربطوا دفـة القيـادة ومجدافهـا بالحبـال، لحرف السفينـة وإعاقة تقدمها، وأمسك بعضهم بـالحبال، فقفزوا على ظهرها، واستقبلهم الأتراك برجولة، ومزقوهم إلى أشـلاء عندما وصلوا إلى ظهر السفينة، ورموا برأس هـذا، وبذراع ذاك، وبـأيدي آخر، وقـذفوا بـأجسادهـم إلى البحر، ولدى رؤيـة رجالنا هذا التهبـوا غضباً، وتجددت شجاعتهم مـن العطش لـلانتقام، وعبروا فـوق معظم السفينـة وقـاتلوا الأتـراك على شكل كتلـة واحدة، وبحـدة عظيمة، ومع أن الأتراك تـراجعوا قليلاً، غير أنهم قـدموا مقاومة عنيدة.

واستمرت المعركة إلى وقت طـويل، وسقط عدد كبير من على الجانبين، لكن في النهاية، ضغط الأتراك بشجـاعة على رجالنا، وردوهم إلى الخلف (مع أنهم قاومـوا بكل طاقاتهم) وأخـرجوهم من السفينـة، وبناء على هذا تراجع رجالنـا إلى شوانيهم، وحاصروا المركب من جميـع الجهات، وحاولوا

ايجاد وسيلة أسهل لحربه.

ولاحظ الملك الوضع الخطر الذي كان فيه رجاله، وإذا لم تتعرض السفينة للأذى لن يكون من السهل أخذ الترك مع السلاح والمؤن التي فيها، فأمر كل شيني من شوانيه بوجوب مهاجمة السفينة بوساطة رؤوسها المعدنية التي في مقدمتها، وهكذا أخذت الشواني تتراجع إلى الخلف، ثم تهاجم بسرعة كبيرة بوساطة التجديف أطراف السفينة لخرقها، وبهذه الطريقة تحطمت السفينة بسرعة، وأصبحت مفتوحة أمام الأمواج ومن ثم أخذت تغرق، وعندما رأى الأتراك هذا قفزوا إلى الماء ليموتوا، وقتل بعضهم من قبل رجالنا، وغرق الآخرون، واحتفظ الملك بخمسة وثلاثين منهم أحياء، وهم الأمراء والرجال الذين كانوا بارعين في صنع الآلات، لكن البقية لاقوا حتفهم، وتمّ التخلي عن الأسلحة، وغرقت الأفاعي، وتوزعت بين أمواج البحر.

ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا، لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة، لكن بوساطة الملك وبعون الرب تحولت إلى دمار الكفار، ولعون المسيحيين، وشهد المسلمون عن بعد ، ومن فوق أماكن شاهقة ما كان يحدث ، وبحزن وأسف حملوا الأخبار الى صلاح الدين ، الذي عندما سمعها أمسك بلحيته وأخذ ينتفها بغضب وحنق ، وانفجر يتمتم بهذه الكلمات : « يا الهي ، هل فقدت عكا ، وخسرت نخبة جندي ، الذين أثق بهم ثقة كبيرة ؟ إنني مقهور ومتألم غاية الألم لهذه الخسارة ».

وعندما حمل الذين شهدوا الواقعة الأخبار الى جيش المسلمين ، علت بين صفوفهم ضجة عظيمة من البكاء والنواح والندب المؤلم لحظهم السيء ، وقطعوا ضفائر شعرهم ، وتخلوا عن ملابسهم ، ولعنوا الساعة التي جاءوا فيها الى سورية ، وشتموا ما قدرته النجوم عليهم ، لأنهم خسروا بخسارة السفينة المذكورة أعلاه جميع نخبة شبابهم ، الذين وثقوا

بهم وعليهم اعتمدوا .

وبعد هـذا النجاح أسرع الملك رتشـارد مسروراً ومبتهجاً ، ومعـه جميع أركانه ، نحو عكا ، الى حيث رغبـاته الجامحة حملته ، وفي الليلة ، وبفضل ريح منـاسب ، رسـا الاسطول قـرب صور ، ورفـع الأسطول في الصبـاح المراسي ، ونشر الأشرعة ، وبعد وقت قصير بات البرج المرتفـع لعكا مرئيا، ثم قليلاً فقليلاً ظهرت بقية دفاعات المدينة .

وأحاط بالمدافعين المحاصرين حشـود لا تعد ولا تحصى ، منتخبة من كل أمة مـن أمم العالم المسيحي تحت قبة السماء ، وكانـوا جميعاً مؤهلين للعمل والتعـب في سبيل الرب ، لأنـه كان قـد مضى وقت طـويل على حصـار المدينـة ، وقد تـأثـرت كثيراًبـالجهـد المتواصـل ، والانهاك بسبـب ضغط الجوع ، وكـل نوع مـن أنواع العدوان ، وكـان من الممكـن أن يرى خلف المحاصريـن ، الجيش التركي وقد غطى الجبال والـوديان ، والتلال والسهـول ، بخيـام عكسـت ألوانها أشعـة الشمـس، ورأوا أيضـاًسرادق صلاح الديـن ، وخيمة أخيه سيف الديـن ، وخيمة تقي الديـن ، الرجل الرئيسي للمسلمين ، فهـو الذي تـولى حراسـة أجزاء البحـر وكان يخطـط للحملات الفعالة والمستمرة على المسيحيين .

وتفحص الملك رتشـارد وقدّر حجم جميع جيشهم ، وعنـدما وصل الى المرسـى ، جاء لاستقبـالـه ملك فـرنسا ، وجيـش كـامل مـن المحليين ، والأمـراء والمقـدمين ، والنبـلاء ، وقـد رحبـوا بـه بسرور وانشراح ، لأنهم كانوا منتظرين ومتشوقين لوصوله .

وفي يـوم السبت ، قبـل عيد الـرسول المبـارك بـرنابـا ، في اسبوع عيـد العنصرة ، نزل الملـك رتشارد الى اليابسـة قرب عكـا مع حاشيتـه كلها ، واهتـزت الأرض مـن صراخ المسيحيين المسروريـــن ، وعبر النـاس عـــن بهجتهـم بصرخـات الترحيب وبـالنفـخ بـالأبـواق، وأمضوا النهـار كلـه

بالاحتفال ، وسيطر على الجميع سرور عام . وبالمقابل ارتعب الأتراك ، وانكسرت نفوسهم بقدومه ، لأنهم أدركوا أن جميع حركات الذهاب والاياب هي محصلة قدوم حشود الملك ونزولها من السفن .

وسار الملكان مع بعضهما من المرسى ، وقدم كل منهما للآخر العناية الفائقة ، ثم ذهب الملك رتشارد إلى خيمته التي كانت معدة له من قبل ، وشرع مباشرة في الاستعدادات للحصار ذلك أن اهتمامه تركز بشكل رئيسي على ايجاد الوسائل والأدوات والآلات ، التي تمكنهم من الاستيلاء على عكا ، دون خسارة للوقت .

وما من قلم قادر على وصف البهجة بين الناس تلك الليلة ، ليلة وصول الملك ، وما من لسان قادر على وصف ذلك ، فقد نظر الى هدوء الليل على أنه ابتسامة ألقيت عليهم مع هواء عذب ، وصدحت الأبواق، وصوتت الصور ، مع نعيق النفر ، وسمعت الأنغام العميقة للطنبور والمزمار ، وشنفت الآذان ، وسمعت السمفونيات المهدئة وكأنها أصوات عدة مزجت بصوت واحد ، ولم يكن هناك إنسان لم يشارك في البهجة والحمد والشكر ، إما بغناء أغان شعبية للتعبير عن مشاعر السرور في قلبه ، أو ردد أعمال القدماء محركاً بما ضربوه من أمثلة أرواح المعاصرين ، وشرب بعضهم الخمرة بكؤوس ثمينة بصحة المغنيين ، في حين قام آخرون بمزج ذوي المراتب العليا والمراتب الدنيا مع بعضهم ، وأمضوا الليل في رقص متواصل ، وإزدادت بهجتهم بإخضاع الملك رتشارد لجزيرة قبرص، وهو مكان نافع وضروري لهم ، وسيؤدي خدمات جليلة لجيشهم ، وكدليل آخر على بهجة قلوبهم ولاضاءة ظلام الليل أشعلت الشموع والمشاعل فبثت الشعاع حتى بدا الظلام وكأنه أزيل بضياء النهار ، وخيل للترك أن الوادي كله كان يشتعل ، ثم إن البيزيين وقد نال اعجابهم مجد وأبهة الملك رتشارد ، أقبلوا عليه ووقفوا أمامه ، وقدموا له الخضوع ، وحلفوا له يمين الولاء ، وأخضعوا متطوعين

أنفسهم لسلطانه ولخدمته .

وفي اليوم التالي وهو أحد العنصرة ، سمع الملك رتشارد وعرف أن ملك فرنسا ربح إرادة وإيثار الجميع بإعطائه إلى كل جندي ثلاث قطع ذهبية (أوريAaurei) كل شهر ، عندها أعلن الملك رتشارد ، الذي لم يتفوق عليه أحد أو ساواه بالكرم بوساطة المنادي ، أن كل من أراد أن يدخل في خدمته ، بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها ، سوف يتلقى أربع قطع ذهبية بالشهر أعطية له ، وبهذه الطريقة تفوق بكرمه على الجميع ، لأنه فاق كل إنسان آخر بمحاسنه وبجوده ، مثلما بزّ الجميع بعطاياه وأبهته ، ولقد كان الناس يتساءلون :« عندما يقع أول قتال ، من الرجل الذيّ توقعناه طويلاً وانتظرناه بقلق وشوق ليباشر ذلك ؟ ، ومن الرجل الأول تفوقا بين الملوك والأعظم براعة في العالم المسيحي بأسره ؟ . لندع الآن إرادة الرب تقرر ذلك ،إن آمال الجميع ألقيت على الملك رتشارد ». لكن بعد مضي عدة أيام أصيب الملك بمرض حاد يدعى أرنولديا Arnoldia ، فهذا ما يطلقه عليه عامة الناس، وهو محصلة تغيير المناخ وآثاره على الجسم (حيث ينجم عنه فقدان أظافر اليدين والقدمين وسقوط الشعر وبعض الآثار على الجسد أيضاً)، وعلى الرغم من هذا أمر بإعداد العرادات والمجانيق ، وببناء الأبراج والقلاع (ميتغريفون) أمام أبواب المدينة ولم يوفر جهداً في تفعيل بناء آلات الحرب والاسراع بها .

كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً

ولم يرتح ملك فرنسا للتأخير في الشروع بالقتال ، فبعث كلمة الى الملك رتشارد قال فيها توفرت الآن فرصة مناسبة ، وطلب من الجيش أن يأخذ أهبته للقيام بهجوم ، لكن الملك رتشارد أوضح عدم قدرته على القيام بواجبه ، بسبب عدم قدرته الصحية ، وبسبب أن رجاله لم يصلوا بعد ، وأمل بوصولهم بسفن الأسطول المقبل ، وأنهم سيجلبون معهم مواداً من أجل إنشاء الآت ، ورأى ملك فرنسا أنه من غير اللائق الاقلاع عن خططه وغاياته ، وأمر بالاعلان عن هجوم بوساطة صوت المنادي في أوساط الجيش .

وبناء عليه ، في يوم الاثنين بعد عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان ، عندما أكمل ملك فرنسا إنشاء آلاته ، أصدر أوامره الى رجاله بحمل السلاح ، وكان بإمكانك وقتها أن ترى حشوداً لا تعد ولا تحصى من الرجال المسلحين ، المجهزين بشكل جيد ، وعدداً كبيراً من السوابغ والدروع ، والخوذ اللامعة ، والخيول الأصيلة ، والكثير الكثير من الأعلام والرايات المتعددة الأشكال والصنعة ، وعساكر ذوي جرأة معروفة وشجاعة ، كأنهم لم يروا من قبل ، ومركزوا رجالاً للدفاع عن الخنادق ، ضد هجوم متوقع خطره من قبل صلاح الدين من الخلف ، واقترب الجيش من أسوار المدينة بحملة نشطة جداً بقذف الحراب ، والنشاب والحجارة من العرادات والمجانيق بدون توقف .

وعندما رأى الترك المحصورين داخل المدينة هذا ، أثاروا ضجة هائلة ، وارتفعت أصواتهم الى السماء ، حتى أنها شابهت الصدام في الهواء الناجم عن لقاء الرعد بالبرق ، وكانت مهام بعضهم فقط قرع الطبول والصنوج والكوسات ، وجميع الوسائل الأخرى التي ترسل الشارات إلى

صلاح الدين والجيش في الخارج ، وذلك مـن أجل أن يقدموا لمساعدتهم والتفريج عنهـم حسبما كانوا متفقين ، ولدى سماع الترك هـذا ورؤيتهم له تجمعوا في جسـد واحد ، وجاءوا بكل مادة توفـرت لهم لطم الخندق ، واستهدفوا مـن وراء ذلك الجواز ، والهجوم على رجالنـا ، غير أنهم أخفقوا في أهدافهم .

فقد تمكن غودفري دي لوزغنـان ، وكان محارباً مجرب الشجاعة جداً ، من التصدي لهم ، وطـردهم من المواقع الـدفاعية التي استـولوا عليها ، وقد قتل عشرة منهم ببلطة حملها بيده ، وذلـك بطريقة رائعة جداً ، وما من واحد ضربه نجا من الموت ، وفضـلاً عن هذا أخذ بعضهم أسرى ، ووصلت شجـاعته وفعاليتـه الى حد ، أن ما مـن واحد من الجنـد يمكنه الادعاء بـالتمييز مثله ، منـذ أيام الجند المشهـورين مثل رولانـد وأولفر ، واسترد رجالنـا الدفاعـات لكن بوساطـة جهد كبير وبعد مصـاعب جمة ، لأن الترك تابعـوا تدفقهم ، وجعلوا بمقـاومتهم العنيدة وبـإصرارهم على القتال ، النتيجة مشكـوك فيها لوقت طويل ، ولقـد كان الصراع عنيدا ولا نظير له ، وكـانت الجلبة التي تصـاعدت من الصراع مرعبـة جداً ، الى حد أن الـرجال الذين كـانوا يتولـون الهجوم على المدينة ، وكانـوا عازمين على طم خنـادقها ، أرغموا على التراجـع والتخلي عن المحـاولة ، لأنهم كانوا غير قادرين في الوقت نفسه على الدفاع عن معسكرهم ضد الأتراك دون فقدان الكثيريـن من الفرنسيين بمقتلهـم بالـرمايات التـي صدرت عن الزنبورك والقسي العقارة ومن الحجـارة المقذوفة ، والنفوط المصبوبة عليهم ، وكان هناك الكثير من النواح والندب بين الناس .

كم انتظـرنا بتحـرق وبشوق وصـول الملوك ، وكيـف سقطت آمـالنا ! فلقد جـاءوا وربحنا لا شيء لا بـل عانينـا من خسـائر أكثر مـن المعتاد ، والذين توقعناهم قدموا إلى لا غاية!

ووضع رجـالنا مـن الفرنسيين أسلحتهم جـانباً ، وبـدأ الترك يسخرون

منهم ويعيرونهم ، وقد انتقدوهم في أنهم كانوا غير قادرين على انجاز ما بدأ وا به ، زيادة على هذا عندما ألقوا النفوط على الآلات وعلى بقية الأدوات والوسائل الحربية العائدة لملك فرنسا (التي صنعت بعناية فائقة)دمروها ، وكانت نتائج ذلك استبداد الغضب والحنق بملك فرنسا ، وغرق في حالة من مرض الوهن والأسى ، والاضطراب ، والرعب حتى أنه لم يعد يجرؤ على امتطاء ظهر حصانه.

وانتحب الجيش ، وأصيب بالاحباط نتيجة لمرض الملكين بالتخاذل، لأنه لم يعد لديه مقدم أو قائد يقاتل تحت رايته معارك الرب ، ولكي يضاف الأسى العام مات كونت فلاندرز قبل وقته ، وفقط قدوم رجال رتشارد ، بعد رحلة هادئة ثبتهم الى بعض الحدود .

وتعافى ملك فرنسا أولاً من مرضه ، وركز اهتمامه على بناء الآلات والأبراج ، وعزم على الانصراف الى هذا العمل ليل نهار ، ولقد امتلك آلة متفوقة السمات ، أطلقوا عليها اسم « جار السوء» وامتلك الترك أيضاً آلة مثلها أطلقوا عليها اسم «قريب السوء» وقد استطاعت مراراً بوساطة قذائفها تدمير «جار السوء » الى قطع ، لكن ملك فرنسا أعاد بناءها ، حتى تمكنت برماياتها المتواصلة من تدمير جزء من السور الرئيسي للمدينة ، وضعضعة البرج الملعون ، ومن جانب آخر ، هوت آلة دوق بيرغندي، وبالمقابل حققت آلة الداوية انجازاً مدمراً ، وفي الوقت نفسه استمرت آلة الاسبتارية في زرع الرعب بين صفوف الترك ، يضاف الى هذا كله كانت هناك آلة أخرى بنيت على حساب الجميع ، واعتادوا على دعوتها باسم « منجنيق الرب»وقد وقف إلى جانبه باستمرار كاهن يتولى الوعظ والتبشير، وكان رجلاً صاحب أمانة عظيمة ، وكان يجمع الأموال لإعادة ترميمه على الحساب العام ، ولإكتراء رجال لجلب الحجارة من أجل الرمي ، وأمكن بوساطة هذا المنجنيق ضعضعة جزء من السور ومن البرج الملعون بما يقارب العمودين منه .

وكان لدى كونت فلاندرز منجنيق منتخب ومن أكبرها حجماً ، وقد أضافه الملك رتشارد بعد موته الى واحد من المجانيق الأصغر التي امتلكها الآن ، وكان هذا مساوياً للكبير بالجودة ، وقد شرع هذان المنجنيقان بالرمي بشكل متواصل على مقربة من الباب الذي غالباً ما استخدمه الترك ، حتى أمكن القاء جزءمن البرج الى الأرض ، وبالإضافة الى هذين المنجنيقين أنشأ الملك رتشارد اثنين آخرين بصنعة متميزة وبمواد منتقاة ، ، وكان بإمكانها ضرب أماكن على مسافات واسعة جداً ، كما أنه أنشأ آلة قوية جداً لها سلالم للصعود إليها ، كانت تعرف عادة باسم «البرج » وقد غطاها بالجلود غير المدبوغة والحبال ، وصنعها من شرائح من الخشب الأكثر قوة ، الذي لا يمكن تدميره بأية نوع من القذائف ، أو يتأذى بالنفوط أو بأية مادة محرقة أخرى تصب عليه ، وأعد أيضاً منجنيقين ، كان أحدهما يمكن أن يطلق قذائف شديدة جداً ، وسريعة ، وبعيدة الى حد أنها وصلت الى الصفوف الداخلية من المدينة أي الى الأسواق .

وكانت هذه الآلات تتولى القذف ليل نهار ، وبات معروفاً أن احدى الحجارة التي رمتها قتلت اثني عشر رجلاً برمية واحدة ، وحملت هذه الحجرة فيما بعد الى صلاح الدين لتفحصها ، وكانت من الحجارة التي جلبها الملك رتشارد معه من مسينا ، وكانت هذه الصخور الصوانية والحجارة الناعمة لا يمكن لشيء أن يصمد أمامها ، حيث كانت إما أن تفتت الى قطع الهدف الذي تصيبه أو تسحقه فتحوله الى طحين .

كيف صدّ الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد

ونظراً لموقع عكا الحصين ، ولأنه كان مدافع عنها بقوات تركية منتقاة، فقد بدت صعبة جداً حتى يتم الاستيلاء عليها عنوة ، وعلى هذا بدد الفرنسيون حتى الساعة جهودهم بلا فائدة ، في بنائهم بكل عناية آلات ومعدات لتدمير الأسوار ، فكل ما أقاموه وشيدوه بنفقات عالية جداً ، دمره الترك بالنفوط ، أو بوسيلة محرقة أخرى التهمتها التهاماً ، وكان بين الآلات والمعدات الأخرى آلة بناها ملك فرنسا بعد تعب كبير ، وأعدها لتسلق الأسوار والصعودعليها ، وقد دعوها باسم «السنور» لأنها كانت مثل السنور تزحف وتلتصق بالسور ، وأعد آلة أخرى صنعها من أغصان الأسيجة القوية ، ووضع بشكل محكم تحت غطاء من الجلود ما كانوا يسمونه الحلقات الدائرية ، ولقد اعتاد ملك فرنسا على الجلوس تحتها وشغل نفسه بقذف الرمايات من آلة قاذفة ، فقد كان يترقب ظهور الترك فوق الأسوار الى جانب الشرافات فيرميهم وهم غير منتبهين .

ونشط الفرنسيون في أحد الأيام ، وسعوا وهم يزحفون بإصرار الى الأمام الى وضع سنور على الأسوار ، وعندما لاحظه الترك ألقوا فوقه كومة من الخشب الجاف جداً، وبعدما رموها فوقه وفوق «آلة السياج » التي بناها الفرنسيون بعد تعب كبير جداً ، صبوا عليهما كمية من النفوط وعندما التهبا بالنيران وجها منجنيقاً نحوهما فدمراهما إلى قطع.

ونتيجة لهذا غضب ملك فرنسا بلا حدود ، وبدأ يلعن الذين كانوا تحت إمرته ، وعيرهم لأنهم لم ينتقموا بشكل موائم من المسلمين الذين ألحقوا بهم مثل هذا الأذى ، وأصدر وهو في أعلى حالات انفعاله مرسوماً عند اقتراب الصباح ، جرى تعميمه بوساطة صوت المنادي ، قضى أن سيكون هناك هجوم ينبغي القيام به ضد المدينة في اليوم التالي .

وفي الصباح تسلح الجميع ، وجرى اختيار أشجع العساكر من بين الجيشين جميعا، وجرت مركزتهم عند الخنادق ، نحو الخارج ، للتصدي للهجمات المتكررة والمزعجة والمفاجئة للمسلمين ، لأن صلاح الدين تبجح أنه سيعبر في ذلك اليوم الخنادق عنوة فيبرهن عن شجاعته بإذلال الجيش المسيحي والحط من شأنه وإنزاله حتى الرغام ، لكنه لم يحافظ على كلمته مع أن جيشه ، جاء تحت امرة تقي الدين ، كتلة واحدة واقترب من الخنادق وحاول أن يجوزهم ، لكن الفرنسيين لم يكونوا بطيئين بالمقاومة ، وحاولوا قدر طاقتهم ردهم .

وكانت المقتلة على كلا الجانبين عظيمة ، وترجل الترك ، وزحفوا على أقدامهم بانسياب عظيم ، وبعد الالتحام بالمعركة قاتلوا بشجاعة واصرار يداً بيد بالسيوف ، وببلطات حادة ذوات طرفين ، وقاتل بعضهم بهراوات لها أسنان حادة ، وضغط الترك نحو الأمام ، وردهم المسيحيون ولقد كان المسلمون من أعظم الناس اصراراً وصموداً ، وبالمقابل كان المسيحيون من أكثر الناس شجاعة ، وتمكن المسيحيون بعد كثير من المشاق والصعوبات من تحقيق رد الترك ، لأن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداًبشكل واضح جداً.

وحاول الذين وجهوا هجومهم ضد المدينة بكل وسيلة توفرت لهم ، وبذلوا جهد طاقتهم لخرق الأسوار أو لغمها وانزالها ، أو تسلقها بوساطة سلالم التسلق ، وخشي الترك الذين كانوا داخل المدينة من حماسة رجالنا ، لذلك حركوا شارة الى ترك جيش صلاح الدين في الخارج ، ودعوهم إما الى الهجوم بقصد إزاحة الفرنسيين عن الأسوار ، أو تقديم عون مباشر اليهم .

وعندما عرف تقي الدين بهذا ، حملَ الأتراك من الخارج ثانية ، وضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، وقد دفعوا برجالنا الى الخلف بعدما بذلوا غاية طاقاتهم ، وتمكنوا بعنف من طم الخندق ، غير أن المسيحيين ، لم يقبلوا بهذا ، وقاوموا حملاتهم وتصدوا لها ، وأمكن بالتالي ردّ العدو .

وفي الوقت نفسه حقق الرجال الذين استخدمهم ملك فرنسا للغم السور، تقدما ووصلوا حتى اقتلاع أحجار الأساسات، وملأوا الثغرة المحدثة نتيجة الحفر، بقطع الأخشاب، ثم أضرموا فيها النيران، وتهاوت الأخشاب المعلقة تحت الأساسات تدريجياً، ومالت بعض الميل، لكنها لم تسقط كلها كتلة واحدة، وبادرت كتلة من المسيحيين مسرعة الى هناك للدخول من الثلمة وسوق الجيش التركي إلى الخلف .

ووضع الفرنسييون من الخارج السلالم على السور الذي انهدم جزئياً، وحاولوا الجواز الى المدينة، وبالمقابل تسلق الترك أيضاً السلالم للدفاع عن الثلمة التي أحدثت .

ثم وقعت واقعة رائعة، لا يمكن السكوت عن ذكرها، فقد رأى رجل واسع الشهرة، ومجرب الشجاعة وورائعها اسمه ألبيرك كليمنتس Alberic clements، الفرنسيين يبددون جهودهم مقابل قليل من النتائج، واستجمع ساعة تعبه الشديد كل قوته وقال :« سأموت هذا اليوم، أو إنشاء الرب، سأدخل مدينة عكا»، وبإكماله لهذه الكلمات تسلق بجرأة السلم، وما أن وصل الى أعلى السور حتى تساقط عليه الترك من جميع الجهات .

ولحق به الفرنسيون، لكن السلم تحطم تحت ضغط عددهم، وأصيب بعضهم اصابات أوصلتهم الى الموت، وتم سحب آخرين لحقت بهم جراحات بالغة، وصاح الأتراك لشدة بهجتهم، وأعلنوا عن سرورهم عندما رأوا الحادث، لأنه كان حادثاً مريعاً ومصيبة عظيمة .

ثم طوقوا ألبير كليمنتس، وقهروه، ذلك أنه ترك وحيداً على رأس السور، وطعنوه طعنات لا تعد ولا تحصى، وهكذا تحقق له ما قاله في أن يموت شهيداً إن لم يستطع تقديم العون الى رفاقه بدخول عكا .

وارتعب الفرنسيون كثيراً بسبب خسارته، وتوقفوا عن التسلق،

وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب لوفاته ، لأنه كان رجلاً صاحب مرتبة ونفوذ.

وبعد مضي وقت قصير تمكن اللغامون الفرنسيون إثر مثابرتهم في عملهم ، من لغم البرج الملعون ، وعلقوه بجذوع الأشجار من الأسفل ، وكان الترك يحفرون بالاتجاه نفسه ، وقد وصلوا الى الجزء نفسه من الأساسات ، وهنا دخل اللغامون من الجهتين بإتفاق سلام متبادل ، توجب بمقتضاه أن يغادر الترك دون التعرض للأذى ، وتوجب أيضاً اطلاق سراح بعض المسيحيين الذين أسروهم ، ولدى اكتشاف مقدمي الترك هذا كانوا كانوا مغمومين جداً وأغلقوا الممرات التي كانت تفضي الى الخارج .

ولم يكن الملك رتشارد قد تعافى بعد من مرضه، ومع ذلك كان متشوقاً للعمل ، وعاقداً العزم على الاستيلاء على المدينة ، لذلك قام باستعدادته لأن يتولى رجاله مهاجمتها ، على أمل أنه ، بعون الحكمة الربانية ، سوف ينجح ، ولهذه الغاية أمر بصنع آلة السياج النقالة التي كانت تعرف باسم سيركليا Circlia وأن توضع مع نسيج متداخل ، صنع بمهارة عالية وطريقة ذكية جداً، وقصد الملك من هذه الآلة لاستخدامها للعبور فوق الخندق خارج المدينة ، ووضعها تحتها أعظم رجاله مهارة وخبرة باستخدام الزنبورك والجروخ والعرادت ، وحمل هو نفسه الى هناك فوق فراش حريري ، ليعلم المسلمين بوجوده ، وليضع العزيمة في قلوب رجاله ، وقد تمكن من داخلها باستخدامه لقوسه العقار الذي كان ماهراً باستعماله من قتل العديد .

وتمكن لغاموه أيضاً من حفر نفق تحت البرج ، وعلقوه بالأخشاب ، وأضرموا النيران فيها ولدى اضافة عدة قذائف من المنجنيق سقط البرج الى الأرض بشكل مفاجىء وأحدث صوتاً عالياً.

وبعدما تأمل الملك كم كان تحقيق هذا النجاح صعباً، وأدرك أن عليه أن يصطرع مع أكثر الأعداء شجاعة وتصميماً، وأن هناك حاجة للاستعانة بكل قواه في القتال ، أمام هذا رأى أن خير طريقة لإثارة عقول جنوده الشباب بالوعد بالجوائز ، وليس بالتهديد والتحريض بالأوامر الشديدة فمن هو المعصوم من حب المربح ؟ ولهذا أمر المنادي أن يعلن عن جائزة قدرها قطعتين ذهبيتين ثم ثلاث ثم أربع لكل من يوقع منجنيقاً من على الأسوار ، ووعد بدفع مكافأة قدرها أربع قطع ذهبية لكل من ينتزع حجرة من السور ، ثم زحف الشباب نحو الأمام ، ونافسهم الجنود الشجعان ، وضغطوا من أجل سحب الحجارة من السور وكانوا متشوقين لنيل المجد والربح ولهذا ثابروا في عملهم وسط نشاب ورمايات العدو .

وأخفق كثير منهم في القيام بمهامهم ، في حين تم رد الآخرين ، فتراجعوا خوفاً من الموت ، لأن الترك صدوهم بنشاط من فوق ولم يكن بمقدرة الترسة ولا السوابغ والدروع حمايتهم ،وكان ارتفاع الأسوار عظيماً ، وكذلك كانت سماكتها ، ومع ذلك استطاع الرجال الشجعان بعد تغلبهم على جميع المصاعب انتزاع عدد كبير من الحجارة وسحبها ، وعندما انقض الترك عليهم كتلة واحدة ، ناضلوا من أجل صدهم ، ولكن لأنهم كانوا قد خلفوا أسلحتهم وراءهم ، فقد تعرضوا وهم أشبه بالعزل لنشاب العدو .

وتفاخر واحد من الترك فوق الأسوار ، وهو لابس لسابغة ودروع وسلاح ألبيرك كليمنتس المتقدم الذكر وكان هدفه اغضاب رجالنا ، لكن الملك رتشارد استطاع أن يصيبه اصابة قاتلة ، خرقت قلبه بنشابة من قوسه العقار .

وحزن الترك لسقوطه ، وركضوا جميعاً محتشدين للانتقام لمقتله ، وعرضوا أنفسهم بدون خوف وبجرأة عظيمة للنشاب وللحراب ، وردوا

رجالنا وضغطوا عليهم مثل المجانين ، ذلك أنه لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض ، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنا الاحترام والاعجاب ، وفي أثناء القتال الحامي ، لا شيء يمكنه أن يقف في وجه رمايات القوس العقارة أو مقاومتها سواء أكانت سوابغ مزدوجة ، أم دروع قوية ومحكمة الصنعة ، وعلى الرغم من كل شيء تابع الترك حفر نفق من الداخل ، وبذلك أرغم رجالنا على التراجع ، ورفع العدو أصواته عالية وكأنه حقق غايته .

وتهاوى البرج أخيراً بفعل رمايات منجنيقنا المتواصلة ، ونتيجة لسحب الأحجار منه بعدنزعها ، وعندما توقف رجال الملك رتشارد عن اللغم ، وتم الاقلاع عن الحملات ، هنا قام المرشحون منا لمرتبة الفروسية (المتشوقين دوماً للاطراء والنصر) بتسليح أنفسهم ، وكان بينهم حاشية ايرل أوف ليستر ، ورجال أندرودي كاين Cayegin وهو غوبرن ، وكان هناك أيضاًرجال أسقف سالسبري وقد انتظموا بشكل رائع ، وعدد كبير آخر ، وكان الوقت حوالي وقت المغيب ، في ساعة العشاء ، عندما استعد هؤلاء الشجعان مع المرشحين الأعظم روعة للهجوم على البرج ، وتقدموا حتى استطاعوا بكل جرأة صعوده .

وعندما رآهم الخفراء من الترك صرخوا بصوت مرتفع فأيقظوا المدينة كلها ، وحمل الرجال السلاح بكل سرعة ، وبادروا يركضون بأعداد كبيرة ليتولوا الضغط على المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم برشاقة .

وبينما رجالنا يحاولون دخول المدينة سعى الترك الى ردهم الى الخلف ، وقد اصطدموا مع بعضهم بعضاً وتقاتلوا يداً بيد، وواجهت يداً يمنى ، وقارع سيف سيفاً آخر ، وأمسك بعضهم ببعضهم الآخر ، وضرب بعضهم بعضهم الآخر ، وتم رد بعضهم وقتل بعضهم الآخر ، وكان تعداد رجالنا قليلاً ، غير أن أعداد الترك كانت بإزدياد مستمر ، وبرميهم للنفوط ، أرغموا رجالنا الذين لم يستطيعوا الصمود أمامها ، على التقهقر والنزول

من البرج ، وذلك بعدما قتل بعضهم على أيدي الأعداء ، ثم أحرقوا وتحولوا الى رماد بخلطات موادهم المدمرة، ثم تسلق البيازنة البرج بكل قوة ، وكانوا إما ظامئين للثناء أو متعطشين للانتقام ، ومن جديد قاتلهم الترك وكأنهم مجانين ، وصحيح أن البيزيين قاوموا بجرأة ، فقد أرغموا على التقهقر والتخلي عن البرج ، ولم ير قط ما يشبه الأتراك بالكفاءة والمقدرة بالحرب .

ولقد كان من الممكن الاستيلاء على المدينة في ذلك اليوم لو أن المعركة حوربت وفق خطة حكيمة بوساطة الجيش كله موحداً ، ولكن بما أن الجزء الأعظم كان وقتها يتناول العشاء ، كانت المحاولة محاولة احتمالية ولذلك لم تنجح .

كيف أبرم المحاصرون معاهدة مع المسيحيين وكيف تمت استعادة عكا

ماالذي يمكننا قوله حول هـذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هـذه الشاكلـة عـن مدينتهـم ؟ إنهم ممـن ينبغـي الاعجـاب بهم ، لشجاعتهـم في الحرب ، ولقد مثلوا شرف أمتهـم جمعاء ، ولـو أنهم اتبعوا الايمان الصحيح ، لما وجـدوا من يتفـوق عليهم بين رجـال العالم أجمع ، ومع ذلك ليس من دون سبب خافـوا من رجالنا ، ذلك أنهم رأوا النخبة بين الجنود مـن بين جميع صفوف المسيحيين جـاءوا لتدميرهـم ، وأن جزءاً من أسوارهم قد سقط ، وجزءاً قد انشطر ، والجزء الأكبر من جيشهم قد تشوه بفعل الحرب ، وبعضهم قتل ، وآخرون قد أضعفتهم جراحهم .

وكـان مـا يـزال في المدينـة ستـة آلاف مـن الترك مـع المشطـوب وقراقـوش المقدمين عليهـم ،وكانـوا قد يئسـوا من النجـاح واعتقدوا بـأن الجيـش المسيحي كـان قـد وهنت عـزيمتـه كثيراً لمقتل ألبيرك كليمنتـس ولمصرع أبناء رجـاله وأقـربائهم ، الـذين سقطـوا في المعركـة ، ورأوهم أيضاً أنهم كـانوا مصرين إمـا على الموت بشجاعة أو تحقيـق الفوز ولهذا فكروا بسلـوك طريق شبه مـذل ، وفي ظل الظروف ، التمـس المحاصرون ، بعد اجتماع عـام ، وموافقـة جماعية ، الحصول على هـدنة بغيـة إخبار صلاح الديـن حول أحـوالهم ، وللتأكـد إلى أي مدى سـوف يمنحهم الأمـن ، وفقاً لطبائع الشعـوب الهمجية ، إما بأن يـرسل اليهم مساعـدة عاجلة ، أو أن يسمح لهم بمغادرة المدينة والخروج منها بشرف .

وبغيـة الحصـول على هـذا الهدف ، جـاء إثنـان مـن أعلى المسلمين والكفار مرتبة وهما : المشطـوب وقراقوش ، إلى ملوكنا مع وعـد بأنه إذا لم يبعث صلاح الـدين لهم بمساعدة عاجلة ، سيتخلـون عن المدينة على شرط أن يسمح لجميـع الأتراك المحـاصرين بـا لمغادرة أحـراراً ، وأعطى

ملك فرنسا وتقريباً جميع الحضور من الفرنسيين في المؤتمر، موافقتهم ، لكن الملك رتشارد رفض بإصرار هذا ، وبعدما بات معلوماً ما يرضيه ، عاد قراقوش والمشطوب الى المدينة دون الوصول الى ما استهدفاه .

وعندما علم صلاح الدين بأن رسلاًقد بعثوا من قبل المحاصرين ، أمرهم بالحفاظ عن المدينة والدفاع عنها بالقدر نفسه من الشجاعة التي أبدوها حتى الآن ، ووعدهم بوفرة كبيرة من المساعدات ستأتي حالاً إليهم ، ذلك أنه أعلن للرسل الذين جاءوا من عندهم اليه ، أنه بلا شك سوف يتابع الصمود ، وأنه كان يتوقع وصول كتلة كبيرة من الجند من مصر، سوف يصلون بسفن وشواني ، وأصدر أوامره الى قائده المشطوب أن يبقى على اتصال به بدون انقطاع لمدة ثمانية أيام ، فإذا لم تصل المساعدات حسب اتفاقهم فقد وعد ووثق وعده باليمين ، أنه سيحصل للمحاصرين داخل عكا على سلام مشرف ، بقدر ما يستطيع ، من المسيحيين ، وأن يضمن حريتهم بالخروج ،وعندما سمع الرسل هذه الأشياء ، عادوا إلى عكا ، وكرروا وعود صلاح الدين ، وأقنعوا رجال البلدة بالمقاومة ، وذلك في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه بقلق وصول المساعدات الموعودة .

وفي الوقت نفسه لم يتوقف منجنيق المسيحيين لا بالليل ولا بالنهار، لضعضعة الأسوار، وعندما رأى الترك هذا ، أصيبوا بالحيرة والدهشة ، والرعب والاضطراب ، وألقى كثير منهم لشدة رعبهم أنفسهم من فوق الأسوار خلال الليل ، ولم ينتظروا وصول المساعدات الموعودة ، والتمسوا بتضرع تعميدهم وعدهم مسيحيين .

وأدرك صلاح الدين مخاطر التأخير، ولهذا قرر بعد طول تفكر أن يقبل بمطالب المحاصرين ويسلم بقرارهم ، وقد اقتنع بأن يفعل ذلك بضغط من أمرائه وقادته ، وذوي النفوذ من رجال ادارته .

وبعدما جلب الرسل قرار صلاح الدين الى المحاصرين ، امتلاوا بسرور عظيم ، وتوجه على الفور أعيان المدينة الى الملكين ، وعرضوا من خلال المترجمين تسليم مدينة عكا بدون شروط مع صليب الصلبوت ومائتين وخمسين من أعيان أسرى المسيحيين ، وعندما أدركوا أن هذا العرض لم يرضهما عرضوا تسليم ألفين من نبلاء أسرى المسيحيين ، وخمسمائة من ذوي المراتب الأدنى ، وهؤلاء سوف يتولى صلاح الدين جمعهم من كل أجزاء مملكته ، وذلك إذا ما تركا الترك يغادرون مدينتهم ، بثيابهم التي عليهم فقط ، تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم ، ولسوف يدفعون فدية عن أنفسهم مائتي ألف دينار إسلامي ، وكضمانة لتنفيذ هذه الشروط عرضوا وضع جميع الأعيان وذوي المراتب الرفيعة من أهل المدينة بمثابة رهائن في أيديهم .

وبعدما تولى الملكان مع أكثر المقدمين حكمة تفحص المسألة ، كان القرار الصادر عن الجميع هو قبول العرض والموافقة على الشروط ، مقابل تأدية الأيمان ، وكتابة شروط السلام ، وإذا ما سلم المحاصرون الرهائن أولاً يمكنهم التخلي عن المدينة ومغادرتها دون أن يحملوا أي شيء معهم .

وبناء عليه ، جرى يوم الجمعة ، بعد انتقال القديس بندكت ، تسليم الأعيان الرئيسيين والأمراء ، وأخذوا بمثابة رهائن ، وحدد موعد شهر واحد من أجل تسليم الصليب وجمع الأسرى ، وعندما أشيع في الخارج أن المدينة قد تم التخلي عنها ، اشتعل العامة - بحماقتهم - غضباً ، لكن الجزء الأكثر حكمة ابتهجوا ، تجاه هذه الصفقة الرابحة ، بدون مخاطر ، فهذا ما عجزوا عن تحقيقه منذ وقت طويل .وأعلن وقتها بصوت المنادي وجوب ألا يتعرض أي انسان بالإهانة للترك بالقول أو بالعمل ، وألا يثيروهم بالشتائم ، وأن يجري التوقف عن ارسال الرمايات من أجل تدمير الأسوار ، أو نحو الأتراك الذين يمكن رؤيتهم وراء الشرافات

، وعندما جاء اليوم الموعود ، ووقف الأتراك وظهروا فوق الأسوار جاهزين لمغادرة المدينة ، توجه المسيحيون نحو الأمام لينظروا اليهم ، واستبد بهم العجب عندما تذكروا الأفاعيل التي قاموا بها ، ودهشوا أيضاً لرؤية مظاهر البشر على وجوه هؤلاء الذين أخرجوا من مدينتهم وهم أقرب الى الإفلاس المالي ، ولم يتغير سلوكهم بسبب المحنة ، أما أولئك الذين أرغمتهم الضرورات القصوى على عدّ أنفسهم مهزومين ، وأن يلجأوا بأنفسهم الى التضرع لطلب العون ، فلم يحملوا أية علامات على الاهتمام والقلق مطلقاً ، وهم يتقدمون نحو الأمام ، ولم تظهر عليهم أدنى اشارات على الأسى لفقدانهم كل ما ملكوه ، وهكذا بدوا بتماسكهم وجلدهم الذي ظهر في محياهم ، أنهم هم المنتصرون ، وذلك لولا كفرهم وذنوبهم التعيسة التي اقترفوها ، فلطخت أمجادهم العسكرية .

وأخيراً بعد ما غادر جميع الترك ، دخل المسيحيون وعلى رأسهم ملكيهم الى المدينة من خلال الأبواب المفتوحة ، دخلوها وهم يرقصون ويبتهجون ، ويغنون بأصوات عالية تسابيح للرب، مع تقديم الشكر له والحمد ، لأنه أنزل رحمته عليهم ، وزارهم، وخلص شعبه .

ثم رفعت الرايات ومختلف الأعلام العائدة للملكين فوق الأسوار والأبراج ، وقسمت المدينة بالتساوي بينهما ، كما وزعا بينهما بشكل عادل الأسلحة والمؤن التي وجداها ، وجرى احصاء أعداد الأسرى ،ثم وزعوا بالتساوي ، ونال الملك الفرنسي في حصته قراقوش مع عدد كبير آخر ، وكان المشطوب والبقية حصة الملك رتشارد، زد على هذا أخذ ملك فرنسا ضمن حصته قصر الداوية مع كل امتيازاته وجميع ملحقاته ، وأخذ الملك رتشارد القصر الملكي ، واليه أرسل الملكتين مع وصيفاتهن وخدمهن ، وهكذا تملك كل واحد منهما حصته بسلام ، وجرى توزيع الجيش في أرجاء المدينة ، وأعطى أفراده لأنفسهم بعد صراع مرير لحصار طويل الغفران، وجددوا نشاطهم بالراحة التي كانوا بحاجة اليها .

وكانـت المدة التي انقضت فيما بين يـوم استيلاء المسلمين على مـدينة عكا، واليوم الذي أعقب عيد القديـس بندكت، الذي فيه استردت، أربع سنـوات، وكان مـن غير الممكن تفحـص أوضاع الكنـائس دون الاصابـة بالـرعب، ولم نتمكـن من دون الشعور بـالألم حكايـة الأشياء غير الـلائقة التي اقترفـت فيهن، لأنـه من الذي يمكنـه أن يقف بـدون دموع عنـدما ينظر إلى مظهـر التماثيل المقدسـة لصلب ابـن الرب، وصور عـدد كبير من القديسين وقد لطخـت أو شوهت بوسيلـة أو أخرى؟ ومن هو الـذي كان لـن سيرتجف رعباً أمـام المنظـر المخيف للمـذابـح وقـد قلبت، وأشكـال الصلبـان وقد ألقيـت على الأرض وديست احتقـاراً من قبـل تلك الأمـة المهينة وغير التقيـة، أي أمة الترك، وطمسـت جميع آثـار خلاص الانسـان والمتعلقة بالديـانة المسيحية، وجرى عرض ماتعلق بـالشعائر الاسلامية في الأماكن المقدسة.

وتراجـع صلاح الديـن في الليلة التي أعقبت دخـولنا، لخوفه منـا، من مكانه الذي كان متمركزاً فيه إلى واحد من أبعد الجبال.

حول الخصام بين الملكين

ونشب الآن خصام شديد بين الملكين حول مركيز مونتفرات، الذي آثره ملك فرنسا، والذي إليه قرر أن يمنح الحصة التي وقعت إليه الآن أو في المستقبل، في الأراضي المقدسة، لكن الملك رتشارد الذي شعر بالعطف نحو تعاسة الملك غي، لم يكن ليوافق على هذا العطاء، لأنه رأى أن كل شيء هو عائد إلى الملك غي وملك له.

وعاش الملكان في فراق حول هذه المسألة لبعض الوقت، حتى تصالحا بناء على وساطة المقدمين وقادة الناس، وقضى الصلح أن يعدّ المركيز هو الوريث عن طريق الزواج للعرش، وينبغي أن يعطى حكم صور (أي: صور، وصيدا، وبيروت) مع لقب كونت، وذلك كتعويض له عن المساعدة التي قدمها أثناء الحصار، وتوجب أيضاً أن يكون غودفري دي لوزغنان، لكونه أخي الملك غي، كونت يافا (أي: يافا وعسقلان) وذلك كتعويض على خدماته، وإذا مامات غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز، مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي، لكن إذا ماحدث وتوفي المركيز وزوجته، أثناء إقامة الملك رتشارد في هذه المناطق، فوقتها يترك إليه التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء؛ وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف بينهما إلى الأبد.

لقد كانت هكذا الأوضاع عند نهاية شهر تموز، وهو الشهر الذي وعد الترك أنهم سيعيدون خلاله صليب الصلبوت، وبالمقابل يستعيدون الرهائن، وشاعت أخبار بين عناصر الجيش أن ملك فرنسا (الذي رست عليه آمال الناس) عازم على العودة إلى وطنه، وكان يعد اعداداً حثيثاً لرحلته، ولكم كان سيئاً ومهيناً القيام بمثل هذا العمل، وأن تتوفر الرغبة فيه، في حين مازال هناك الكثير من العمل للقيام به، وأن يذهب في حين

أن واجبه كان يقضي عليه أن يتولى حكم هذا الحشد الهائل من الناس، وعندما كان وجوده ضرورياً جداً لتشجيع المسيحيين على متابعة مثل هذا العمل الديني المقدس، وأن يسهم في تقدم مثل هذا الواجب الثقيل، فلماذا جاء عبر هذا الطريق الطويل، وتحمل هذه المشاق، إذا كان قد عزم على العودة مباشرة تقريباً! وهل هو انجاز رائع وتنفيذ لتعهده، بمجرد الدخول إلى الأراضي المقدسة، والنضال ضد الترك، ومن ثم الحصول على مثل هذا النصر الصغير!

وادعى الملك الفرنسي أن سبب عودته هو المرض*، وقال بأن وفى بنذره بقدر ما استطاع، وفي الحقيقة لايجوز أن ننكر أنه بذل كثيراً من الجهد والمال في الأراضي المقدسة، وفي الهجوم على المدينة، وأنه أمن المساعدة لعدد كبير من الناس، وأنه بفضل نفوذه ووجوده تحقق بشكل أسرع تنفيذ الاستيلاء على عكا.

لكن عندما بات قراره الثابت بالعودة معروفاً لدى الجميع، وعندما رفض التراجع أمام عدد كبير من رجاله، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء، كان الفرنسيون، لو استطاعوا، على استعداد للتخلي عن طاعتهم له، ولاشمأزوا من حكمه، وحدث أن أنزلوا عليه كل أنواع اللعنات، وأماني السوء، والحظ العاثر، وغير ذلك مما يمكن أن ينزل بانسان خلال حياته، ومع ذلك كله، أسرع ملك فرنسا في رحلته، وبالمغادرة كيفما استطاع، وترك عوضاً عنه دوق بيرغندي مع عدد كبير من رجاله، زد على هذا التمس من الملك رتشارد أن يزوده باثنتين من شوانيه، وأعطاه الملك اثنتين من أحسن ما كان لديه، ولكم كان غير وفي وناكر لخدماته هذه، هذا ما سوف يرى فيها بعد.

*— بالاضافة إلى مرضه، شك الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بين رتشارد وصلاح الدين، كما أنه كان يرغب بالعودة ليستولي على فلاندرز التي توفي كونتها أثناء حصار عكا.

ورأى الملك رتشارد وجوب دخول ملك فرنسا في ميثاق معه من أجل الحفاظ على أمنهما المتبادل، لأنهما مثل آبائهما نظرا إلى بعضهما بعدم ثقة تحت غطاء الصداقة، ولهذا طلب الملك رتشارد من ملك فرنسا أداء يمين له أنه سيبقى وفياً له، ولن يؤذي رجاله أو بلاده عن معرفة أوبقصد، مادام الملك رتشارد باقياً في الأراضي الأجنبية، وأدى له ملك فرنسا اليمين وأعطاه دوق بيرغندي والكونت هنري بمثابة رهينتين وذلك مع خمسة آخرين أو ستة، فقدت أسماؤهم، ومعروف للدنيا كلها كيف حافظ على ميثاقه ويمينه، ذلك أنه ماأن وصل إلى بلاده حتى أهاجها، وسبب الاضطراب لنورماندي.

وودع ملك فرنسا جيشه وتركه في عكا، وتلقى عوضاً عن التبريكات، الأماني بسوء المنقلب واللعنات من الجميع، وبناء عليه صعد ظهر السفينة في يوم عيد القديس بطرس، وأبحر نحو صور، ولكنه ترك الشطر الأعظم من جيشه مع الملك رتشارد، وأخذ معه المركيزات غير المشهورين وقراقوش والرهائن الآخرين الذين كانوا ضمن حصته، وقدر أنه سوف يتسلم مقابل فديتهم مائة ألف قطعة ذهبية أو أكثر، مما سيكفي جيشه والانفاق عليه حتى الفصح.

لكن لدى إيمائه إلى الترك حول التباحث بشأن الفدية، لم يلتفتوا إليه، وكان واضحاً أنهم لم يكونوا على استعداد لدفع بيضة أو ريشة مقابل اطلاق سراحهم، ولهذا مات أكثر الرهائن على هذه الصورة ولم يدفع شيء، ومامن أحد ربح شيء مطلقاً، ولاحتى أية حصة من المؤن التي وجدت في المدينة، واعتاد الفرنسيون دوماً أن يتذكروا أنهم لم يتسلموا من ملك فرنسا زيادة على هذه المكافأة، ولهذا السبب غالباً ماقامت المشاحنات والخصومات فيما بينهم حتى قام الملك رتشارد — بناء على طلب من دوق بيرغندي — فأدانه، زيادة على مالديه من رهائن خمسة آلاف مارك فضي للانفاق على رجاله.

وعنـدما أدرك الملـك رتشـارد أن إكمال الأعمال، وتقـدم الشؤون، مـع الجهـد والانفاق بـات واقعاً عليه بشكـل رئيسي، قـدم هبات كثيرة مـن الذهب والفضة إلى الفرنسيين وإلى الآخرين مـن كل أمة من الأمم، حتى يجندوا أنفسهم له عن رغبة، ولينقذوا ماتعهدوا القيام بانقاذه.

وإثـر عودة ملـك فرنسـا مسرعاً إلى بـلاده، حول الملـك رتشارد جميـع اهتمامه نحـو ترميـم الأسوار، ورفعهـا إلى علو كبير، وجعلهـا أكثر كمالاً ممـا كانت عليـه من قبل أن يطاح بها،ومشـى هو نفسه حول الأسـوار، وحث العمال والحجـاريـن، وكأن اهتمامـه كلـه هـو النضال مـن أجـل استرداد ميراث الرب.

وبنـاء عليـه انتظـر الموعـد الـذي تـم الاتفـاق عليـه بين الترك وبينـه شخصياً، وصرف انتباهـه نحو اعداد الآلات والمجانيق لشحنهـا، وعندما مضى الـوقت الذي حـدده الترك من أجل رد الصليـب وفدية الـرهائن، انتظر لمدة ثلاثة أسـابيع مراعاة للاتفاق، ليرى فيها إذا كـان صلاح الدين سيحفظ كلمتـه وميثاقـه، ثم إنه لما ظهـر أن صلاح الديـن لم يكن مبـالياً بالموضوع، عدّه الملـك ورآه بمثابة منتهك لمواعيده، ولعل هـذا كان تدبيراً ربانيـاً، حتى يمكـن تحصيل شيء أعظـم فائدة، غير أن المسلمين طلبـوا منحهم وقتاً أطول للوفاء بوعودهم، وليبحثوا عن الصليب.

ثـم كان عليـك أن تستمع إلى المسيحيين وهـم يسألـون عن الأخبـار، ومتى سيـأتي الصليب، وكـان أحدهـم يقول متسـائلاً:«الصليب قـادم»! ويقول آخـر بأنه رأى الصليـب في الجيش الاسـلامي، لكن كـل متحدث كان مخدوعـاً، لأن صلاح الـدين لم يتخـذ أي اجراء لاسترداد الصليـب، لابل أهمل الرهـائن الذين كانـوا محتفظ بهم من أجله، ذلـك أنه أمل أن يحصل بوسـاطته على المزيد من المنـافع والشروط المفيدة، وأرسل بـالوقت نفسـه هدايـا ورسائل متـواصلة إلى الملـك رتشـارد حتى يـربح التـأخير بكلمات مزخرفة ومخادعة.

وأرسلت بالوقت نفسه رسائل إلى صور، لأمر المركيز أن يعود إلى الجيش، وليجلب معه الرهائن التي عهد بها إليه، وذلك من أجل الحصول على فديتهم، ورد المركيز على هذه الرسائل بشكل ساخط، في أنه لايتجرأ على المغامرة ليمثل بحضرة الملك رتشارد، وزيادة على هذا تبجح قائلاً أنه إذا ماجرى استرداد الصليب، يتوجب أن يسلم إليه النصف وهو حصة ملك فرنسا، وأنه مالم يتحقق هذا، هو لن يتخلى عن الرهائن، وسعى الرسل إلى اقناعه بوساطة الوعظ اللطيف، وعرضوا عليه أن يتركوا واحداً منهم بمثابة رهينة، وذلك كضمانة على أمانه أثناء الرحلة، وأن ذلك من قبل الملك رتشارد، لكنهم لم يفلحوا في اقناعه، لابل أكثر من هذا لقد أشفع رده بعدم العودة بيمين، ولهذا عادوا مخفقين، وفارغي الوفاض، وزادوا من تأجيج غضب الملك باخباره بالقصة كلها.

وجرى ارسال دوق بيرغندي، ودروغو دي أمين Amiensوروبرت دي كو نسي Quincey بسفارة ثانية إلى المركيز المذكور، ليأتي معهم إلى الجيش، غير أنه رد عليهم بعجرفة واحتجاج أنه لن يذهب، وسيحافظ على حكمه لمدينته، وعندما ردوا على تأكيداته بحجج مناقضة، أمكن الوصول بالمسألة بعد صعوبات إلى النقطة التالية: يتوجب على الرسل أن يأخذوا معهم الرهائن المسلمين إلى الملك رتشارد، لكنهم لم يستطيعوا بكل وسائل الاقناع التغلب على المركيز حتى يتحول عن نواياه العنيدة.

وعندما بات واضحاً للملك رتشارد، أن مدة أطول مما هو مقرر قد مرت، وأن صلاح الدين ماضي في عناده، ولن يعبأ بفداء الرهائن، عندها دعا إلى اجتماع لأعيان الناس، حيث تقرر بالاجماع وجوب شنق جميع الرهائن باستثناء عدد قليل من النبلاء وأصحاب المراتب العالية، الذين يمكنهم فداء أنفسهم، أو مبادلتهم ببعض الأسرى المسيحيين.

وفي يوم الجمعة بعد عيد صعود مريم العذراء المباركة (١٥ آب)، ألهم

الملك رتشارد بوجوب تدميرأصول وفروع الترك، وإنزال العقاب برعونتهم الداعرة، وكذلك ازالة الشريعة الاسلامية، ونشر الديانة المسيحية، وبناء عليه أمر بسوق ألفين وسبعمائة من الرهائن الأتراك إلى خارج المدينة، وشنقهم، وتقدم جنده بسرور عظيم لتنفيذ أوامره وللانتقام، بموافقة النعمة الربانية، من هؤلاء الذين قتلوا كثيراً جداً من المسيحيين.

وعند حلول المساء تم الاعلان بصوت المنادي بوجوب زحف الجيش في الغد، وعبور نهر عكا باسم الرب، موزع الأشياء الجيدة، وذلك بغية الزحف نحو عسقلان، والاستيلاء على تلك المناطق البحرية، وصدرت الأوامر أيضاً أنه ينبغي على السفن أن تحمل على ظهرها مؤونة عشرة أيام للجيش، من البقسماط ، والوجبات واللحوم، والخمرة، وكل ما يرى ضرورياً أيضاً، وقضت الأوامر على بحارة سفن الشحن والنقل التي حملت الميرة وكذلك رجالاً مسلحين، الالتزام بدقة الابحار على محاذاة الشاطىء، وهكذا تقدمت القوات على محورين، واحد في البحر وآخر في البر، لأنه كان من غير الممكن الاحتفاظ بالمنطقة وهي مشغولة تماماً من قبل الترك.

كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

في خلال الشتائين والصيف الواحد وإلى وسط الخريف عندما جرى شنق الأتراك (لأنهم استحقوا ذلك أمام الرب والبشر، مقابل تدميرهم لكنائسنا وقتلهم لرجالنا) مات كثير من المسيحيين الذين اشتركوا في حصار عكا وضحوا تضحيات عظيمة، وكان الحشد الذي مات من هذا الجيش العملاق أكبر من أن يحصى، ولقد فقدنا في الجيش ستة رؤساء أساقفة وبطارقة، واثني عشر أسقفاً، وأربعين كونتاً، وخمسمائة رجل من طبقة النبلاء، وكذلك عدداً كبيراً جداً من الكهنة ورجال الدين، مع آخرين من غير الممكن تعدادهم بشكل صحيح.

وعوفي الملك رتشارد إثر شنق الأتراك مباشرة، وبناء عليه خرج من المدينة مع حاشيته كلها، وأمر بنصب خيامه في السهل خارج المدينة، وبذلك اتخذ الجيش محلاته فوق السهل، ليكون جاهزاً للزحف، وجرى جذب بعض الفرنسيين بالكلمات الناعمة، وآخرين بالتوسل والرجاء، وكثير منهم بالمال، وذلك لمغادرة أماكنهم، وأرغم الملك بعضهم على الخروج بالقوة.

ولكن وضح أنهم خرجوا متثاقلين ومتذمرين، ولم يزدد تعداد الجيش، بينما كانت المدينة تعج بحشد هائل، وبلغ تعداد الجيش، بما فيهم الذين كانوا بالمدينة، ثلاثمائة ألف رجل.

واعتاد الناس على التراخي والرفاهية، لأن المدينة كانت مليئة بالمسرات حيث توفرت أفضل أنواع الخمور وأجمل الفتيات، وانغمس الناس بمفاسدهم، وهكذا تدنست المدينة بموبقات أبناء الخطيئة، وبينهم سكانها الذين جعلوا وجوه العقلاء تحمّر خجلاً من انعدام حيائهم، ومن أجل التخلص من هذه الموبقات صدرت الأوامر عن

اجتماع المجلس بمنع أي امرأة بالخروج من المدينة أو الذهاب مع الجيش، فيما عدا الغسالات اللائي لن يكن حملاً على أفراد الجيش، ولن يهيئن الفرصة للذنوب.

ثم عين الملك رتشارد عدداً كبيراً من الحرس للإقامة حول سرادقه من أجل حمايته، لأن الترك كانوا يقومون بغارات مستمرة، وقد اعتادوا طوال النهار القدوم والانقضاض عليهم وهم غير متنبهين، وكانت عادة الملك أن يكون الأول في الخروج إلى قتالهم وانزال العقوبة بهم، بقدر ماكانت العناية السماوية تسمح له.

وحدث في أحد الأيام أن وضع معسكرنا في حالة هياج بوساطة الترك، الذين هاجمونا وأحدثوا اضطراباً كبيراً، وهب رجالنا على الفور لحمل السلاح، واندفع الملك وفرسانه نحو الأمام، وكذلك كونت هنغاريا وكثير جداً من الهنغاريين معه، وقد أرغموا الترك على الفرار، وطاردوهم أبعد مما كان ينبغي أن يفعلوا، وأخذ بعض رجالنا أسرى في تلك البقعة وعوملوا معاملة مشينة مع أنهم تصرفوا تصرفات نبيلة جداً.

وأخذ كونت هنغاريا نفسه أسيراً من قبل الترك مع أنه كان رجلاً مجرب الشجاعة وشهيراً، وحمل بعيداً وكذلك رجلاً من بواتو اسمه هيوج، وكان مارشال الملك رتشارد، وقاتل الملك بلا وعي، ودون أن يعبأ بسلامة شخصه، وناضل بكل ماأوتيه من قوة لانقاذ مارشال هيوج، لكنه أسر بسرعة كبيرة جداً وحمل بعيداً، فلكم هو مصير الحرب غير مؤكد، فهؤلاء الذين حتى الآن منتصرين غالباً ماانهزموا ، وترى غداً الذين انهزموا فجأة منتصرين، ولقد كان مقدراً على الذين هزموا العدو أن يسقطوا هم أنفسهم ويموتوا، لأن المطارَدين الآن أصبحوا أسرى المطارِدين، والذي كان مدوناً لهم مجداً تبرهن الآن أنه حماقتهم، وغدت أفاعيل الشجاعة السبب للمخاطر.

ولم يكن الترك مثقلين بالسوابغ والدروع مثل رجالنا، وآذونا بمرونة حركتهم وسهولتها بشدة أكثر مما كان متوقعاً، وكان سلاحهم في الغالب سلاحاً خفيفاً، يحملون فقط قوساً أو دبوساً مسلح رأسه بأسنان حادة، أو بسيف أو برمح خفيف سنانه من حديد، ومدية معلقة بشكل خفيف، وعندما يهزمون من قبل قوة أعظم من قواهم، كانوا ينهزمون ويبتعدون على ظهور خيولهم بأقصى سرعة ممكنة، وليس هناك من يوازيهم في رشاقتهم في جميع أنحاء العالم، ومن عادتهم أنهم إذا مارأوا مطارديهم توقفوا عن المطاردة، الانعطاف والعودة، ومثلهم في ذلك مثل الذبابة، إذا ماطردتها تذهب، لكن عندما تتوقف سوف تعود، ومادمت تطاردها، تراها تطير، لكنها تعاود الظهور في اللحظة التي تتوقف فيها، وهكذا الأتراك عندما تتوقف عن مطاردتهم يطاردوك، وإذا قاتلتهم يطيرون بعيداً، وبناء عليه عندما جعلهم الملك يفرون، هربوا بدون توقف، ولكن عندما توقف ليعود، هددوه من الخلف، وأحياناً ليس بدون عقاب، وأحياناً ليس بدون الحاق الأذى برجالنا.

وفي صباح اليوم الذي كنا سنزحف فيه نحو عسقلان، سلح الجنود أنفسهم، وأصبحوا مستعدين في تعبئة كاملة، وبقي الملك نفسه في ساقة الجيش لصد الترك الذين هددوا باثارة المتاعب، ومن اللحظة التي شاهد فيها هذا الجنس البعيد عن التقوى، جيشنا يتحرك، تدفقوا من الجبال في مجموعات متفرقة، مثل المياه المندفعة، ووزعوا أنفسهم في مجموعات في كل منها مابين العشرين إلى الثلاثين، بحثاً عن أفضل الفرص لمضايقتنا، ذلك أنهم كانوا مزعوجين جداً لموت آبائهم وأقربائهم، الذين رأوا جثثهم المقتولة موزعة في المنطقة هناك، ولهذا ضغطوا بشدة على جيشنا باستمرار، لكن بفضل العناية الربانية لم ينجحوا بقدر مارغبوا، لأن جيشنا عبر فوق نهر عكا دونما أذى، ومن جديد نصب خيامه على الطرف الآخر من النهر حتى يوم الجمعة، (وهو عشية يوم عيد القديس بارثلميو)

ففي ذلـك اليوم احتشـدوا مع بعضهـم، ومع يـوم الاثنين التالي كـان قد مضى عامان منذ أن بدأ المسيحيون بإلقاء الحصار على عكا.

وفي صباح اليوم الـذي أعقب عيد القديس بارثلميـو، اصطف الجيش ليزحـف على طول شـاطىء البحـر باسـم الرب، ولكـم كان جيشـاً رائعاً بجند ممتازين، فقد كان بإمكانـك أن ترى هناك جماعة من نخبة الشباب ذوي الفضـائل والشجـاعـة، كـان مـن الصعـب أن تقـابـل مـن يوازيهم،أسلحة براقة، وأعـلام ذات زخارف مشعة، ورايات ذات أشكال متنـوعـة، ورمـاح ذات أسنـة لامعـة، وخـوذ مشرقـة، وكـذلـك الـدروع والسوابـغ، فلقد كـان جيشاً تمت تعبئتـه بشكل جيـد في المعسكر، وكـان جيشاً مرعباً للعدو.

كيف زحف الجيش نحو عسقلان

وقاد الملك رتشارد الطليعة، واحتفظ بخيرة الحراس وأعلاهم كفاءة وكانوا من النورمان للدفاع عن الراية، ونحن لانرى هنا خروجاً عن الموضوع الاقدام على وصفها، فقد كانت مكونة من جزع شجرة طويل مثل صاري السفينة، منتخب من أصلب أنواع الخشب، ووضع فوق أربعة دواليب (عجل)، وجرى ربط الجميع بأربطة حديدية، وبذلك بدت أنه لاسيف أو بلطة يمكن أن تقطعها، كما لايمكن للنار أن تؤذيها، وجرت العادة باختيار كوكبة من الجنود وتعيينها لحراستها، خاصة أثناء المعارك في السهول، وذلك خشية أنها إذا ماتعرضت لهجوم معادي أن تتحطم أو تلقى أرضاً، لأنه إذا حدث وسقطت لسبب ما، فالجيش كله سيتمزق وتضطرب أحواله، وإذا لم تظهر، يشعرون بالرعب، ويعتقدون أن قائدهم لابد وقد أصيب إصابة أفقدته وعيه، ومامن شعب يمتلك القدرة على مقاومة عدوه إذا كان مقدمه في وضع خطر منذ زمن سقوط الراية، لكن إذا بقيت مرفوعة، لديهم وقتها ملاذ يعودون إليه، فبجانبها يقوى الضعفاء والجنود الجرحى (حتى من أصحاب المراتب والشهرة)، وكذلك الذين يسقطون في المعركة يحملون إلى قربها، وتدعى الراية العظمى، لأنها أعظم شعار وشارة للجيش في أثناء القتال، وموائم كثيراً جرها فوق العجلات، لأنه عندما يتراجع العدو تتقدم، وإذا ماحدث العكس يجري جرها إلى الخلف وفقاً لأوضاع المعركة.

وجاء دوق بيرغندي مع الفرنسيين في الساقة، وسببت حركتهم البطيئة وتأخرهم الطويل، وقوع خسائر كبيرة، وزحف الجيش على محاذاة شاطىء البحر، الذي وقع على يمينه، وراقب الترك تحركاته من أماكن مرتفعة على اليسار، وفجأة أصبحت الغيوم داكنة، واضطربت السماء، وعندما وصل الجيش إلى واحد من الطرق الضيقة، الذي لايمكن عبوره بسبب عربات

المؤن، هنا تخلى الجيش عن نظام تعبئته، بسبب ضيق الطريق، واضطربت أحواله، وبات الزحف في خط طويل، بدون نظام.

ومـا أن رأى المسلمون هـذا، حتى تـدفقوا فجـأة على دواب الحمولـة، وعلى عربات الأثقـال، وفي لحظة قتلوا الخيول والرجـال، وسلبوا كثيراً من الأثقال، وهـاجموا بجرأة الذيـن تصدوا لهم وشتتوهـم بعيداًحتى شـاطىء البحر، ثم أعقب هذا نشوب صدام عنيف، قاتل فيه كل انسان في سبيل حيـاته، ووقتهـا قطـع الترك اليـد اليمنى لإفـرارد الـذي كـان من رجـال أسقف سالسبري، قطعـوها وهو ممسك لسيفه بها، ودون أن يبـدل الرجل مـن تماسكه العـام ومظهره شيئـاً تنـاول السيف بشجـاعة بيـده اليسرى، والتحم بـالترك الذيـن كانوا يضغطـون عليه، ودافع عـن نفسه بشجـاعة ضدهم، وفي هذه الساعة اضطربت الساقة وتشوشت كثيراً، وخشي جون فتزر لـوك من تردي الأوضـاع، فغمز بمهمازيـه حصانه ومضـى إلى الملك رتشارد الذي كان جاهلاً بما كان يحدث.

ولدى سماعـه بهذا، بادر مسرعاً تمام السرعـة، لمساعـدتهم، ومزق الترك مـن على اليمين واليسـار، بسيفـه مثـل البرق، وبسرعـة انهزم الترك الآن، مثلما هرب الفلسطينيون في الأيام الخوالي من المكـابيين، على هذه الشاكلة فروا من أمام الملـك رتشارد، واتجهوا نحو الجبال، لكن بعضهـم بقي بيننا بسبب فقدانهم لرؤوسهم.

وحدث في أثناء هذا القتال أن أحـد الفرنسيين، واسمه وليم دي بارتي Bartis ، وكان على خلاف مـع الملك رتشارد بسبب حسد قـديم، قد تصالح معه، ورده الملك إلى حظيرته بفضل حسن تصرفه غير الاعتيادي.

ولم يكن السلطـان بعيداً ومعـه كل القوة الـرئيسية لجيشـه، لكن الترك يئسوا من النجاح بسبب هذه الحملة الموفقـة، لذلك تمنعوا عن المزيد من قتال رجـالنا، مـرة ثانية، لكـن تابعـوا مراقبتهم مـن المرتفعات، وعنـدما

انتظم رجالنا مرة ثانية، تابعوا زحفهم حتى النهر الذي التقوا به صدفة، ولوجود صهاريج مياه جيدة استفادوا منها، نصبوا خيامهم هناك وارتاحوا ليستفيدوا من السهل الخصب، ووجدوا أن صلاح الدين تقدم له أن نصب معسكره هناك، وحكموا من خلال الأرض المداسة أنه امتلك جيشاً كبيراً جداً.

وكان صلاح الدين وأتراكه مستنفرين دوماً مستعدين لإلحاق الأذى بنا، وقد استولوا على بعض الممرات بين الجبال الوعرة، وتوجب على جيشنا أن يتابع زحفه عبرها، وعزموا على قتلنا أو أسرنا أو تشتيتنا عندما سنتقدم في صف طويل، لكن عندما زحف جيشنا من النهر بحذر وعلى مهل حتى حيفا، تمكنا من نصب خيمنا هناك، وانتظرنا كتلة الجيش الكبرى التي كانت تتبعنا.

وتمركزنا فيما بين حيفا والبحر، ومكثنا هناك لمدة يومين، نعد أنفسنا ونتفحص الأمور، ونستعرض أثقالنا، حيث رمينا ماعتقدنا أننا نستطيع أن نتخلى عنه، واحتفظنا فقط بماكان ضرورياً تماماً، لأن الجنود الرجالة زحفوا على أقدامهم، في حين عانينا نحن من ثقل الأحمال والميرة، ولهذا عانوا في أثناء القتال من كثير من الإنهاك والعطش.

وفي يوم الأربعاء، الذي وافق اليوم الثالث الذي تلا وقوفنا عند حيفا، تحرك الجيش نحو الأمام، وقام الداوية في المقدمة، وتمركز الاسبتارية في الساقة، وبرهن فرسان الفئتان على قدرتها العظيمة على التحمل وبالتالي على الشجاعة العظيمة.

وزحف الجيش في ذلك اليوم بحذر أكثر من المعتاد، وتوقف بعد مسيرة طويلة، فقد أغراه مارآه من كثافة الأعشاب وطولها، التي ضربت وجوه أفراده، خاصة وجوه الرجالة، وكان في هذه المناطق الساحلية أعداد كبيرة من الحيوانات البرية (اليرابيع) التي قفزت فيما بين أقدامهم

من بين الأعشاب الطويلة والكثيفة، وتم امساك كثير منها، ليس عن عمد، بل لأنها جاءت في طريقهم بالصدفة.

وبعدما سار الملك حتى تلحوم (التي هدمها المسلمون تماماً) ترجل وتناول بعض الطعام والجيش واقف ينتظر، ومن أراد منه تناول طعامه، وفور الفراغ تابعوا زحفهم حتى بيت عرف باسم «بيت الطرق الضيقة»، لأن الطريق هنا بات ضيقاً، وقد توقفوا هناك ونصبوا خيامهم.

وكان من عادةالجيش كل ليلة قبل الجلوس للراحة ندب واحد من الناس ليقف في وسط المعسكر وليصرخ بصوت مرتفع «العون، العون، من أجل الضريح المقدس»، وعندما كان بقية الجيش يسمعونه يرددون هذه الكلمات، ويرفعون أيديهم نحو السماء، وسط دموع منهمرة، وكانوا يصلون ويدعون طلباً للرحمة ولعون الرب في هذا المقصد، ثم كان المنادي نفسه يردد الكلمات بصوت مرتفع، ثم يرددها كل انسان وراءه للمرة الثانية، وبعد ذلك كان هذا يتكرر للمرة الثالثة بقلوب نادمة مع كثير من البكاء، فمن الذي كان بإمكانه التمنع عن البكاء في مثل هذه اللحظة؟ وبدا الجيش بعد الصراخ وفق هذه الطريقة وقد استرد نشاطه وارتفعت معنوياته.

وهاجمنا كل ليلة نوع من أنواع الزواحف، تدعى الثعابين، التي كانت تزحف على الأرض، وتلدغ لدغة سامة جداً، وكانت في النهار غير مؤذية، لكن مع حلول الليل، اعتادت أن تلدغ بشكل متواصل، وكان الذين يلدغون يتورمون على الفور بالسم، ويعانون من آلام حادة، واستخدم الذين تعرضوا للدغ من النبلاء والأغنياء نوعاً من مراهم الترياق بوضعه فوق مكان اللدغ، وبرهن الترياق أنه فعال في إزالة الألم، وأدرك أخيراً الأكثر فهماً وملاحظة بيننا أن الثعابين كانت تخاف وتهرب من الأصوات المرتفعة، لذلك أخذوا يصدرون أصواتاً عالية لدى اقترابها منهم، بوساطة الضرب على مقاعدهم، أو أعمدتهم أو الصناديق الخشبية أو

الأباريق، أو الطسوت، أو الصحون، أو المراجل، أو أية أداة من أدوات المنزل كانت تصل إلى أيديهم لإحداث صوت كاف بها، وطردوا بوساطة هذه الأصوات الثعابين.

وبقي الجيش لمدة يومين في ذلك المنزل المتقدم الذكر، حيث توفرت ساحة كبيرة للعسكرة، وانتظروا هناك حتى وصول السفن التي كانوا يتوقعونها، وأعني بهذا البوارج والشواني المشحونة بالميرة التي كانوا بحاجة إليها.

ثم تحرك الجيش، مستخدماً جميع الاحتياطات ضد الترك الذين بقوا على جناحهم حتى بلدة تدعى الملاحة، حيث كان الملك قد أمضى إحدى الليالي الماضية، وقرر هنا أن يتولى بنفسه قيادة المقدمة في اليوم المقبل، بسبب العوائق على الطريق، ولأن الداوية مكثوا في حراسة الساقة.

ولبس الملك في ذلك اليوم مهمازيه، وانقض على الترك وهو حانق جداً، وكان على وشك قطف ثمار مجد عظيم لولا أن أعاقه بعضهم وأخروه، مما عرقل نجاحه، لأنه بعدما طارد الملك رتشارد الأتراك إلى مسافة، توقف بعض رجاله فجأة، الأمر الذي عرضهم للوم في المساء، ولو أن أصحاب الملك تبعوه في المطاردة وتابعوا الجري وراء الترك، لنالوا نصراً مبيناً، لأن الملك دفع الجميع أمامه.

وواجه الملك مصاعب جمة لدى زحفه على طرف البحر بسبب الحرارة العالية، لأن الوقت كان ضيقاً، وهم قد ساروا رحلة يوم طويل، وأنهك المسير عدداً كبيراً منهم، فسقطوا موتى، ودفنوا حيث ماتوا، وعطفاً من الملك ورحمة أمر بعدد كبير ممن أنهكهم التعب من المسير أو المرض، أو أي سبب آخر، أن ينقلوا بوساطة الشواني والسفن إلى غايتهم، ووصل الجيش إلى قيسارية.

وكان الترك قبلهم هناك، وكانوا قد دمروا قسماً من الأبراج والأسوار، ودمروا المدينة بالقدر المستطاع، لكن عند وصول جيشنا هربوا، ونصب الجيش هناك خيامه وأمضى الليل على طرف نهر قرب المدينة، كان يعرف باسم نهر التماسيح (نهر الزرقا) لأن التماسيح افترست في احدى المرات اثنين من العساكر وهم يسبحون فيه.

وكان محيط مدينة قيسارية واسع جداً، والأبنية رائعة فخمة وبهية، وغالباً مازارها مخلصنا ومعه حوارييه، وصنع معجزات فيها، إنه هنا كان الملك قد أمر سفنه بمقابلة الجيش، وأمر الملك بالوقت نفسه بالاعلان في مدينة عكا بوساطة صوت المنادي، أن على الذين تخلفوا في المدينة لكسلهم الصعود إلى ظهور السفن التي أرسلت والقدوم إلى الجيش حباً للرب، للمساعدة على انجاح هدف المسيحيين، ولينفذوا عهد حجهم بكمال أعظم، وأطاع العديد منهم أوامره وقدموا إلى قيسارية مع الأسطول، الذي كان مشحوناً بوفرة من الميرة، وهيأ أن تتقدم السفن من ذلك المكان لتبقى على اتصال بالجيش ولتقدم له الخدمات.

وتجمع عدد كبير من السفن معاً، وعندما قسم الملك جيشه إلى فرق، انطلقوا في أحد الأيام في حوالي الساعة التاسعة، بخطوات بطيئة، بسبب أن الترك ضايقوهم عندما غادروا مراكزهم، ثم اقتربوا منهم كثيراً بقدر ماتجرأوا، وأنزلوا بهم مااستطاعوا الأذى والمضايقة.

وقد أزعجونا في هذا اليوم أكثر من المعتاد، لكن بعون الرب نجونا دونما أذى، لأننا تمكنا من قطع رأس واحد من أمرائهم، وكان رجلاً عظيم الشجاعة، ومشهوراً لاقدامه، وكان قوياً جداً إلى حد أن مامن أحد — كما قيل — كان يستطيع أن يرميه من على ظهر حصانه، أو يتجرأ حتى على قتاله، وقد حمل رمحاً كان أثقل بمرتين من رماحنا أطلق عليه اسم «رمح اياز»، وحزن الترك حزناً شديداً لمقتله واستولى عليهم الأسى، إلى حد أنهم قطعوا ذيول خيولهم، ولو سمح لهم لحملوا جثمان

مقدمهم.

ووصل الجيش بعد هذا إلى نهر كان يدعى النهر الميت (نهر المفجر؟) وكان المسلمون قد غطوه من قبل، حتى لايرى، ولكي تتعرض حياة رجالنا إلى الخطر بالسقوط به، لكن بفضل حكمة الرب ونعمته حفظنا من المخاطر، وبعد ماجرى كشف النهر شرب رجالنا منه وأمضوا الليلة هناك.

- ٨٩٤ -

كيف تحارب الجيشان عند أرسوف

تقـدم الجيش في اليـوم الثالـث ببطىء مـن النهر الميـت، ولأن رجالنـا كانـوا غير قادرين على المسير على طرف البحـر، الذي كان مغلقـاً بشعراء كثيفة، فقد أرغمـوا على الزحف خلال منطقة جبلية وعـرة جداً، وجرداء تماماً من كـل شيء، وحفـظ الجيش نفسـه أثناء الـزحـف في مجموعـات متراصة أكثـر من المعتـاد، وتولى الداويـة في ذلك اليـوم الساقـة، وهكذا خسروا عـدداً كبيراً من الخيـول من حملات الأتـراك، حتى أنهم غـدوا في حالة يائسـة تقريباً، وفقد كونت سينت بول أيضـاً كثيراً من الخيول، لأنه تصدى بنفسه للترك بشجاعـة عظيمة عندما هاجمونا وحققـوا خرقاً بيننا، وبفضل جهوده تمكـن الباقون من الجواز بسلام والابتعـاد سالمين، وهكذا استحق الشكر والثناء من الجيش كله.

وفي ذلك اليـوم جرح الملك في طـرفه بنشـابة أثناء طـرده للترك، وأثاره هـذا الجرح الخفيف وحمسـه لمقاتلتهـم بشجـاعة أعظـم، ذلك أن ضربـة الجرح جعلته متشـوقاً إلى الانتقام أكثـر، وقاتل خـلال النهار كله ضـدهـم وردهـم إلى الخلف.

ومن جانب آخر ثابر الترك على إغاظـة رجالنا وارهاقهم، وحافظوا على السير على طرف جيشنا، وألحقوا بـرجالنا من الجراحات بقدر مـا استطاعوا برميهم السهام والنشاب، التي تطايـرت مثل زخات المطر، وإنه لمحزن لو علمت كـم عدد الخيول التي سقطـت نتيجة طعنها وإصابتهـا بالجروح! وكم عـدد التي ماتـت فيما بعد، اثر عقـرها والجراحـة التي نالتهـا ! فلقد كان هنـاك سيلاً مـن النشاب والجروخ إلى حد أنـه كان يتعـذر عليك أن تجد مـوضعاً لقـدمك على الأرض حيـث تـوجب على الجيـش المرور دون الاصابـة بها، واستمرت هذه الحالة المحتـدمة والمرعبة طوال النهـار، حتى

حلول الظلام، فوقتها عاد الترك إلى خيمهم ومساكنهم، ووقف شعبنا عند مايعرف عادة باسم نهر المالح (نهر اسكندرون)، وأمضوا الليل هناك، ووصلوا يوم الثلاثاء بعد عيد القديس جايل، ومكثوا لمدة يومين.

واجتمع هنا حشد كبير بسبب الخيول التي ماتت إثر جراحتها، ذلك أن الناس كانوا راغبين بشراء لحوم الخيول، حتى أنهم لجأوا إلى نفخها، وعندما سمع الملك بهذا، أعلن بوساطة المنادي أنه سوف يعطي حصاناً حياً لكل من سوف يوزع حصانه الميت على أحسن الرجال في خدمته، ممن هم بحاجة إليه، وهكذا أكلوا لحوم الخيول وكأنها لحوم الطرائد والغزلان، وعدّوها لذيذة جداً، لأن الجوع حل الآن محل التوابل.

وفي اليوم الثالث زحف جيشنا في حوالي الساعة التاسعة في تعبئة قتالية، وانطلق من نهر المالح، لأنه كانت هناك اشاعات تحدثت عن أن الترك كانوا قد أعدوا كميناً في شعراء أرسوف وبساتينها، وأنهم كانوا عازمين على اضرام النيران هناك لمنع قواتنا من عبورها، غير أن رجالنا عبروا بنظام، فاجتازوا دون التعرض للأذى في المكان الذي قيل بأن الكمين قد نصب به، وبعدما خرجوا من الشعراء، وجدوا أنفسهم في سهل واسع يحاذيها، وهناك نصبوا قرب نهر يدعى بشكل عام روشتيل Rochetailie (نهر الفالق)، وأرسلوا من هنا جواسيس للاستطلاع، وقد جلبوا معهم أخباراً بأن الترك ينتظرون وصولهم في أعداد لاتحصى، لأن حشودهم غطت وجه الأرض هناك، وقدّر تعدادهم بثلاثمائة ألف رجل، بينما كان المسيحيون مائة ألف رجل فقط من الأشداء، ووصل الجيش المسيحي إلى نهر روشتيل يوم الخميس قبل عيد ميلاد مريم العذراء المباركة، واستراح هناك حتى اليوم التالي.

وفي الفجر الباكر من يوم السبت صب رجالنا أسلحتهم عليهم بعناية كبيرة لتلقي الترك الذين لايمكن لشيء أن يوقف عجرفتهم سوى القتال، وعبأ العدو نفسه بانتظام، واقترب منا أكثر فأكثر، وكذلك اتخذ

رجالنا غاية الحذر لوضع أنفسهم في نظام جيد بقدر الامكان.

وعبأ الملك رتشارد، الذي كان أكثر الناس خبرة بالشؤون العسكرية، الجيش على شكل كتائب، وأصدر توجيهاته للذين توجب عليهم الزحف في الأمام والذين كانوا في الساقة، وقسم الجيش إلى اثني عشر فوجاً، ثم قسم هؤلاء إلى خمس فرق، تسلسلت قياداتها حسب رتب الرجال تماشياً مع النظام العسكري، وكان من غير الممكن ايجاد جيش أحسن تنظيماً من الناحية العسكرية ولاأكثر قوة لو أن رجاله وضعوا ثقتهم في الرب الذي هو مانح الأشياء الطيبة، وشكل الداوية في ذلك اليوم الصف الأول، وجاء من بعدهم بنظام تام البريتانيون ورجال أنجو، ثم تلاهم الملك غي مع رجال بواتو، وكان في الصف الرابع النورمان والانكليز، الذي عهد اليهم بأمر العناية بالراية الملكية، وزحف بعدهم في الصف الأخير الاسبتارية، وكان صفهم مؤلفاً من نخبة من المحاربين موزعين على شكل مجموعات، وساروا متراصين إلى حد لو أن تفاحة ألقيت عليهم كان من غير الممكن أن تصل إلى الأرض دون أن تلمس رجلاً أو فرساً، وامتد الجيش من حد الجيش الاسلامي إلى طرف البحر.

وكان بإمكانك أن ترى هناك أفضل أشكال التمييز وأنسبها: أعلام وشارات من مختلف النماذج، وجنود أشداء، نشطاء ممتلئين حيوية، ومناسبين تماماً للحرب، وكان هناك ايرل أوف ليستر، وهيوج دي غيرني Gurnay، ووليم دي بورز Borriz ولكن دي فيرار Walkin De Ferrars، وروجر دي توني، وجيمس دي أفنس، وروبرت كونت أوف درول Druell، وأسقف بوفاي Beauvais، وأخوه وليم دي بار Barres، ووليم دي غارلاند Garlande، ودروغو دي ميرل Drogo De Mirle، مع كثير من أقربائه، وهنري كونت شامبين، وهو الذي تولى الحراسة على الجانب الأقرب إلى الجبل، مثابراً على النظر على الجناح ومراقباً له، وكان الجنود الرجالة والرماة ورماة الزنبورك والجروخ في

الخارج، وكانت ساقة الجيش ملاصقة لدواب الحمولة والعربات التي حملت الميرة، والأشياء الأخرى، وسارت فيما بين الجيش والبحر لتتجنب الهجوم من العدو.

هكذا كانت تعبئة الجيش ونظامه عندما تقدم بشكل تدريجي لمنع الانقسام (وعزل الأسلحة عن بعضها) ذلك أن فقدان الترابط بين صفوف القتال، يؤثر عليها ويجعلها أضعف في المقاومة، وسار الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع حاشية منتقاة من المقاتلين صعوداً ونزولاً، ليراقبا عن قرب أوضاع وسلوك الترك وسماتهم، ولاصلاح أي شيء في قواتهما إذا رأيا الفرصة المناسبة، لأنهما احتاجا في تلك اللحظة إلى فائق الحذر.

وكان في حوالي الساعة التاسعة عندما ظهرت فرقة كبيرة من الترك فيها عشرة آلاف من الجنود الأشداء، وكان هؤلاء الجنود سائقين نحونا للانقضاض علينا بأقصى سرعة ممكنة، ويرمون نحونا بالجروخ والنشاب بقدر ما استطاعوا من سرعة، وبالوقت نفسه مزجوا أصواتهم بصرخات مرعبة، وأعقب هؤلاء جنس شيطاني جهنمي من البشر، لونهم أسود، ويحملون مظهراً خارجياً مناسباً يعبر عن سوادهم، وكان معهم المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون باسم البدو، وهم عرق متوحش من الرجال أشد سواداً من السخام، وهم ممن يقاتل راجلاً، ويحمل كل منهم قوساً وكنانة ودرقة مستديرة، وهم عرق خفيف وفعال، وقاتل هؤلاء الرجال جيشنا ببسالة وارهاب، وكان من الممكن أن يرى من بعدهم الكتائب الحسنة التنظيم للاتراك، بشارات مثبتة على رماحهم، وأعلامهم وراياتهم لها علامات متميزة وكان جيشهم مقسماً إلى فئات، والفئات إلى جماعات، ويبدو أن تعدادهم جاوز العشرين ألفاً.

وقاتلوا رجالنا بانقضاض لايمكن مقاومته، وكانوا أسرع من النسور، وحين حملوا علينا منقضين كانوا أمضى من البرق، وأثاروا أثناء تقدمهم

سحابة من الغبار، حتى أن السماء أظلمت، وتقدم أمامهم بعض الأمراء، حسب مقتضيات الواجب، مع بعض الأبواق والنفر، وكان مع بعضهم شبور، ومع آخرين مزامير، ودفوف، وكؤوس، وصنوج وآلات أخرى، كانت تنتج ضجيجاً مرعباً، وصخباً، إلى حد أن الأرض ارتجفت من الأصوات العالية والمتداخلة، حتى أن أصوات الرعد لايمكن سماعها وسط صخب هذه الأصوات، وقد فعلوا هذا لإثارة أرواحهم ولتشجيعهم، فمع ازدياد العنف، تكون الأصوات قد ارتفعت، وهم يغدون أكثر جرأة في الانقضاض.

وهكذا هددنا الترك غير الأتقياء من على الجانبين: من جهة البحر، ومن جهة البر، ولم يكن من الممكن خلال مساحة قدرها ميلين من الأرض الاستيلاء على شبر منها أو رؤيته، بسبب المهاجمين الترك الذين غطوها كلها، ولكم ضغطوا علينا بعناد، واستمروا في حملاتهم الجريئة والعنيدة، ولهذا عانى رجالنا من خسائر كبيرة وقاسية في الخيول، التي قتلت بجروخهم ونشابهم!

ولكم كان مفيداً لنا في ذلك رماة الزنبورك منا وكذلك النبالة، الذين وقفوا إلى جانب صفوفنا المعرضة للفناء، وبذلوا غاية جهدهم لرد الترك الأشداء، واندفع العدو منقضاً علينا مثل السيل الجارف، مستهدفاً قتالنا، وهنا لم يستطع غالبية رماة الزنبورك الصمود أمام ثقل الهجوم المرعب، وحملتهم المخيفة، فرموا جانباً أسلحتهم، وخشية منهم أن يتعرضوا للموت بالاصابة بالرمايات، هربوا والتجأوا بجمعهم الكبير خلف الصفوف الكثيفة للجيش، وفعلوا ذلك وهم يولولون خوفاً من الموت، وهو أمر لم يكونوا قادرين على مواجهته، أما المتبقي من رماة الزنبورك الذين منعهم خوفهم من العار، من الهزيمة، أو لأنهم كانوا يأملون بالحصول على تاج الأبدية، لذلك صمدوا، وتحلوا بشجاعة عظيمة وجرأة فوقفوا ولم يتزحزحوا وقت الصراع، وقاتلوا بدون كلل أو ملل وبشجاعة

وجهاً لوجه أمام الترك، وفقط تراجعوا خطوة خطوة، وبذلك ضمنوا تقهقر رفاقهم.

ولكم كان المأزق ضيقاً الذي كنا فيه ذلك اليوم! ولكم كان هائلاً اضطرابنا، عندما تأثر بعضنا بالخوف، ومامن واحد منا كان لديه الثقة أو الشجاعة، ولم يرغب في تلك الساعة في أنه أنهى حجه وعاد إلى وطنه، عوضاً عن الوقوف بقلب خافق مضطرب في معركة غير معروف مصيرها، وصدقاً أقول إن شعبنا الذي كان تعداد رجاله صغيراً، قد طوق من قبل حشود من المسلمين، ولذلك لم يمتلك رجاله الوسائل للنجاة، كما أنهم بدوا وهم لايمتلكون مايكفي من الشجاعة للصمود أمام عدو كبير كهذا، لابل الأمر كان أشد من هذا، لقد كانوا أشبه بقطيع شياه وقع كل واحد منهم بين فكي ذئب من الذئاب، وليس هناك سوى السماء من فوقهم، والعدو جميعه من حولهم.

أي جيش في الوجود تعرض قط لهجوم مثل هذه القوات الهائلة؟ لقد كان بامكانك أن ترى عساكرنا وقد فقدوا مطاياهم، وهم بالتالي يزحفون على أقدامهم مثلهم في ذلك مثل الجنود الرجالة، أو يرمون بالجروخ ويستخدمون الزنبورك، أو السهام من القسي، ضد العدو، أو يصدون حملاته بخير وسيلة وبقدر مااستطاعوا، وضغط الترك الذين كانوا بارعين بالرماية باستمرار عليهم، وصبت قسيهم زخات من النبال، وامتلأ الجو برشقات النشاب، وحجب ضوء الشمس بوساطة الكميات الهائلة للنشاب، مثلما تظلم في الشتاء بسقوط البرد والثلج.

وضغط الترك بجرأة هائلة كادت أن تؤدي إلى سحق الاسبتارية، مما دفعهم إلى إرسال رسالة إلى الملك رتشارد بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة العدو الشديدة، مالم يسمح لفرسانهم بالتجمع والاقلاع بحملة تامة ضده، ومنعهم الملك من ذلك، ونصحهم بالبقاء على شكل كتلة متماسكة، وبناء عليه حافظوا على نظامهم وبقيوا إلى جانب بعضهم

بعضاً، علماً بأنهم كانوا قادرين بكل صعوبة على التنفس بسبب الضغط الشديد، وتمكنوا بهذه الوسيلة من المحافظة على متابعة الزحف على طريقهم، مع أن الحرارة حدث أن كانت عالية جداً في ذلك اليوم، وقد تصبب المسيحيون عرقاً في تلك المحنة، والذي أمكنه أن يراهم في ذلك الممر الضيق والمساحة المغلقة صابرين وهم يعانون من حرارة ومشقة ذلك اليوم مع حملات العدو(الذي شجع بعضه بعضاً على تدمير المسيحيين) لايمكن أن يساوره الشك في نفسه، أن محنتهم ووضعهم الحرج جداً، الذي ازداد سوءاً بحكم كونهم حشداً كبيراً، يومىء بالسوء لنجاحنا.

وقرع العدو على ظهورهم وأرعد وأبرق بمثل المطارق، لذلك لم يجدوا مجالاً لاستخدام قسيهم، فقاتلوا يداً بيد بالسيوف، والحراب، والهراوات، وترددت أصداء ضربات الترك ورماياتهم على الدروع والسوابغ المعدنية، وأعادت الأصوات وكأنها قرعت على سندان.

وكان القتال ثقيلاً جداً وشديداً، على الصف الأقصى من صفوف الاسبتارية، وازداد الوضع سوءاً وشدة، مع ازدياد عدم قدرتهم على المقاومة، ومع ذلك تحركوا نحو الأمام بصبر تحت آلام جروحهم، ولم يصدر عنهم ولاصوت تجاه الضربات التي سقطت عليهم، ثم ضغطوا نحو قلب الجيش الذي كان أمامهم، وذلك بقصد الحصول على السلامة، ولتجنب قسوة العدو الذي ضايقهم من الخلف.

وكانت قوات جميع المسلمين قد احتشدت مع بعضها من دمشق ومن فارس، ومن البحر المتوسط إلى الشرق، ولم يترك السلطان بين جميع الأجناس على الأرض، ولاواحد من الرجال المشهورين أو الأشداء، ولاأمة اتسمت بالشجاعة، ولاواحد من الجنود البواسل، أبداً، لم يترك السلطان أحداً من هؤلاء إلا واستدعاه لعونه، إما بالتوسل، أو بالمال، أو بالسلطة، وذلك بهدف سحق الجنس المسيحي، ذلك أنه كان يأمل أنه سيتمكن أن

- ١٠٩ -

يزيل الصليبيين مـن على وجه الأرض، لكن آماله تبـددت، لأن أعدادهم كانت كافيـة، بعون الرب، لتحقيق غايتهم، فلقد اجتمعـت بالفعل زهرة نخبة شباب وجند المسيحية، واحتشدت ومن ثم توحدت في كتلة واحدة مثل سنابل قمـح على سوقها، وجاءوا من مختلف مناطـق الدنيا، ولو أنهم سحقوا تماماً ودمروا، ليس هناك من شـك أنه لـن يبقى هنـاك ولاواحد يتولى المقاومة.

النصر الرائع للمسيحيين

غطت الهواء سحابة من الغبار أثناء متابعة رجالنا لزحفهم، وعانوا من ضغط من الخلف وذلك بالإضافة إلى الحر الشديد، وكان العدو شرساً، وأنزل بنا ضربات موجعة شيطانية، ومع ذلك ثابر المسيحيون على البرهنة أنهم رجال صالحون، وحافظوا بروحهم التي لاتقهر وضمنوا استمرار التقدم، في حين استمر الترك في تهديدهم بدون توقف من الخلف، غير أن ضرباتهم وقعت عليهم بدون أذى بسبب حمايتهم بوساطة السوابغ والدروع المعدنية، وأدى هذا إلى تراخي الترك في اندفاعهم وحماسهم تجاه اخفاق محاولاتهم، وبدأوا يتذمرون همساً معبرين عن خيبة الأمل، وأخذوا يصرخون بغضب شديد بأن رجال شعبنا كانوا من حديد، وأنهم لن يتخاذلوا أو يتراجعوا أمام أية ضربة.

ثم إن عشرين ألفاً من الترك الأشداء انقضوا مندفعين مجدداً ضد رجالنا، محدثين الفوضى بين صفوفهم حيث اختلط الحابل بالنابل، وأرهقوهم بكل وسيلة ممكنة، وعندما باتوا على حافة الانهيار أمام ضرباتهم العنيفة، صاح الأخ غارنيير دي نيب Napes ، وكان من أفراد الاسبتارية، بصوت مرتفع: « أيها القديس جورج الرائع، إلى متى ستتركنا هكذا في وضعنا المضطرب؟ والمسيحية كلها الآن على حافة الدمار، لأنها تخشى الرد بضربة ضد هذا العرق الفاجر».

وعند هذا ذهب مقدم الاسبتارية إلى الملك وقال له:« مولاي الملك، لقد ضغط العدو علينا ضغطاً شديداً وبعنف، ونحن في وضع نخشى فيه من العار السرمدي، طالما نحن غير متجرأين على رد ضرباته، ها نحن الآن يفقد كل واحد منا حصانه تلو الآخر، فكيف لنا أن نتحمل منهم الأكثر؟ ورد الملك عليه قائلاً: «أيها المقدم الجيد، إنه أنت الذي

ينبغي أن يصمد أمام هجماتهم: ما من واحد يمكنه أن يكون في لحظة واحدة في كل مكان».

وعند عودة المقدم، قام الترك مجدداً بحملة عنيفة عليهم من الخلف، ولم يكن بينهم أمير أو كونت إلا وتلطخ بالعار، وقال كل واحد للآخر: «لماذا لانحمل عليهم بأشد ما نستطيع وبأسرعه؟ ياللأسف، وياللأسف، سوف نستحق بشكل أبدي أن ندعى جبناء، وهو أمر لم يحدث لنا من قبل، لأنه لم يسبق لمثل هذا العيب والعار أن نزل بجيش عظيم مثل هذا الجيش، حتى من قبل غير المؤمنين، وما لم ندافع عن أنفسنا في أن نحمل بالحال وبدون تأخير على العدو، فسوف نجني خزيا وفضيحة أبدية، وسيزداد هذا ويتعاظم كلما تأخرنا في القتال.

وفيما هم يعالجون هذه المسألة، ولدى توصلهم إلى القرار نفسه بشأن القيام بحملة ضد العدو، قام فارسان، لم يعودا يمتلكان الصبر والتأخير، بوضع كل شيء في فوضى واضطراب، وعلى كل حال تقرر باتفاق الجميع أن تقوم ستة أبواق بالصدح بأصواتها في ثلاثة أجزاء مختلفة من الجيش، ويكون ذلك بمثابة شارة للاقلاع بالهجوم، وتفصيل ذلك: بوقان في المقدمة، واثنان في الساقة، واثنان في القلب، وذلك بهدف تمييز أصواتها عن أصوات أبواق المسلمين، ولتحديد المسافة لكل منها، ولو حدث ونقلت هذه الأوامر إلى الترك لأخفقت تماماً، ولقاد تسرع الفارسين المتقدم ذكرهما إلى إحباط نجاح الأمور.

فلقد انطلقا بسرعة تامة وانقضا على الترك، وتمكن كل واحد منهما من القاء خصمه الذي واجهه بطعنة برمحه، وكان أحدهما مارشال الاسبتارية، وكان الآخر بلدوين دي كاريو Carreo ، الذي كان رجلاً جيداً وشجاعاً، ومرافقاً للملك رتشارد، الذي جلبه معه في حاشيته.

وعندما لاحظ المسيحيون الآخرون هذين الفارسين وهما يندفعان نحو

الأمـام، وسمعاهما يـدعوان بصـوت واضـح القديـس جورج ليقـدم لهما العون، هـاجموا الترك وحملوا عليهم حملة رجـل واحد، بكل ما ملكـوه من قوة، ثم جاء دور الاسبتارية، الذين عـانوا طوال النهار من الضغط داخل صفـوفهم ومـن شدة الازدحـام فيها، فقـامـوا باللحـاق بهذين الجنـديين وحملـوا على العدو في صفـوف متلاحقـة، وبذلـك غدت مقـدمة الجيـش ساقته، وأصبح الاسبتارية الذيـن كانوا في الصفوف الأخيرة، أول من تولى الحملة، وانـدفع كـونت شـامبين أيضاً نحـو الأمام مـع جماعته المختـارة، وجيمس دي أفنس مع أقـربائه، وكـذلك روبـرت كونـت درو Dreux، وأسقف بـوفياس Beauvais، مع أخيـه، وكذلك ايـــرل ليستر، الذي قام بحملة حادة من اليسار نحو البحر.

وتكتل الذين كانوا في الصف الأول من الســاقة، وقاموا بحملة موحدة شديـدة جداً، وجاء بعدهـم رجال بواتـو، ورجال أنجو، ورجال بـريتاني، فقـد أقلع هـؤلاء بـاندفـاع سريـع نحـو الأمام، ثـم أعقبتهـم بقية قطـع الجيـش: وأظهرت كـل فرقـة شجاعتهـا واقـدامها بـالإلتحام مـع الترك، فأطـاحوا بهم حين طعنـوهم بـرماحهـم، ورموهـم أرضاً، وغـدت السماء داكنة بسبب الغبار الذي تصاعـد في مواجهات ذلك المعترك، وكان الترك قد تـرجلوا مـن على ظهور خيـولهم، حتى يتمكنـوا من التسـديد بشكـل أفضل نحو رجـالنا بنشابهم وجروخهم، غير أنهم قتلـوا على جميع الجوانب أثناء تلـك الحملة، فقـد بطحهم الفـرسان وجاء بعـدهم الجنـود الرجـالة فأجهزوا عليهم وقطعوا رؤوسهم.

ورأى الملـك رتشـارد، جيشـه وهـو يتحـرك، وقـد شرع بـالعـراك مـع الأتـراك، ولهذا طار مسرعـاً على ظهر حصـانـه، بأقصـى سرعة ممكنـة إلى وسـط الاسبتاريـة الـذين تـولـوا الحملـة، وإليهم جلـب المساعدة مـع حاشيتـه، وخرق صفـوف الرجالـة الأتراك، الذيـن تملكتهم الـدهشة تجاه ضرباته وضربـات رجاله، فأفسحـوا له الطريق مـن على اليمين ومن على

الشمال، وكان بإمكانك أن ترى وقتها أعداد كبيرة من الرجال وقد تمددوا على الأرض، وكذلك خيولاً كثيرة جداً بدون ركابها، وأيضاً الجرحى وهم ينتحبون ويندبون منيتهم القاسية، وكان هناك بعضهم وهو يلفظ آخر أنفاسه أثناء التمرغ بدمائهم المتخثرة، وكان هناك عدد كبير من الرجال بلا رؤوس، في الوقت الذي ديست فيه أجسادهم التي كانت بلا حياة من قبل أصدقائهم وأعدائهم.

ولكم اختلفت توقعات الذين تأملوا وسط الأرتال شكل مباشرة الحرب الرهيب عن قرب! هناك كان الملك— الملك الحاد، والملك غير الاعتيادي— وقد فلق أجساد الأتراك في كل اتجاه، ولم يكن هناك من يستطيع النجاة من قوة ذراعه، فحيثما التفت، شاهراً سيفه، شق لنفسه ممراً واسعاً، وهو يتقدم نحو الأمام، وكان لايتوقف عن الضرب والطعن بسيفه (لذلك قطعهم مثل حصاد يقطع الزرع بمنجله)، وخاف البقية من مشهد الذين كانوا يموتون وارتعبوا، ولذلك أعطوه المزيد من المساحة، وتراجعوا من أمامه، ذلك أن أجساد القتلى من الترك التي تمددت على وجه الأرض غطت أكثر من نصف ميل.

وتبرهن أن الغبار الذي تصاعد من القتال كان ضاراً جداً بالنسبة لرجالنا، لأنه عندما أصبح رجالنا يشعرون بالتعب من جراء قتلهم لأعداد كبيرة، ولدى تراجعهم لتنفس بعض الهواء النقي، لم يكن وقتها بامكانهم تمييز بعضهم بعضاً، وسددوا ضرباتهم بدون تمييز إلى اليمين وإلى الشمال، غير قادرين على التفريق ما بين العدو والصديق، فقدروا أن بعض رجالهم من رجال العدو، فقتلوهم بلا رحمة.

وهكذا ضغط المسيحيون بكل شدة على الأتراك، ولم يتقهقر هؤلاء أمامهم، وعلى ذلك ظلت نتيجة المعركة لوقت طويل متأرجحة غير محسومة ومشكوك فيها، وتابع الفريقان تبادل الضربات، فكل فريق منهما جاهد في سبيل نيل النصر، وفي تلك الأثناء تراجع بعضهم من على

الجانبين وقد غطتهم الجراح، في حين سقط آخرون على الأرض قتلى.

ولكم كان كثيراً ما يمكن رؤيته من الرايات والأعلام والعذبات، والرنوك الملونة التي كانت ممزقة وملقاة على الأرض، وسيوف الفولاذ المجرب، ورماح الخيزران ذوات الأسنة الفولاذية، والقسي التركية والحراب ذوات الأسنة الحادة، والنشاب والنبال، التي غطت الأرض، كما كان هناك من الجروخ ما يكفي لأن يكون حمولة عشرين عربة أو أكثر، وكانت هناك أجساد الأتراك الذين قتلوا ملقاة ومبعثرة بلا رؤوس، في حين حفظ آخرون شجاعتهم لبعض الوقت حتى ازداد رجالنا بقوتهم، وهنا تخفى بعضهم وأخفوا أنفسهم بين جثث القتلى، بينما تسلق بعضهم الآخر بعض الأشجار، فكشفوا، فكان أن رميوا فسقطوا أرضاً وهم يئنون ألماً ورعباً، وتخلى بعضهم أيضاً عن خيولهم، وسلكوا بعض الممرات المنحدرة والفردية نحو شاطىء البحر، ثم ألقوا بأنفسهم نحو أمواج البحر، من فوق الشعاب العالية، التي بلغ ارتفاع بعضها خمسة أعمدة.

وتم صد بقية الأعداء بطريقة مدهشة حتى بات من غير الممكن رؤية أحد خلال مساحة ميلين غير الفارين، مع أنهم كانوا من قبل من الجرأة والصمود بمكان، وقد امتلأوا بالعزة والفخر، لكن بنعمة الرب وفضله تحول فخرهم إلى ذل، وتابعوا الفرار دون توقف، ذلك أنه عندما توقف رجالنا عن المطاردة، أضاف الخوف وحده أجنحة إلى أقدامهم.

وكان جيشنا حين هاجم الأتراك مؤلفاً من أقسام، كما أن النورمان والانكليز الذين كان معهوداً إليهم أمر العناية بالراية، قدموا ببطىء وساروا نحو القوات التي كانت مشتبكة مع الأتراك، ولأنه كان من الصعب جداً تفريق صفوف الأعداء وتمزيق قواه، فقد وقفوا على مسافة قصيرة بعيدة هناك، لتكون نقطة تجمع للقوات.

ولدى انتهاء المذبحة، توقف رجالنا، وعندما رأى الفارون هذا، وكانوا

نحواً من عشرين ألفاً، استردوا شجاعتهم على الفور، وتسلحوا برماحهم وحرابهم، وحملوا على الفور على الكتلة العظمى للذين كانوا يتراجعون، واستنقذوا من أيدي رجالنا بعض الذين أسروهم آخراً.

ومن غير الممكن وصف الحملة التي تعرض لها رجالنا آنئذ، لقد كانت حقاً مرعبة، لأن النشاب والجروخ التي تساقطت عليهم وهم يتراجعون، حطمت رؤوس دروعهم وخرقت بقية أطراف فرساننا، ولذلك انحنوا، والتصقوا بقرابيس سروج خيولهم، غير أنهم مالبثوا أن استردوا شجاعتهم، واستأنفوا القتال، وكانوا عطاشى للانتقام (مثلهم مثل اللبوة عندما يخطف أشبالها)، وحملوا على الأعداء، وخرقوا صفوفهم وشتتوها.

ثم كان بامكانك رؤية الخيول وقد زالت سروجها عن أماكنها، والأتراك الذين كانوا قد فروا للتو، وعادوا وحملوا على شعبنا بشدة متناهية وبغضب هائل ، ولولا أن رجالنا حافظوا على التقدم ولم يتوقفوا أثناء الالتحام، بل بقيوا كتلة متحركة، لخبرت عنهم كل دفعة من الرمايات التي تلقوها.

وكان قائد الترك أميراً حمل اسم تقي الدين، وكان من أقرباء السلطان، وقد حمل راية ذات شكل مدهش ونموذج فريد: فقد حيك عليها صورة زوج من السراويل القصيرة، وهو رمز كان معروفاً بشكل ممتاز بالنسبة لرجاله، ولقد كان أقسى رجال أعدائنا وأشدهم عنفا والعدو الأعظم تصميماً للصليبيين، وكان تحت امرته سبعمائة من نخبة الأتراك، ومن أعظهم شجاعة من عساكر بيت صلاح الدين، وقد حمل أتباع كل واحد منهم علماً أصفر، مع عذبات ذوات ألوان مختلفة.

وحمل هؤلاء على رجالنا بسرعة قصوى، محدثين ضجة عظيمة، وكان مظهرهم مظهرا مخيفاً، وقد انقضوا على رجالنا الذين كانوا على نية الانعطاف والعودة نحو الراية العظمى، وشرعوا في تمزيقهم وطعنهم

بشدة متناهيـة، حتى أن أكثر الناس ثبـاتا بين مقدمينا تقلقلـوا تحت ثقل ضرباتهم وضغطهم، ومـع هذا ثابر رجـالنا وتابعوا الاشتبـاك بهم، وكانوا مرغمين على صد القوة بالقوة، وتعاظـم الالتحام وازداد كثافة، وتضاعفت الضربـات، وغدت المعـركـة أكثـر حدة، وكـانـت الجهـة المهاجمة تسعـى لسحـق أعـدائهـا، في حين سعـى الآخـرون — أي الفـرنجـة — لصـد المهاجمين وردهم.

وبذل كـلا الطرفان غايـة جهودهما، ومع أن رجـالنا كانوا أدنـى عدداً مـن أعدائهـم، لقـد تمكنوا مـن احـداث فوضـى عظيمـة وسط الأعـداء وأعطوا الانطباع أنهم حشـد عظيم، لكنهم باتـوا في مأزق شديد، وكـانوا غير قادريـن على العودة نحو الـراية العظمى بسهـولة، وبدأوا يتخـاذلون، وشجاعتهـم تتطايـر، وقلة منهـم تجرأت على تجديد الحملـة على الأعداء، وصدقاً أقـول: كان الترك أشداء جداً في حملتهم، وأرعبوا رجـالنا إلى درجة عالية، رجـالنا الذين أخـذت دماؤهم تتدفـق أمامهم وتسيل مثـل جدول صغير، وذلك نتيجة لما تلقوه من ضربات.

وعندما رآهم وليم دي باري— وكـان فارساً واسع الشهرة — ناكصين على أعقـابهم، خـرق صفـوفهـم، ومـن هنـاك حمل على الأتـراك بصحبـة رجاله، وكانـت حملته شديدة إلى حد أن بعضهـم سقـط بحد السيف، في حين أنقذ الآخرون أنفسهم بوساطة الفرار السريع.

ثم انعطف الملك باتجاه الجبـال، وكان على ظهر كميت قبرصي لا نظير له، وشتت الذين واجههم مـن على جميع الجوانب، لأن العدو هـرب من سيفه، وأفسـح أمامـه المجال، وذلـك في وقت تـدحرجـت فيه الخوذ على الأرض أمامه وتصاعـد منها الشررمن الضربات، ولقد كانـت حملته عنيفة جداً، وكانـت ضرباته كثيرة ومميته في ذلـك اليوم أثناء التحامـه مع الترك وصراعه ضـدهم، حتى أن العـدو تشتت في وقت قصير، وذهـب في جميع الاتجاهات، ومن ثم تسنـى لجيشنا متابعة سيره وسمح له بـذلك، وهكذا

بعد ما عانى رجالنا ماعانوه، عادوا أخيراً إلى الراية العظمى، وتابعوا زحفهم حتى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج الأسوار.

وفيما كانوا منشغلين بنصب الخيام، حملت كتلة كبيرة من الأتراك على أقصى صفوف ساقة جيشنا، وما أن سمع الملك رتشارد أصوات المهاجمين حتى تولى تشجيع رجاله وحثهم على القتال، وقام على الفور بالاندفاع بأقصى سرعة نحو الساقة ومعه فقط خمسة عشر واحداً من أتباعه، وانقض على الترك وهو يصرخ بصوت مرتفع وينادي:« أعنا أيها الرب، عونك أيها الضريح المقدس»!، وكرر هذا النداء ثانية، ثم أعاده مرة ثالثة، وعندما سمع رجالنا أصواته، بادروا مسرعين للحاق به، وقاتلوا الترك، وهزموهم، وأجبروهم على الفرار، وطاردوهم حتى أرسوف (التي قدموا بالبداية منها) ومزقوهم وأخضعوهم.

ثم عاد الملك من مطاردة الفارين وقتلهم، إلى معسكره، وفي تلك الليلة نام رجالنا بهدوء بعدما أنهكهم عناء ذلك اليوم.

وعاد كل من كان جشعاً لنيل الربح، ورغب في جمع الأسلاب إلى أرض المعركة، وحمّل نفسه بما أشبع رغبات قلبه، وذكر الذين عادوا من هناك بأنهم أحصوا وجود اثنين وثلاثين مقدماً تركيا قد قتلوا في ذلك اليوم، وقدروا ذلك من خلال سلاحهم الرائع ومظهر ملابسهم الثمينة، وبناء عليه افترضوا أنهم كانوا من ذوي الأهمية الكبيرة والنفوذ العظيم والسلطة، وبحث الترك أيضا عنهم وحملوهم معهم، وكأنهم من أعظم الناس مكانة، وحمل الترك مع هؤلاء جثث سبعة آلاف اختلطوا فيما بينهم، وكان أصحابها من ذوي المراتب التالية، وذلك بالاضافة إلى الجرحى الذين ساروا في مجموعات بطيئة خلف القوات، وعندما فقدوا قواهم سقطوا في أرجاء أرض المعركة وماتوا، وبفضل من الرب لم نفقد العشر من قواتنا، وأقل من واحد على مائة مما فقده الجيش التركي.

ولقد بكينا كثيرا وندبنا خسارة جيمس دي أفنس، الذي قهره الأتراك بفضل تفوقهم العددي، وقد رمي من على ظهر حصانه بشكل مأساوي وهو يقاتل بشجاعة، وتجمع الترك من حوله، وقتلوه بعد بذلهم لجهد عظيم، لكنه قتل قبل موته خمسة عشر رجلاً من الترك، وذلك تبعاً لرواية الذين أرسلوا لجلب جثته إلى المعسكر، فقد وجدوا هذا العدد الكبير من الترك وقد ألقوا من حوله، ووجدوا هناك بين الموتى إلى جانبه ثلاثة من أقربائه، ممن لم يقدم لهم بعض رجالنا المساعدة التي توجبت عليهم، بل (من المعيب القول): تخلوا عنهم وهجروهم أثناء صراعهم ضد حملة الأتراك، ولهذا السبب استحق كونت أوف درو Dreux مع آخرين كانوا حاضرين، العار والازدراء.

وامتلأ السلطان غضباً عندما سمع أن قواته المنتقاة، التي وثق بها ثقة كبيرة وعليها اعتمد، قد هزمت على هذه الصورة من قبل الصليبيين، وانفعل انفعالاً كبيراً، واستدعى إليه أمراءه وخاطبهم بقوله: « هل هذه هي أفاعيل عساكري الشجعان، الذين كانوا يوما من الأيام عظيمي الفخار، والذين أثقلتهم بالعطايا والهبات؟ ألا ترون أن الفرنجة يعيثون فساداً بالديار حسبما يرغبون، لأنه ليس هناك من يتصدى لهم»!، وخفض الأمراء رؤوسهم وطأطأوها نحو الأرض لدى سماعهم كلماته هذه، غير أن واحداً منهم رد عليه قائلاً:« مولاي السلطان المبجل، عفواً منك ومعذرة إن هذه التهمة غير عادلة، لأننا قاتلناهم بكل قوانا، وبذلنا غاية جهدنا لتدميرهم، غير أنهم قد ارتدوا دروعاً وسوابغ لايمكن خرقها بأي سلاح، ولهذا أخفقت جميع ضرباتنا، لأنها كأنما سقطت على صخرة من صوان، زد على هذا بين صفوفهم رجل تفوق على كل رجل رأيناه في حياتنا، وهم يدعونه الملك رتشارد (رك Ric)، فهذا الملك كما يبدو قد ولد ليتأمر على جميع الأرض، فما الذي كان يمكننا فعله ضد مثل هذا العدو المرعب»؟

واستدعى صلاح الدين وهو في حالة غضب قصوى وانزعاج، إليه أخاه سيف الدين، وخاطبه قائلاً: « إن رغبتي هي أن تحاول معرفة المدى الذي يمكننا الاعتماد به على رجالنا في هذه الضائقة، وكم من الثقة يمكن أن نضعها فيهم: امض بدون تأخير ودمر أسوار عسقلان وغزة، لكن أبق دير البلح في عهدة رجالنا لضمان سلامة الذين يعبرون ذلك الطريق، ودمر أيضاً: النطرون وتل الصافية، ويافا، والجيب الفوقاني، والجيب التحتاني، واللد، والرملة، وكوكب، والشوبك، وقاقون، وقلنوسة، والقيمون، وجميع الحصون الجبلية، ولاتبق مدينة ولا قلعة ولاحصنا، باستثناء القدس، والكرك» .

وأطاع سيف الدين هذه الأوامر، وخرب جميع هذه القلاع والحصون بدون تأخير.

-٩١٢-

كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً بيد الترك

وفي يوم الاثنين، وهو اليوم التالي لعيد ميلاد العذراء المباركة، واليوم الثالث الذي جاء بعد المعركة، زحف الملك رتشارد مع جيشه إلى أرسوف، ووصل إلى النهر دونما معارضة، وعندما وصل الصليبيون، كان الترك واقفين في كمين قريب، لذلك رموا معظمهم بالحراب والجروخ والنشاب، غير أنهم أخفقوا في تحقيق النجاح، ولهذا تراجعوا، وعسكر رجالنا تلك الليلة عند أرسوف.

وفي الصباح، لم يكن من السهل على قواتنا المحافظة على تعبئتها، ومع ذلك زحفت مع ضباط رسميين إلى يافا، التي وجدوها بحالة دمار، لهذا تعذر على الجيش أن يجد مكان إقامة فيها، ولهذا عسكر رجال الجيش في بستان للزيتون على الجانب اليساري من البلدة، وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أسابيع على مغادرة عكا.

ومكث الجيش خارج أسوار يافا، وجدد نشاطه وتمتع بوفرة الفواكه هناك من تين، وعنب، ورمان، وحمضيات، وهو ما كانت المنطقة هناك تنتجه، وسافرت سفن الاسطول العائد للملك رتشارد مع مراكب أخرى كانت قد رافقت الجيش، فيما بين يافا وعكا. وجلبت لنا ما كنا نحتاجه، مما أغضب الترك كثيراً، ذلك أنهم لم يتمكنوا من منعها.

وكان صلاح الدين قد دمر بالوقت نفسه أسوار عسقلان، وجلب هذه المعلومات واحد من الجنود العاديين، الذي نجا أثناء تنفيذ العمل، لكن صعب على شعبنا أن يصدق أن هذا كله قد صنعه صلاح الدين وهو في حالة يأس، وبغية التأكد من حقيقة الأمر، بعث الملك رتشارد، بناء على نصيحة نبلائه، غيوفري دي لوزغنان، ووليم دي ستاغنو مع آخرين في سفينة حربية قوية، للإبحار إلى عسقلان، ومن ثم العودة جالبين معهم

بيانا عـن الأوضاع وعن مجريات الأمـور، ونفذوا المهمة بإخـلاص، وذكروا أن ما سمعوه كان صحيحاً.

وبنـاء عليه تنـاقش الملـك رتشارد مـع نبـلائه وتباحـث حول الـذي عليهم القيـام به: هـل يزحفون الى عسقـلان لإنقاذهـا، أم يزحفـون نحو القـدس، وعرضـت آراء كثيرة ومـواقـف عديـدة، وعـرض الملـك موقفـه بحضور دوق بيرغنـدي وآخرين بهذه الكلمات حيـث قال:« يبدو بـالنسبة لي أن خـلافاتنـا بالـرأي، لايمكن أن تكـون بلا فـائدة فقط، بـل خطيرة بالنسبـة للجيش، فالترك الذيـن يتولون تخريب عسقـلان، لايتجرأون على مقابلتنا على ساحة المعركة، وأعتقـد أن علينا بذل الجهد لانقاذ عسقلان، في سبيل حماية الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق».

وعارض الفرنسيـون بعنف هذا الموقف، وأوصوا بوجـوب استرداد يافا، لأنها تؤمـن طريقاً أقصر بالنسبـة للحجاج وأسهل للذهـاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيـدت الموقف الفرنسي، وهو رأي أحمق، صـدر عن عناد قاتل لهؤلاء الناس الكسالى، الذين آثـروا الراحة المباشرة والعمل الأسهل، وتجنبوا الجهـد والانفاق، وهـذا ما سـوف يندمـون عليه، لأنهم لـو أنقذوا عسقلان آنـذاك من الترك، لكـان من الممكـن سريعا تنقيـة الأرض كلها منهـم، لكـن صراخ الناس هـو الذي سيطر، وجـرى حشد بعـض الناس، حيث شرعوا على الفور في إعادة بناء أبراج يافا، وتعزيل الخندق.

وبقي الجيش هناك مدة طويلة يتمتع بالراحة والرفاه، وازدادات ذنوب رجاله وتراكمت عليهم يومياً، فقـد جاءت النساء من عكا إليهم، لإثارة غرائزهم، ولمضاعفة آثامهـم، وفسـد الناس جميعاً، وانطفأت حرارة الحماسة نحو الحج، وأهملت جميع أعمال العبادة والتقوى.

ومع نهاية ايلول، عنـدما اكتمل جزء من إعادة بنـاء يافا، تحرك الجيش من ضواحيهـا وعسكر أمام حصن حبقوق، وكـان جيشاً صغيراً جداً، لأن

من المؤسف أن عـدداً كبيراً منه قد غادروا وعادوا إلى عكـا، حيث أمضوا أوقاتهم في الحانات، وعندما شاهد الملك رتشارد تقاعسهم وانغماسهم في الآثام، أرسل الملـك غي لإعادتهم إلى الجيش في يافـا، غير أن عدداً قليلاً جداً منهم عاد، مما أرغم الملـك رتشارد نفسه على الإبحار إلى عكا، حيث حثهم على تذكر واجباتهم كحجاج، وأقنـع بهذه الوسيلة عدداً كبيراً منهم على العودة إلى يافا، كما أنه اصطحب معه الملكتين، ونسائهما.

ومكثـوا الآن مدة سبعـة أسـابيع في يـافا لـلاحتشـاد، ولتجهيز جيـش وإعداده، وهكذا عندمـا التأم جمعهم شكلوا كتلة أكبر عدداً وأكثـر كفاية من ذي قبل.

وخرج الملك رتشارد في هذه الآونة للصيد، ومعه مرافقة صغيرة، وكان عازمـاً أنه إذا ما رأى مجموعـة صغيرة من الترك أن ينقض عليهـا، ولدى شعوره بـالتعب الشـديد مـن الركـوب ترجـل ونام، وهنـا انقضت عليـه مجموعـة من الترك بشكل مفـاجىء بغيـة أسره، وأفاق الملك لـدى سماعه الأصوات، وما كـاد يمتطي صهوة مهره الكميت القبرصي، ويركـب رفاقه مطـايـاهـم، حتـى وصل الترك، غير أن الملـك امتشـق سيفـه، وانـدفـع نحوهـم، فتظاهروا بـالفرار، وجعلوه يسعـى خلفهم إلى مكان كمنـت فيه مجمـوعـة أخرى مـن الترك، وخـرج هـؤلاء مسرعين من الكمين وطـوقـوا الملك لأخذه أسيراً.

ودافع الملـك عن نفسه بشجـاعة، وتراجـع الأعداء، علما أنه كـان من الممكن وقـوعه بـالأسر لو أن الترك عرفـوا من كان هـو، ففي أثنـاء العراك صرخ واحـد من رفـاق الملك واسمـه وليـم دي بريتـلPratelles بلغة المسلمين، يعرفهـم أنه هو «الملك»، وصـدق الترك ما قاله، فسـاقوه أسيراً إلى جيشهم.

وقتل في هـذه المناوشة رنيير دي مـاروم، وكان فـارساً شجاعـاً، غير أنه

كان تقريباً أعزل من السلاح، وكذلك ابن أخيه وولتر مع ألان، ولوقا دي ستيبل، ولدى وصول أخبار هذه الواقعة إلى جيشنا استنفر، وحمل السلاح، وجاء مسرعاً جداً ليجد الملك، وعندما رآته عناصر الجيش عائداً، والتقى بهم، قاموا معاً بمطاردة الترك، غير أنهم لم يستطيعوا اللحاق بالفارين، وتم حفظ الملك رتشارد بيد الرب لأشياء أعظم، وقد عاد إلى المعسكر وسط بهجة عامة من قبل عساكره، الذين حمدوا الرب وشكروه على حفظه له، لكنهم حزنوا من أجل وليم دي بريتل، الذي أنقذ باخلاص الملك مقابل حريته الشخصية.

ووجه بعض رفاق الملك النقد الآن إليه، وحذروه من التجول خارج المعسكر لوحده، ومن تعريض نفسه للأسر بوساطة كمائن الترك، الذين كانوا متشوقين لأسره، وأن عليه أن يصطحب معه في جميع المناسبات بعض الجنود الشجعان، وألا يعتمد فقط على قوته للتصدي لمثل هذه الأعداد، لكن الملك لم يأخذ بنصائح أحسن رفاقه ولم يتمسك بها، فقد كانت طبيعة تدفعه للتحرر، وعدم التقيد، فهو قد كان في جميع الحملات الأول حملة والأخير تراجعاً، ولم يخذل قط سواء من قبل شجاعته، أو من العون الرباني، في العودة ومعه عدد من الأسرى، أو إذا قاوموا، جعلهم طعماً لسيفه.

ووضح أن العساكر قد ارتاحت الآن، واستردت شجاعتها، فصدرت الأوامر الملكية إليها لإعادة بناء قلعة الجيب الفوقاني، التي كانت ضرورية لسلامة الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق، وبناء عليه ترك الملك حامية في يافا، مع أوامر في أن لايغادر أحد منهم المدينة وذلك باستثناء التجار الذين يتولون جلب الميرة، وعهد بأمر المدينة إلى أسقف افرو Evreux، مع كونت أوف شالون Chalons ، وهيوج ريبول Ri-boleوآخرين .

وكان اليوم التالي هو ليلة عيد جميع القديسين، وبعد ما زحف الملك

لمسافة قصيرة عسكر فيما بين الجيب الفوقاني والجيب التحتاني، وكان الجيش التركي آنذاك في الرملة التي اعتاد أن يقلع منها بحملات ضدنا.

وفي يوم الأربعاء، وهو يوم عيد جميع القديسين، كان الملك رتشارد راكباً في سهول الرملة، ورأى صدفة بعض الكشافة الترك، فهاجمهم بشجاعة، وألحق بهم الهزيمة، وذلك بعد ما قتل بعضهم، وقطع رأس واحداً من أعيان أمراء الترك، وانهزم الباقون.

ومكث الجيش خمسة عشر يوماً حيث كان، وأعاد الداوية بناء حصن الجيب الفوقاني، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه حملات الأتراك، الذين حملوا عليهم في أحد الأيام بحشد كبير من الرجالة وألف من الخيالة، لكن الملك امتطى حصانه بسرعة، ونهض الجيش كله، وهرب الترك بعدما فقدوا عشرين رجلاً قتلوا، وستة عشر أسروا، وباءت بالاخفاق إثر هذا جميع محاولات الملك لأسر البقية وقتلهم، وتابع مطاردته حتى بات على مرأى من الرملة، ثم قاد قواته عائداً إلى المعسكر.

وفي اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين خرج جميع السادة ورجال السلاح للبحث عن الطعام والأعلاف لخيولهم ولحيوانات التحميل، وتولى الداوية حراسة السادة حينما تفرقوا بحثا عن أعشاب غضة، وهو واجب كلفهم أحياناً غالياً إذا ما تصرفوا بدون حذر شديد، وفيما الداوية منشغلون بهذا الواجب، اندفع نحوهم حوالي الأربعة آلاف من الترك في أربع مجموعات، وبدون تأخير كان الداوية مطوقين من قبل حشود متزايدة من الترك.

وترجل الداوية وسند أحدهم ظهره إلى الآخر، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وفي لحظة واحدة قتل ثلاثة منهم، وأعقب ذلك صراع حاد، لأن الترك حملوا عليهم بشدة متناهية وبحدة وحاولوا أخذهم أسرى، وعندما حملت أخبار ما يحدث إلى المعسكر، بادر أندرو دي شافني Cha-

vigny مسرعاً نحوهم لانقاذهم ومعه خمسة عشر فارساً، وتمكن من انقاذ الداوية من وضعهم الخطر، غير أن الترك كانوا يتسلمون النجدات باستمرار، وقاموا أحياناً بالهجوم وأحياناً بالتراجع، واستمرت المعركة مستعرة حتى سمع الملك رتشارد— الذي كان مشغولاً في اعادة بناء الجيب التحتاني — بالصخب، فبعث بكونت دي سينت بول وبإيرل ليستر لمساعدة الداوية، وذهب معهم وليم دي كين Cagen، وأوثو دي برانسنغ Pransinges ،وسمعت الجماعة بالحال صرخات الرجال المسلحين للنجدة، ثم حث الملك الكونتين ليتجهزا، وليحملا أسلحتهما وليلحقا بهم بأقصى سرعة ممكنة.

وبينما كان الكونتان مسرعان نحو الأمام ظهر أمامهما أربعة آلاف من الترك بشكل مفاجىء، وكانوا في أربع مجموعات، وجاء ظهورهم من واحد من الأنهار المجاورة، وهاجم نصفهم الداوية في حين حمل البقية على الكونتين، وهنا قدم كونت سينت بول اقتراحاً لم يكن مجدياً، إلى ايرل ليستر، وكان اقتراحه أن يتولى واحد منهم الاشتباك مع العدو، في حين يقف الآخر ليقدم العون عندما يتضح أن ذلك بات ضرورياً، واختار ايرل ليستر أن يتولى قتال العدو، ولم يرغب بالوقوف دون أن يعمل شيئاً، وهجم على الفور على الأعداء واستنقذ من أيديهم اثنين من رجالنا كانوا قد أسروهم، وأضاف بهذا الانجاز الذي حققه في ذلك اليوم كثيراً إلى سمعته العالية من قبل.

وكان الاشتباك يدور بشكل عنيف جداً، وذلك عندما وصل الملك، وكانت حاشيته صغيرة جداً، فقال له بعض رجاله:« لانرى يامولانا من الحكمة أو من الممكن، بعددنا الصغير، أن نقاوم هذا الحشد الهائل، كي أننا لن نستطيع انقاذ رجالنا الذين يقاتلون الأتراك، ومن الأفضل أن ندعهم يموتون على أن نعرض شخصك وجميع المسيحيين لخطر مؤكد وذلك في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على النجاة».

وتغير لون الملك لسخطه تجاه سماع هـذه الكلمات وقال:« ماذا، إذا ما أهملت أنـا تقديم العـون للرجال الـذين أنا بعثـت بهم أمامي، مـع وعد باللحاق بهم، إنني لن أستحق ثانيـة أن أدعى ملكاً، ولم يزد على هذا بل غمز حصانه، وانـدفع نحو وسط الأتراك، فقهرهم مـن على جانبيه، وكان شاهراً سيفه يضرب بـه حيث شق طريقه نحو الأمـام ونحو الخلف وسط الصفـوف الكثيفة، فقتـل وأصاب بشكـل قـاتل كـل واحد اقترب منـه، وكـان فيمن قتلهـم، واحداً مـن الأمـراء الأتراك، رمـاه حظه وقـدره على طريقه.

وصار العـدو إما طعمة للسيـف، أو منشغلاً بالفـرار، وعاد رجالنـا مع عدد من الأسرى إلى المعسكـر، وتم الحصول على هذا النصر دون نيـل أية مساعـدة من الفرنسيين، وتخلى في ذلك اليـوم نفسه ثلاثة مـن الأتراك— ربما لخوفهم مـن الموت — عن أوهـامهم، واعتنقـوا المسيحية، وخضعـوا للملك رتشارد.

وكان الآن قـد تمت اعادة بنـاء جزء مـن القلعتين، وإدراكاً مـن الملك رتشارد أن قواتـه لاتكره الأتراك فقط، بـل إنها لم تعد تخشاهم كما كـانت مـن قبـل، ذلك أن هـذه القـوات تمكنـت دومـاً — بعون الـرب— مـن هزيمتهـم، ولهذا قام الآن بـارسال سفارة متميـزة إلى صلاح الـدين وإلى أخيه سيـف الدين، يطلب استسـلام مملكة سوريـة، مع كل ما هـو عائد إليها، حسبما كانت أيـام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسلـم الجزية من مصر، مثلما كان الملـوك — من أسـلافه — يفعلـون مع جميـع الامتيازات والحقوق التي توفرت في يوم من الأيام وعادت إلى مملكة القدس.

وكشـف السفراء عـن محتوى رسـالتهم أمـام صلاح الـدين، الـذي لم يستجب أبـداً للمطالـب، ورد عليهم قـائلاً:« ادعى ملككم مطـالب غير معقـولة، ونحـن لانستطيع، رعـاية لايماننـا واسـلامنا أن نـوافق عليهـا، لكنني سـوف أمنح ملككـم من خـلال أخي سيـف الديـن جميع أراضي

القدس من الأردن إلى البحر، بدون جزية أو معيق، على شرط أن لا يعاد بناء مدينة عسقلان لا من قبل المسيحيين ولا المسلمين».

وعندما جاء سيف الدين حاملاً هذه الرسالة إلى الملك، كان الملك رتشارد قد فرغ لتوه من الفصد، لذلك لم يكن قادراً على التباحث معه في ذلك اليوم، لكن ستيفن دي تورنهام، أكرمه — بناء على أمر الملك — بكل أنواع الطيبات حيث وضعها أمامه على المائدة، واستضافه ولاطفه في الوادي فيما بين قلعتي الداوية ويهوشفاط، وبعث سيف الدين في اليوم التالي بهدية مكونة من سبعة جمال، وخيمة ثمينة، وجاء للمثول بحضرة الملك، حيث قدم رسالة صلاح الدين، ورأى رتشارد أن الفوضى وعدم معرفة نتائج الحرب والتأكد منها، تحتاج إلى الصبر والانتظار الطويل، ولذلك الأفضل الاتفاق حول المستقبل، لكن، من المؤسف أظهر قليلاً جداً من الحكمة والإدراك، ولم يكتشف الخداع الذي تعرض له حتى يمر الوقت فتكون المدن والقلاع والحصون في تلك المنطقة قد دمرت كلها.

وكان سيف الدين قد خدع ببراعة الملك الساذج جداً، إلى حد تكوين انطباع أن اتفاقاً قد عقد بتبادل المصالح الأسرية والتفاهم المشترك، ذلك أن الملك تسلم يومياً هدايا سيف الدين، وكانت الرسائل تمر يومياً مع الهدايا للملك، الأمر الذي أزعج أصدقاءه وأغضبهم لإقامته عقداً للصداقة مع المسلمين، لكن سيف الدين أصر أن ما يريده هو إقامة سلام بين الملك وبين صلاح الدين، واعتقد الملك أنه كان متبنياً سياسة حكيمة، يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبيين، ومن ثم ابرام سلام معتمد وموثق، وخاصة أنه منذ أن غادر الملك الفرنسي، بات يخشى من عمل خياني من قبله لأنه وجد أن صداقته دائماً جوفاء ومخادعة، وعلى كل حال عندما اكتشف الملك أن وعود سيف الدين كانت مجرد كلمات، ولايمكن منها الوصول إلى أية محصلة، لاسيما فيما

يتعلق بحصن الشوبك ، أوقف على الفور المناقشات، والذي فهم من الشروط أن الملك طالب بهدم هذا الحصن، لكن الترك رفضوا الاستجابة لهذا المطلب.

وعندما بات خبر اخفاق المعاهدة معروفاً، ظهر العدو من جديد، وبات يرى على أجنحة قواتنا، ونزل الملك رتشارد من جديد إلى ساحة المعترك للتصدي له، وأزاح بهذه الوسيلة التهم المتقدمة التي وجهت إليه وأثيرت ضده، وجلب معه في كل يوم عدداً من رؤوس الأتراك، ليبرهن أن غيرته لم تخف ولم تضعف تجاه القضية الصليبية.

حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء

عندما اكتمل ترميم الحصنين وشحنا بالجند، حرك رتشارد جيشه نحو الرملة، الأمر الذي جعل صلاح الدين يأمر بإزالة أسوارها، لأنه لم يتجرأ على اللقاء مع الملك في ساحة القتال، ثم انسحب مع قواته نحو دير البلح، لأنه وثق وثوقاً عظيماً بالمناطق الجبلية.

وعندها عسكرت قواتنا فيما بين اللد والرملة، وهناك مكثنا لمدة اثنين وعشرين يوما ننتظر النجدات والمؤن، ومالبثت الهجمات العنيفة من العدو، والأمطار الغزيرة أن أرغمت ملك القدس وشعبنا على الانتقال إلى هذه الأماكن، بينما ذهب كونت أوف سينت بول إلى قلعة بيت (نوبة)، وتوقفنا بالرملة لمدة سبعة أسابيع، لكن في وضع صعب، ،غير أن البداية الصعبة تحسنت فيما بعد وتغيرت الأوضاع نحو الأفضل لبعض الوقت فقط، لأن الترك ماكانوا ليسمحوا لنا ولابقليل من الاستقرار، بل هاجمونا باستمرار بجروخهم ونشابهم.

وفي أمسية عيد القديس توما، زحف الملك رتشارد مع حاشية صغيرة نحو قلعة تدعى تل الصافية، للقيام بمغامرة ما ضد الترك، غير أنه شعر بوجود غلط ما (بإلهام كما يعتقد من السماء) فعاد إلى المعسكر، وتنامى إليه في الساعة نفسها أن صلاح الدين بعث قبل قليل قوة مكونة من ثلاثمائة من نخبة قواته إلى تل الصافية، أي إلى حيث كان رتشارد متوجهاً، وفي اليوم نفسه ذهب الملك غي إلى عكا، إلى حيث تبعه في اليوم التالي ستيفن دي تورنهام.

وفي منتصف ليلة عيد الأبرياء المقدسين (٢٨ — كانون الأول) غادر الداوية والاسبتارية المعسكر، وعادوا في الصباح مع مائتي ثور، ساقوها من المنطقة الجبلية قرب القدس.

وفي الـوقت نفسـه بات معـروفـاً إلى صلاح الـديـن أن رجالنـا كانـوا يستعدون لمهاجمة القدس، وأنهم باتوا على مسـافة ميلين منه، ولم ير صلاح الدين مأمونا أن يتحارب مع الصليبين، لـذلك أصدر أوامره بتخريب دير البلح، خـاصة أسوارهـا وأبراجها، وتراجـع هو نفسه إلى القـدس، وغادر الترك السهول وانسحبوا نحو الجبال.

ونتيجة لهذا صدر الأمر إلى رجالنا بصـوت المنادي بالتحرك نحو سفوح الجبال، وعنـدما اكتملـت جميع الاستعـدادات، زحفوا نحـو قلعة اسمهـا بيت نـوبة، ثـم بدأت الأمطـار وكذلـك البَرَد يتساقطـون عليهم، فقتلـت كثيراً من حيـوانات التحميـل، وكانت العـاصفة شـديدة وعنيفـة إلى حد أنها دمرت أوتاد الخيم، وأغرقـت الخيول، وأتلفت البقسماط ولحم الخنزير، وصـدأت الدروع والسـوابـغ إلى حد كبير حتـى أنها احتـاجت إلى عمـل عظيم لإعادتها إلى لمعـانها السالف، وتلفت مـلابسهـم من البلل، وعـانى الرجال أنفسهم من شدة البرد والمناخ القاسي الذي لم يعتادوا عليه.

وفي ظـل هذه المعـاناة، وجـدوا أن مخرجهـم الوحيـد كامـن في غيرتهم وحماسهم لخدمة الـرب، ولهذا رغبوا في انهاء حجهم، ففي ذلـك راحتهم، ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغايـة، قدم كل واحد حصته من المؤن من أجل الحصـار، واجتمعوا جميعاً مسرورين واستعـدوا لكل شيء، حتى الذين كانوا مرضى في الفراش في يافا تم حملهم على المحفات، فقد كانـت رغبتهم عـارمة جـداً لرؤيـة القدس، وتـأثر عـدد كبير جداً منهـم بـالرغبـة لرؤيـة ضريح ربنـا، وكان هـذا أملهم الـوحيد في ظـل المعانـاة الهائلة،لكن الترك لم يقيمـوا وزناً أو تقديراً للـذين كانوا يـرافقون المرضى، ووقفـوا في مكامنهـم ينتظـرونهم وقتلوهـم معـا: الحامـل والمحمول، فقـد عدّوهم كلهم ونظروا إليهم على أنهم أعـداء، ومن المؤكد أن هؤلاء سوف يعـدّون شهداء، وهنـا تتوفـر الراحـة والمواساة بـالنسبة لهم، وصحيـح أن الترك قتلوهـم بنوايـا شريرة، ومع ذلـك لقد عانـوا فقط للحظـة واحدة،

ونالوا جزاء عبادة مديدة وخدمة طويلة.

وسر الجيش الآن سروراً عظيماً، اعتقاداً منه أنه سوف يلقي بالحال نظرة على ضريح مولانا، وبدأ الجميع يعملون على تلميع دروعهم وخوذهم وسيوفهم، حتى لاتبقى ولانقطة تفسد لمعانها، وباختصار كان الجميع متشوقاً لخوض غمار هذه المغامرة، وتبجحوا أن جميع قوى الاسلام أو الحملات المعادية للمسلمين لن تمنعهم من تنفيذ تعهدهم الصعب.

غير أن العقلاء بينهم لم يوافقوا على هذه الآراء ولم يرتضوها، وأقنع الداوية والاسبتارية والبلديون (البوليانز) الملك رتشارد بالاقلاع عن الزحف حاليا نحو القدس، ذلك أنهم امتلكوا بصيرة أمضى حول أوضاع البلاد ومستقبلها، وكانوا يخشون أن يتعرضوا وهم يحاصرون صلاح الدين لهجوم الجيش التركي الذي كان بين الجبال، فهذا الجيش قد يفاجىء رجالنا، وبذلك يصبحون بين قوتين: تقاتلهم شحنة القدس من الداخل والجيش التركي من الخارج، لابل أكثر من هذا حتى وإن استولوا على القدس، سيكون من الضروري شحنها بقوة من أشجع العساكر، وهذا سيكون من الصعب جداً تحقيقه، لأن الناس أصابهم الانهاك، وكانوا يعانون من قلة الميرة والعتاد، وكلهم متشوق لاكمال حجه والعودة إلى وطنه،ولهذه الاسباب نصحوا بتأجيل الحصار إلى وقت آخر، وإبقاء الجيش مجتمعاً، فهذا يتحقق طالما أن نذر عناصره لم يتم الوفاء بها، لأنه ما أن يقوموا بالوفاء بتعهداتهم حتى ينفرط عقد الجيش، لكن نصيحة الداوية لم يصغ إليها أيضاً.

وكانت الآن بداية السنة (سنة ١١٩٢) وكانت سنة كبيسة، وفي اليوم الثالث التي جاء بعد ختان ربنا، كان الجيش على نية التحرك، فهاجمه حشد من الترك كانوا قد أقاموا كمائن في الليلة السالفة قرب قلعة الجيب التحتاني، أقاموها بين الأحراش التي حاذت ذلك الطريق، وعلى الفور تمت إبادة مجموعتين من رجالنا كانتا في الطليعة، واطلع

الملك رتشارد على خبر الكمين، فزحف بكل سرعة في الصباح، آملاً أنه سيتمكن من انقاذ قوات المقدمة، لكن الترك، وكان عددهم حوالي المائة، وهم الذين شكلوا الطليعة (اليزك) لاحظوا راية الملك، فهربوا، وأصيب سبعة منهم: بعضهم قتل، وبعضهم الآخر وقع بأسر الملك وهو يقوم بالمطاردة.

وبعد عدة أيام من عيد الغطاس، اجتمع رجال المجلس الاستشاري للجيش ثانية، ومعهم بعضاً من أكثر البلديين حكمة، للبحث في مسألة الزحف إلى القدس، ومن جديد ألح الاسبتارية والداوية مع البلديين (البوليانز) كما فعلوا من قبل على وجوب إعادة بناء مدينة عسقلان، لقطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.

وعلى هذا وافقت أكثرية المجلس، وعندما غدا هذا معروفاً، كان الجيش منزعجاً جداً، حيث تصور أن آماله في رؤية ضريح الرب ستعاق كلية، واختفت الحماسة السالفة لعناصره، وخلفها اليأس وحل محلها، في حين صبوا لعناتهم على أصحاب هذا القرار على أساس أنهم دمروا أثمن أمانيهم وأغلاها.

ولو أنهم عرفوا ما كان يعاني منه الذين سكنوا القدس من مصاعب ومشاق لحصلوا على بعض السلوان والمواساة من اضطرابات العدو وآلامه، ذلك أن الترك في القدس كانوا يعانون كثيراً، ويواجهون أثقل المشاق من البَرَد والثلج، الذي كان يذوب في الجبال، مسبباً فيضانات من المياه كانت تنحدر نحو المدينة وتتدفق عليها، مسببة إما اغراق مواشيهم، أو قاتلة إياهم أنفسهم فيما بعد نتيجة للبرد، فلقد كان عناءهم من حالة المناخ قد بلغ حداً عظيماً، إلى حد لو أن الصليبيين عرفوا بذلك لكان من المؤكد تمكنهم من الاستيلاء على المدينة، مع انه كان مقدراً عدم استطاعتهم الاحتفاظ بها لوقت طويل، لأن الناس كانوا بعد وفائهم بنذرهم المتعلقة بالحج سيعودون إلى أوطانهم، وكانوا

لن يجدوا ما يكفي من القوات لشحنها بها والدفاع عنها.

واقترب موعد حلول عيد القديس هيلاري، وكان الأسف والانزعاج في الجيش كبيراً، دفع الكثيرين إلى التخلي عن حجهم، ولعنهم اليوم الذي ولدوا فيه حتى يعانوا من مثل هذا الاحباط، وكان بعضهم قد وصل حالة حد الإعياء بسبب الارهاق والانهاك والفقر، حتى أنهم كانوا بصعوبة بالغة يمكنهم التحمل والمقاومة، وتأثرت خيولهم وحيوانات الحمولة لديهم بالبرد والمطر،وباتت لاتستطيع المتابعة خلال الطين والأوحال، بل سقطت ونفقت جوعاً، ووقعت تحت أثقال حمولتها، وفي حرقة وآلام في النفس رفع سواقها أيديهم نحو السماء وتفوهوا بكلمات مقذعة وصلت حتى حد الكفر.

ومن غير الممكن تصور حالة العذاب والشقاء، حتى أسوأ الجرائم وأقساها، كانت أدنى مما عاناه رجالنا الآن، فلقد اختفت الآن شجاعتهم وأفاعيلهم الجريئة وبسالتهم في الحرب، وحل محلها الحزن واليأس والقنوط في الروح، وذلك بالإضافة إلى المعاناة الجسدية، وبينما كان الجميع في هذه الحالة، كان من الممكن أن يتعرض المرضى والضعفاء لخطر الهلاك لولا عناية الملك رتشارد بهم ورعايته لهم، فقد بعث بالرسل إلى جميع الجهات ليجمعهم مع بعضهم ولجلبهم إلى الرملة، حيث عاود الجيش اجتماعه هناك بكل سرعة، وحصل هذا بعد وقت قصير من مغادرتهم لها.

وحينما كان جيشنا باقيا في الرملة تخلى عدد كبير من أفراده عنه وهجروه، إما حتى يتجنبوا آلام الزحف، أو سخطاً منهم وعناداً، وهكذا نقص تعداده نقصاً هائلاً، وغادر جلّ الفرنسيون لشعورهم بالسخط، وذهب بعضهم للتمتع بالراحة في يافا، وتراجع بعضهم الآخر إلى عكا، حيث توفرت كميات كبيرة من المؤن، والتحق بعضهم بالمركيز في صور، حيث غالباً ما حثهم على فعل ذلك، وتحول آخرون مع دوق بيرغندي إلى

حصن الجيب التحتاني واعتزلوا هناك، ومكثوا لمدة ثمانية أيام، وكان الملك رتشارد غاضباً من هذه الحالة التي تجددت، فذهب مع ابن أخته هنري كونت أوف شامبين، والجيش الذي نقص تعداده كثيراً، إلى يبنى، ووجدوا هناك من الضروري التوقف، حتى ينال الجيش قسطاً من الراحة، لأن الطريق كان موحلاً، وكانت تعاسة عناصره العقلية والجسمية هائلة إلى حد أن ما من قلم يستطيع أن يكتب عنها ،وما من لسان يمكنه أن يعبر عنها.

وجرى في فجر النهار إرسال رجال مع خيم للتقدم نحو الأمام، وتبعتهم بقية الجيش، وكان عذاب اليوم السالف وآلامه لاشيء بالمقارنة مع العذاب والألم الذي تحملوه الآن من الانهاك، والبَرَد والأمطار والفيضان، وبدا وكأن السموات كلها قد تآمرت على تدميرنا، وغدت الأرض موحلة جداً، وناعمة تحت أقدام العساكر، إلى حد أن كل من الرجال والخيول وجدوا صعوبة عظيمة في تثبيت أقدامهم ومنعها من الانزلاق، وغرق بعضهم في الأوحال ولم يقم مرة ثانية.

من الذي يمكنه الحديث عن مصائب ذلك اليوم؟ وكانت آلامهم عظيمة إلى حد، وقاسية إلى درجة أن أشجع الجند سكبوا دموعهم مثل المطر وكانوا قلقين على وجودهم الذاتي، وعندما سقطت دواب التحميل، تلفت المؤن التي كانت تحملها بالأوحال، أو ذابت وتبعثرت في المياه، إنه في ظل هذه الأحوال من التعاسة، لعنوا اليوم الذي ولدوا فيه، وتابعوا ضرب صدورهم بأيديهم حتى وصلوا إلى عسقلان، فوجدوها مدمرة من قبل المسلمين إلى درجة وجدوا فيها من الصعب جداً المرور من خلال الأبواب بسبب أكوام الحجارة.

وكان ذلك اليوم هو العشرين من كانون الثاني، وعسكر كل انسان تلك الليلة وأمضاها حسبما استطاع وتدبر الأمر.

كيف أعادوا بناء عسقلان

عسقلان قائمة على الساحل ، ولو أنها امتلكت مرسى جيداً ،لكان من الصعب أن يكون لها نظير،لموقعهاولخصب المناطق المجاورة لها،وفي الحقيقة امتلكت ميناء، لكنه من الصعب الوصول إليه كثيراً ،حتى أنه بسبب الطقس العاصف الذي استمر لمدة ثمانية أيام،بعد وصول الجيش،لم تستطع سفينة الدخول إليه،ونتيجة لهذا ،كانت عساكرنا مع خيولها بحاجة ماسة للمؤن،لكنها لم تستطع الحصول على شيء لمدة ثمانية أيام،وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، ولم يكن من الممكن البحث عن الأعلاف في المناطق المجاورة،بسبب وجود الأتراك.

وعندما تحسن الطقس أخيراً ،دخلت بعض السفن الى الميناء ،لكن العواصف جاءت ثانية، ومن جديد بدأ الجيش يعاني من الحاجة، وتم فقدان بعض البوارج والشواني المحملة بالميرة، وكان بعضها قد فقد مع ملاحيه كلهم أثناء الرحلة،وتعرضت عدة سفن للغرق،وكان بعضها من سفن الملك،ذلك أنها تحطمت بالعاصفة .

وعندما سمع صلاح الدين أن عساكرنا قد توزعت على الساحل، وبعضها قد تمزق وتعطل، أعطى دستوراً لعساكره بالعودة إلى مواطنها، وبذلك كان من الممكن لها الاشراف على أمورها الداخلية ومعالجتها، وأصدر أوامر لجنده بالتجمع ثانية في شهر أيار، وعاد الترك، الذين مضى على وجودهم يعملون بمشقة داخل جيش السلطان منذ أربع سنوات، مسرورين إلى زوجاتهم وأسرهم، وحكى مقدموهم وأمراؤهم من ذوي الشهرة باختصار أخبار مغامراتهم والحملات المأساوية التي رأوها، فلقد كانوا في الحروب المتقدمة هم المنتصرين، وحصلوا على وفرة من الأسلاب، لكنهم عانوا الآن من فقدان الممتلكات والمقتنيات، ومن

موت أقربائهم ومقتلهم في المعارك، وتأسوا بشكل خاص وحزنوا لموت الأمراء والمقدمين والآخرين الذين قتلهم الملك رتشارد قرب عكا، عندما أخفق صلاح الدين في تحقيق وعوده بانقاذهم، ولهذا السبب تملكوا مشاعر غضب عارمة ضد صلاح الدين.

وانتهى الآن شهر كانون الثاني، وباتت السماء مشرقة أكثر من ذي قبل، وغضب الملك لانتشار الجيش وتوزعه، فبعث برسائل لإقناع الفرنسيين بالعودة ومن ثم تقوية الجيش، وبذلك يكونوا في وضع أفضل للقيام بالمزيد من الأعمال المقررة، وقال:«من المرغوب فيه أن يكون الجيش مع بعضه مجتمعاً أثناء العمل، لأن التمزق سوف يضعفنا ويعرضنا لحملات أعدائنا» وبناء على هذه الحجج استدرج الفرنسيين للوعد أنهم سيلتحقون بالجيش حتى الفصح، على شرط، أنهم إذا مارغبوا وقتها بالمغادرة يمكنهم ذلك بكل أمان، وشعوراً من الملك بضرورة تحمل ذلك، وافق على هذه الشروط، وبذلك عاود الجيش لحمة اتحاده ثانية.

وكان هناك الآن اتفاق عام على اعادة بناء عسقلان، لكن الأمراء والنبلاء كانوا في حالة إعياء، ولذلك وجدوا أن امكاناتهم وماتوفر لهم لايكفي لذلك الغرض، ومع ذلك شرعوا بالعمل بقدر ماستطاعوا، ووزعوه فيما بينهم، وأخذوا يحفرون الأساسات لواحد من الأبواب الرئيسية حتى وصلوا إلى الصخر الأصم، وأزالوا جميع الردم والفضلات الموجودة في الأعلى، وتولى كل واحد تنفيذ حصته من العمل، وكان من الممكن رؤية الأمراء والنبلاء والفرسان والسادة، ورجال الحاشية، كل منهم ينقل حجرة من يد إلى يد، ولم يكن هناك من تمييز بين رجل دين وعلماني، ونبيل وانسان عادي، وأمراء وحواشيهم وخدمهم، فالكل عملوا مثل بعضهم، ودهشوا هم أنفسهم لنتيجة التقدم الذي حققوه، وعندما تم جلب الحجارة والبنائين، تقدم العمل بنشاط مزدوج، وارتفعت

الأسوار بسرعة.

وكان الملك، مثلما هو في بقية المسائل، قد ضرب المثل الأعلى في دفع العمل نحو الأمام، وذلك عن طريق المشاركة بيديه، وبتشجيع الرجال، وبتوزيع الحصص والواجبات على كل واحد منهم، وبذلك قدم خدمات عظيمة، وبناء على حثه وتشجيعه تولى كل واحد العمل في سبيل إكمال حصته المحددة له بوسائطه الخاصة، وإذا ماتمنع أحدهم بسبب الحاجة إلى المال، تولى الملك اعطاءه من جيبه الخاص، ذلك أنه كان أكبر قلباً مما أبداه من تكبر، وهكذا جاءت براهين التشجيع، وبراهين اليقظة، والانفاق، ولذلك قيل اكتمل اعادة بناء ثلاثة أرباع المدينة بهذه الوسائل.

وبالوقت نفسه رتب صلاح الدين لارسال اثني عشر ألفاً من أسرى المسيحيين الفرنسيين والبلديين من سكان الأراضي المقدسة إلى القاهرة، وجلبهم خدمه حتى دير البلح، وعندما كانوا يمضون الليل هناك مع نية الانطلاق في رحلتهم في اليوم التالي، حدث بقدر من السماء أن قام الملك رتشارد بانقاذهم.

فقد حدث في أحد الأيام أن كان الملك يقوم مع كتلة من نخبة عساكره بأعمال استطلاع لحصن دير البلح، ليدرس كيف يمكنه أن يستولي عليه، لأنه كان يسهل كثيراً مرور الأتراك وهم يجلبون المؤن من القاهرة إلى القدس، ولاحظ الترك الذين وصلوا إلى هناك قبل غياب الشمس قدوم الملك من رايته، فخافوا على حياتهم، واهتموا بسلامتهم، فاعتصموا بسرعة في برج الحصن وتركوا الأسرى في الخارج، وعندما رأى هؤلاء ذلك، التجأوا مسرعين جداً إلى احدى الكنائس المجاورة، ولدى وصول الملك، تولى اطلاق سراحهم دون أن يفقد دقيقة واحدة، وتركهم يذهبون دون أن يصابوا بأذى، وفي الوقت نفسه تولى مع رجاله قتل عدد من الترك صدفوهم على الطريق، واستولى الملك أيضاً على كثير من

الخيول الثمينة، وأسر عشرين من زعماء الأتراك وهم أحياء. من الذي يشكك أن قدوم الملك، الذي كان مفيداً جداً لهؤلاء الأسرى، لم يكن مقدراً من الرب؟ فلو أنه لم يقدم لانقاذهم لاشك أنهم كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالعبودية الدائمة.

وبعدما أنجز الملك هذه الأعمال الناجحة، بعث برسل إلى مركيز مونتفرات، وذلك مثلما فعل كثيراً من قبل، طالباً منه القدوم إلى عسقلان، والالتحاق بالحملة لصالح المملكة التي تشوق لقيامها، وطلب منه القيام بذلك بموجب اليمين الذي أقسمه لملك فرنسا، الذي هو تعهد بالتبعية الاقطاعية له، لكن المركيز المنحط أجاب بتحفظ دنيء، وقال إنه لن يتحرك مالم يجتمع أولاً بالملك رتشارد، ثم بعد ذلك يجري عقد مؤتمر في مكان محدد هو حصن يحمور (قرب عكا) Ymbric.

وفيما الملك وجيشه منشغلين تماماً في أعمال اعادة بناء أسوار عسقلان، نشب خلاف بين الملك رتشارد، ودوق بيرغندي، فقد كانت المؤن قد نفدت واستهلكت، وبات كل انسان لايمتلك شيئاً تقريباً، وبدأ الفرنسيون يلحون على دوق بيرغندي من أجل الدفع، أي أن يدفع لهم ماهو مدان به، وذكروا أنهم إذا لم يدفع لهم، لايمكنهم متابعة الخدمة في المعسكر، ووجد الدوق نفسه غير قادر على تلبية طلباتهم الملحة، لذلك رأى أن من الأفضل أن يسأل الملك رتشارد تزويده بمبلغ كبير من المال، وفي مناسبة ماضية كان الملك قد أقرض الفرنسيين، بناء على طلب من الدوق، مبلغاً كبيراً من المال، كان من المفترض تسديده من مال فدية الأسرى، وبما أن الأسرى لم يدفعوا فدية سوى رؤوسهم، لذلك ذهبت الوعود سدى، ولذلك رفض الملك في هذه المناسبة الاستجابة لطلبه، ولهذا السبب ولأسباب أخرى من عدم الاتفاق، غادر الدوق عسقلان، مع بعض الفرنسيين، الذين لم يستطع أن يدفع لهم، لهذا بادروا مسرعين بالعودة معه إلى عكا.

ولدى وصولهم إلى هناك وجدوا نشوب صراع مرير بين البيازنة والجنويين، لأن البيازنة كانوا محظيين من قبل الملك غي، في حين وقف الجنويون إلى جانب المركيز، والسبب الرئيسي لذلك هو أنه كان مربوطاً بيمين ولاء لملك فرنسا، وتصاعد الخلاف وانتهى بسفك الدماء وقتال متبادل، وباتت المدينة كلها في حالة فوضى.

ومع اقتراب الفرنسيين من المدينة سمعوا أصوات صخب شديدة، وصراخ الناس يحثون بعضهم بعضاً على القتال، ونتيجة لهذا، أسرع دوق بيرغندي الذي كان مسلحاً تماماً، ليقدم مع رجاله الضمان للجنويين، وكانوا في وضع محرج تماماً عند وصولهم، ولهذا انزعج البيزيون عندما رأوهم قادمين، وخرجوا بجرأة للتصدي لهم، وانقضوا على دوق بيرغندي، الذي بدا أنه قائدهم، وطوقوه وعندما طعنوا فرسه بحربة، ألقوه أرضاً، ثم تراجعوا إلى المدينة، وأغلقوا الأبواب، وأقفلوها، كاحتراز احتياطي ضد أي حادث غير مرئي قد يقع، لأنهم سمعوا بأن الجنويين بعثوا إلى المركيز يطلبون منه القدوم بأقصى سرعة ممكنة حتى يستولي على عكا، وقد وعدوه بتسليمه إياها، ولهذا اتخذ البيزيزن كل الاحتياطات ضد هذا العمل، ولضمان سلامتهم وسلامة المدينة.

ولم يضع المركيز ولادقيقة واحدة، بل جاء مسرعاً إلى عكا في شوانيه مع عدد كبير من الرجال المسلحين، آملاً بالاستيلاء على المدينة على حين غفلة، ولدى وصولهم قاتلهم البيزيون برجولة بالعرادات والمجانيق، وبما أنهم كانوا واثقين من عدالة قضيتهم فقد قاتلوا بشجاعة، وقاوموا خصومهم لمدة ثلاثة أيام، وبعثوا برسالة إلى الملك رتشارد الذي كان آنذاك في قيسارية في طريقه لحضور المؤتمر، وأخبروه بصورة الأوضاع، وطلبوا منه القدوم بكل سرعة ممكنة.

وعندما سمع المركيز بأن الملك رتشارد بات قريباً منه، عاد مسرعاً إلى صور، وكأنه كان يشعر بقرارة نفسه أن قدوم الملك نذير سوء بالنسبة له،

لكن على الرغم مما بذله من سرعة وصل دوق بيرغندي مع الفرنسيين أولاً إلى صور، وعندما وصل الملك رتشارد إلى عكا، أخذ على عاتقه ترتيب كل شيء، فصالح البيزيين مع الجنويين، وجعلهم يتوحدون في وئام ووفاق، وأعاد إقامة تفاهمهم الجيد المسبق.

وبعدما أكمل الملك رتشارد تهدئة الأوضاع والناس وفق هذه الطريقة، أرسل رسولاً إلى المركيز يخبره في أن يعود إلى يحمور، ليرى إذا كان من الممكن التوصل إلى تفاهم تصالح وصداقة، وبناء عليه إلتقيا، وعقدا مؤتمراً طويلاً، لكن بلا محصلة، وتصوروا الآن أن دوق بيرغندي، والمركيز وكذلك الفرنسيين اختاروا التغيب عن الجيش، وأسف الملك رتشارد بقرارة نفسه أسفاً كبيراً على شروط السلام التي تم الاتفاق عليها، وتردد لوقت طويل حول ماهو الأفضل للقيام به، وتشاور مع القادة وأكثر الرجال حكمة وتجربة في الجيش، وقرروا أن المركيز قد خسر دعواه للملكية التي كان قد وعد بها، ونتيجة لسلوكه المريب، ينبغي حرمانه من جميع موارده، ونتيجة لهذا نشب خلاف كبير بين النبلاء الفرنسيين وبين الملك رتشارد، وبشكل خاص بينه وبين المركيز.

وفي يوم أحد السعف، قلد الملك رتشارد، وسط مظاهر أبهة عظيمة، حزام الفروسية إلى ابن سيف الدين الذي بعث إليه لهذا الغرض.

كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات

في يوم الثلاثاء المتقدم وعلى عيد الفصح، عاد الملك رتشارد إلى الجيش في عسقلان، وكان حزيناً جداً، على درجة كبيرة من الانزعاج، وفي اليوم التالي طلب المتبقي من الفرنسيين من الملك أن يزودهم بحراسة وبجواز أمان، ووافق الملك، وعين لهم الداوية ليتولوا مرافقتهم في رحلتهم، وعين كذلك معهم الاسبتارية، كما ورافقهم الكونت هنري أوف شامبين ومعه عدد كبير آخر، ورافقهم وهو على طريقهم شخصياً (لحرصه على أن لايدع نقطة موائمة للعناية)، وفعل ذلك وهو يحاول أن يبقيهم مدة أطول، غير أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً، لذلك تركهم يذهبون وعاد إلى عسقلان، ومن هناك بعث برسل مسرعين جداً إلى عكا، لتوجيه الأمر إلى الحامية هناك بعدم السماح للفرنسيين بدخول المدينة، وألا يتعرضوا لهم بأية اهانة أو ازعاج، يمكن أن يتخذ حجة عدوانية ويؤدي إلى الخلاف، وبناء عليه عندما وصل الفرنسيون مركزوا أنفسهم خارج المدينة.

وانخفضت معنويات الجيش كثيراً في يوم عشاء ربنا، بسبب مغادرة الفرنسيين، لأنه خسر بذلك جزءاً كبيراً من قوته، لقد فقد سبعمائة فارس (من الرجال المجربي الشجاعة وذوي الفعالية الكبيرة)، فلقد غادر هؤلاء، ونتيجة لهذا اضطرب الناس وانزعجوا كثيراً.

وسر الترك سروراً عظيماً لدى سماعهم بما حدث، وعندما أخبر صلاح الدين بذلك، بعث بالرسل إلى جميع الأمراء والناس في ممالكه يأمرهم بمرسوم صادر عنه أن يدعوا جانباً مشاغلهم وأن يقدموا إلى أراضي القدس بكل سرعة ممكنة، وقال لهم: «إن الفرنسيين، لسوء معاملتهم، غادروا، وتركوا البلاد تقريباً بلا مدافعين عنها، وتدنت كثيراً طاقة الحرب

لدى جيش الفـرنجة وتداعت قـدرته، ولهذا نأمل بكـل ثقة أن نتمكن في وقت قصير من الاستيـلاء على عكا وصور اللتان هما المدينتـان الرئيسيتان في هذه البلاد»، وعاد الترك وانضموا تحت لـواء السلطان، لكن باستعداد أقل، وبأعداد أدنى من قبل، لأنهم لم ينسـوا الماضي، وبالمقارنة مع عددنا المتدني، لقد تفوقوا علينا كثيراً في قوتهم.

واحتفـل الملـك رتشـارد في عسقـلان بعيـد الفصـح، الـذي جـاء في الخامـس من نيسـان، بـأبهة عظيمة، وزود النـاس بكل مـا احتـاجوه مـع كميات وافرة من اللحم والشراب، وأمـر بنصب سرادقه على المروج خارج المدينة، وقـدم إلى شعبه كثيراً من الضروريات التـي احتاجوها لـلاحتفال بهذه المناسبة بأبهة وروعة.

وعاد يوم اثنين الفصح متيقظـاً نشطاً لمتابعة العمل الذي كـان قد بدأه وتابـع بكل غيرة وحماسة إعـادة بناء أسوار المدينـة، وكما هي عادتـه حث النـاس وحرضهـم على إكمال مـاتبقى، ونتيجـة لحرصه وعنـايتـه وتعاونـه اكتمل كـل شيء على حسابـه الخاص وبدون مسـاهمة الفرنسيين وذهـب الملك مع عدد قليل من أتباعه، يوم ثلاثاء الفصح، في عملية استكشافية نحـو غزة، وانطلـق في يـوم الأربعاء ليقـوم بتفحـص قريـب لـدير البلـح (الداروم)، محاولاً التـأكد مـن النقطة الموائمـة للهجوم عليهـا، لكن الترك اتخذوا موقف الدفاع في البلدة، ورموا بكثير من النشاب من القسي وأيضاً بجروح كثيرة، مع شتائم وإهـانات للملك ولرجاله، وكـأن المكان لايرام، وعندما استكمل الملك تفحصه لها، عاد إلى عسقلان.

وبعـدما غـادر الفـرنسيون، عـاد الـذيـن عهد إليهـم مـن قبل الملـك بمـرافقتهم تـأمين وصـولهم حتى عكـا، عـادوا إلى المعسكر في عسقـلان، وماأن وصل الفـرنسيون إلى صور حتى أطلقوا لأنفسهـم العنان للانغماس بكافة المسرات، الأمر الذي نرى من المفيد التوقف قليلاً لذكره.

لقد غادر الآن المعسكر، الرجال أنفسهم الذين يفترض أنهم جاءوا بوجههم تدينهم وغيرتهم لانقاذ الأرض المقدسة، وتخلوا عن هذا، وسلموا أنفسهم للغانيات وللأغاني المبهجة وللمتع الجنسية، لأنهم ابتهجوا (حسبما جاء على لسان الذين رأوهم) بالرقص مع النساء، وعبر مظهرهم الخارجي عن خلاعتهم وتبذلهم، فقد ربطت أكمام أثوابهم بسلاسل ذهبية، وأظهروا عن عمد أوساطهم، وحزموها بأحزمة مطرزة، وبقيت أرديتهم مكشوفة مع أذرعتهم وكانت مربوطة لتمنع رؤية طرف من أثوابهم، والذي افترض لتغطية ظهورهم، أرغم الآن على خدمة أجزاء أخرى من الجسد، لأن بطونهم، وليس ظهورهم غطيت بهم، ووضعوا حول أعناقهم أطواق كانت تشع بالجواهر، وعلى رؤوسهم قبعات نسجت بكل شكل من أشكال الورود، وحملوا في أيديهم الكؤوس والدنان وليس السيوف، وكانوا بعد أن يمضوا الليالي كلها في الشرب والعربدة، يذهبون إلى بيوت العاهرات، وإذا صدف وكن مشغولات، والأبواب مغلقة في وجوههم، كانوا يخلعونها، وهم يتلفظون بلغة وأيمان ترعب الذين يسمعونهم.

وبكلمة واحدة برهنت أحوالهم الخارجية على تردي أخلاقهم، والعار للفرنسيين لانغماسهم في مثل هذه التجاوزات، ولايمكننا أن نؤكد أنهم جميعاً كانوا مجرمين بهذا أو حمقى، لأنه كان هناك عدد كبير ممن كان مزعوجاً جداً تجاه هذا المسلك المتحلل، وآسفين لعدم توافقهم مع الملك رتشارد.

وبعد انقضاء عيد الفصح بعدما بات موسم الجواز البحري ممكناً، وصل رئيس رهبان دير هيرفورد Hereford ، وهو دير انكليزي، حاملاً رسالة إلى الملك رتشارد، جعلت الجيش كله يضطرب، لقد جلب رئيس رهبان الدير رسائل من وليم، أسقف ايلاي، الذي كان مستشار الملك، يخبره أنه والذين أنابهم الملك ليتولوا حكم البلاد أثناء غيابه، قد طردوا

بصفاقة وعدوانية من حصون المملكة، وقتل بعض رجالاتهم أثناء أعمال الصخب، وبوساطة نيابة أخيه للملك، أعني الايرل جون، جرى طرد المستشار من انكلترا، ولم يعد هناك المزيد من المال في الخزانة أو في أي مكان آخر، ماعدا القليل الذي أخفي بكل صعوبة في الكنائس.

وبالاضافة إلى هذا، قال رئيس رهبان الدير: «لقد طرد المستشار نفسه، والكاهن والأسقف مرغمين إلى نورماندي، وذلك بعد ازعاجات كثيرة وسوء معاملة، وأن الايرل جون استخرج بالعنف من الايرلات والنبلاء في البلاد يمين الولاء والطاعة، والتبعية من حفظة القلاع وشحنها، كما أنه صادر بدون حق الدخل السنوي للملك واستولى عليه، والمقصود بهذا الخزينة الملكية، وأضاف رئيس الدير يَقول:إذا لم تتخذ جلالتك قراراً سريعاً حول هذه المسائل، وتعود إلى الوطن بكل سرعة ممكنة، وتنتقم لما لحقنا من اعتداءات العصاة، ستزداد الأمور سوءاً، ولن تستطيع استرداد مملكتك بدون التعرض لمخاطر الحرب».

واستولت الدهشة تماماً على الملك لدى سماعه مانقل إليه، وقلب الأمور في ذهنه طويلاً ولم يقل إلا قليلاً، لأنه اعتقد أن الأمر لايصدق، وأن المسألة قطعة من الشرور تتجاوز المعقول.

ذلك أن الخلاف بين الأمراء نادراً مايمكن تجنبه واضعافه، لكن إذا ماأرغم الملك رتشارد على العودة إلى الوطن، ربما مامن انسان سوف يبقى في الأرض المقدسة، لأن هناك نزاعاً وصراعاً بين الناس في صور وبين شعب عسقلان، ومما لاشك فيه سوف يستولي الترك على البلاد كلها بشكل أبدي.

ودعا الملك في اليوم التالي إلى الاجتماع قادة الجيش، ووضع أمامهم كل ماسمعه، وشرح شرحاً وافياً كلمات رئيس الرهبان، وأعلن بالوقت نفسه أنه لابد بحكم الضرورة من عودته إلى الوطن مباشرة، لكن وعد

بتزويد الحملة في الأراضي المقدسة بثلاثمائة فارس وألفين من عساكر الرجالة المنتخبين، على حسابه، ثم سأل بعد هذا: من الذي سيعود معه، ومن الذي سيبقى بعده وأعلن أنه لن يجبر أحداً على هذا أو ذاك، بل ترك الخيار المطلق لكل واحد حسبما يريد.

وبعدما عرض هذه النقطة، أجابوه كما يلي: بما أن البلاد تعاني من التمزق وصراع بعض الفئات، ومادامت نتائج الأمور غير واضحة — لاسيما وأن الملك غي لم يصل إلى مبتغاه في استرداد المملكة — رأوا من الضروري جداً تعيين ملك جديد، يقدمون له جميعاً الولاء، وبحفظه يمكن أن تترك البلاد وبعنايته، ويمكن أن يقاتل معركة الشعب، وينبغي أن يكون رفيعاً، يتبعه الجيش ويطيعه، وإذا لم يقرر هذا بحل مناسب قبل مغادرة الملك، فإنهم جميعاً، فرادى وجماعات سوف يغادرون البلاد، لأنه لن يكون بإمكانهم القيام بحراستها ضد الأعداء.

وعندما سألهم الملك السؤال التالي: أي واحد من الاثنين تفضلون أن يكون الملك: الملك غي أو المركيز؟ جثا الجيش كله من صغير وكبير على الركب، والتمسوا وجوب ترقية المركيز إلى الملكية، لأنه أفضل قدرة بكثير في الدفاع عن البلاد من الآخر إذاما وقع الاختيار عليه، وأصغى الملك إلى التماسهم، وأنبهم بكلمات لطيفة على سذاجتهم وانخداعهم، لأنهم كما حدث في الغالب من قبل انحرفوا عن الأخلاق الحميدة والسمات الحسنة للمركيز.

وباعطاء الملك موافقته، صدر قرار بالاجماع يتعلق بانتخاب المركيز، وجرى ارسال بعض الرجال من ذوي المناصب العالية بالبحر ومعهم حاشية لنقل الأخبار الطيبة إلى المركيز في صور، وشرح له السفراء كيف أنه انتخب ملكاً بالاجماع من قبل الجيش كله، مع موافقة الملك رتشارد، وأن تاج المملكة قد منح له، إذا ما رغب بالقدوم مع الجيش، وممارسة واجباته هناك بنشاط وشجاعة ضد الترك، ومباشرة حكم مملكة القدس

بنفسه في جميع المسـائل، كما لو أنها تخصه، ولقد قيل عندمـا سمع المركيز هـذا الكلام، بسـط ذراعيه، وهـو في غـاية السرور في قلبـه، ومدهما نحـو السماء، وشرع يـدعو كما يلي: «مـولاي الـرب، يـامن خلقتنـي، ووضعـت الروح في جسـدي، يامـن أنت ملـك عادل ورحيـم، أدعوك يـامولاي إذا كنت تـراني أستحق حكـم مملكتك، أعطني الفـرصة لأرى نفسي متـوجاً، لكن إذا حكمت بعكس ذلك، لاتوافق على ترقيتي».

وعندما بات معروفاً في أرجاء مدينـة صور بأن المركيز سوف يتوج ملكاً، كان السرور عارماً بين النـاس، وأخذوا يعدون كل ما توجـب، واستخدموا كل طـاقاتهم للإعـداد من أجـل الاحتفال بتتويجه، فـاقترضوا المال لشراء الملابس والـدروع، لأنهم رغبوا في ابـداء أروع المظاهـر الممكنة في خـدمة مثـل هـذا الانسان الـرائع، الـذي رقـيّ إلى أعلى مـراتب المجـد، وبـات بالامكـان رؤية الناس الآن وقد انشغلـوا في تنظيف دروعهم وسـوابغهم، وتلميـع أسلحتهم، وشحـذ سيـوفهم، ومسـح رمـاحهم، واشترك الجنـود والأطفـال في معارك صـوريـة، وحافظـوا تمامـا على مظهر صراع حقيقـي ومبارزات جديـة، ولقد تبجحوا في الوقت نفسه بـأنهم في المستقبل سوف يدمرون الترك.

وفي أحد الأيام كان المركيز عائداً من استقبـال أقامه له أسقف بوفياس Beauvais وكان به هـو الضيف، وكان مسروراً جداً، ونفسـه مشرقة مبتهجة، وعند وصـوله إلى بيت التعشير، قفز عليـه فجأة شابان بـلا أردية — مـن الحشيشية — وانـدفعا نحـوه، وبأيـديهما خنـاجر كـانت مخفيـة، وطعنوه حتى قلبه، ثم انعطفا هاربين بسرعة قصوى.

وسقط المركيز على الفور من على ظهر حصانه، وتقلب على الأرض وهو يموت، وتم على الفـور قتل أحد القاتلين، لكن الآخـر اختبأ في الكنيسة، وعلى الـرغم مـن حرمـة المكان، فقـد ألقـي القبض عليـه، وحكم عليـه بالسحل في أرجاء المدينة حتى يموت، وقبـل تنفيذ العقوبة به، استجوب

بدقة لمعرفة الذي حرضه ولاكتشاف الأسباب الدافعة لذلك، ولماذا اقترفا هذه الفعلة، وقد اعترف بأنهما أرسلا منذ زمن طويل مضى، وأن ذلك كان بأمر رئيسهم، الذي توجبت طاعته.

وقد تبين أن هذا كان صحيحاً، لأن هذين الشابين كانا منذ أمد في خدمة المركيز، ينتظران الفرصة المناسبة لتنفيذ فعلتهما، فقد تقدم لشيخ الجبل، صاحب مصياف ارسالهما لاغتيال المركيز في مدة من الزمن محددة، هذا وكل واحد قضى شيخ الجبل أنه يستحق الموت، عمل على اغتياله بالطريقة نفسها.

وجلب شيخ الجبل صاحب مصياف، تبعاً لعادة متوارثة عدداً كبيراً من الأطفال النبلاء إلى قصره، وجعلهم يتعلمون كل نوع من أنواع المعرفة والتدريبات، ووجههم لتعلم كل نوع من أنواع اللغات إلى حد تمكنهم من الحديث بها بدون مساعدة مترجم في أي بلد من بلدان العالم المعروف، وتضمن ذلك أيضاً وحشية وقسوة إلى أعظم الدرجات وسرية عميقة جداً، وجرى تدريب الطلاب وتعويدهم على المتابعة والتمسك بذلك برغبة وعناية كبيرة، وكانوا عندما يصلون إلى سن البلوغ، يدعوهم الشيخ إليه، ويؤكد لهم براءتهم من كل ذنب في قتلهم لبعض أعيان الناس، الذين يذكرهم بالاسم، ولهذه الغاية كان يعطي كل واحد منهم خنجراً بطول مرعب وحاد جداً، وانطلاقا من طاعتهم الإيمانية، لم يعرفوا التردد قط في الانطلاق وتنفيذ ما أمروا به، وما كانوا يقفون حتى يصلوا الأمير أو الطاغية الذي عين لهم، ويبقون في خدمته حتى يجدوا الفرصة المناسبة لتنفيذ أغراضهم، معتقدين أنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الدخول في الجنة.

والآن فيما المركيز كان يتنفس أنفاسه الأخيرة، حمله مرافقوه الذين كانوا من حوله على أذرعتهم إلى القصر وهم يندبونه ويبكون عليه بتفجع، لاسيما لأن سرورهم قبل قليل كان عظيماً جداً، وأوصى زوجته بالاهتمام

بكل عناية بالحفاظ على مدينة صور، وألا تسلمها لأحد غير الملك رتشارد، أو إلى الشخص الذي تؤول إليه المملكة بحق الوراثة، وما لبث أن مات ودفن في مقر الاسبتارية وسط حزن عظيم وأسى كبير.

وفي وسط الفوضى التي سادت بين الناس، تهامس بعض من الفرنسيين (الذين ابتغوا تغطية شرورهم بنوع من الأكاذيب، وأدخلوا في عقول الناس جميعاً) بأن الملك سبب بشكل شرير مقتل المركيز، وأنه هو الذي استأجر هؤلاء الرجال من الحشيشية لهذا الغرض، ولم يقنعوا بهذه التهم التي ألصقوها بالملك رتشارد وأساءوا بها إلى سمعته في هذه المناطق، بل أرسلوا تحذيرات إلى ملك فرنسا حتى يحترز ضد مبعوثي شيخ الجبل صاحب مصياف، وقدموا له تفاصيل كيفية موت المركيز، وذكروا أن الملك رتشارد قد وجه أربعة من هؤلاء الرجال للقيام باغتيال الملك فيليب.

كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور

بعد دفن المركيز اجتمع الفرنسيون، الذي بلغ تعدادهم حوالي العشرة آلاف، وكانوا يعيشون في خيم خارج المدينة، والتقوا للتداول فيما بينهم، وبعد نقاش طويل بعثوا بأوامر إلى زوجة المركيز (*) يأمرونها أن تضع المدينة في عهدتهم بدون تأخير أو معارضة، من أجل خدمة ملك فرنسا، لكن الملكة أجابتهم: عندما يأتي الملك رتشارد ليراها سوف تعطيه المدينة، ولن تعطيها لأحد سواه، لأن هذه كانت أوامر المركيز المتوفى، ذلك أنه لايوجد أحد عمل مثله كثيراً لإنقاذ الأراضي المقدسة من الترك، وإعادتها إلى حريتها المتقدمة، وبناء عليه ينبغي اعطاء المملكة إلى أشجع الرجال، ليرتب أمورها كما يراه مناسباً.

وغضب الفرنسيون وسخطوا سخطاً عظيماً تجاه هذا الجواب، وفيما هم يبذلون الجهد لامتلاك المدينة، جاء الكونت هنري بشكل غير متوقع إلى المدينة، وذلك بعد ما اندهش لدى سماعه بما حدث. وعندما رآه الناس قائماً بينهم اختاروه على الفور أميراً لهم، وكأنه أرسل من قبل الرب، وبدأوا بمحاولة إقناعه ليتقبل تاج المملكة، بدون اعتذار أو

*— من المفيد مراجعة ما ورد في المجلد السالف مع ما جاء لدى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري (الجزء الثامن). والملكة هنا هي ايزابيلا أخت سيبيلا (التي توفيت في سنة ١١٩٠، وبذلك غدت ايزابيلا وريثتها)، وعندما توفيت أختها الكبرى كانت ايزابيلا متزوجة من هنفري الرابع صاحب تيرون، الذي كان مكروهاً من قبل النبلاء، ولهذا أقنعوها لتتطلق منه، على أساس أنها خطبت إليه بدون موافقتها، ثم زوجوها المركيز كونراد أوف مونتفرات الذي كان أثيراً لديهم، وبذلك أعطوه حق المطالبة بعرش المملكة ضد غي أرمل سيبيلا، وتزوجت ايزابيلا مرتين أخرتين بعد مقتل المركيز، أولاهما من هنري أوف شامبين، ثم بعد موته من عموري الثاني صاحب قبرص.

تـردد، وأن يتزوج أرملـة المركيز، لأن المملكـة مملكتها بحـق الوراثـة، ورد على هذا كلـه أنه سوف يتصرف وفقاً لنصيحة خاله الملك رتشارد، محترما الحل الـذي يقرره الـرب لكل المسـائل ويـدعوه إليـه، وعلى الفور جـرى ارسال مبعوثين إلى الملـك رتشارد ليعلنوا له الانتخاب الذي جـرى باقرار الناس في تمليك الكونت هنري وليحدثوه عن الاغتيال الرهيب للمركيز.

وفي الوقت نفسه، قبل أن يصـل الرسل المرسلين إلى الملك رتشارد إلى غايتهـم، بدأ الفصل الدافىء بعـد أشهر برد الشتاء، وشرع الملـك رتشارد في مهاجمة الترك بهمـة لاتعرف التعب، مثلما كـان يفعل من قبـل، لأنه لم يكن هنـاك انسان مثلـه، ولا من خـافه الترك مثلما خـافوه، فما مـن واحد آذاهم من قبل مثلما فعـل، فقد كان ينقض، وهو فارغ اليديـن تقريباً، ثم يعود جالباً معـه رؤوس الأعداء، أحيانا عشرة في يوم واحد، وأحيـانا اثني عشر، أو عشرين أو ثلاثين، حسبما يحدث ويصدفهم في طريقه.

وبالإضـافة إلى هـذا كله كـان يجلب معـه إلى المعسكر كـل يوم عـدداً كبيراً من الأسرى، والحق يقال لم يوجد في عصور المسيحية رجلاً مثله دمر أعداداً كبيرة من المسلمين بيديه وحده.

وفي يوم الأربعاء الذي تقدم على عيد القديـس مرقص الرسول، انطلق الملك وجيشه نحو الجديدة لحمايـة المدينة، غير أنه لم يجد أحداً هناك، وفي طريـق العودة قاتـل الملك خنـزيراً بريـا متوحشاً، كـان قد سمـع صوت العساكر وهـم يمرون، فخرج ليقف على الطريـق، وتصاعد الزبـد من فم الحيوان الشريـر، لشدة غضبـه، ووقف شعـر جسده وكـذلك أذنـاه، وبدا وكأنه يستجمـع كل قواه وحنقه إمـا ليتلقى هجوما أو ليقـوم بالهجوم، ولم يتحرك من مكانـه عندما صرخ الملك، وعندما دار الملك حـوله، لدهشته استدار هو حول نفسه، وظل واقفاً في المكان نفسه.

واستخـدم الملـك الآن رمحه بمثابـة رمـح صيـد، وحـركه ليطعنـه بـه،

وانحرف الخنزير قليلاً إلى أحد الجوانب واستعد للقائه، وكان حجم الحيوان حجماً هائلاً، ومنظره مرعباً، وانقصف الرمح الذي خرق صدره العريض بكل جرأة إلى قسمين، وسبب انكساره أنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليتحمل ضغطهما وهما يقتربان من بعضهما، وصار الخنزير غاضباً الآن كثيراً بسبب جرحه، فاندفع بكل ما أوتيه من قوة نحو الملك، الذي لم يمتلك أية مسافة، أو وقتا للانعطاف أو الابتعاد، لذلك غمز فرسه وشدد عليه، فتمكن من القفز فوق الحيوان دون الاصابة بجراحه، علما بأن الخنزير قد مزق تجافيف حصانه، غير أن فعالية الحصان ونشاطه أعاقت الضربة، وحالت قطعة الرمح المغروسة في صدر الحيوان بينه وبين الاقتراب، ثم قام الخنزير سريعاً وكأنه يريد الاقتراب من الملك، لكن الملك كان قد استل سيفه، فطعنه به وهو عابر، وصعقه بالضربة، ثم استدار حول حصانه، وقطع عروق الخنزير، ثم عهد به إلى رجال صيده.

وبينما كان الملك يمضي الليلة التي حلت بعد يوم الرسول المبارك القديس فيليب والقديس جيمس، ومعه عدد قليل من الأتباع، في مجدل يابا Furbia، انقض الترك عليهم في الصباح الباكر، بشكل مفاجىء، وفي نيتهم إما أسرهم أو تدميرهم، غير أن الملك كان أول من قفز من فراشه، وأمسك فقط بترسه وسيفه، فأسر سبعة من الترك، وقتل أربعة، وهرب البقية من أمامه، ثم بعث إثر ذلك الداوية والتوركبلي حتى حصن دير البلح (الداروم) لاستكشاف المنطقة، فصدفوا عشرين مسلما كانوا قد خرجوا من الحصن، يحصدون شعيراً، وأسروا هؤلاء وأرسلوهم إلى عسقلان.

وفي هذه الأيام، عندما كان الملك رتشارد مشغولاً في سهول الرملة بأعمال مطاردة الترك، وصل الرسل الذين بعثوا من صور، ومثلوا أمامه وأخبروه بصورة أحوال الأوضاع هناك، وأن الكونت هنري لن يغامر بقبول المملكة إلا بموافقة الملك ونصيحته، ولدى سماع الملك بوفاة

المركيز، مكث وقتاً طويلاً صامتاً وقد اعترته الدهشة تجاه هذه النهاية العنيفة التي جاءت بغير وقتها، لكن لمعرفته أن شعبه خاصة رغب بذلك رغبة كبيرة، سرّ سروراً عظيماً وابتهج لانتخاب ابن أخته، ولذلك أضفيت عليه بوقار علامات التشريف الملكية.

كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور

وقال الملك: « وبناء عليه بما أن المركيز، توقف بحكم قرار موت الذي لايرد، عن الوجود، ليس من المفيد أن ننغمس بالأسى، فالبكاء لن يفيد شيئاً بالنسبة لروح الفقيد، إنني اقدم التهنئة إليكم لانتخابكم الكونت هنري، وإنني راغب تمام الرغبة— إذا شاء الرب — في أن يضفى عليه جميع أمور حكم المملكة في اللحظة التي يجري فيها امتلاك جميع الأراضي المقدسة، وفيما يتعلق بزواجه من أرملة المركيز، ليس لدي من رأي أقدمه، لأن المركيز استحوذ عليها بشكل غير قانوني، بينما كان زوجها مايزال حياً، واقترف الزنا بمضاجعته لها، دعوا الكونت هنري يستحوذ على مملكة مدينة عكا وكل متعلقاتها، وأعني بذلك صور ويافا، وجميع الأرض — إذا رغب الرب — بشكل أبدي، وأخبروه باسمي أيضاً أن يقلع بحملته بأقصى سرعة ممكنة، وأن يجلب الفرنسيين معه، لأنني أنوي الاستيلاء على دير البلح (الداروم) على الرغم من معارضة الترك».

وبعدما تلقى الرسل تعليمات الملك رتشارد عادوا إلى صور، إلى الكونت ، ملكهم المستقبلي، ونقلوا إليه الرسالة التي عهد بها إليهم، ثم عم السرور والفرح بين الجميع وانتعشوا مجدداً، وأقنع أعيان الرجال الكونت حتى يتزوج أرملة المركيز ووريثة المملكة، لكنه رفض خشية اغضاب الملك رتشارد، وبناء عليه، حثه الفرنسيون ونبلاء المملكة على القيام بذلك، لأن الولاء له مع مركزه سوف يقوى بهذا الاجراء، وبوساطة نفوذهم جاءت السيدة عن طواعية وقدمت له مفاتيح المدينة.

ولم يكن من المفترض أن يواجه الذين أقنعوا الكونت لاتخاذ هذه الخطوة كثيرا من المصاعب، لأنه كان من السهل اقناع رجل راغب، واحتفل بالكنيسة بالزواج بشكل مهيب وذلك بحضور رجال الدين

والعلمانيين، وسط أبهة ملكيـة، وابتهج الجميع لـدى انجاز العمـل، وكان الفرنسيـون والنورمان بـالقدر نفسه مسرويـن، لأن الكونـت كان بالـوقت نفسه ابن أخـت كل من ملكي فرنسـا وانكلترا، وبهذا الاتحاد بات الأمل بأوقات سعيدة ستأتي، وأن يعود أولئك الذين اختلفوا إلى السلام والوئام.

ولـدى اكمال الكونـت الاحتفـال بزواجـه أرسـل على الفـور أشخاصـاً ليباشروا الحكم في عكا باسمه، وكـذلك في يافا والمدن الأخرى والحصون، وليستحوذوا على جميع الممتلكات التي توجـب استملاكها في ظل سيادته وباسمه كمولى لهم، ثم أصـدر مرسوماً، دعا فيه الجميع ليكونـوا جاهزين للحملة ضد دير البلح.

وبعد مـا ترك الكـونت هنري أشخـاصاً مناسبين لحمايـة مدينـة صور وبقيـة البلاد، قـام وبصحبته دوق بيرغنـدي بتحـريك جيشـه نحو عكـا حتـى يسرّع الحملـة، وجلـب أيضاً معـه زوجتـه، لأنـه كـان لايصبر على البقاء بدونها.

وعندمـا عرف شعب عكا أنبـاء قدوم الكونـت، خرجوا وهم يـرقصون لاستقباله، وهتفـوا بحياة السيد الجديد، واحتشدوا من حـوله، ورافقوه في دخـوله إلى المدينـة، التي كـانت مـزينة مـن كل جـانب مثـل معبد مـن المعابد، فلقـد زينت بالستائر والأقمشة الحريريـة ، وملأت روائح البخور المحترق كل مكـان، وانتقل شذى الـروائح الطيبة مـن طريق إلى طـريق، ومن شارع إلى آخـر، وقامت النسوة بـالرقص ببهجة ونشـوة، وتقدم حشد هائل مـن الناس، بلـغ تعداده ستين ألفـاً، بكامـل السلاح، نحـو الأمام لاستقبـال الكونـت ، وللتعبير عن سرورهـم وتقديـرهم لـه. وقاده رجـال الـديـن بيـده إلى داخـل الكنيسـة، إلى أمـام المذبـح، ومنحـوه الصليـب المقدس، وآثاراً مقدسـة أخرى، ليقبلها، وقدم الكونت نفسـه، ومعه عدد كبير من الآخريـن، هبات ثمينة هناك، واقتيد بعـد هذا إلى القصر الملكي، حيث أمـر باعـداد وليمة، وبذل كـل واحد — حسـب رتبته وقـدراته—

جهده لتقديم التشريفات للسيد الجديد.

وبما أن صعود رجل جديد كان معناه دوما سقوط آخر، وعليه إن خسارة واحد هي لصالح ومنفعة آخر، فالآن حرم الملك غي من المملكة التي قاتل في سبيلها عدداً كبيراً من المعارك، وأقام الآن هناك مثله مثل انسان عادي، ليس لأنه غير جدير (لأنه لم يكن هناك ملك آخر مثله بالعادات الملكية والطباع ولا أحسن منه)، بل لسبب واحد، هو أنه كان ساذجاً، ولايعرف حرفة التآمر السياسي، وعوضاً عن أن يقدر كثيراً لامتلاكه هذه الصفات — فهذا هو المتوجب — عد ضعيفاً لاتجوز طاعته.

ولقد كان عسكريا صاحب شجاعة كبيرة، وتولى ادارة حصار عكا، عندما كانت محتلة من قبل الترك، بنشاط عظيم وبتصميم ومثابرة، لكن نظراً لازدياد أعداد الأعداء على الجانب المصاقب للبحر، لم يستطع اقتحام المدينة، الأمر الذي سعى من أجله بعده ملكان وقد لاقيا صعوبات جمة حتى استوليا عليها، فهل يصح بعد هذا أن تؤذيه بساطة أخلاقه، وتحرمه من الحصول على حقوقه؟ هكذا هي متناقضات العصر، فالذي عرف بأنه أبعد الناس عن الانسانية في أخلاقه وأعماله عدّ أهلاً لعظيم الشرف والمجد، وهكذا بما أن المهارة هي الفضيلة المتحكمة في العصر الحالي، حصل الدهاء على الاحترام، في حين غرقت التقوى في عدم الاحترام.

وهكذا بات، آنئذ غي ملكاً بدون مملكة، حتى أشفق الملك رتشارد عليه، وهو المعروف بعطفه وشفقته، فأعطاه بدون شروط ملكية جزيرة قبرص، ومع أن الداوية كانوا قد اشتروا الجزيرة منه من قبل، وضعت شروط الشراء جانبا، وصار غي امبراطوراً لقبرص.

وفي الوقت الذي اغتيل فيه المركيز في صور، وصل عدد كبير من

الرسـل من انكلترا يحثـون الملك على العـودة، وقال بعضهـم إن كل شيء سليم، وقال آخـرون إن انكلترا على وشك أن تؤخذ منه، وتـرجاه بعضهم للعـودة إلى الوطـن في حين بذل آخـرون كـل جهودهـم لاقناعـه لاكمال حجه، وهكذا شـوشت تأكيداتهم المتباينة فكـره، وجعلته لايهتدي إلى أي جانب سـوف يميل، لكنه قدر نفسيـة الملك الفرنسي انطلاقـاً من تجربته الماضية، لأنه كما يقول المثل :« الذي لديه جار سوء لاشك أنه سيجد في الصباح شيئاً ما سيئاً».

كيف استولى الملك رتشارد على حصن دير البلح عنوة

في الوقت الذي كان فيه الكونت هنري مع الفرنسيين في عكا يسيرون نحو حصار حصن دير البلح، شرع الملك رتشارد الذي كان يكره التأخير مع رجاله بالانطلاق من عسقلان، وأرسل بوساطة البحر مجانيقه، التي وضعت قطعة قطعة على ظهر السفن، وخلّف رجالاً لحراسة المدينة، كما إكترى آخرين بأجور مغرية ليتولوا بالنهار مراقبة الحصون العدوة المجاورة، وليقيموا حراسة ليلية دقيقة ليمنعوا الأتراك من حمل الميرة— كما كانوا يفعلون من قبل— إلى دير البلح، حيث خططوا مراراً وتكراراً لإقامة كمائن ضد رجالنا، ثم انطلق الملك مع عساكره خاصة نحو حصن دير البلح، ووصل إلى هناك يوم الأحد، ونصب خيمته وخيام أتباعه على مسافة قصيرة منها.

وبالنظر لقلة عدد رجالنا كان هناك شكوك حول أي أجزاء الحصن ينبغي مهاجمته، بحكم أنهم كانوا غير قادرين على الاحاطة به بشكل كامل، فإذا ما جرى تفريق أعدادنا الصغيرة لن يكون بالامكان اقتحام البرج، أو الصمود في وجه حملة الأتراك، ولهذا تراجعوا كتلة واحدة نحو قرية كانت قائمة في السهل، وهناك شكلوا أنفسهم وعبأوا قواهم، ولدى رؤية الترك هذا الجيش الصغير خرجوا من الحصن وتقدموا نحو الأمام، وكأنهم يريدون اثارته وتحديه للدخول في معركة، ثم تراجعوا ثانية وأغلقوا الأبواب بإحكام وقوة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم.

وإثر هذا مباشرة وصلت مجانيق الملك في سفنه، وكانت هذه المجانيق مفككة إلى قطع متعددة، وحمل الملك مع أمرائه ونبلائه قطع المجانيق على أكتافهم من الشاطىء (ليس بدون تصببهم بالعرق) إلى مسافة تقارب الميل، وأخيراً عندما جرى تركيب الآلات وتجميعها، واستعد

الـرجال للعمـل بها، تعهـد الملك بنفسـه القيـام بتشغيـل واحدة منهـن، واستهدف أن يهاجـم بها البرج الرئيسي في الحصـن، وتولى النـورمانـديون تشغيل الآلة الثانية، ورجال بواتو الآلـة الثالثة، ووضعت كل آلة وجهزت لتقوم بـأعمال التدمير، وجعـل الملك رتشـارد آلاته تعمـل ليل نهار، ولهذا السبب جهدوا في سبيل حماية أنفسهم برجولة، وهنا رأى الترك أن الدمار الكامل بات وشيكاً.

وامتلك حصـن دير البلح سبعـة عشر برجاً قويـاً ومتيناً، وكان أحـدها أعلى من البقية وأقوى، وكانت الأبـراج مع الأسوار محاطة بخندق عميق مغطى مـن أحد الجوانب بصفائح مـن الحجارة، بينما كان الجانـب الثاني بطبيعته من الصخور، واستولى الآن الرعب المخيف على المسلمين، خشية أن لايتمكنـوا من الـدفـاع عن أنفسهـم بشكـل فعـال، أو حتى النجـاة بأرواحهم، وأمر الملك النقابون في اليـوم التالي بالشروع في حفر أنفاق بكل عنـايـة تحت الأرض، مـن أجـل اقتلاع الأحجـار وفتـح ثلمـة في السـور، وتمكنت آلات الرمي بـوساطة العمل الجماعي والرمي المتـواصل من تدمير واحد مـن مجانيق العدو، الـذي أقيم على البرج الرئيسي، وأدخـل تحطيمه إلى قطع الرعب كثيراً إلى قلوب العدو.

وفي البـدايـة رد الترك رجالنـا إلى الخلـف بـالحجارة والنشـاب الـذي تساقط بكثافة مثل زخات المطر، مـن عراداتهم وأقواسهم، ووجه العاملون في عراداتنا رماياتهم نحو أي انسان شـاهدوه فوق الشرافات، وهكذا قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منهـم، لذلك نادراً ما تجرأ العدو على التحـرك،وباتت أحوالهم الآن بعيـدة عن أن يحسدوا عليها، عنـدما انهار واحد مـن أبواب الحصـن، بسبب النيران، ثـم دمّر تـدميراً كامـلاً بـوساطـة رمايـات آلات الملـك، وارتعـب الترك كثيراً نتيجـة لما حـدث، ولـلرمـايـات المتـواصلـة والحملات المستمرة، وباتوا غير قادريـن على الاستمرار بالدفاع، لأن عدداً كبيراً منهم قد قتل، وتمدد الآخرون جرحى على الأرض.

وبات الآن واضحاً أن الملك رتشارد كان دوماً من المتعذر قهره في كل عملية شرع بها، وأنه بات واثقاً من النجاح بفعل لغمه للأبراج واستمرار آلات رميه بالقذف، وبناء عليه خرج ثلاثة من المسلمين من الحصن وتقدموا نحو الملك رتشارد والتمسوا السلام، وعرضوا عليه تسليم الحصن وكل شيء عائد إليه شرط أن يسمح لهم بالمغادرة آمنين على حياتهم، لكن الملك رفض وأخبرهم أن يدافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

ولهذا عادوا إلى الحصن، واستمرت آلات الملك تعمل بلا توقف، وبعد هذا مباشرة تهاوى أحد الأبراج بعدما أُلحق به الضعف نتيجة حفر نفق تحته من قبل النقابين التابعين للملك، وجاء انهياره إثر تلقيه رمايات متواصلة، وعندما انهار أحدث دوياً هائلاً، واختلط الترك أثناء محاولتهم النجاة من وسط الخرائب برجالنا، الذين لاحقوهم وهم يقتلونهم حتى قاموا بعقر خيولهم، وهو عمل مرعب فعلوه ليحولوا دون وقوعها بيد الفرنجة ومن ثم استخدامها، وإثر هذا التجأوا إلى البرج الرئيسي.

وهرب الترك الآن، واقترب رجالنا بجرأة من الحصن، وكان أول الداخلين إليه هو سيغوين بورت Seguin Borret ، ومعه حامل دروعه واسمه أوسبيارد Ospiard وكان الثالث بيتر أوف غسكوني، وتلاهم عدد كبير آخر، نُسيت أسماؤهم، وكانت راية ستيفن دي لونغشامب الأولى التي رفعت فوق الأسوار، وكانت الثانية راية ايرل أوف ليستر، وكانت الثالثة راية أندرودي كافني Chavigny ، وكانت الرابعة راية (بوهيموند الثالث) ابن الأمير ريموند (صاحب أنطاكية)، ثم رفع الجنويون والبيازنة أعلامهم على الأسوار، وكانت ذات أشكال متنوعة، وفي الوقت نفسه رميت أرضاً رايات الترك.

وكان من الممكن الآن رؤية الترك وهم يفرون نحو البرج أو يسقطون أرضاً بعد اصابتهم بضربات السيوف، أو ارتموا بلا حراك إثر اصابتهم

بالنشاب، وذلك قبل أن يتمكنوا من الوصول إليه، وكل من وجده رجالنا ما يزال صامداً في مكانه فوق الشرافات، رموه إلى الأرض دونهم، ولقد تم قتل ستين من الترك في مختلف أجزاء الحصن.

وعندما رأى الذين التجأوا إلى البرج مقتل عساكرهم، وأن المكان الذي اعتصموا فيه سوف يجري تدميره (لأن رجال الملك كانوا على الفور بناء على توجيه الملك قد شرعوا بالعمل لتدميره) أدركوا أنهم لن يستطيعوا التمتع بالأمان طويلاً في التصدي للملك، لذلك استسلموا يوم الجمعة قبل عيد الحصاد، ووضعوا أنفسهم تحت الرحمة الملكية ليكونوا عبيداً دوماً إلى الأبد، وتمتن هذا القرار أكثر بوساطة حقيقة أن أميرهم القوي جداً، واسمه قيصر Caisac ، الذي كان معهوداً إليه أمر قيادتهم وحمايتهم، قد أخفق بوعوده في تأمين الأمان لهم، وبعد الاستيلاء على حصن دير البلح، وجدوا فيه نحواً من أربعين أسيراً فرنجياً، كانوا في الأغلال، وباتوا الآن يعيشون أحراراً.

وجعل الملك رتشارد رجاله ليلة الجمعة التالية يقومون بحراسة الترك الذين ظلوا على قيد الحياة، حتى الصباح، ومع أوائل الفجر طلب منهم النزول، وقد ربطت أيديهم خلف ظهورهم بحبال، ولذلك غدت أطرافهم متيبسة، وكان تعدادهم قد وصل إلى ثلاثمائة بالإضافة إلى الأطفال والنساء.

وهكذا تملك الملك رتشارد حصن دير البلح، بفخر كبير، وذلك بعد أربعة أيام من هجومه عليه وكان رجالنا راغبين تماماً في انجاز هذا العمل بدون الفرنسيين، حتى ينالوا مجداً أعظم.

وهكذا جرى الاستيلاء على دير البلح، وفي الوقت نفسه كان الكونت هنري مع الفرنسيين ودوق بيرغندي، قادمين بسرعة كبيرة، حتى يكونوا حضوراً أثناء الاستيلاء على الحصن، لكنهم وصلوا متأخرين كثيراً،

واستقبل الملك الكونت لدى وصوله بحفاوة خاصة وبسرور عارم، وأخذه معه إلى الحصن وأعطاه إياه بحضور الجميع، وذلك بمثابة القطاف الأول لملكيته، ولمملكته التي سيستحوذ عليها، وبقي الجميع في حصن دير البلح حيث أمضوا يوم عيد الحصاد العظيم، وفي يوم الاثنين التالي، وضعوا بعض رجال الكونت بمثابة حرس في الحصن، وانطلقوا نحو عسقلان، ومروا في وسط غزة حتى وصلوا إلى مجدل يابا، فهناك بقي الملك لمدة ثلاثة أيام، لكن البقية ذهبوا إلى عسقلان، حيث احتفل الفرنسيون بوقار بعيد الحصاد.

وعندما كان رتشارد في ذلك الموضع هناك وصل رسول من انكترا، وكان رجل دين اسمه جون دي ألنكون Alencon ، ليخبر الملك عن الأوضاع المضطربة في انكلترا، ومرد ذلك إلى تصرفات أخيه الإيرل جون، الذي كان يرفض الاصغاء إلى حجج أمه الملكة، أو إلى أي شخص آخر، بل اتبع هواه والدسائس المتوالية لملك فرنسا، وأكد جون دي ألنكون للملك أنه ما لم يوضع حد للخيانة غير المشهورة، وتوقف بوسيلة أو أخرى، انكلترا واقعة في خطر حرمان الملك رتشارد من ملكيتها.

وانزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار، وفكر مليا حول أي السبل عليه أن يتبع، واعترف أخيراً أن عليه العودة إلى الوطن، إذ لم يرغب في أن تنتزع منه بلاده ومملكة آبائه، وفي الوقت الذي لم يكن قد أعلن فيه عن نوايا الملك ومقاصده، قال بعض الناس إنه ذاهب، وقال بعضهم الآخر: إنه لن يدع تقارير غير مؤكدة تبعده عن إتمام واجبه الديني، فمثل هذا العمل لن يساعد على استرداد الأرض المقدسة، ولن يضاعف أمجاده.

وفيما الناس على خلاف بالرأي حول مغادرة الملك رتشارد، اجتمع معا جميع قادة الجيش وضباطه من: فرنسيين وانكليز، ونورمانديين، ورجال بواتو، ومين وأنجو، واتفقوا أنه سواء أعاد الملك رتشارد أم لم

يعد، سوف يزحفون لحصار القدس، وما من شيء ينبغي أن يمنعهم من القيام بذلك، وعندما بات هذا معروفاً بين صفوف الجيش امتلأ الناس بسرور عارم، وابتهج الجميع مع بعضهم بشكل علني من غني وفقير، وعالي ومنخفض، ولم يكن هناك رجلاً واحداً في الجيش إلا وشعر بالشيء نفسه، وبناء عليه أقاموا إضاءة هائلة، ورقصوا وغنوا طوال الليل تقريباً.

وكان الملك وحده الذي اضطرب لدى سماعه بذلك، وجلس يفكر واستغرق بالتفكير حتى قهره ثقل ذلك، فألقى بنفسه فوق فراشه، وهو غاضب جداً.

وكان الوقت الآن بداية حزيران، وانتعش الناس بالرغبة بالانطلاق نحو القدس، وانطلق الملك مع الجيش من تل الصافية، وتابعوا زحفهم خلال السهول إلى يبنى العائدة للاسبتارية، ثم إلى بيت جبرين فالخليل، قرب الوادي الذي قيل بأن حنة أم مريم العذراء قد ولدت فيه، وتوقفوا هناك حيث هاجمتهم حشود من الحشرات الصغيرة، التي طارت هناك مثل شرر النار، وأطلق عليها اسم « بعوض Cincenelles » ، وامتلأت المنطقة كلها من حولهم بهذه الحشرات، وقد أزعجت الحجاج بشكل مرعب بلسعاتها الحادة في الأيدي والرقبة، والعنق، والجبهة، والوجه، وفي كل مكان صدف وكان مجرداً، وكان يتبع اللسعات حرقة وتورم، وبدا الذين تعرضوا للسع مثل المصابين بالجذام، وبصعوبة استطاعوا تجنب الهجمات المزعجة بوساطة أغطية ألقيت فوق الوجه والرقبة، لكنهم كانوا جميعاً في معنويات عالية، واعتقدوا أن عليهم تحمل هذه المنغصات بصبر، لأنهم جميعاً أقسموا على الزحف من أجل حصار القدس.

ورأى في أحد الأيام شماس من بواتو، اسمه وليم، الملك، وهو جالس لوحده في الخيمة، وعيناه مثبتتان نحو الأرض، وهو في حالة تأمل، فشعر بالانزعاج من أجله، لأنه عرف أنه كان منزعجاً جداً وقلقاً بسبب الأخبار الواصلة من انكلترا، غير أنه لم يتجرأ على المغامرة على الدخول

على الملك ليخفف عنه وليلطف من ضيقه الذي أثقل كاهلـه، ونظر إليه نظرة احترام وانهمرت الدموع من عينيه، دون التفوه بكلمة واحدة.

وعندما رآه الملك أنه راغب في مخاطبته استـدعاه وأدناه منه وقال له ما يلي: « أيها السيد الشماس، أرجوك أن تخبرني، بحـق الولاء الذي تديـن به إليّ، ما هو السبـب الذي جعلك تبكي، وهـل لمناسبة انزعـاجك وأساك أية علاقة بي؟».

ورد عليه الشماس بصـوت متواضـع قائلاً: « إننـي لن أتكلـم قبل أن أعلم أن معاليـك لن تغضب من الـذي سوف أقوله» : وأقسـم له الملك أنه سيعطيه الحرية في أن يقول ما يشاء، وبناء عليه بدأ الشماس يقول:

« مولاي الملك، إننـي أبكي بسبب الوضع الحرج الـذي أراك فيه قائماً مع الجيـش، ذلك أنك تنـوي العودة إلى الوطـن، لعل الرب يمنعـك عن الابتعاد عن استرداد هذه الأرض المسكينة بسبـب أخبار مشكوك فيها، أو غير مؤكدة، لأننا نعتقـد أن تخليك سيسبب عاراً أبدياً لـك، فالجميع هنا على اتفاق أنك الأب، والبطل، والمدافع عـن المسيحية، وإذا ما هجرتهم كأني بك وقد ألقيت بهم للدمار بوساطة العدو».

وأصغى الملـك إلى كلمات الشماس، وتفكر بها في قـرارة نفسه بصمـت لبعـض الوقـت، وتبـدل موقفـه وتغيرت نوايـاه بهذا الخطـاب، وتأكـدت عزيمتـه حول السبيل الـذي سوف يتبعـه، ولهذا رجع مع جيشـه في اليوم التالي إلى عسقلان، وتـوقف في البساتين الموجودة خـارج المدينة، وافترض كل واحد أنه بـات على نية العودة إلى الوطن، وأنه يسرّع عـودته، لكن بما ألهمه الرب إيـاه من خلال الشماس، أخذ الملك يغير نيتـه، وأخبر الكونت هنـري ودوق بيرغندي وبقيـة النبـلاءأنه لـن يترك الأراضي المقـدسة قبـل الفصح، بسبب تلقية أية رسالة أو أي تقرير أو شكاية مهما كان نوعها.

وبنـاء عليه، استـدعى في الـرابع مـن حـزيران، في اسبـوع الثالـوث

المقدس، فيليب، منـاديه وأمره أن يعلن في جميـع صفوف الجيش إن على الجميـع إعداد أنفسهـم وفقاً لامكـانياتهم، والاستعـداد لحصار القـدس، وعندمـا سمع الجيش كلمات المنادي ابتهـج مثل طير عند حلـول الفجر، وعلى الفور أعد الجميع أنفسهم وقالـوا: « أيها الرب، إننا نعبدك ونشكرك لأنك سـوف تجعلنا عما قريب نـرى مدينة القدس، التـي استقر بها الترك مدة طـويلة وأكثـر مما ينبغي، أيها الـرب بارك تـوقعاتنا بعـد هذا التـأخر الطويـل، فلم عـانينا وتعـذبنا وتـألم كل منـا، إن شوقنـا الطويـل لرؤيـة مدينتـك سوف يعـوضنا عـن كل شيء»، وهذا الـدعاء ومثلـه قدمـه كل واحـد، وبـات همهـم الـوحيد وشغلهـم الشـاغـل الآن هـو الشروع بهذا الزحـف، زد على هذا كـانت حشود النـاس من الطبقات الـدنيا متشـوقة جداً للزحف نحـو القدس، وباتوا نشيطين جداً بأملهـم، حتى أنهم حملوا حقـائب المؤن على أكتافهـم، وأكـدوا أنهم قـادرون تماماً، أن يحملـوا ميرة شهر، فلا شيء لايمكـن التغلب عليه في ذهن انسـان ملك الإرادة، فقط إذا امتلك الـرغبة والحماسة في خـدمة الرب، فهـذا يخفف من شقـاء تعبه ويلطفه.

وفيما كل واحد كـان مشغولاً بالاستعداد للحملة، بـدا أن كل شيء قد حدث متوائم مع نواياهم، وبعـد ما استعد الملك والجيش تمام الاستعداد من أجـل الزحف، انطلقـوا من عسقلان في فجـر يوم الأحد، الـذي وافق اليوم الثـامن بعد عيـد الثالوث المقدس، وسـاروا يريدون القـدس، وكان الذيـن تقدموا في الأمام نخبـة الناس، وقد اصطفوا بشكـل رائع، وزحفوا ببطـيء بسبـب الحرارة، وزود الذيـن انتمـوا إلى الطبقـات العليا الـذيـن انتمـوا إلى الطبقات الـدنيـا بما أرادوه بكرم، وكـان هـؤلاء فقراء الحجـاج الـذيـن سـاروا على أقـدامهـم، ولقـد زودهـم الأغنيـاء بجميـع وسـائل التسهيلات من خيـول وكل نوع من دواب الحمولة لحملهـم، وفي الوقت نفسـه سـار في الخلـف الـذين حملـوا أسلحـة خفيفـة، والجنـود الشبـاب

الأقوياء.

وكان بإمكانك وقتها أن ترى عدداً من الأعلام والعذبات من مختلف الأشكال وهي تخفق في الهواء، وكذلك أناساً من مختلف الأمم، وأسلحة متنوعة الأوصاف، وخوذاً لها أعراف وكانت تلمع بالجواهر، ودروع مشرقة، وترسة مزينة بصور أسود أو تنينات طائرة وكلها من الذهب، وبغال وخيول متشوقة للتحرك بسرعة كاملة، ويتحرقون سخطاً لأنهم أعيقوا ببعض المعيقات، وكانت هناك رماح كثيرة بأسنة حادة ذات لمعان، وكان الجو مليئاً بأشعة السيوف المتلألئة، كما وكان هناك عدد كبير من الجنود، من خيرة الرجال، رجال صدق وجودة .

وتقدموا مسرعين وبنجاح، وبعد عبورهم لنهر عذب الماء وصلوا الى تل الصافية، ونصبوا خيامهم بالسهل بالخارج، وأمضوا الليل هناك، وفي أثناء الليل مات عسكري مع حامل سلاحه لأنهما لدغا من ثعبانين في منطقة صغيرة هناك، أرجو أن يمنحهما الرب الذي كانا يعملان في خدمته الغفران لروحهما، ومكث الجيش في ذلك المكان لمدة يومين .

ووصل الجيش في اليوم الثالث، وهو التاسع من حزيران، الى النطرون، وذلك بدون عوائق أو منغصات، وأسر رجالنا الليلة أربعة عشر بدوياً هبطوا من الجبال للنهب، وفي اليوم التالي تحرك الجيش بعد الغداء نحو الأمام، وسار الملك في الطليعة ومعه خاصة جنده حتى قلعة قلونية، حيث أمر بنصب خيمته على الجانب الأيمن، والأعلى من القلعة، ووصل الفرنسيون في اليوم التالي، وانطلق الجيش كله الى بيت نوبة حيث مكث بعض الوقت يتوقع وصول الكونت هنري، الذي بعثه الملك رتشارد الى عكا لجلب بعض الناس الذين كانوا يعيشون هناك باسترخاء وكسل، ولذلك كان من الضروري بالنسبة للجيش أن يبقى هناك الشهر كله أو أكثر، وأن يقيم عند سفح الجبل الذي توجب على الحجاج عبوره لدى ذهابهم الى المدينة المقدسة والعودة عنها .

لماذا لم يزحفوا الى القدس

وفيما نحن في الوادي ، رأينا أشياء كثيرة تحدث ، الأمر الذي نعتقد أننا لا يجوز أن نمرّ به صامتين ، ففي اليوم الذي أعقب عيد القديس برنابا ، وكان يوم جمعة ، أخبر جاسوس الملك أن الترك موجودين فوق الجبل ، في كمين للذين توجب عليهم الجواز ، ولهذا انطلق في الصباح الباكر عند الفجر للبحث عنهم ، وفاجأهم على حين غرة عند نبع عمواس ، فقتل عشرين منهم ، وجعل البقية يفرون ، وأسر منادي صلاح الدين ، الذي اعتاد أن يعلن مراسيمه ، وكان هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أبقاه الملك رتشارد حياً، واستولى أيضا على ثلاثة جمال ، وخيول وبغال ، وثلاثة أكاديش وبغلين محملين بأغطية حريرية ثمينة وأنواع مختلفة من توابل الصبر ، وأشياء أخرى ، وطارد بقية المسلمين عبر الجبال ، ملحقاً بهم الهزيمة ومقتلاً لهم ، حتى وصل الى وادي ، فهناك بعدما طعن واحداً من الأعداء ورماه أرضاً يموت ، نظر نحو الأعلى فرأى عن بعد مدينة القدس .

وعندما وصلت أخبار اقتراب الملك رتشارد الى الترك الذين يسكنون في القدس ، بوساطة الفارين ، أصيب هؤلاء بالهلع ، وليس هناك من شك لو أن الملك ورجال جيشه تقدموا نحو الأمام في تلك اللحظة من رعبهم ، لتخلي الترك عن القدس ، ولتركوا الفرنجة يستولون عليها بدون منازع ، فقد هرب المسلمون منها أفراداً و جماعات ، ولم يغامر أحد على البقاء بالمدينة ، وما من أحد ارتدع بتهديدات السلطان ، أو انجذب بأمل الحصول على جائزة ، ولهذا كان كل ما طلبه السلطان نفسه هو تزويده بأسرع فرس لديه حتى يمكنه الفرار من وجه الملك رتشارد الذي لم يتجرأ على الانتظار حتى وصوله .

وفي اليوم السابع عشر من حزيران ، وهو يوم عيد القديس بوتولف Boitolph كانت قافلتنا في طريقها من يافا إلى الجيش مع الميرة وبقية الأشياء الضرورية ، وسارت غالبية طلائع رجالنا بسرعة نحو الأمام ، لكن الذين كانوا في الساقة تبعوهم ببطء وبخطا متثاقلة، وعندما كانوا غير بعيدين عن الرملة، انبعث خيالة ترك من كمين، واندفعوا نحو الذين في الساقة، وحاولوا أن يغدوا أمامهم، حيث مروا مباشرة من خلال ساقة القافلة، وأسقط هناك بلدوين دي كارون Carron من على ظهر فرسه، غير أنه امتشق حسامه وأخذ يضرب به في جميع الاتجاهات، فبرهن أن متمنع على العدو، ويتعذر عليهم الوصول إليه.

وألقي أثناء ذلك القتال برتشارد توركي Torquesوثيودورك من على ظهري فرسيهما ، لكن بلدوين قاتل حتى جلب له رجاله فرساً آخر ، وساعدوه على امتطائه ، وكان هناك صراع حاد ومشرف لكلا الجانبين ، وكانت السيوف تسطع ، وجانب يهاجم والآخرون يدافعون عن نفوسهم بشجاعة قصوى ، وكانت هناك خيول تجول تائهة بدون ركاب ، وكان الترك يحملون ورجالنا يقاتلون بثبات.

وكان ما أن يوقع الترك بعض رجالنا الى الأرض ، كما حدث مراراً ، كان رجالنا يصطفون من حوله بإحكام ، ويقيمونه ، ويساعدونه على امتطاء فرسه ، فقد كان كل واحد يساعد الآخر ، لكن رجالنا قاتلوا في وضع محرج جداً ، فقد كانوا قلة قليلة ، فقد كان كل واحد يصارع عدوه وهو مغطى ـ كما حدث فعلاً ـ بحشد من أعدائه عندما كان أي واحد من رجالنا يحرم من حصانه ، كان مصيره الغلبة من قبل الأعداء ، وقد عقرت الخيول ، وأضعفت كثيراً بزخات النشاب التي رميت عليها .

وألقي بلدوين أرضاً للمرة الثانية وما أن رمي من على ظهر حصانه حتى بادر على الفور فأمر واحداً من رجاله المسلحين بأن يترجل ، وركب

هو عوضاً عنه ، وبعد قليل قطع رأس هذا الرجل الذي تصرف ببسالة .

واتخذ رجالنـا الآن موقف الدفـاع ، وجرى أسر فيليب رفيق بلـدوين ، ومعه أسر الترك رجـلاً آخر من الأتبـاع المسلحين ، وكان شجاعـاً جداً ، كما قتل آخر رتشارد تـوركوي ، وللمرة الثالثة حرم بلدويـن من حصانه ، وضرب بالهراوات حتـى أصبح بلا حراك وكـاد أن يموت ، وتدفـق الدم مثـل النهر مـن أنفـه ومن أذنيـه ، بينما انثلـم سيفـه من كثـرة الاستعمال وانكسر رأسه ، وبـات غير صالـح للاستعمال ، ثـم جرى تطويق بلـدوين بمجمـوعة كثيفـة من الترك ، وهنـا صرخ لـ « مـانسييردي ليسلي» nan-nassier de lisle ، وكـان فارسـاً عظيم القـوة ، سحـق كل مـن واجهه ، وقال : « مانسيير هل تخليت إذن عني » ؟

وبنـاء عليه امتطـى مـانسيير فرسـه وبادر بكـل سرعـة لانقاذه ، لكـن العدو كان كثيراً جداً ، وشجاعاً ويقـاتل بعزيمة وثبات ، لهذا لم يستطع هذان الرجـلان فعل شيء ضد رجال العـدو ، فقد حرم مانسيير مـن فرسه ، وعندمـا بات على الأرض ضربوه بـوحشية بـأعمدة حديـدية ، ذوات رؤوس خشنة ولها أسنـان ، وكان واقفـاً على الأرض ، فأنهكـوه حتى سقـط لما به وكسروا ساقيـه وعظامه ، وكـل ما في جسـده هتكوه ، وهكذا تـم تدمير كل من بلدويـن ومانسيير من قبل العدو ، بينما لم يعلم رجـالهما شيئاً عن مصيرهما .

وأرسـل الرب في هـذه اللحظـة ايـرل سالسبري الشجـاع لانقـاذهما وحمايتهما ، واندفـع الايرل نحو العـدو وألقى بـأول رجل اصطدم بـه من على ظهر حصـانه ، فعجل بناء عليـه أو سكون Auscun ، وكان رفيقاً لستيفـن دي لـونغشـامـب ، فقطع رأسـه ، ورمـاه إلى مسـافـة بعيـدة ، وتصرف ستيفن أيضـاً برجولـه ، وازداد رجالنا بـالعدد ، وانزلـت الهزيمة بالعـدو ، وهرب بسرعة الى الجبـال ، اللهم باستثناء الـذين ألقى رجـالنا القبض عليهـم ، أما الـذين جـرحوا مـن رجالنـا فوضعـوا بعنايـة على

ظهور الخيول وحملوا الى الجيش .

وجلب رجل سرياني ، هو أسقف القديس جورج (اللد) قطعة من صليب الصلبوت الى الملك هنري ، وكان هذا الأسقف شخصياً مع رعيته ممن يدفع الجزية لصلاح الدين ، منذ أن دخل المسلمون القدس للمرة الأولى ، وكان عندما جاء ، جاء مصحوباً بعدد كبير من الرجال والنساء ممن ينتمون الى شعبه ، وأعطى الملك قطعة الصليب .

وحدث أيضاً ، في اليوم الثالث ، قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ، بينما كان الجيش في بيت نوبة ، أنه قلق كثيراً تجاه أخبار جلبت الى الملك ، جلبها رجل تقي هو راعي دير القديس إيليا ، الذي عبر مظهره الخارجي ، ولحيته الطويلة ، والرأس الأبيض ، عن القداسة ، وأخبر الملك أنه منذ زمن بعيد مضى خبأ قطعة من صليب الصلبوت ، احتفظ بها لتبقى حتى يتم انقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وما أن سمع الملك بهذا حتى بعث على الفور مع الراعي عدداً كبيراً من الناس الى المكان الذي تحدث عنه الراعي ، وبعدما حملوا قطعة صليب الصلبوت بتذلل وتبجيل ، عادوا معاً الى الجيش ، وقبلوا مع الناس قطعة الصليب بكثير من التقوى والاستغفار .

وبعدما تعبد الجيش الصليب لوقت طويل بسرور عظيم زائد ، تشكى الناس من الطبقة الأدنى ومن العامة وقالوا : « أيها الرب ، ماالذي سنفعله ؟ هل سنتابع الزحف الى القدس ؟ ثم بماذا سنقوم أيضاً ؟ هل سنستطيع الصبر حتى ننجز حجنا » ؟ هكذا تعالت التمتمات والشكاوى بين الناس .

وبناء عليه اجتمع الملك مع قادة الجيش للبحث هل من المفيد المتابعة حتى حصار القدس أم لا ، ووافق الفرنسيون على الزحف بحرارة ، لا بل حثوا الملك على متابعة الزحف والحصار ، وقد رد عليهم

بأن هذا لا يمكن القيام به ، وقال الملك :« إنكم لن تروني أعمل بمثابة دليل وقائد للناس في هذه المسألة ، لأن من الممكن أن نكسب بذلك العار ، لأنه من غير المعقول كثيراً أن نمضي في هذه المغامرة ، وإذا كان يرضيكم متابعة الزحف الى القدس ، لن أتخلى عنكم ، غير أنني سأكون رفيقكم ولن أكون قائدكم ، وإنني سأتبعكم ، لكن لن أقودكم .»

«ألا يعلم صلاح الدين كل ما يجري في معسكرنا ، وهل تظنون أن أوضاعنا الضعيفة غابت عن ملاحظته؟.

إنه يعرف تماماً كم هي قوانا،وأننا بعيدين عن شاطىء البحر، وعندها سينحدر العدو بقواته من الجبال الى سهول الرملة ليراقب الطرقات،وليقطع الممرات على الذين يجلبون لنا المؤن، وهنا ستكون المحصلة مأساوية جداً بالنسبة للمُحاصِرين،وعندها سنندم ولات حين مندم،وسندفع عقوبة مغامرتنا الحمقاء ،وثمن عنادنا» .

«زد على هذا إن أسوار القدس التي نقترح حصارها،هي كما سمعنا-عظيمة جداً باستدارتها،وأن نقوم بمضايقتها بقواتنا-التي هي قليلة كما ترون الآن-إن عددها لن يكون كافياً لمتابعة الحصار ،أو القيام يه، أو حماية الذين يجلبون الميرة،من الحملات التي سيشنها الترك،ومن المؤكد أنهم سوف يتعرضون للدمار أفراداً أو جماعات،إذا لم يكن هناك من يتولى انقاذهم».

«وإذا ماقمت بهذه المغامرة الخطيرة ،ونزلت نازلة سوء وأنا المتولي للقيادة (لاسمح الرب) إنني وحدي الذي ينبغي أن يلام لعدم تبصري ،وسأكون وحدي المسؤول عن المخاطر،وليس هناك من شك ،وأنا على يقين من ذلك،أن هناك أشخاص هنا في الوقت الحاضر،كما هناك أشخاص في فرنسا،قد رغبوا منذ وقت طويل، ويتمنون كثيراً أن أبذل غاية جهدي في هذا الصدد،من دون اتخاذ احتياط موائم،وتيقظ مناسب،وأن علي انجاز أعمال

جريئة ،ستكون بحق موضع تساؤل وستجلب العار لاسمي النقي حتى الآن من أية شائبة، وبناء عليه إنها عملية خطيرة جداً ،ولها نتائج مشكوك بها وغير محققة على الاطلاق، وأرى إنه خطأ أن نبادرفنندفع نحو الأمام بدون احتياطات عظيمة»

«زيادة على ماتقدم،نحن ،وشعبنا نجهل طبيعة هذه المنطقة،ولانعرف الطرقات ولاالتشعبات والعقبات،ولو أننا كنا أفضل معرفة بهم،لأمكننا الزحف بسلامة أكبر،ومع هذا أرى إن أفضل سبيل نتبعه هو أن نسأل السكان المحليين من أبناء الأرض،ونطلب نصيحتهم،وهم مشتاقون الى استعادة أراضيهم والعودة الى أوضاعهم الماضية، وينبغي أن نجهد لنتأكد منهم ماالذي يرونه الأفضل للقيام به، وأرى أيضا إنه ينبغي علينا استشارة الداوية والاسبتارية، ونقف على حكمهم وموقفهم حول :هل علينا الزحف أولاً لحصار القاهرة،أو لحصار بيروت،أو لحصار دمشق،وبهذه الصورة لن يستطيع جيشنا الاستمرار،كما هو الآن، في أن يتوزع الى فئات بسبب الآراء المتباينة».

وبناء عليه،تم الاتفاق ،استناداً لتوصية الجميع وموافقتهم،وجوب اختيار عشرين رجلاً موثوقاً بهم،وأن يقسم هؤلاء على اتخاذ قرار حول ماهم بصدده، وأن على الجميع الأخذ بقرارهم دون مزيد من المعارضة،وبالفعل جرى اختيار خمسة من الداوية،وخمسة من النبلاءالفرنسيين، وخمسة من الاسبتارية، وخمسة من البلديين السوريين، واجتمع هؤلاء العشرين مع بعضهم،وبعد التداول لبعض الوقت،حول المسألةالمطروحة من قبل،عرضوا موقفهم المقرر وهو إن أفضل خطة على الاطلاق هي الزحف مباشرة لحصار القاهرة،ولدى سماع هذا عارضه الفرنسيون بكل شدة، واحتجوا وقالوا إنهم سوف لن يزحفوا الى أي مكان إلا الى حصار القدس.وعندما سمع الملك بعناد الفرنسيين وتخليهم عن موافقاتهم بالالتزام،اضطرب وانزعج وعلق قائلاً :«إذا كان

الفرنسيون ليسوا على استعداد للالتزام بخطتنا، ولن يوافقوا على الزحف لحصار القاهرة، تماشياً مع ما أقسموا على طاعته،إنني سوف أعطيهم اسطولي الراسي في عكا،وهو مجهز تماماً ،وذلك لكي يحمل مؤنهم وما يحتاجون إليه،ووقتها يمكن للجيش أن يزحف على طول الساحل وهومطمئن،كما أنني سأبعث الى هناك معهم،على حسابي الخاص، سبعمائة فارس، وألفين من أتباعهم، وذلك باسم الرب، وإذا كان أي واحد يحتاج الى المساعدة من مالي أومما هو متوفر لدي،ليكن متأكدا أنه سوف يزود بكل مايطلبه، وإذا كان أي واحد يشك في أنني سأفعل ذلك،فأنا سوف أزحف مع جنودي فقط، وبدون عون الآخرين».

ثم أمر بالتقصي والبحث في داخل خيم الاسبتارية التي كانت مجاورة لخيامه، ومعرفة ماالذي يمكن تزويدهم به من أجل القيام بالحصار ،وكم عدد الرجال الذين يمكنهم تقديمهم وتسليحهم ،وجاء المقدمون أيضاً الى هناك،ووافقوا على تقديم وفرة من الاسهامات فيما يتعلق بنفقات الحصار،مع أنهم كانوا يمتلكون القليل جداً في جيوبهم،لكن في تلك اللحظة الحرجة والحاسمة ظهروا وهم متشوقين جداً للقيام بتلك المخاطرة المريبة النتائج كثيرا ،حتى باحتياطات أقل مما تصوروها لدى الشروع بالتفكير بحصار القدس، التي حللتهم الأيمان من القيام به.

الاستيلاء على القافلة الكبيرة

وبناء عليه،بينما كان الاسبتارية يبحثون بقلق ماالذي ينبغي أن يقدمه واحد تجاه نفقات الحصار،وصل برنارد،وهو جاسوس للملك رتشارد،ومعه اثنين آخرين جاء كل واحد منهما من جوار تخوم مصر،وكانا من السكان المحليين للمنطقة،وقد لبسا ملابس تركية ولم يختلفا في شيء عن المسلمين، وكانت وظيفتهما أن يرويا للملك رتشارد تقارير عن أوضاع العدو ومامن أحد تكلم اللغة التركية بيسر أكثر منهما،وأعطى الملك رتشارد لكل واحد منهما ثلاثمائةمارك فضي مقابل خدماته.

وبينا للملك أن عليه أن يستعد مع رجاله بكل سرعة ممكنة، لاعتراض طريق قافلة كانت قادمة من مصر،ووعداه أن يقوداه نحوها،وابتهج الملك لدى سماعه ماحكياه وطلب من دوق بيرغندي أن ينضم اليه على الفورللقيام بهذه المغامرة،وليجلب الفرنسيين للمساعدة،ووافق الفرنسيون على القيام بهذا شرط أن يتسلموا ثلث الغنائم،ووافق الملك على هذا المطلب،وهكذا حضر من الفرنسيين على الفور خمسمائة جندي مسلحين بشكل جيد جاهزين للانطلاق ،وأخذ الملك معه ألف رجل ممن كان يخدمه بالأجرة.

وشرعوا بالزحف عند المساء،وتقدم الملك أمامهم،وساروا طوال الليل في ظل ضوء القمر الرائع،ووصلوا الى تل الصافية،واستراحوا هناك قليلاً، وبعثوا الى عسقلان من يجلب اليهم المؤن، وأعدوا بالوقت نفسه بكل عناية أسلحتهم حتى وصول الخدم الذين أرسلوهم لجلب المؤن.

لكن ماأن زحفت قواتنا للهجوم على القافلة حتى أخبر جاسوس صلاح الدين في القدس بأنه رأى الملك رتشارد ينطلق مع حشد كبير من شعبه لاعتراض القوافل،وبذلك انكشف سر حملتنا،فأرسل صلاح

الدين مسرعاً خمسمائة من خيرة الترك،الذين شكلوا عندما التحقوا بالذين كان موكلاً إليهم حراسة القوافل، قوة مكونة من ألفي فارس ،وذلك بالاضافة الى جماعة كبيرةمن الرجالة.

وعندما كان الملك رتشارد وأتباعه يرتاحون في تل الصافية،أخبر جاسوس الملك بأن واحد ة من القوافل المتقدمة الذكرتعبر بالقرب من صهريج مستدير(الخويلفة)، وأشار عليه بالمضي مباشرة والاستيلاء عليها،وأوصاه بإبقاء قواته في الخلف،وقال:«لأن من سيستولي على القافلة، سوف يحصل على غنائم هائلة»لكن بما أن الجاسوس كان من أبناء المنطقة ،لم ير الملك وجوب الوثوق به تماماً،والاعتماد على تأكيداته لوحده، ولهذا بادر الملك الى ارسال بدوي مع اثنين من الخدم التيركوبلية اليقظين،للتأكد من صحة المسألة،بعد البحث والتقصي حولها،وجعلهم يلبسون لباس البدو،حتى يظهروا مثلهم مثل المسلمين.

وانطلق الرجال الثلاثة ليلاً عبر الهضاب ،التي كانت مغطاة بأبراج مراقبة، وانعطفوا نازلين الى الوادي، وساروا حتى رأوا بعض المسلمين فوق بقعة مرتفعة،وكان هؤلاء أنفسهم جالسين ينتظرون الذين يمكن أن يعبروا الجبال،وعندما اقترب بدوينا منهم لاكتشافهم بخطوات خفية، سألهم المسلمون من هم، ومن أين جاءوا،والى أين وجهتهم ،وطلب البدوي من الآخرين التزام الصمت،خشية أن يكتشفهم المسلمون من كلامهم،وأجابهم بأنهم كانوا عائدين من المنطقة المجاورة لعسقلان،الى حيث ذهبوا للنهب،لكن واحداً من المسلمين قال له:«لقد قدمت للبحث عنا،وأنت من أتباع ملك انكلترا»وأجابه البدوي بأنه يكذب ،ثم تجاوزه وتقدم مسرعاً باتجاه القافلة ، ولحق به بعض المسلمين لبعض الوقت ، وهم يحملون قسيهم ورماحهم ، وظلوا يفعلون ذلك حتى توقفوا عن المطاردة بسبب تعبهم » .

والآن وقد تأكد جواسيسنا من حقيقة القافلة ، عادوا بأقصى سرعة

الى الملك وأخبروه أن بإمكانه الاستيلاء بسهولة على القافلة إذا ما بادر مسرعاً ، وعندما سمع الملك بهذا ، وبعدما كان قد أراح خيوله وعلف عليها ، انطلق مع رجاله ، وساروا طوال الليلة التالية حتى وصلوا الى المكان حيث كانت القافلة ، فأعدوا أسلحتهم ، وعبأوا أنفسهم ، وسار الملك في الصف الأول ، ومشى الفرنسيون في الساقة ، وحظر الملك بصوت المنادي على أي واحد الالتفات نحو النهب ، وأمرهم أن يبذلوا ما في وسعهم لخرق الصفوف التركية وتدميرها .

ومع اقتراب الصباح ، وعندما كانوا مشغولين في تنظيم صفوفهم ، وصل جاسوس آخر مسرع جداً ، وأخبر الملك بأن القافلة كانت تستعد مسرعة للتحرك منذ الفجر لأن نية الملك بمهاجمتها باتت معروفة من قبل حراسها ، ولدى سماع الملك بذلك ، تقدم نحو الأمام مع نبالته ورماة الزنبورك ، ، ليعطل القافلة وحراسها ، ولإثارة الحراس للدخول في معركة أبقاهم تحت رقابته حتى يتمكن هو وعساكره من الانقضاض عليهم ، وبهذه الطريقة شعر الترك بالخطر وتأخروا ، في حين اقترب منهم جنودنا مصطفين في أرتال قتالية جاهزة لانشاب المعركة .

وما أن رآهم الترك حتى شرعوا على الفور بالصعود الى أحد الجبال ، من أجل أن المنطقة المرتفعة يمكن أن تمنحهم وضعاً أثبت ، ودلل مظهرهم العام على أنهم أقل ثقة بأنفسهم من المعتاد ، ثم أقلع الترك بحملة حادة ، وأرسلوا بجروحهم ونشابهم مثل زخات البرد على صفوفنا ، في حين بقيت القافلة واقفة دونما حراك .

وكان الملك رتشارد قد قسم جيشه الى قسمين ، وبناء عليه هاجم الترك بشكل مفاجىء وتمكن مع أتباعه من خرق صفوفهم الأولى وهزموها ، وكانت حملته من الشدة بمكان جعلتهم يسقطون الى الأرض من دون ضربة تقريباً ، وضغط هو بحدة وشدة على المنهزمين ، إلى حد أنه لم يبق هناك من لديه مقاومة ، باستثناء عدد من الذين

فروا ، وكـانوا يلتفتون نحـو الخلف ، ويرمـون بالنشاب خلفهـم ، وهكذا هرب الجميع ، مثـل الأرانب البرية أمام كلاب الصيـد ، وطوردوا في كل اتجاه ،في حين وقفت القـافلة تحت رحمة المطُارِدين الـذين قتلوا كـل من اصطدمـوا به ، وهكذا تكـومت جثث قتلى العـدو فوق الـرمل ، فالـذين حرمـوا من خيولهم بوسـاطة فرساننـا ، أجهز عليهم سيرجنديتنـا ، وكان من الممكن أن تشاهـد هناك خيول وقد انقلبت سرجها ، فالـذين هزموا تـمّ تـدميرهـم بشكل تعيـس ، وقـاتـل رجـال الملـك ببسالـة ، وقـاتـل الفرنسيون أيضاً بمعنويات عالية ، مثلهم مثل رجال اعتادوا على القتال.

وكـان الملك متفـوقـاً على البقيـة بتفوقـه الملكـي عليهـم جميعاً ، فقـد أمتطـى فرسـاً طـويلاً ، وانقـض على العـدو بمفـرده ، وفي أثناء القتـال انقصفـت قناة رمحه ، بسبـب الطعن بـه مراراً ، وبـاتت قطعـاً متناثـرة ، فامتشـق سيفه على الفور ، وأخذ يضرب بـه ، فضغط بشدة على الفـارين وكـومهـم على الأرض ، وأزال الذيـن كـانـوا بـالخلـف من الـوجـود ، وأخضع الذين كانوا أمام الجميع ، ولقـد كان مثل الصاعقة ، قطع ومزق كل مـن صدفه ، فما مـن درع كان يمكنه الصمـود أمام ضرباتـه، فبحد سيفه قطع الرؤوس من الأعلى حتـى الأسنان ، وبضربه بسيفه يمنه ويسرة أرعب الترك وجعلهم يفرون مثل الشياه لدى مطاردتها من قبل الذئب .

وفيما الملك يتولى على هذه الصورة الفاريـن ، قام بعض هؤلاء وهم في حالـة يأس ، فتخلوا عـن طريقهم ، وعادوا نحـو مخيمنا الذي كـان شبه مهجور، آملين بعمل شيء ما ضد الحرس في أثناء غياب الملك ، فعندما كانـوا أمامـه تخلت شجـاعتهم عنهـم ولم يكن هـذا بلا سبـب لأن حياة الأعداء أو موتهم كانت دوماً بين يديه .

وبنـاء عليـه جاء حـوالي الثـلاثين مـن الفـارين عبر طـريـق دائري ، وانقضوا على رجالنـا ، وقاموا بحملة عنيفـة على روجردي توني Toony، الذي قتلـوا حصانـه من تحته ، وكـاد أن يقع في أسرهـم عندمـا جرى

انقاذه من بين أيديهم بوساطة واحد من رفاقه .

وجاء في الوقت نفسه رجالنا المسلحين مع ايرل ليستر، وهاجموهم من على اليمين واليسار، ثم تجددت المذبحة ، ولمعت السيوف بالهواء ، وتغطت الأرض بالدماء ، وتلاقت الأذرعة واصطدمت مع بعضها ، ومزقت الأجساد ، وقطعت الأطراف ، والرؤوس والأذرعة والأقدام ، والأيدي ، والأطراف الأخرى كانت موزعة هنا وهناك ، واعترض طريق رجالنا أثناء سيرهم أجساد الأعداء التي كانت ملقاة على أرض المعركة بأعداد كبيرة ، وجعلتهم يتعثرون في كل خطوة ، وكانت مقتلة الترك أعظم مما رآه أجدادنا قط ، وكان اضطرابهم وهلعهم أثناء القتال قد بلغ حدا ، أن طفلاً واحداً كان بإمكانه أن يقتل عشرة منهم أو بالحقيقة ، أكبر عدد منهم بقدر من كان يصطدم بهم .

وبهذه الهزيمة ألقي بكبرياء الترك الى الرغام تماماً ، ومحقت شجاعتهم بالفعل كلية ، في حين غدت القافلة ، بكل ما فيها من ثروات غنيمة للمنتصر، فقد سلم حراسها بأنفسهم الى رجالنا الأثقال ، وخيول النقل ، ومدوا أيديهم نحو الأمام استسلاماً ، والتمسوا الرحمة ، على شرط واحد هو أن تصان حياتهم .

وقادوا حيوانات الجر والجمال ، بشكالها ، وسلموها الى رجالنا ، وجلبوا البغال وهي محملة بالتوابل من مختلف الأنواع ، والأثمان العالية ، مع الذهب والفضة ، وأردية الحرير الأرجوانية، والثياب الحمراء ، والملابس المطرزة بأشكال متنوعة ، بالاضافة الى الدروع والأسلحة من جميع الأشكال ، والسوابغ ، والأرائك الثمينة ، والسرادقات والخيم ، والبقسماط، والخبز ، والشعير والقمح ،والأطعمة وكميات هائلة من الأطعمة المحفوظة والأدوية ، والطشوت والقرب والصناديق ، والصحون الفضية ، وحوامل الشموع ، والفلفل والقرفة ، والسكر ، والشمع ، وأشياء أخرى ثمينة مختارة من مختلف الأنواع ، وكمية هائلة

من المال ، وكميات لا يمكن عدها من البضائع ، لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من معارك .

وبعدما توقفت مقتلة المسلمين ، وتمّ الاستيلاء على القافلة ، تعرض جيشنا الى أمر مزعج ومتعب تمثل في جمع الجمال والنوق ، التي كانت تسبب الفوضى والاضطراب للجيش كله ، لأنهم تجنبوا مطاردتهم من قبل خيولنا بقدرة عظيمة بحيث أنه ليس هناك نوع آخر من الحيوانات يمكن أن تكون مثلهم بالفعالية والسرعة الطبيعية ، فكانوا يبدون متماهلين وبطيئين حتى يغدوا المطارد على مسافة ضئيلة منهم ، وعندها يتحركون بسرعة كاملة .

وتم أخيراً بوسيلة أو أخرى جمع أربعة آلاف وسبعمائة جمل وناقة مع بعضها بعضًا، علماً بأن هذا الرقم ليس مؤكداً ، وأخذوا كثيراً من البغال من الجنسين ، وحمير تحميل من غير الممكن عدها لكثرتها ، لأنها بدت أكثرعدداً مما كان من الممكن أن يتطلبه تعداد الرجال ، فضلاً عن هذا كله تجاوز عدد الفرسان الأتراك الذين قتلوا في ذلك اليوم الألف وسبعمائة، الى جانب عدد كبير من الجنود الرجالة الذين ديسوا أثناء المعمعة حتى الموت .

كيف عاد الجيش الى عكا

وعندما أكمل الملك جميع هذه الأشياء ، وأعدّ أثقاله للعودة ، انطلق عائداً مع جيشه مثقلاً بالأسلاب ، وسار الجميع بخطا وئيدة ، حتى وصلوا الى بيت عفة التي ابتعدت مسافة أربعة أميال عن يافا، فهناك توزعوا الغنائم فيما بينهم ، ثم تابعوا سيرهم في اليوم التالي الى الرملة .

والى هناك جاء الكونت هنري مع العساكر والناس الذين جلبهم معه من عكا ، ومن هناك توجهوا جميعاً إلى بيت نوبة ، وهو المكان الذي كانوا انطلقوا منه ، وتجددت هنا الأفراح العامة، وتقاطر الجميع واجتمعوا مندهشين تجاه عدد حيوانات التحميل التي سيرافقها الجيش .

ولدى الوصول ، وزع الملك النبيل الجمال ،التي كانت أكبر حجماً من أي نوع رؤي هناك من قبل ، وأعطاها إلى الجنود الذين مكثوا لحماية المعسكر ، والى الذين انضموا الى الحملة على شكل حصص متساوية، وحذا في هذا المقام حذو ذلك المحارب الشهير ، وأعني به الملك داود الذي أعطى حصصاً متساوية من الأسلاب الى الجنود الذين ذهبوا الى المعركة والى الذين مكثوا في المعسكر، ووزع أيضاً الحمير بين الرجال الذين يخدمونه ، وزود الجيش بهذه الوسيلة بعدد كبير جداً من الجمال وحيوانات الحمولة الأخرى ، ولقد كان من الصعب جداً حفظها مع بعضها ، وحشوا لحوم الجمال الشابة بشحوم الخنازير وشووها للأكل ، فوجدوها بيضاء كثيراً ، وسائغة طيبة المذاق.

وبعد وقت قصير من توزيع الأسلاب ، شرع الناس يتشكون من أن حيوانات التحميل قد أكلت كثيراً من الشعير والأعلاف ، ولهذا ارتفعت أسعار الحبوب كثيراً ، وبالاضافة الى هذا توفر المزيد من الشكوى

والأسف بين الناس،لأنه ارتؤي أنه من غير المناسب الزحف نحو حصار القدس، حسبما رغبوا، وذلك بسبب معارضة العشرين مستشاراً.

فلقد رأوا أنها مغامرة صعبة ،لابل مستحيلة،بسبب الحاجة الى الماء، الذي لن يستطيع الناس والمواشي العيش من دونه،لاسيما وأن عيد القديس يوحنا بات على الأبواب ،وهو زمان تزداد به حرارة الصيف،وبسببها يغدو كل شيء جافا بشكل طبيعي،خاصة حول القدس، القائمة في الجبال،زد على هذا أغلق الترك جميع صهاريج الماء،لذلك بات من غير الممكن ايجاد نقطة من الماء الصالح للشرب على طول مسافة ميلين من المدينة، ومن غير المأمون الذهاب للبحث عن الماءالى مسافات بعيدة ،عندما يكون الحصار قد بدأ، ولن يكون نبع سلوان الصغير الذي يجري عند سفح جبل الزيتون كافياً للجيش.

ولقد كانت هذه هي الأسباب التي جعلت المستشارين يقنعون الملك رتشارد بالاقلاع عن حصار القدس في ذلك الوقت،وعندما بات معروفاً في أوساط الجيش أنهم لن يذهبوا الى هناك،بل كانوا على وشك الابتعاد عن تلك المدينة،لعنوا ذلك التأخير وأكدوا أنهم يرغبون فقط بالبقاء أحياء حتى تغدوالقدس والأراضي المقدسة والصليب مرة أخرى في حوذة المسيحيين وحدهم.

وعلينا أن لا نعجب أن الحجاج الذين تعذبوا هكذا بدون الوصول الى نتيجة طيبة، أسفوا وحزنوا لاخفاق رغباتهم،في حين تطور الخلاف فيما بينهم الى انشقاق،ولما ظهرت هنا سمات التردد لدى الفرنسيين،التي ميزتهم عن بقية الشعوب،حدث في إحدى الأمسيات عندما كان الجيش يتقدم في زحفه، قام الفرنسيون بعزل أنفسهم عن البقية واتخذوا موقفاً متميزاً،وكأنهم يزدرون الجماعة،ولم يكتفوا بالرضا بالانفصال فقط بل انخرطوا بالشجار فيما بينهم أنفسهم،وتلفظوا بألفاظ قاسية بشعة،ولغة قبيحة، وتبجح كل منهم ببسالته،وبعدم الاكتراث أو التقدير

للآخرين،وفوق الجسيع نظم هنري دوق بيرغندي أغنية ،نشرها بين الناس، وهي أغنية (لو امتلك أدنى إحساس بالخجل)لما سمح بنشرها، ولم يغنها الرجال فقط بل النساء غير الوضيعات أيضاً ،مظهرين أخلاق هؤلاء الذين تورطوا في مثل هذه الحماقة القذرة.

وعندما انتشرت الأغنية بين الجنود وتداولها الناس،غضب رتشارد غضباً عظيماً ،وارتأى أن القيام بعمل مماثل سيكون وسيلة للانتقام لنفسه من الناظم، وكانت هنالك وفرة بالمادة،ولذلك لم يجد صعوبة في نظم أغنية معاكسة،وهاجمه منافسه، الذي لم يكن موازياً له، بشتائم قاسية وقبيحة بلا مسوغ.

وبقي الجيش على هذه الشاكلة لعدة أيام بعد الاستيلاء على القافلة،وكان أفراده حزينين جداً ويائسين نتيجة الحظر الذي وضع على متابعة الجيش زحفه حتى يزور الضريح المقدس في القدس ،الذي كانوا على مسافة أربعة أميال منه،ولم يكن الشعور بالاحباط الذي سببته عودتهم له مايوازيه مطلقاً لدى أناس شجعان مثلهم.

وعندما تحرك رجالنا تعرضوا للهجوم من قبل الترك من الجبال،وصدهم فرساننا الأقوياء ولكن بعض أتباع معسكرنا قتلوا لأنهم لم يمتلكوا خيولاً جيدة،ووصل الجيش بعد هذا الى مكان قام فيما بين القديس جرجس والرملة،وهناك أمضى الليلة،وقد عسكر الفرنسيون على الجهة اليسرى،وعسكر الملك ورجاله على الجهة اليمنى.

وساروا في اليوم التالي وتابعوا زحفهم في أقسام منفصلة،ووصلوا الى قلعة قامت في منتصف الطريق،وكان هذا في اليوم السادس من تموز، وتخلى هنا بعضهم عن الجيش وهجروه وهم في حالة اشمئزاز،بسبب حالة الانهاك والإرهاق التي تعرضوا لها أثناء الحملة،وذهبوا الى يافا.

وعندما علم صلاح الدين بحالة الصليبيين ونواياهم،انتعشت

آمـالـه،وكـان سروره بـلا حدود،وبعـث على الفور بـرسـل يحملون رسـائل مختومة بخاتمه الى الأمراء والمقدمين،والقـادة والحكام في ممالكه يخبرهم فيها بـالتمـزق الـداخلي الـذي تفجـر داخـل جيـش الفـرنجـة،وأرغمـه على التراجع،وأن كـل من يريـد أن يدخل في خدمتـه مأجور عليـه القدوم الى القـدس ،وكان الحشـد الذي تـدفق الى هنـاك عظيماً ، ونتيجة لهذا بـات عـدد الخيالـة يقـدر بعشريـن ألفاً مـن الأشـداء،الى جـانب جموع لاتعـد ولاتحصى من الجنود الـرجالة .وأدرك بالوقت نفسه الملـك عجزه عن منع الناس، وايقـافهم عن التخلي عـن الجيش ، بسبـب تباين المواقـف التي سادت ،فرأى أن خير خط سياسي يمكنه اتخاذه هـو مراسلة صلاح الدين في هـذه الساعـة،والموافقة على الهدنـة(التي عـرضت مـن قبل في سهـول الرملة)لمدة محدودة،مـن أجل أن يمتلك الوقت حتى يستطيـع العودة من بلاده،غير أن صلاح الـدين الذي عرف تمام المعرفة أوضـاع جيشنا، وأنه كان يـزداد ضعفاً كل يـوم،رفض رفضاً قاطعـاً، ما لم يتم تـدمير عسقلان وإنزالها إلى الأرض واجتثاثهـا، وما أن علم الملك بجواب صـلاح الدين، لم يظهر أبداً الانـزعاج،بل أمر على الفور الـداوية والاسبتارية مـع آخرين، وصل عـددهم الى الثلاثمائة، أن يمتطـوا خيولهم، ويسيروا لتـدمير حصن دير البلح وبعث برجال لحراسة ومراقبة حصن عسقلان بالشدة الممكنة.

وبادر هؤلاء لتنفيذ أوامـر الملك، فدمروا دير البلح وسـووها بالأرض،ثم عاد الجيـش في حالة اشمئزاز وقنـوط حتى يافـا،حيث بقي هناك العـديد بسبب سـوء الصحة والضعف، وفي الوقـت نفسه سار الملك مسرعـاً كلياً الى عكا.

كيف هاجم صلاح الدين يافا

وعندما سمع صلاح الدين أن رجال يافا كانوا محرومين من وجود رتشارد لحمايتهم، أمر جيشه بالزحف الى هناك، وهو يأمل بالاستيلاء على المدينة بسهولة خلال غياب الملك ، وأخذ معه عشرين ألف فارس، وأمير البيرة(؟)Bulaالقوي، وابن(مقدم)الحشيشية،مع مائة وستة أمراء،وحشد هائل من الرجالة من الجبال،الذين غطوا وجه الأرض مثل الجراد،وغادر الجيش القدس،ونزل الى سهول الرملة،واندفع الجند على شكل أرتال وفرق،كلهم كان متحمساً ومتشوقاً لتدمير الفرنجة تدميراً كاملاً.

وكان يوم الأحد الذي أعقب أحد الزحف هو عيد القديس بطرس في الأغلال [٢٦-تموز](وهو الموافق لليوم الذي جاء فيه الملك رتشارد مع جيشه الى عكا) ففي هذا اليوم زحف صلاح الدين مع عساكره للهجوم على يافا، وشرعوا في يوم الاثنين التالي بمهاجمة القلعة،لكن سكان المدينةخرجوا الى الأرباض، وقاوموهم طوال النهار،ومنعوهم من ألاقتراب من المدينة، ومر يوما الثلاثاء والاربعاء على الشاكلة نفسها،ولم يكن حتى يوم الخميس حين شعر الترك بالخجل بأنهم صدوا من قبل عدد بهذه الضآلة،فقاموا بجهد عظيم وطوقوا المدينة على الفور،وبأمر من صلاح الدين أقيم أربعة منجنيقات قوية مع منجنيقين بكفاءة عظيمة في رمي المقذوفات.

وكان عدد المحاصرين داخل يافا حوالي خمسة آلاف، وبدأواالآن يتأثرون بسوء أحوالهم،ولذلك شرعوا يدعون للرب لانقاذهم، وحولوا أنظارهم نحو ملك انكلترا، وتمنوا لو أنه لم يذهب الى عكا،تاركاً إياهم هناك عرضة للدمار،وشدد الترك في الوقت نفسه الحصار، وكان الوضع

المتردي لسكان المدينة يبكي أي انسان يرى ذلك،ومع ذلك قاوموا بشجاعة كبيرة،علماً بأنهم أنهكوا بوضع ألف رجل على الفور للدفاع عن مدينتهم،في حين لم تتوقف العرادات والمجانيق عن القذف.

وتم أخيراً بفضل حملات الترك وضغطهم تدمير البوابة التي تقود إلى القدس، وفتحت يوم الجمعة نتيجة الضربات المتوالية للمنجنيق،كما أن السور القائم على جهة اليمين انشطر بمقدارعمودين بالعرض،وكان الالتحام وقتها حاداً جداً ،وبينما قاوم المحاصرون دخول الترك،تلقى هؤلاء نجدات، لذلك دفعوا بأعدادهم الفرنجة الى الخلف حتى أوصلوهم الى قلعة المدينة ، ولكم كانت المذبحة التي وقعت مرعبة، وبطش الترك بأعدائهم وقتلوهم بدون رحمة، وفتكوا بكل من وجدوهم في البيوت مرضى ومستلقين بفرشهم، وهرب بعض رجالنا ونزلوا نحو شاطىء البحر ونجوا،في حين انشغل العدو في نهب كل شيء، وكسروا رؤوس جميع دنان الخمرة التي وجدوها في البيوت، وجعلوا الخمور تجري في الشوارع ، وهاجم بعضهم البرج الرئيسي في القلعة،وطارد آخرون الذين انحدروا فارين نحو شاطىء البحر ،وتم تمزيق عدد من المتخلفين، وهرب ألبيرك Alberic أوف رايمز ،وكانت وظيفته حماية البلدة،لقد نجا على ظهر سفينة خشية أن يتعرض للقتل،لكن أتباعه ورفاقه انتقدوه لجبنه، ودعوه لأن يشعر بواجبه وأرغموه بالقوة على الدخول إلي أحد الأبراج، وحين لم ير هناك سوى المخاطر التى تحيط به من كل جانب،تمتم قائلاً:«هنا سوف نكرس حياتنا لخدمة الرب»لأن ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له ليصنعه .

وهاجم الترك الآن البرج ، وحجبت زخات نشابهم نور الشمس ، ولم يعرف المحاصرون أي جانب عليهم الدفاع عنه أولاً ، واستمر القتال طوال النهار ، وكان من المؤكد أن يلجأ الفرنجة أخيراً إلى الاستسلام أمام عنف القتال ، لولا بفضل الرب كان البطريرك المنتخب حديثاً موجوداً،

فقد برهن في تلك الساعة أنه كان رجلاً لا يخاف الموت ، وما من شيء كان يرعبه.

واضطر هذا الرجل بحكم الضرورات أن يقترح على صلاح الدين وأخيه منحهم برهة من الوقت يتوقف خلالها القتال حتى اليوم التالي ، بشرط إذا لم يتسلموا مساعدة حتى ماقبل الساعة الثالثة، على كل رجل داخل القلعة أن يدفع إلى صلاح الدين عشر قطع ذهبية، وعن كل امرأة خمس قطع ،وعن الطفل ثلاث قطع مقابل الهدنة التي منحهم إياها،وأن البطريرك مع النبلاء الآخرين سوف يسلمون أنفسهم رهائن الى صلاح الدين، وأن يبقوا في الأغلال حتى حلول الساعة المتفق عليها.

ووافق صلاح الدين، وعندما اكتملت الضمانات من أجل مراعاة شروط الهدنة،جرى تقديم الرهائن التالية الى صلاح الدين:البطريرك،ألبيرك أوف رايمز، وثيوبولد أوف تريف، وأوغسطين أوف لندن، وأوسبيرت والدنosbertwaldin ،وهنري دي سينت جون،الى جانب آخرين،لانتذكر أسماءهم،فهم جميعاً حملوا أسرى الى دمشق.

وفي الوقت نفسه كان الملك رتشارد مشغولاً جداً في الاستعداد لمغادرة عكا عائداً الى بلاده،وكانت سفنه كلها جاهزة تماماً،وكان قد حصل أيضاً على موافقة من الداوية والاسبتارية ومباركة، وبعث أمامه بسبع من شوانيه مشحونة بالقوات لاخراج العدو من بيروت ،التي سيمر بها،ونجحت هذه الحملة ،وفر العدو مرعوباً.

وكان الملك في خيمته يتحدث مع ضباطه حول اقلاعهم في الغد نحو أوطانهم،عندما وصل رسل من يافا،ودخلوا ممزقة ثيابهم ، فأخبروا الملك كيف أن العدو استولى على يافا كلها، باستثناء القلعة التي مكث فيها البقية تحت الحصار ،ومالم يقدم لهم المساعدة بكل سرعة سيواجه الجميع

مصيراً واحـداً ،واستمع الملك لأخبـار المخاطر التـي كان المحاصرون يتعرضـون لها، فأثار وضعهم عـاطفته،فقـاطع الرسل قائلاً:«مـادام الرب حياً،سأكون معهم،وسأقدم لهم المساعدة بقدر ما أملك من قوة» .

وما أن أكمـل تلفظ كلماتـه حتى كانت الأوامـر قد أعلنت بـوجوب استعـداد الجيش ،غير أن الفـرنسيين ماكـانـوا ليوافقـوا على الاستجابـة حتى اكرامـاً للملك، وتبجحوا معلنين أنهم لن يزحفـوا مطلقاً مرة ثـانية تحت لوائه، وبـالفعل هم في هذا المجال لم يخفقـوا،لأنهم هلكوا في مدة وجيزة بشكل تعيس،ولم يزحفوا ثانية تحت لواء أي انسان.

وفي الـوقت نفسـه تهيأ لـلانطـلاق مع الملك، الجنـود من مختلف الأمم،الذين لامـس الرب شغاف قلـوبهم،والذين أثـارتهم معانـاة أ بناء جلدتهم،واستدرت عواطفهم، وأعني بهـؤلاء: الداويةوالاسبتارية ،وفرسان شجعان آخرين ،زحفوا جميعاً بـراً الى قيسارية،لكن الملك النبيل الذي عهـد بسلامتـه إلى شجاعتـه،ركب ظهر احـدى شواني اسطوله الـذي اصطحبه معه،وكانت شوانيه مجهزة بكل شيء يمكن أن يكون ضرورياً ، وكـان معه ايـرل أوف ليستـر، وأندرودي شـافني chavigny ،ورروجردي سيثيـا Satheya، وجـوردان دي هـــومـــزHumez ، ورالف دي موليونMauleon ،وآخوس دي في Achus de Fay ،وفرسـان بريتل Pratells،ومـــرافقي الملك مـع آخـــرين كثـــر من ذوي الأسمـــاء اللامعة،الى جانب الجنويين والبيازنة.

وتوقف الـذين ذهبوا الى قيسـارية هناك لبعض الـوقت خشية الـوقوع في كمين ،حيث سمعوا أن صـلاح الدين قد نصب واحـداً ضد كل من يحاول المـرور في هذا الطريق ،ولم يكن هناك طـريقاً أفضل ، لأن ابن مقدم الحشيشية تولى حـراسة المنطقة الساحلية القائمـة مابين قيسارية وأرسوف.

يضاف الى هذا ،ثارت ريح مضادة،حجزت شواني الملك لمدة ثلاثة أيام في حيفا ،حيث توجب عليهم التسليم بذلك ،واشتعل الملك غضباً تجاه هذا التأخير، فرفع صوته بالشكاية عالياً وهو يقول:«مولاي،يارب لماذا حبستنا هنا؟ أرجوك، المسألة مستعجلة جداً ،والتقوى هي رغبتنا». وماأن أكمل دعاءه هذا ،حتى سبب الرب هبوب ريح مواتيه ،نقلت هذا الاسطول ووضعته داخل ميناء يافا في منتصف ليلة الجمعة التي تقدمت مباشرة على يوم السبت الذي اتفقوا على الاستسلام فيه،عندما كانوا جميعا على وشك الحمل نحو التدمير.

أسفي من كفر ذلك العرق الشرير ،ففي الصباح الباكر لذلك النهار (يوم القديس بطرس في الأغلال) تعجل الترك فطالبوا المحاصرين بتنفيذ شروط الهدنة، وبناء عليه بدأوا في الساعة التاسعة بدفع جزء من القطع الذهبية التي وعدوا بها،ووقتها تصرف الترك الأشرار بوحشية أكبر من الحيوانات، ولم تتوفر نحوهم أدنى مشاعر انسانية ،حيث قطعوا رؤوس الذين دفعوا المال،وهكذا هلك سبعة منهم، ورموا برؤوسهم الى الخندق.

ولدى اكتشاف الذين كانوا على قيد الحياة في البلدة لهذه الخيانة ، أصيبوا بالرعب، وبدأوا يرسلون صرخات الندب والأسى،فقد رأوا الموت واقفاً أمامهم،لهذا ركع كل واحد منهم أمام الآخر،واعترف كل منهم بذنوبه للآخر،وماعادوا يفكرون بحياتهم،بل بأرواحهم،ولكي يؤجلوا موتهم لبعض اللحظات — ذلك من هو الذي كان هناك ولم يخش الموت؟— هربوا صعوداً نحوالقلعة،بقدر مااستطاعوا من سرعة ،وانتظروا هناك ضربة الشهادة،وكانوا يريقون الدموع،ويستمدون الرحمة من المولى القدير،الذي رضي أخيراً،وقرر الاصغاء لالتماساتهم،فقد وصل منقذهم،وكان اسطوله يسير في المرفأ،وجنوده متشوقين للنزول الى اليابسة لانقاذهم.

واكتشف الترك وصول اسطول الملك،فانحدروا مسرعين نحو شاطىء

البحر يحملون سيوفهم وترستهم،وأرسلوا أمامهم زخات من النشاب،وكان الشاطىء قد امتلا بشكل كثيف بحشودهم حتى بات من الصعب إيجاد موطىء قدم على الأرض،ولم يقتصر عملهم على الدفاع،بل همز فرسانهم خيولهم لخوض البحر ولمنع رجال الملك من النزول الى اليابسة،وعندما كان الملك يجمع سفن اسطوله مع بعضها ،تشاور مع ضباطه حول أفضل خطوة يمكن اتخاذها.

وقال:«هل سنندفع ضد حشود الرعاع هذه التي احتلت الشاطىء،أو هل سنقدر قيمة حياتنا أكثر من حياةأولئك المساكين المعرضين للدمار والمحتاجين لمساعدتنا»؟

وأجابه بعضهم بأن محاولات أخرى سوف تكون عقيمة، لأنه ليس هناك مايؤكد أن أيامنهم حياً لانقاذهم،ثم كيف يمكنهم النزول الى اليابسة في وجه مثل هذا الحشد الهائل؟.

ونظر الملك من حوله مدققاً، ورأى في تلك اللحظة كاهنا يغطس في الماء ويسبح نحو الشيني الملكي، وعندما استقبله على ظهر السفينة خاطب الملك بقلب متلهف وبروح كادت تتلاشى منه وقال: « أيها الملك الأعظم نبلاً، المتبقي من شعبنا ينتظرون وصولك، وهم معرضون للذبح مثل الشياه، ما لم تجلبك النعمة الإلهية لانقاذهم».

وسأله الملك قائلاً: « إذاً، هل ما يزال أحد منهم حياً، وإذا كذلك، أين هم؟» وقال الراهب:« مازال هناك بعضهم حياً في الطرف الأقصى لهذا البرج المقابل»، ورد عليه الملك قائلاً:« من فضلك يارب، يامن جئنا بتوجيهه وقيادته، سوف نموت مع أخوتنا الشجعان بالسلاح، ولتنصب اللعنة على الذي يتردد».

ولم يكد يفرغ من كلامه، حتى كانت الشواني قد دفعت نحو طرف اليابسه، واندفع الملك نحو الأمام وسط الأمواج، وأطرافه غير مغطاة

بسابغته، وخاض بـالماء حتى وسطـه، وبسرعة حصـل على موطـىء قدم ثابت فـوق الشريط الجاف، وجاء خلفه يتبعه غيوفـري دي بويز Bois ، وبيتر دي بريتل Pratelles وجاء في المؤخـرة جميع الآخريـــن مندفعين وسط الأمواج.

ووقف الترك للـدفاع عـن الشاطـىء، الذي غطتـه أعداد هـائلة مـن العساكر، واستطاع الملك بوساطـة القوس العقار الذي حمله أن يردهـم إلى الخلف يمنـة ويسرة، وضغط رفـاقه على العـدو المتراجع، الـذي تلاشـت شجـاعتـه عندمـا رأى أفـراده أن الـذي يهاجمهـم هو الملـك، ولم يعـودوا يتجرأون على مقابلتـه، وامتشق الملك سيفه الحاد، الذي لم يعطهـم فرصة للمقاومة، فتقهقروا أمام الضربات المميتـة الصـادرة عنه، وانزاحوا بشكل فوضوي بوساطة رجال الملك حتى بات الشاطىء نظيفاً منهم.

ثم جلب الفـرنجة بعض جذوع الأشجار والأعمدة وقطـع الخشب من سفن قديمـة وشواني، لإقامة حاجـز، ومركز هناك بعـض الفرسان والخدم والعرادات للحراسـة ولطرد الترك واقتلاعهـم، وعندمـا رأى هؤلاء أنهم لن يستطيعوا متابعة التصدي لعساكرنا، فرقوا أنفسهـم على الشاطىء بوساطة الصراخ، والعويـل، وهم منهزمون جميعـاً، ثم انعطـف الملك وسـار بشكل مستقيم، ولاحـظ أن بيت الداوية هـو المدخل إلى البلدة، حيث وجـد ما يـزيـد على ثلاثـة آلاف مـن الترك ينهبـون كل شيء وجـدوه في البيـوت، ويحملونه معهم بمثابة أسلاب.

وما لبث الملـك الشجاع أن دخل البلدة، وما أن فعل ذلـك حتى أمر بهز رايته مـن فوق مكان مـرتفع حتـى يمكن رؤيتها مـن قبل المسيحيين الذيـن كانـوا في القلعة، وقد تشجـع هؤلاء لـدى رؤيتهم لها، وانـدفعوا وهم يحملون أسلحتهم من داخل القلعـة لمقابلة الملك، ولدى انتشار خبر ذلك اضطرب وضع الترك في البلدة، ودبت الفوضى بين صفوفهم،

وفي الوقت نفسه طارد الملك أفراد العدو، وقتل الذين انحصروا فيما بين الكتلتين المسيحيتين وملأ الطرقات بجثث قتلاهم، فهل أحتاج إلى قول المزيد؟ لقد قتلوا جميعا، باستثناء الذين امتلكوا الفرصة ففروا بالوقت المناسب، وهكذا حدث أن الذين كانوا منتصرين من قبل، باتوا الآن منهزمين وتلقوا عقوبة استحقوها، لأن الملك لم يظهر أدنى رحمة نحو أعداء صليب المسيح، الذين وضعهم الرب بين يديه، لأنه لايوجد على وجه الأرض انسان مثله مقت الجبن.

وإذا ما تفحصنا أعمال القدماء، وجميع المدونات التي تركها لنا المؤرخون المتقدمون، سنجد أنه لم يكن هناك مطلقاً رجلاً ميز نفسه في المعركة مثلما فعل الملك رتشارد هذا اليوم، وعندما كان الترك يغادرون البلدة رأوا أعلامه تخفق في الهواء، وارتفعت صرخة عالية من على اليمين واليسار عندما انقض عليهم، ولم تكن عاصفة من البرد أو المطر الشديد بالكثافة تساوي النشاب الذي تطاير من الترك فغطى وجه السماء وحجب ضوء الشمس.

وأحدث الترك الذين فوجئوا بيافا مذبحة هائلة بين الذين كانوا ضعفاء جداً وغير قادرين على المقاومة، وقتلوا عدداً كبيراً من الخنازير، وفي الحقيقة لقد قتلوا كل ما وجدوه منها، لأنهم عدّوها نجسه، وكان محرم أكلها في شريعة المسلمين، ولإزعاج الفرنجة جمعوا في كتلة واحدة أجساد الخنازير مع أجساد الفرنجة الذين قتلوهم، وجرى الآن دفن أجساد الفرنجة بسلام، في حين ألقيت أجساد الترك لتتعفن مع أجساد تلك الخنازير.

وسمع صلاح الدين بوصول الملك وبحربه الرائعة مع الترك، فاستولى عليه لهذا خوف مفاجىء، وكان مثله مثل الأرنب، الحيوان الجبان، غمز حصانه وفرّ من أمام وجهه، وتابع الملك مع رجاله أعمال المطاردة: يقتلون ويحطمون، بينما أحدث قوسه العقار فوضى عظيمة بين الخيول:

حتى أن آثار فرارهم كان يمكن رؤيتها لمسافة ميلين، ونصب الآن خيمته في المكان نفسه الذي كانت فيه خيم صلاح الدين منصوبة، وهكذا كان بفضل الرب استطاعت فئة صغيرة من الرجال الحاق الهزيمة بهذا الجيش التركي العظيم.

واستدعى صلاح الدين أمراءه إليه وخاطبهم قائلاً: « هل هزمنا جميعا؟ هل عاد جيش الفرنجة من عكا ليقتلنا وليهزمنا على هذه الصورة؟ بأي وسيلة متفوقة أمكنهم انجاز هذا؟ فمن المقرر أن جيشنا كان متفوقاً برجالته وكذلك بفرسانه»!.

ورد على هذه الكلمات واحد من المُوَبخين، كان موجوداً، وكان مدركاً لأوضاع جيشنا قائلاً: « مولاي ليس الأمر كما تظن، ليس لدى الفرنجة خيول ولاحيوانات تحميل من أي نوع، باستثناء ثلاثة خيول فقط، كان ملكهم الرائع قد وجدهم في يافا، وعلى كل حال أعتقد أن الملك نفسه يمكن مفاجأته بسهولة، لأنه مستلق لوحده في خيمته، ومنهك تماماً بسبب تعبه، ومن يلقي القبض عليه سوف يضع على الفور حداً لمتاعبنا، وللحملة كلها».

ثم راج بعد هذا في أوساط الترك ما وجه إليهم من لوم، وتوبيخ دائم وعار مستمر، حيث أن جيشاً بمثل هذا الحجم، ومثل هذه الآلاف المؤلفة من الترك، يُهزم من قبل جيش صغير جداً، وأن يافا قد استردت منهم بقوة السلاح، وبهذه الطريقة تمتم كل واحد منهم إلى الآخر، فاضطربوا اضطراباً عظيماً.

كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته

وكان اليوم التالي هو يوم أحد، انطلق فيه الملك بنشاط في العمل على ترميم أسوار يافا، وتابع جهوده في يومي الاثنين والثلاثاء، حتى يمكن تأمين بعض الوقاية لهم، ولهذا تمت أعمال الترميم بدون استخدام للكلس أو الملاط، وكانت هناك مجموعة فاسدة من الرجال بين المسلمين اسمها غلمان Menelones حلب، وأكراد Cordivi ، وهم عرق فعال، وقد التقى هؤلاء مع بعضهم للتشاور حول ما ينبغي عمله في حالة الأوضاع القائمة، وتحدثوا عن العار الذي لحقهم حيث تمكن جيش صغير جداً من طردهم من يافا، ولاموا أنفسهم بتهمة الجبن، وبالتقاعس المخجل، وتبجحوا في اقامة حلف فيما بينهم، من أنهم سوف يلقون القبض على الملك رتشارد وهو في خيمته، ويجلبونه إلى أمام صلاح الدين، حيث سيتسلمون منه جائزة فخمة جداً.

ووصل في الوقت نفسه الكونت هنري مع أتباعه من قيسارية على ظهر شيني، فهناك كان المتبقي من جيشنا معوقاً بسبب كمائن الترك على جميع الطرق،والجسور، والآبار، وبناء عليه لم يكن بإمكان الملك في هذا الوضع الاضطراري حشد أكثر من خمسة وخمسين فارساً من جيشه كله، وكتلة قوية من الرجّالة، ورماة الزنبورك، والحاشية مع ألفين من الجنويين والبيازنة وسواهم، ولم يكن لديه من الخيول أكثر من خمسة عشر رأساً، سواء من النوع الجيد أو الرديء.

وعندما أعدّ الغلمان والأكراد أنفسهم في منتصف الليل لمفاجأة الملك، تقدموا نحو الأمام بوساطة ضوء القمر، يتحدث أحدهم مع الآخر حول الهدف الذين هم بصدد الوصول إليه، لقد عزم هؤلاء الجنس المكروه من غير المؤمنين، وكانوا متشوقين لأسر جندي المسيح المقدام، فيما

هو نائم بدون سلاح ولايشعر بوجود أي خطر.

وعندما باتوا غير بعيدين عن خيمته، وأخذوا يستعدون لإلقاء القبض عليه، عندها تدخلت رحمة الرب، فأرسلت روح الخلاف إلى صفوفهم، حيث قال الأكراد: «عليكم المضي على أقدامكم لأسر الملك وأتباعه، في حين سوف نبقى نحن على ظهور خيولنا لنحول دون نجاتهم إلى القلعة»، لكن الغلمان ردوا عليهم قائلين: «لا، إن واجبكم يقضي عليكم المضي على الأقدام، لأن مرتبتنا أعلى من مرتبتكم، ونحن نرتضي فقط بالقيام بالخدمات التي هي وظيفتنا، وإن وظيفة الخدمة على الأقدام هي وظيفتكم وليست وظيفتنا».

وفيما هذين الفريقين يتجادلان حول من منهما الأعلى والأعظم، سبب خلافهما كثيراً من التأخير، وعندما توصلا أخيراً حول كيف يمكن تنفيذ المحاولة الشريرة وتحقيق الغاية منها، كان الفجر قد اقترب، ففي تلك اللحظة دفعت ارادة سماوية واحداً من الجنويين للخروج مبكراً نحو الحقول، حيث ارتعب لسماعه أصوات الرجال والخيول المتقدمة، فعاد مسرعاً نحو المعسكر، ورأى في الوقت المناسب الخوذ وهي تعكس الضوء الذي نزل عليها، ودخل مندفعاً إلى المعسكر، وهو يصرخ « إلى السلاح، إلى السلاح».

واستيقظ الملك بفعل الصوت والضجة، وقفز مندهشاً من فراشه، فلبس لأمته، واستدعى رجاله للانقاذ.

بحق فضائل الرب كلها، هل هناك انسان حي ما كان ليرتجف بمثل هذا الانذار المفاجىء؟ واندفع العدو بدون مبالاة، فرجال مسلحون انقضوا على غير مسلحين، وأكثرية أخذت تقاتل أقلية، لأن رجالنا لم يكن لديهم الوقت الكافي للتسلح، أو حتى لارتداء الملابس،وبناء عليه تقدم الملك مع كثيرين آخرين — بحكم طوارىء تلك اللحظة —

بدون دروعهم وواقيات أطرافهم، تقدموا للقتال، وكان بعضهم حتى بدون كزاغنداتهم.

وبينما تمكن رجالنا من تسليح أنفسهم مسرعين، وبأفضل ما استطاعوه وقتها، ازداد اقتراب الترك، وكان الملك قد امتطى فرسه، مع عشرة فرسان آخرين فقط هم: الكونت هنري ايرل أوف ليستر، وبارثلميو دي مورتمير، ورالف دي موليون، وأندرو دي ثشافين، وجيرالد دي فينفال، وروجر دي ساسي، ووليم دي لى ايتانغ de L' ETang، وهيوج دي فيلينوف Villeneuve وكانوا مرافقين شجعان، ومعهم هنري لى تايوس Tyois، حامل راية الملك، فهؤلاء وحدهم الذين كان لديهم خيول، وكان حتى بعض هؤلاء منحطين وضعفاء، وغير معتادين على استخدام السلاح.

وببراعة اصطف الناس العاديون في صفوف وأرتال كل منهم مع قائد يقودهم، وتمركز الفرسان على مقربة من البحر، وكانت كنيسة القديس نيقولا على يسارهم، لأن الترك وجهوا حملتهم الرئيسية في هذا الاتجاه، ووقف الجنويون والبيازنة خلف حدائق الربض، وقد اختلطت بعض العساكر بهم.

من الذي يمكنه أن يصف حملات الكفار المخيفة؟ فقد انقض الترك أولاً وهم يزعقون زعقات مرعبة، ويرمون بحرابهم، ويطلقون سهامهم، وأعدّ رجالنا أنفسهم بأفضل ما استطاعوا لتلقي حملتهم الشديدة، فقد كان كل واحد منهم قد ثبت ركبته اليمنى على الأرض، فبذلك كان يمكنهم التماسك والصمود معا بشكل أفضل، والحفاظ على أوضاعهم، وحنوا أرجلهم اليسرى، وحملت أيديهم اليسرى ترستهم أودرقهم، ومدوها أمامهم، وأمسكوا بأيديهم اليمنى رماحهم حيث ثبتوا أزجتها في الأرض، وسلطوا أسنتها الحديدية نحو العدو، مهددة له، ووضع الملك الخبير بشؤون الحرب، بين كل رجلين، كانا مغطيين بترسيهما، رامي زنبورك،

وخلفه واحد آخر ليشد الزنبورك بـأقصى سرعة ممكنة، فما أن يطلق الرجل الواقـف في الأمام رميته حتـى يكون الآخـر قد هيأ رميـة أخرى، وتبين أن هذا فيه فائدة عظمى لرجالنا، وسبب ضرراً بالغاً للأعداء.

وهكـذا جرى إعـداد كل شيء بشكـل جيد وبقـدر ما سمـح الوقـت الضيـق بـه، واصطـف جيشنـا الصغير بصـورة نظـاميـة، وسـار الملـك واستعرض جميع الصفوف، وحث كل رجـل ليكون صامداً، وأن لايتزلزل، وقال: « الشجـاعة، يارجـالي البواسل، ولاتتركـوا حملة الأعداء تـزعجكم، تحملوا تقلبـات الحظ، ولسوف تنتصرون عليهم، كـل شيء يمكن للـرجل الشجـاع تحمله، المصـاعب تلقـي الضوء على فضـائل بني البشر، ومثـل ذلك مـن المؤكد أن اليسر يلقي الظلال عليهـا، ليس هناك مكـان للفرار إليه، لأن العـدو محيط بنـا، وفي كل محاولـة للفرار استـدعاء لموت مـؤكد، وبناء عليه كونوا شجعاناً، ودعوا حـالة الطوراىء هذه تشحذ شجاعتكم وتشد من عزيمتكم، أيها الرجـال الشجعان عليكم إما الانتصار بنبل، أو الموت بمجد، الشهادة منحة علينا استقبالها طائعين راغبين، لكن قبل أن نموت، دعونا مادمنا على قيد الحيـاة، أن نفعل ما يمكن أن يكون انتقاماً لموتنـا، وأن نقدم الشكـر للرب في أن كـان نصيبنـا الموت شهداء، هكـذا ستكون خاتمة تعبنا ونهاية حياتنا، وآخر معاركنا».

ومـا كـاد يكمـل التفوه بهذه الكلمات حتـى انقـض الجيـش المعـادي عليهم بحدة وشدة، وكان مقسماً إلى سبعة أفـواج في كل منها حوالي ألف فـارس، واستقبل رجـالنـا حملتهم وأقـدامهم اليمنـى مغـروسة بثبـات في الرمل، وظلوا لايمكن زلزلتهم، وشكلـت رماحهم سوراً ضد العدو، وكان مـن المؤكد أنـه سيخرق الصفـوف ويمر بين رجـالنا، لـو أنهم تخلوا عـن مواقفهم درجة واحدة.

وأدرك رجال الصف الأول مـن الترك، وهـم يتقدمون، أن رجـالنا وقفوا صامـدين، لذلـك تراجعوا قليلاً، ذلـك أن رماتنا أمطـروهم بزخـات من

النشاب، قتلت عدداً كبيراً من الناس، وعقرت خيولاً كثيرة، وتقدم على الفور صف آخر من الترك، وفق الطريقة نفسها، ومرة جديدة جرى صده، ورده إلى الخلف، وجاء الترك على هذه الشاكلة يشبهون الصاعقة، مرة تلو أخرى، متظاهرين بالحملة حتى يضغطوا على رجالنا للتزحزح والتراجع، لكن عندما باتوا على مقربة منهم، وعلى وشك الالتحام بهم، عطفوا أعنة خيولهم وابتعدوا في اتجاه آخر.

ولدى ادراك الملك وفرسانه الذين معه لهذا الحال، غمزوا خيولهم وحملوا على وسط الأعداء، وفرقوهم يمنة ويسرة، وطعنوا برماحهم أجساد عدد كبير منهم، ثم أخيراً شدوا خيولهم وأوقفوها لأنهم وجدوا أنفسهم توغلوا كثيراً خلال صفوف الترك، والتفت الملك من حوله، فرأى ايرل ليستر النبيل قد سقط من على ظهر حصانه، وهو يقاتل بشجاعة على قدميه، وما أن رأى هذا حتى اندفع لانقاذه، وانتزعه من أيدي الأعداء، ووضعه مكانه على حصانه.

ونشبت إثر هذا معركة مخيفة، وزحفت حشود الترك، واستخدمت كل جهد لتدمير جيشنا الصغير، وأثار نجاحنا حفيظتهم، فاندفعوا نحو الراية الملكية الحاملة لصورة الأسد، ذلك أنهم كانوا يؤثرون قتل الملك على قتل ألف رجل آخر، وفي وسط المعمعة رأى الملك رالف دي موليون، وقد أمسكه الترك وجروه أسيراً، فغمز حصانه نحوهم وخلصه من بين أيديهم في لحظة واحدة، وأعاده إلى الجيش، وكان الملك عملاقاً كبيراً أثناء القتال، وكان موجوداً في كل مكان على أرض المعركة، الآن هنا، والآن هناك، حيثما احتدم القتال مع الترك أكثر، ولقد قاتل بشجاعة بلغت حداً، أن ما من انسان مهما كان شجاعاً، إلاّ كان سيرضخ له عن جدارة، ويعترف بتقدمه وتفوقه.

فقد قام في ذلك اليوم بأعظم الأفاعيل الشجاعة، ضد جيش الترك المخيف، وقتل بسيفه عدداً منهم، وكان سيفه يلمع مثل البرق، فقد فلق

بعضهم إلى قسمين من خوذهم إلى أسنانهم، بينما فقد بعضهم الآخر رؤوسهم، وأذرعتهم، وأطرافهم، التي بترت بضربة واحدة.

وفيما الملك يعمل هكذا بنشاط لايصدق في القتال، زحف تركي نحوه، وكان يمتطي مهراً كميتاً، وقد بعثه سيف الدين صاحب « الكرك Archadia » ، وكان رجلاً واسع الكرم، لولا أنه رفض تبني الايمان المسيحي، وبعث هذا الرجل الآن إلى الملك، هدية منه تشريفاً له، عبارة عن فرسين أصيلين، ورجاه بحرارة قبولها وأن يستخدمهما، وإذا ما عاد سالماً ومعافى من تلك المعركة يتذكر الهدية ويعوض عنها وفق الطريقة التي يراها، وتسلم الملك الهدية، وبعد ذلك عوض بنبل المهدي، فهكذا هي الشجاعة يصدر تقديرها حتى عن عدو، حيث جاء هذا الاكرام من تركي هو أشد أعدائنا، اعترافا منه بشجاعة الملك وتقديراً لبسالته المتميزة، وكان الملك في تلك اللحظة بحاجة ماسة لهذه الهدية ، ومع ذلك اعتذر عن قبولها وقال إنه لن يأخذ أي عدد من الخيول مثلها بالجودة من أي انسان، فكيف من عدو مثل سيف الدين، مع أنه بحاجة ماسة إليها في تلك اللحظة.

واستعر القتال الآن واحتدم، لأن عدداً كبيراً هاجم عدداً صغيراً جداً، وغطت وجه الأرض كميات هائلة من الحراب والنشاب التي أطلقها المسلمون، فقد رموا كمية متنوعة في وقت واحد ضد رجالنا، الذين جرح كثير منهم، وبذلك ازداد ثقل القتال أكثر من ذي قبل، وانسحب رجال الشواني في الشواني التي جلبتهم، وهكذا في قلقهم على سلامتهم ضحوا بسمات شجاعتهم، وتعالى بالوقت نفسه الصراخ بين الترك، وهم يناضلون في سبيل من سيحتل البلدة أولاً، آملين بقتل الذين سيجدونهم من رجالنا في داخلها.

وسمع الملك الصراخ، فاصطحب معه فارسين فقط، واثنين من حملة الأقواس العقارة، وتصدى هناك للترك، وتمركز بنبل في واحد من الشوارع

الرئيسية، وانقض بشجاعة عليهم، فقتل الخيالة وفق طريقته الملكية، وغنم فرسين، وأرغم بقية الترك الذين وجدوا في البلدة على الفرار على الرغم من مقاومتهم، وتفرقوا في اتجاهات مختلفة، واستهدفوا أن تكون نجاتهم عبر طرق فرعية وليس عبر الطرق العادية، وأمر الملك أيضاً باصلاح الجزء الذي تهدم من الأسوار وإحسان الإفادة منه، ووضع خفراء للمراقبة والحراسة خشية أن تتعرض البلدة مرة ثانية للهجوم.

وما أن انتهت هذه الأمور بالحل المناسب حتى نزل الملك باتجاه الشاطيء، حيث التجأ عدد كبير من رجالنا إلى ظهور السفن، وحث الملك هؤلاء بأدلة مقنعة على العودة إلى القتال والمشاركة مع البقية في كل ما قد ينزل عليهم، وترك خمسة رجال على ظهر كل شيني للحراسة، وقاد البقية لمساعدة جيشه المضغوط عليه بشدة، وما أن وصل حتى انقض بكل عنف على أكثف صفوف العدو، ورد الأعداء إلى الخلف وهزمهم، حتى الذين كانوا بعيدين ولم يلمسهم غلبتهم حشود الجنود وهم يتراجعون.

ولم تكن هناك حملة قط مثل هذه الحملة قام بها فرد لوحده، حيث خرق صفوف العدو وتوغل إلى وسط الجيش المعادي، وقام بأعمال مقاتل شجاع ومتميز، وطوقه الترك على الفور وحاولوا التغلب عليه،وكان في الوقت نفسه أن فقد رجالنا الملك ولم يعودوا يروه، وخافوا أن يكون قد قتل، وعندما اقترح واحد منهم وجوب التقدم نحو الأمام للعثور عليه، بات من الصعب ضبط صفوفنا والحفاظ عليها، ولوحدث واختل نظام عساكرنا، لتعرضوا بدون شك إلى الدمار.

غير أن الملك رتشارد الذي اعتاد على القتال منذ نعومة أظفاره، والذي لايمكن عدّ رولاند الشهير مساوياً له، بقي غير مرئي حتى في وسط الأعداء، وكان جسده، كأنه صنع من نحاس أصفر، لايمكن التأثير عليه بأي نوع من أنواع السلاح، وكان حاملاً بيده اليمنى سيفه

يقارع به، فقد حمل حملة سريعة حطم بها الصفوف على الجانبين، فهكذا كانت أفاعيله وسط حشد الترك، لم يكن يخشى شيئاً، بل دمر كل الذين كانوا من حوله، يجرف الرجال أمامه بسيفه، وكأنه حصّاد يحصد القمح بمنجله.

من الذي يستطيع أن يصف هذه الأفاعيل؟ فكل من تلقى ضربة واحدة منه لم يحتج إلى ضربة ثانية، وهكذا كانت فعالية شجاعته التي لاشك أنها ابتهجت لأنها وجدت فرصة للتعبير عن نفسها، وقطع السيف الذي ضرب به الرجال والخيول سواء، وفلقهم إلى منتصفهم، وكان كلما وجد نفسه قد ابتعد أكثر عن رجاله، كلما استهدف الأعداء التغلب عليه، وهناك كانت شجاعته تزداد اشراقاً ووضوحاً.

فبين الأعمال الشجاعة التي قام بها في تلك المناسبة، أنه قتل بضربة واحدة رائعة واحداً من أشهر أمراء الأعداء وأعلاهم مكانة وأكثرهم ثراء، وبدا هذا الرجل من خلال حركاته وكأنه يقول: إنه ذاهب ليفعل شيئاً رائعاً، وبينما كان يوبخ البقية لجبنهم، غمز حصانه، وحمل حملة عنيفة على الملك، الذي لوح بسيفه عندما رآه قادماً، وبضربة واحدة لم يقطع رأسه فقط بل كتفه وذراعه الأيمن، واصطك الترك بالرعب أمام هذا المشهد وأفسحوا الطريق على جميع الجوانب، ولم يتجرأوا برميه بسهامهم حتى من مسافة بعيدة، وعاد الملك الآن سالما دون أن يصاب بأذى، عاد إلى رفاقه وشجعهم أكثر من ذي قبل وأعطاهم الأمل بالنصر.

وكان شخص الملك مغروساً كله بالنشاب، مثل غزال طعن من قبل الصيادين، وكانت تجافيف فرسه مغطاة بالسهام بكثافة، وعاد من الصراع كرجل شجاع، وكان صراعاً مريراً، لأنه امتد من الصباح حتى غياب الشمس.

وبفضل الرب نجا رجالنا من الدمار، وعاد الجيش التركي إلى صلاح

الدين الـذي هزأ برجالـه سائلاً باستخفاف: «أيـن الملك رتشاردRic »؟ ذلك أنهم وعدوه بحملـه إليه أسيراً، وتابع يقول: « مـن منكم الذي أسره أولاً، وأيـن هـو، لماذا لم تجلبـوه وتحضروه أمـامـي»؟ ورد عليـه واحـد مـن الأتراك الذي جـاء من أقصى بقاع الأرض بقوله: « في الحقيقـة يامولاي، إن الملك رتشارد الذي تسـأل عنه ليس موجوداً هنا، فنحـن لم نسمع قط منـذ بدايـة الخلـق أنـه وجد فـارس قـط مثلـه، في شجاعتـه وخبرتـه في السلاح، فهو المتفـوق بأفاعيله، وهو لانظير لـه، فهو الأول زحفاً، والأخير تراجعاً، لقد بـذلنا غاية جهودنا لأسره، لكن عبثاً كـان، لأن ما من واحد يمكنه أن ينجـو من سيفـه، فقتاله مميـت، وأن تشتبك معـه معناه الموت، فأفاعيله فوق طبيعة البشر».

-٩٩٣-

كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين

ومن جراء التعب والجهد الكبير الذي بذل في المعركة، سقط الملك رتشارد مريضاً ومثله سقط عدد آخر ممن أنهكوا أنفسهم في القتال، ولم يكن هذا بسبب القتال فقط، لكن من الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى التي تفسخت، فأفسدت المناطق المجاورة، وكادت أن تسبب الموت للأحياء.

وبعد تقليب طويل للأمور، وكان وقتها الملك قلقاً حول صحته، بعث إلى قريبه الكونت هنري مع الداوية والاسبتارية، وإلى هؤلاء وصف حالة الضعف التي حلت بجسده، واشتكى أنه في ظل الأجواء الفاسدة، والوضع السيء للدفاعات، لابدله من مغادرة المكان بالحال ودونما تأخير، ثم عين بعضهم للذهاب ولتسلم المسؤولية عن عسقلان، في حين يبقى بعضهم لحراسة يافا، لأنه هو نفسه سوف يذهب إلى عكا ليشفى، فهذا ضروري جد الآن، واعترض الجميع على هذه الشكوى بقلب واحد وصوت واحد، قائلين إنهم لن يستطيعوا حماية يافا أو أي حصن آخر بعدما يذهب، ولدى اصراراه على الرفض، اعتزلوه ولم يعودوا يعملون بالتوافق مع الملك.

وغضب الملك رتشارد وتضايق من هذا المسلك، وتألم بحرقة أن ما من واحد تعاطف مع نواياه أو رغباته، وعندها بدأ يبحث عما ينبغي أن يفعله، غير أنه وصل من خلال مناقشاته كلها إلى المحصلة نفسها، وهي أنه ليس هناك واحداً بينهم متعاطف مع سوء حظه، وعندما رأى أن الجميع تخلى عنه، وأن ما من واحد بات يهتم أدنى اهتمام بالقضية العامة، أمر أن يعلن أن على الذين يودون تسلم العطاء من الملك القدوم إليه، جميعا لتقديم عونهم له، وجاء على الفور ألفين من الرجالة، وخمسين

من الفرسان، لكن صحة الملك بدأت تزداد سوءاً حتى أنه قنط من التعافي، وبناء عليه، وهو قلق على كل من الآخرين وعلى نفسه، رأى أن أفضل (الخطط التي اقترحت عليه) هي أن يطلب عقد هدنة، ولا أن يترك البلاد فريسة للفوضى المدمرة، مثلما فعل آخرون كثر بالابحار عائدين إلى بلادهم.

واحتار الملك، وتردد حول أفضل ما يمكنه القيام به، فطلب سيف الدين، أخي صلاح الدين ليتوسط بينهما للحصول على أحسن شروط هدنة في إمكانه الحصول عليها، وكان سيف الدين رجلاً كريماً جداً، قدم في كثير من المناسبات احتراما كبيرا وتشريفاً للملك لما تمتع به من فضائل شخصية، وقام الآن بحماس عظيم بالعمل للحصول على أفضل هدنة للملك رتشارد، وفق الشروط التالية: بالنسبة لعسقلان، التي كانت دوماً سبباً لازعاج حكومة صلاح الدين، ينبغي هدمها، وأن لاتعاد عمارتها خلال ثلاث سنوات، تبدأ من عيد الفصح المقبل، لكن عند انتهاء هذه المدة، يمكن لمن يستحوذ عليها أن يعيد تحصينها، وأن يسمح للفرنجة بسكنى يافا بدون مقابل أو ازعاج مع جميع المنطقة الملاصقة لها على شاطىء البحر وفي الجبال، وينبغي مراعاة السلام بدقة بين الفرنجة والمسلمين، وكل واحد من الفريقين يمتلك الحرية في الذهاب والمجيء إلى حيث يريد؛ وأن ينال الحجاج حرية الوصول إلى الضريح المقدس بدون أي دفع أو تحصيل أي مال منهم مهما كان نوعه؛ وأن يسمح بحمل التجارات للبيع في جميع أنحاء البلاد، وبممارسة التجارة ومتابعتها بدون اعتراض.

وعرضت هذه المعاهدة وهي مكتوبة على الملك رتشارد، الذي أعطى موافقته عليها، ذلك أنه رأى أنه في وضعه الضعيف، مع القليل من العساكر من حوله(وأيضاً على بعد ميلين عن العدو) ليس في قدرته تأمين شروط موائمة أفضل.

وعندما أقر الملك الأمور وفق ما وصفت، بعث برسل إلى صلاح الدين، ليعلموه بحضور عدد كبير من المقدمين لديه، أنه طلب الهدنة لمدة ثلاث سنوات، بقصد العودة لزيارة بلاده وجمع المزيد من الرجال والمال، ليعود بعد ذلك لانقاذ جميع أراضي القدس وانتزاعها من دولته، إذا امتلك وقتها صلاح الدين الشجاعة لمواجهته على أرض المعركة، وعلى هذا رد صلاح الدين قائلاً لتشهد عليّ شريعتي المقدسة، والله القادر، أنه يكبر هذا الموقف العظيم من الملك رتشارد، وأنه يقدّر نبله، وجودته بشكل عام، حتى أنه افترض دوما لو أنه أرغم على فقدان ممالكه كلها، لآثر أن يفقدها لصالحه وليس لصالح أي ملك آخر رآه قط.

وبعدما كتبت شروط الهدنة وتأكدت بالأيمان من على الجانبين،ذهب الملك إلى حيفا، وهو في أحسن حال حيث كان يمكنه تناول الدواء حتى يبرأ.

وفي الوقت نفسه، شرع الفرنسيون الذين كانوا يتمتعون بالراحة منذ زمن طويل في عكا، بالاستعداد للعودة إلى وطنهم، لكن مع أنهم عارضوا الهدنة بمرارة، رغبوا الآن قبل مغادرة البلاد إكمال حجهم بزيارة ضريح ربنا.

وتذكر الملك تقاعسهم عن تقديم المساعدة له في يافا، وفي مناسبات كثيرة أخرى، فبعث برسل يطلبون أن لايسمح صلاح الدين أو سيف الدين لأي واحد بزيارة الضريح المقدس إذا لم يجلب جواز سفر منه شخصياً أو من الكونت هنري، وغضب الفرنسيون لهذا غضباً عظيماً، وأخفقوا في تحقيق هدفهم، ومالبثوا أن عادوا إثر هذا إلى بلادهم، لايحملون شيئاً معهم غير الملامة والعار.

وعندما رأى الملك أن الشطر الأعظم من الفرنسيين، الذين بذلوا غاية جهدهم للتشهير به، قد عادوا إلى وطنهم، وأن أفواه شتائمه ونقده قد

أغلقت، أمر أن يعلن أن كل من يرغب يمكنه زيارة ضريح ربنا، وأن يجلب تقدماته للمساعدة على ترميم أسوار يافا.

وانتظم الناس الآن في ثلاث مجموعات لزيارة القدس، ووضعت كل مجموعة تحت قيادة قائد منفصل، وقاد المجموعة الأولى أندرو دي كافني، وقاد الثانية رالف تيسن Teissun وقاد هيوبرت أسقف سالسبري المجموعة الثالثة، وتقدمت المجموعة الأولى نحو القدس تحمل رسائل من الملك، لكن نظراً لذنوبهم، لقد وقعوا في مكيدة وهم في طريقهم، لأنهم عندما وصلوا إلى سهل الرملة، بعثوا برسل ليخبروا صلاح الدين حتى يعطيهم الأمان في ذهابهم وايابهم، وأنهم يحملون رسائل من الملك رتشارد، وكان الرسل رجالاً نبلاء، ويتسمون بالنشاط، لكن في هذه المناسبة، كانوا متقاعسين، وأهملوا القيام بواجبهم، وكانت أسماء هؤلاء: وليم دي روك Roches ، وجيرارد دي تورنفال Tour-neval ، وبيتر دي براتل Pratelles .

وعندما وصلوا إلى «برج الجنود»، توقفوا هناك للحصول على التصريح من سيف الدين من أجل متابعة سيرهم والتقدم نحو الأمام، غير أنهم ناموا، وظلوا نائمين حتى غياب الشمس، ووجدوا عندما أفاقوا أن جميع الحجاج، الذين جاءوا لصالحهم، قد مروا، وجازوا أمامهم.

وعندما اجتاز أفراد الجمع كله السهول وكانوا يقتربون من الهضاب، نظر أندرو دي كافني والبقية إلى الخلف، فرأوا رسلهم قادمين بعدهم بأقصى سرعة ممكنة لهم، وعندما رأوا هذا توقفوا وهم مضطربين، مقدرين أنهم كانوا في خطر عظيم، وأنهم عرضة للقتل، لأن جيش الترك لم يكن قد غادر بعد، ورسلهم الذين توجب عليهم جلب الأمان لهم من عند المسلمين كانوا الآن خلفهم، ولهذا عندما وصل هؤلاء، لامهم الآخرون لإهمالهم، وطلبوا منهم الاسراع بالسير أمامهم، وقد فعلوا حسبما أمروا.

وذهب الـرسل بسرعة كبيرة نحـو القدس، ووجدوا حـوالي الألفين من الترك معسكريـن خارج المدينة، وسـألوا عن سيـف الدين وبحثـوا عنه، وعندما وجدوه شرحـوا له ما حدث، وقد وبخهم بلطـف، وقال لهم: من الواضح أنهم لم يقـدروا قيمة حياتهم حماقة منهـم، لأنهم جاءوا إلى وسط جيش معادي بدون جواز سفر أو أمان من أي نوع.

وكـان الوقـت وقـت مغيب الشمـس، ووصـل بقية الحجـاج، دون أن يعرفوا مـا ينبغي فعله، ولم يكن لديهم سـلاح لحماية أنفسهم، وكشر الترك وقطبـوا نحوهـم وهـم يمرون، وكـان واضحاً مـن نظـراتهم كمية الحقـد المخزنة في قلـوبهم نحوهم، لأن الوجـه يعكس دوماً ما في العقـل، وشعر رجالنا في تلك اللحظة بالقلق والاضطـراب، وودوا أنفسهم لو عادوا ثانية إلى صور أو حتى إلى عكـا، التي تركوهـا للتو، وهكذا أمضوا الليـل قرب أحد الجبال في حالة رعب عظيم.

ومثل في اليـوم التالي بعض الترك أمـام صلاح الـدين، وسألـوه بالحاح أن يسمح لهم بالانتقام مـن الفرنجة (لمقتل رفاقهم، وآبـائهم، واخوانهم، وأولادهم، وأقربائهم الذين قتلوا قـرب عكا وفي أماكن أخرى) الذين هم الآن في متناول أيديهم، وقالوا إنهم لن يجدوا مـرة أخرى فرصة أحسن من هذه.

وبعـث صلاح الـدين وراء مقـدمـي الترك للتشاور معهـم حول هـذا الطلب، وعلى الفـور كان المشطوب وسيـف الديـن وبدرالديـن دلدرم في حضرته، وعندمـا عرض الموضوع عليهم، كان رأيهم بـالإجماع وجوب ترك الفرنجة يأتون ويذهبون من دون أذى أو اعـاقة ، وقالوا لصلاح الدين : « ستكون وصمة عار كبيرة لسمعتنا، إذا ما تدخلنـا في المعاهدة التي أبرمت فيها بينـك وبين ملـك انكلترا، أو خـرقنـاها، فـوقتهـا ستظـل مصـداقيـة المسلمين محط شك وتساؤل» .

ونتيجة لسماع هـذه الآراء والملاحظات، أعطـى صلاح الـدين الأوامـر على الفوز بـوجوب العنـاية بـالفرنجـة ومرافقتهـم في الذهـاب إلى المدينة ولـدى عـودتهم دونما ازعـاج أو مضـايقة، وبنـاء على طلـب مـن سيـف الدين، أوكـل إليه القيام بهذه المهمة، وامتلك الحجاج تحت حمايتـه حرية الـوصول إلى الضريـح المقـدس، وعوملـوا بكـرم زائد، وعـادوا بعد هـذا مبتهجين إلى عكا.

كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك رتشارد إلى وطنه

ولدى عودتهم كانت المجموعة الثانية متوقفة فيما بين قلعة النطرون والرملة، فانطلقت يقودها رالف تيسون، وكان الآن صلاح الدين كما ذكرنا من قبل ، قد مركز رجاله ليحرسوا الطرقات بيقظة، وللانتباه إلى أن الحجاج هم في طريقهم إلى القدس ، ونتيجة لهذه التدبيرات ارتحلنا بكل حرية ودون التعرض للمضايقة، وعبرنا المناطق الهضبية ووصلنا إلى جبل صموئيل، فمن هناك رأينا مدينة القدس عن بعد، فجثينا على ركبنا وقدمنا الشكر للرب، كما هي عادة الحجاج، ورأينا من البقعة نفسها جبل الزيتون.

وتقدمنا بعد هذا ونحن مبتهجين، والذين امتلكوا خيولاً تقدموا أمامنا مسرعين حتى يمكنهم تحقيق رغبتهم بالتسليم على الضريح المقدس، زيادة على هذا، أخبرنا هؤلاء الخيالة الذين تقدموا أمامنا، بأن صلاح الدين سمح لهم برؤية صليب الصلبوت الحقيقي وبتقبيله، وهو الذي كان قد حمل من قبل إلى المعركة.

لكن نحن الذين كنا على الأقدام، ووصلنا بالأخير، رأينا ما استطعنا رؤيته، وكان أول ما رأيناه مكان قيامة ربنا، حيث تقدم منح الغفران، لكن بما أن المسلمين كانوا يأخذون هذه التقدمات، لم نقدم إلاّ القليل، وأعطينا شطراً إلى الأرقاء الفرنجة والسريان، الذين رأيناهم في عبوديتهم يقومون بتنفيذ الواجبات المعينة لهم، وتابعنا من هناك إلى جبل أكرا Cal-vary (الجمجمة) حيث صلب ربنا ، وحيث يوجد هناك حجرة أثبت بوساطتها ربنا في الجلجلة.

وبعـدمـا قبلنا هـذا بتبجيـل، تـابعنـا نحـو الكنيسة المبنيـة على جبـل صهيون، فعلى الجانـب الأيسر كان المكـان الذي انتقلـت فيه مـريم، الأم المقـدسة للـرب، مـن هذا العـالم إلى الـرب، وحيينا هـذا المكـان بدمـوع منهمرة على خدودنا، ثـم سارعنا لنرى المائدة المقدسة التـي تنازل المسيح فوقف ليأكـل خبزاً، وقبلنا هذه أيضاً بحرقة، ثـم غادرنا معا مستعجلين، لأنه لم يكـن آمنا بالنسبة لنـا الذهاب إلى أي مكان، فيما عـدا على شكل كتلة واحـدة، خشية مـن غدر غير المؤمنين لأن الترك خنقـوا بشكل سري ثلاثة رجال أو أربعة في الممرات الملتوية.

وبادرنا من هناك مسرعين إلى ضريح مـريم المباركة — أم الرب— في وسـط وادي يهو شـافاط، قـرب سلـوان، وقبلنـاه بتعبـد، وقلب خـافـق، ودخلنا بعد هذا، بفكـر ليس متحرراً من الاضطراب، إلى غرفـة القبو التي سجـن فيها ربنـا ومخلصنـا في الليلة التـي كـان سيصلـب في صباحهـا، وحيينا هذه الغرفـة بتضرع، بينما انهمرت دموعنا على خدودنا، ثـم غادرنا مسرعين، في الـوقت الـذي لم يبتعد فيـه الترك ولـو قليلاً، وحـزنا للقـذارة التـي تلوثـت بها الأماكـن المقـدسة بـوسـاطة خيـول غير المؤمنين الذيـن استخدمـوا هذه الأماكن كـاصطبلات، وودعنا القدس الآن، وعـدنا إلى عكا.

ولم تكن المجمـوعة الثالثـة التي قـادها أسقف سـالسبري، بعيدة الآن عـن القدس، وأرسـل صلاح الـديـن شعبه لاستقبـال الأسقف بحفـاوة، وأخذه إلى حيثما شاء وإلى أي مكـان أراد أن يزوره من الأماكـن المقدسة، زد على هذا، تقديرا منه لحكمته، ولأخـلاقه الحميدة، ولفضائله الأخرى (التي كـانت معروفـة منذ زمن طويـل من قبل صـلاح الدين) طُلـب منه الإقـامـة في قصر السلطـان، واستضيـف وأنفق عليـه مـن قبلـه، ورفـض الأسقف أن يقـول:« بدون أي كلفـة، لأننا فقـط حجاج»، ووجـه صلاح الدين خدامه نحو اظهار كل عنايـة بالأسقف وبرجاله، وأرسل إليه بهدايا

كثيرة، وسمح له بعد هذا برؤية صليب الصلبوت، ودعاه إلى لقاء معه، حتى يمكنه أن يعبر عن نفسه قبل المغادرة، وقد جلسا وتحادثا معا لوقت طويل.

وسأله صلاح الدين عن ملك انكلترا، وعن الذي يقوله الفرنجة عن مسلميه، وأجابه الأسقف: « صدقاً، فيما يتعلق بمولاي الملك سأقول ما تتطلبه العدالة: إنه لانظير له بين جميع فرسان العالم سواء بالنسبة للشجاعة أو كرم الاعطاء،ذلك أنه متميز في كل شيء فيما يتعلق بكل صفة رفيعة، وبإيجاز، إن مولاي، برأيي المتواضع، لو أراد أي إنسان — وأنا لا أرى لديك ذنوب — أن يقرن ما بين سجاياك وسجايا الملك رتشارد، ويمزج فيما بينهما، لن يجد رجلين آخرين في العالم يمكن مقارنتهما بكما».

وأصغى صلاح الدين بأناة إلى الأسقف ورد عليه بقوله:« إنني أعرف منذ زمن طويل أن ملككم رجل له مكانة عالية، وشجاع، لكنه غير حكيم، إن لم نقل أحمق، في رميه نفسه مراراً في المخاطر، وإظهاره عدم اهتمام كبير بحياته، وبالنسبة لي ، مهما كانت ممتلكاتي واسعة، أوثر أن يكون لدي ثروات واسعة، وحكمة، ومرونة، بدلاً من أن أظهر شجاعة متطرفة، وتهوراً».

ثم تحول الحديث نحو أمور عادية بينهما، وأخبر صلاح الدين الأسقف أن بامكانه أن يطلب أي شيء يوده، فذلك سيعطى له، ورد عليه الأسقف بأن سأله إذا كان بإمكانه الحصول على مهلة حتى اليوم التالي لكي يرى ما ينبغي أن يسأله، وأجيب إلى طلبه هذا، ثم سأل إذا كان من الممكن استبدال الطريقة البدائية للقداسات التي يقدمها السريان، وهي لاتعدو أنصاف قداسات تنفذ أمام ضريح ربنا، وذلك في أن يتم وضع اثنين من الكهنة اللاتين مع شماسين أيضاً لاتين (يعيشون من تقدمات المؤمنين) وأن يسمح لهؤلاء بتقديم القداسات بالتعاون

المتساوي مع السريان، وطلب أيضاً أن يكون هناك عدداً متساوياً في بيت لحم وفي الناصرة، وكان هذا الالتماس عظيم الأهمية، ومرضياً للرب كما نعتقد، ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف اثنين من الكهنة في الأماكن السالفة الذكر مع اثنين من الشمامسة، يقدمون القداسات للرب، حيث لم يكن هناك من أحد قبلهم، وإثر هذا حصل الحجاج على إذن المغادرة من السلطان، وعادوا من القدس إلى عكا.

أما وقد أكمل الناس الآن حجهم الذي نذروا أنفسهم له، وقد أكملوا اعداد اسطولهم للعودة إلى الوطن، نشروا أشرعتهم للريح، وعهدوا بأنفسهم إلى سفنهم، وأقلعت السفن مسرعة، وتفرقت السفن باتجاهات مختلفة وفقاً لتنوع الرياح.

وتقاذفتهم الأمواج لوقت طويل، ووصل بعضهم إلى موانىء مختلفة سالمين، وساقت بعضهم إلى المخاطر فتحطمت سفنهم، ومرة ثانية مات آخرون أثناء سفرهم، ووجدوا قبورهم في أعماق المحيط، وأصيب بعضهم الآخر بأمراض غير قابلة للشفاء ولم يبرأوا ولم يعودا إلى أوطانهم، زد على هذا ، تحمل آخرون بسلام حتى النهاية، وعانوا من خلال فقدان آبائهم، وأخوانهم وأقربائهم، وأصدقائهم، الذين هلكوا من المرض أو من السيف، وذاقوا نكهة الشهادة، وخرقت آلام متنوعة صدورهم كما لو أن ذلك جاء بفعل السيف.

لقد عانى كل واحد بطريقته الخاصة من نوع من أنواع الشهادة، وباختصار عرض كل واحد حمل قلباً ساذجاً ونفسا مؤمنة نفسه لهذا الحج الطويل حباً بالرب، واعتاد بعضهم ممن يحبون الهذر وكثرة الكلام على الشكوى أن الحجاج قدموا قليلاً من المنفعة لأراضي القدس، لأنهم لم يحرروا المدينة لكنهم لم يكونوا يعرفون مايقولون، لأنهم كانوا يبحثون في أشياء ليس لديهم معرفة شخصية بها ولاخبرة، وعلى كل حال، نحن الذين عرفنا كل شيء ورأيناه بأم أعيننا، ينبغي أن نمنح الثقة والتصديق

لرواياتنا حول المتاعب والشقاء الذي تحمله هؤلاء الرجال.

ونصرح بثقة، على مسمع من الذين كانوا أيضاً حضوراً، أن مائة ألف من الفرنجة قد هلكوا في ذلك الحج، وذلك لسبب واحد ومقصد هو الأمل بالحصول على الثواب الرباني، فلهذا السبب فصلوا أنفسهم عن النساء، ورأوا أن من الشرور التضحية بطهارتهم للحصول على الصحة البدنية، ونعلم بشكل أكيد أنه نتيجة لاجتماع الأمراض والمجاعة مات أكثر من ثلاثمائة ألف اثناء حصار عكا وبعد ذلك، ومن ذا الذي يشك — على كل حال — في خلاص أرواح مثل هؤلاء الرجال النبلاء والرائعين، الذين سمعوا يوميا القداسات من شفاه قساوستهم، ومن المؤكد أن نفترض أن هؤلاء قد ذهبوا إلى الجنة.

وغدت سفينة الملك رتشارد جاهزة، وقد زودت بكل الضروريات من سلاح ومؤن، وأعدّ ذلك من أجل الرحلة، ثم قام الملك بدافع من كرمه الخالص،وبرأي من عقله النبيل لوحده، أقدم على تخليص وليم دي بريتل (الذي عرض نفسه للأسر حتى ينقذ الملك) بمبادلته بأكثر من عشرة من النبلاء الترك، مع أن هؤلاء كانوا على استعداد لأن يدفعوا وهم مسرورين مبلغاً كبيراً من المال لفداء أنفسهم، لكن كرم الملك ما كان ليتوقف بأي حال أمام أي معيق.

وبات الآن كل شيء جاهزاً، والملك على وشك الاقلاع، هنا (قرر قبل أن يذهب أن لا يترك أي شيء خلفه يمكن أن يؤثر على سمعته) أمر بأن يعلن للجميع أن كل من له ادعاء نحوه ينبغي أن يتقدم به، وأن جميع ديونه سوف تدفع بالكامل، لابل أكثر من الكامل، لتجنب أي معيق أو شكوى فيما بعد.

ولكم كانت التنهدات والدموع كثيرة هناك عندما رفع الاسطول الملكي مراسيه، ودعي للملك بكثيرمن التبريكات لأعماله المثيرة النافعة،

ولفضائله الظاهرة، ولكرمه الكبير، وللمحاسن الكثيرة التي اجتمعت في شخص واحد، وارتفعت أصوات العويل، وردد الجميع وهم يبكون:« ياقدس، حرمت الآن من كل أمان، كيف فقدت المحامي عنك، من الذي سوف يحميك لو أن الهدنة خرقت، طالما أن الملك رتشارد قد غادر»؟ هذه كانت كلمات كل واحد، عندما صعد الملك ظهر السفينة وأقلع، ذلك أن صحته لم تكن عادت كما ينبغي، لذلك كان موضوع قلقهم جميعاً.

وسارت السفينة طوال الليل مهتدية بنور النجوم، وعندما جاء فجر النهار، نظر الملك نحو الخلف، بأعين نحو البلاد التي غادرها، وبعد تأمل طويل وتفكير عميق، رفع صوته بالدعاء وسمعه عدد من الناس يقول:« أدعك أيتها الأرض المقدسة للرب، وإذا ما منحتني العناية السماوية الحياة، لعلي أتمكن برضا الرب أن أقدم لك العون، وأن أكون في أحد الأيام ، كما أنوي، المدافع عنك والمحامي».

وبمثل هذه الكلمات حث الملاحين على نشر أشرعتهم للريح، جاهلاً لما هو بانتظاره من مشاق وأحزان، وغير عارف بالمآسي التي سيعاني منها بسبب الخيانة، التي حيكت لإلقائه بالسجن من قبل ليوبولد صاحب النمسا(*)، فقد استولى أخوه الايرل جون على ميراثه، وجرى بظلم اغتصاب قلاعه في نورماندي، واعتدى خصومه بوحشية على حقوقه، ولم ينج من أسره إلا بدفع فدية.

(*) — بالاضافة إلى ما تقدمت روايته عن أسباب اعتقال ليوبولد صاحب النمسا لرتشارد، في المجلد المتقدم، وكذلك في المجلد الثامن الحاوي لذيل تاريخ وليم الصوري، يقال إن قرابة قامت ما بين اسحق صاحب قبرص وزوجته من جهة وليوبولد من جهة أخرى، وذلك بالاضافة الى مشكلة اغتيال كونرادمركيز صور، وكانت سفينة رتشارد قد أعاقتها العواصف، لذلك حاول إكمال سفره متخفيا براً، لكنه كشف وألقي القبض عليه في فينا، حسبما تقدم بالتفصيل.

واسترد أخيراً أراضيه ومملكة آبائه، وأعادها إلى الهدوء والاستقرار، ثم عبر إلى نورماندي لينتقم لنفسه من اعتداءات ملك فرنسا، الذي كان خصمه، وبعد ما هزمه مراراً، استرد بالقوة والسيف والرمح حقوقه المسلوبة، لابل زادها.

انتهى هنا كتاب حملة الملك رتشارد إلى الأراضي المقدسة التابعة للقدس.

رحلة حج سيولف الى القدس
(١١٠٢-١١٠٣م)

مدخل

المخطوطة الوحيدة المعروفة من رحلة حج سيولف Saewulf هي التي أنقذها ماثيوباركر رئيس أساقفة كانتربري ،من التهديم العام لمكتبات الديرة خلال حكم هنري الثالث ،وأدوارد الخامس،ومنحها الى مكتبه كلية المسيح في كمبردج،حيث حملت الرقم ١١١،وقد قام السيد.ت.رايت بنسخ نسخة عنها،وترجمها،وترجمته لها موجودة في مكتبه بوهن،ونشرت للمرة الأولى من قبل م.دي أفيزاك في «مجموع الرحلات والمذكرات للجمعية الجغرافية»الجزء الرابع،باريس ١٨٣٩،وبما أن هذه الطبعة غير متوفرة ،تطلبت الحاجة اعادة نشر الأصل بعناية اعتماداً على مخطوطة كمبرج، وتولى هذا العمل السيدأ.روجر،وتحتوي المخطوطة نفسها على سبع قطع من مخطوطات قديمة ،وفي الحقيقة رواية سيولف نفسها قطعة،فقدت شطراً كبيراً من مطلعها، وخاتمتها أيضاً مفقودة. وكاتبهاسيولف غير معروف تاريخياً ،لكن م.دي أفيزاك قد استخرج عدداً من الأدلة،أمكن بوساطتها تحديد تاريخ الحج بشكل مؤكد، فإيتانها على ذكر كل من الملك بلدوين، وريموند صاحب طولوز على أنهما كانا معاً في الأرض المقدسة،يعيد تاريخها الى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر،لأن بلدوين جرى تتويجه في ٢٥-كانون الأول سنة ١١٠٠،وتوفي ريموند في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥.

وذكر سيولف أماكن على الساحل كانت ماتزال في أيدي المسلمين،وبين ما كان بأيدي الفرنجة مدينة طرطوس التي استولى عليها ريموند، وكانت عكا التي سماها عكرون-ماتزال بأيدي المسلمين، ومعروف أن ريموند قد استولى على طرطوس في آذار سنة ١١٠٢ ،في حين لم يتم الاستيلاء

على عكا حتى ١٥-أيار ١١٠٤ ،ومرة أخرى لقد بدأ سيولف رحلة عودته في يوم،عيد الحصاد، وجاء عيد الحصادلعام ١١٠٤ في الخامس من حزيران،أي بعد الاستيلاء على عكا، وحل عيد الحصادلعام ١١٠٢يوم ٢٦-أيار،بعد أكثر من شهرين من الاستيلاء على طرطوس،ولابد على هذا أن تاريخ عودته قد وقع فيما بين ١١٠٢أو ١١٠٣،وكان قد بدأ من ايطاليا في يوم أحد ،الذي كان عيد القديسة ميلدرد mildred في ١٣ تموز،وحل ١٣ تموز يوم أحد في سنة ١١٠٢، وعيد الحصادالتالي في سنة ١١٠٣ حل في ١٧ -أيار،ووصل م.دي أفيزاك الى هذه المحصلة دون تحديد التاريخ تماماً ،الأمر الذي يعطينا إياه الذي استنسخ نسخة عن المخطوطة،فقد قرأ السيد رايت عبارة Tertio idus jutكما يلي Tertio uero milliarii ،وكان لحسن الحظ بالنسبة له أن البولاندستBollandists قد وضعوا عيد القديسة ميلدرد يوم ١٣-تموز، حسبما هو ظاهر على تقويم وستمنستر ميسال Missal ،فهذا مااستخرجته منذ زمن وجيز« جمعية هنري برادشو»وليس يوم ١٤ من الشهر نفسه حسبما أعطاه تقويم انكليزي قديم نشر من قبل السيد ماسكل « Monumenta rituolia » ج٣ص ٢٠١، أو في عشرين شباط، وهو التاريخ الذي أعطاه ألبان بتلر،فهذا التاريخ الأخير هو يوم تسلم آثارها في بلجيكا،لأنها كانت قد حملت بعيداً من ديرها في ثانت ThaneT التي نهبها الدانيون، وبتبني تاريخ ١٣-تموز،نكون قد حددنا تاريخ سيولف بدون أي شك.

وذهب م.دي أفيزاك الى الاعتقاد أن سيولف هو فقط«a nom de guerre»وأنه ناله بسبب سفراته المتواليه مثل«كلب البحر»للدينا، لكن«ولف»وجد بالأسماءالانكليزية كثيراً ،مما يجعل هذا الافتراض غير صحيح.

واستخدم سيولف اصطلاحات مثل:«dies egyptiaca»و hora

egyptiaca»،ونعلم من دو كانج أن هذه الأيام والساعات قد وضعت في بعض التقاويم القديمة للاشارة الى انهم تواريخ نحس ،وأطلق عليهم«مصريات»لأنهم نقلوا من كتاب فلك مصري ،وقد قال المصريون إن الحظ سيكون حظاً عاثراً إذا ما فصد الانسان أو تولى القيام بأي عمل هام في هذه الأيام،وأدان القانون الكنسي الأخذ بمراعاة الأوهام بقوله:«ينبغي عليك عدم مراعاة الأيام التي تدعى الأيام المصرية»الخ(Decret 26.Q.caus.7.c.16)،وبناء عليه قال وليم أوف نيوبرا:«رسم رتشارد الأول في لندن من قبل بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ،في الثالث من أيلول ،الذي هو قد عرف من المعتقدات القديمة الكافرة بأنه يوم نحس-Malus vel aegptiacus »الخ، ووردت الإشارة الى هذه«الأيام المصرية »في التقاويم المسيحية القديمة المعروفة بـ Almonac،أي التقاويم التي نشرت في حوالي سنة ٣٣٦م ثم أعيد نشرها في سنة٣٥٤م من قبل فوريوس دايونيسيوس فيلوكالوس Furius Dionysius Filocalus،واستخرج م.دي أفيزاك من واحد من هذه التقاويم أن ١٣ و٢٢ تموز كانا من أيام النحس هذه وهذين كانا اليومين اللذين أقلع فيهما سيولف من مونوبولي ثم أقلع ثانية في البحر من برنديزي.

وفيما يلي التواريخ التي ورد ذكرها في رحلة حجنا:

١١٠٢, ١٣-تموز،أقلع من مونوبولي قرب باري.

١١٠٢, ٢٢-تموز،بدأ ثانيه من برنديزي.

١١٠٢, ١-آب ،وصل الى جزيرة سيفالونياcephalonia.

١١٠٢, ٩-آب ،وصل الى كورنيثا.

١١٠٢, ٢٣آب وصل الى نيغروبونتNegropont

١١٠٢, ١٢-تشرين أول،نزل في يافا

١١٠٣, ١٧ -أيار،عاود الاقلاع من يافا

١١٠٣, ٢٣-حزيران،وصل الى رودس

١١٠٣, ٣٠-حزيران،وصل الى رودستو في الطريق الى القسطنطينية.

وليس من المؤكد فيما إذا كان سيولف رجل دين أوعلماني،ومن الواضح أنه كان رجلاً تقياً جداً،ومشتاقاً لرؤية الأماكن التي سمع عنها وقرأ حولها في الأناجيل،ولم يخطر على باله مناقشة الأشياء التي أخبره بها المسيحيين السوريين أو الشك بها،لكنه قدم رواية صحيحة بقدر امكانه حول الأماكن والأشياء التي رآها.

-١٠١٢-

رواية عن

حج سيولف الى القدس والى الأرض المقدسة

في سنتي ١١٠٢و١١٠٣ لتجسيد ربنا

هنا بداية الرواية المؤكدة عن وضع القدس

كنت أنا سيولف المذنب الحقير فعلا، على طريقي الى القدس من أجل الصلاة عند ضريح ربنا،ومع أنني ذهبت على الطريق المباشر مع آخرين كانوا ذاهبين الى هناك،لم أستطع عبور البحر المفتوح وذلك إما بسبب أنني كنت مثقلاً بذنوبي، أو لأن السفينة كانت بدائية ،ولهذا قررت أن أدون فقط أسماء الجزر التي مررت بها.

وقد نزل بعضهم في فاروم(١) Varum ،وبعضهم الآخر في بارلوم Barlum(٢)،وبعضهم في سيبونتوم(٣)Sipontum ،أوفي ترانوم(٤)Tranoom،ونزل بعضهم حتى في أوترنت(٥)otrente،وفي ميناء أبوليا الجنوبي الأقصى،ولقد صعدنا الى ظهر السفينة في مونوبولي،التي هي على مسافة يوم من باروم(٦) Barum ،يوم الأحد١٣-تموز، وهو يوم عيد القديسة ميلرد العذراء(٧)،ولم يكن وقتاً سعيداً،حسبما تبرهن فيها بعد لنا،ولولا أن رحمة الرب لم تحمنا،لكنا غرقنا،ففي اليوم نفسه، عندما كنّاعلى وجه البحر،بعيداً عن الميناء،عانينا من تحطم السفينة بسبب عنف الأمواج،لكن بفضل عناية الرب عدنا سالمين الى الشاطىء.

وعندها ذهبنا الى براندك(٨) Brandic ،ومجددا صعدنا في يوم بؤس ظهر السفينة نفسها،لكن أمكن ترميم بعضها ،ونزلنا على جزيرة إغريقية،حملت المدينة فيها مع الجزيرة نفسها اسم كورفي(٩)curphi،ليلةماقبل عيد القديس جيمس الرسول(١٠)،ووصلنا من هناك الى الجزيرة التي تدعى كافالانيا(١١)caphalania ،حيث

جرفتنا عاصفة كبيرة،يوم الأول من آب،فهناك مات روبرت غويسكارد(١٢)،ومات هناك أيضاً مرافقونا،مما سبب لنا حزناكبيرا،وأقلعنا بعد ذلك من هناك،وأبحرنا حتى وصلنا الى بولي بولس(١٣) Polipolisثم وصلنا الى جزيرة بتراس(١٤)patrasالجميلة،ودخلنا الى مدينتها من أجل الدعاء لأندرو الرسول المبارك الذي عاني هناك ودفن،لكن نقل بعد ذلك الى القسطنطينية ،ووصلنا من بتراس عشية عيد القديس لورانس (١٥)الى كورنثيا،فهناك كان الرسول بولص المبارك قد بشر بكلمة الرب ،وكتب رسالة الى بعض (المؤمنيين به)، وعانينا هناك من متاعب عديدة،وجزنا من هناك الى مرسى هوستا(١٦) Hosta ،وذهبنا إثر ذلك، بعضنا على قدميه وبعضنا الآخر على ظهور الحمير في رحلة يومين الى طيبة ،التي هي مدينة تدعى بشكل عام ستين stinae ،ووصلنا في اليوم التالي الى نغروبونت عشية عيد القديس بارثلميو الرسول،واستأجرنا هناك سفينة أخرى ،وتبعد أثينا ،التي بشربها بولص الرسول،مسافة يومين عن أحواز كورنيثيا،فهناك ولد ديونيسوس Dionysius وتعلم،وآمن بعد ذلك بالرب بوساطة بولص المبارك(١٧)،ويوجد هناك في كنيسة العذراء مريم المباركة،زيت في مصباح يشتعل بشكل دائم،دون أن ينقص مطلقاً .

ووصلنا بعد ذلك الى جزيرة تدعى بيتاليون (١٨)petalion،ومن هناك الى أندريا(١٩)Andria حيث يصنعون ذهبا ثمينا وفضة منظومة في خيط أو أشكال مغلفة،وملابس مطرزة بالحرير،وقدمنا من هناك الى تينوس tinos ،ثم الى سيراSyraوبعدها الى ميكونيام Miconyam،ومن هناك الى نكسيا naxia ،التي الى جانبها جزيرة كريت صاحبة الذكرى والشهرة ،وجزنا من هناك الى كاريا car-eaوأومرغونomargon،وساموس،وسكيو scyo وميتيلينا met-

elina،ووصلنا بعد هذا الى باتموس patmos،التي نفي إليها يوحنا الرسول الانجيلي من قبل دومشيان Domition ،وحيث كتب سفر الرؤيا،وإفسوس واقعة على أحد الجوانب قرب سميرنا، التي هي على مسافة يوم واحد ، والتي إليها ذهب الانجيلي نفسه،ودخل حياً الى ضريحه،وكتب الرسول بولص أيضاًرسالة الى أهالي إفسوس ،ثم وصلنا الى جزيرتي ليروس Leros،وكاليمنوCalimno ، ثم الى آخوس ،حيث ولد جالينوس أعظم الأطباء مكانة بين الاغريق،وعبرنا من هناك بوساطة ميناء مدينة ليدو lydo المهدمة،حيث بشر تيتوس تلميذ القديس بولص الرسول،وقدمنا من هذه الى أسيوم Asum التي تدعى أرجنتيا(٢٠)Argentea.

ثم وصلنا بعد هذا الى رودس،التي قيل عنها بأنها إحدى عجائب الدنيا السبعة وهي:الكولوسوس Colossus ،وهوصنم ارتفاعه مائة وخمسة وعشرين قدماً ، هدمه الفرس مع جميع المقاطعة الرومانية تقريباً ،عندما كانوا في طريقهم الى إسبانيا،والى الكولوسيين كتب الرسول بولص المبارك رسالة (٢١)،وأوصلنا من هناك سفر يوم الى باتارا Pa-tara ،وهي مدينة ولد فيها المبارك رئيس الأساقفة نيقولا، ومن هناك ساقتنا في المساء المتأخر عاصفة قوية، وأطلقنا الأشرعة في الصباح التالي ،ووصلنا الى مدينة كلها خرائب تدعى سينت ماري موغرونيسي،Mogronissi ،ومعنى هذا:الجزيرة الطويلة(٢٢)،واعتاد هنا أن يعيش النصارى الذين أخرجهم الترك من الاسكندرية(٢٣)،وهذا ظاهر من الكنائس والأبنية الأخرى،وقدمنا من هناك الى مدينة مايرا Myra ،حيث حكم القديس نيقولا بمثابة رئيس للأساقفة(٢٤)، وما يرا هي ميناء البحر الأدرياتيكي(المتوسط)مثلما القسطنطينية هي ميناء البحر الايجي،وبعدما تعبدنا عند مقام الضريح المقدس للقديس المذكور،وصلنا بريح طيبة الى

الجزيـرة التـي اسمها اكسنـداكـوبـوXindacopo التـي معناهـــــا باللاتينية «الأشرعـة الستة»بسبب قوة البحر(٢٥)،وعلى مقربـة منها الميناء الذي يدعـى مع المنطقة المحيطة به بـاسم فينيكا Finica ،وبعد ثلاثة أيام من السفر عبر الجزء الأعرض من البحـر الأدرياتيكي،وصلنا من ذلك المكان الى مدينـة بافوس Paphos ،وهي جزء من جـــزيرة قبرص،فهنا اجتمع الـرسل بعـد صعود ربنـا،وعقدوا مـؤتمراً حول الأشيـاء المتوجـب اقرارها،،والى هاهنا أرسلوا القديس برنـابا الرسول للتبشير،وبعد وفاته جاء الى هاهنا القديس بطرس من يافا،وهناك تفرقت بذور كلمة الرب،قبل أن يعتلي الكرسي الرسولي في انطاكية.(٢٦)

ومن جـزيرة قبرص،رفعنا مـراسينا،وظلت عاصفـة بحرية تتقـاذفنا لمدة سبعـة أيام ،قبـل أن نتمكـن مـن الوصـول الى مرسـى،وفي إحدى الليـالي كانـت الرياح عنيفة جـداً، الى درجة أنها أعادتنا الى قبرص ،لكـن بفضل من رحمة الرب-التـي هي قريبة جداً مـن كل من يدعوه بصـدق- جدفنا بدون كثير من المصاعب،وعدنا ثانيـة الى مسارنا المرغوب،ثم استبدت بنا عـاصفـة هـائلة لمدة سبـع ليـالي ،ولشـدة خـوفنـا كدنـا جميعـاً أن نفقـد الأمـل،ومهما يكن الحال،عنـدما أشرقـت الشمس في الصبـاح ظهر أمـام أعيننا شاطيء مينـاء يافا،وكما ألقت بنا متاعبنـا الكبيرة ومخاطرنا في وضع بائس كذلك فعل الأمر غير متوقـع وغير المؤمل،فكان أن ضاعفت بهجتنا سرورنا مائة ضعـف، وبناء عليه بعد مـرور ثلاثة عشر اسبوعـاً،كما كنا قد أقلعنا يوم أحدمـن مونوبولي،وكنا دوماًإمـا فوق أمواج البحر أو على الجزر في الأكواخ،وفي الزرائب الشـاغرة،لأن الاغريق ليسوامضيافين،هكـذا نزلنا في يوم أحد وسط سرور عظيم وحمد وشكر الى ميناء يافا.

أسألكم الآن وأرجـوكم جميعاً ،أيها الأصدقاء الأحبـاء،أن تمدوا أيديكم وترفعـوهم عـالياً ،وتصفقوا بهم،وتغنـوا ببهجة تامـة للرب بصـوت واحد معي،وارفعـوا أصواتكم معي في شكـره،لأنه وهو القادر بسـط رحمته عليّ

خلال الـرحلةكلهـا،تبارك اسمـه من الآن فصـاعداً ،ودائماً أبـداً،أعيروني آذانكـم أيها الأصدقـاء الأعـزاء ،واستمعـوا الى خبر الرحمة التـي أظهـرتها العنايـة الربانية نحـوي ولي،ومع أنني أقل عبيـده شأناً ،ففي اليـوم نفسه الذي رسونا فيـه قال لي أحد الناس،بدافع رباني كما أعتقـد:«ياسيد،انزل الى الشـاطـىء هذا اليـوم،خشيـة ربما ستـأتي عـاصفة هـذه الليلـة أو في الصباح البـاكر،ووقتها لـن يكون باستطاعتـك النزول الى اليابسـة»،وما أن سمعـــت هـــذا حتـــى تملكتنـــي على الفـــور رغبـــة بـــالنـــزول الى الشـاطىء،فـاستأجرت قارباً ،ونزلت الى اليابسة مع كل أغراضي ،وعندما بـدأت بالنـزول الى اليابسـة بـدأ البحر يضطـرب ،وازداد الهيجان،وثـارت عاصفـة عنيفة، لكن بفضـل عناية الـرب وصلت دونها أذى،ثم مـاالذي حدث بعد؟ ذهبنا الى داخل المدينة نطلب مكـاناً للإقامة،وكنا متعبين قد أنهكتنا المشاق الكثيرة،وتنـاولنا بعض المنشطات وارتحنـا،وحدث على كل حال في الصبـاح الباكـر ،أننا عنـدما كنـا خارجين مـن الكنيسة سمعنـا ضجيـج البحر وأصـواته، وصراخ النـاس ،وكـان الجميع يـركضون،وهـم منـدهشين تجاه أشياء لم يسمعـوها مـن قبـل، وركضنا وكلنـا خوف، مـع الآخريـن،ووصلنا الى الشاطـىء،وعندما وصلنـا الى هناك ،رأينا العـاصفة تسوق أمواجـاً عالية مثل الجبال،وقـد غمرت أجساد رجال ونسـاء فاقت التعداد،وقـد غرقوا وألقـي بهم بشكل تعيـس على الشاطىء،ورأينـا أيضاً سفناً وقد تصادمت مع بعضهـا وتحطمت الى قطع صغيرة، من الذي كان بإمكانه الإصغاء الى شيء سوى زئير البحر ،مع تصادم السفن وتحطمها ؟ وكـانـت الأصـوات أعلى مـن صراخ النـــاس ،ومـــن صرخـات جميـــع الملاحين،وبما أن سفينتنـا كـانـت كبيرة جداً ،وبنيـت بشكـل متين،فقـد حافظـت حتى الآن على تـوازنها وذلك مع عـدد آخر مـن السفن كـانت محملـة بـالحبـوب وبـأنـواع البضـائع التجـاريـة والحجـاج القـادمين أو العـائدين،وحـافظـت حتى الآن على تـوازنها وسـط البحر الهائج بفضـل مـراسيهـــاولكـونها ربطـت بـالحبـال،ويـاهول الـرعـب الشريـر الـذي

واجهوه،وكيـف ألقي ببضائعهـم وقذفـت بعيداً ،ولاشك أن العيـون التي رأت ذلك كلـه قدت من صخر ،إذا كـانت تمنعت عن البكـاء ،ولم يكن قد مضى وقت طويل ونحن نحدق بـالذي أمامنا،عندما اقتلعت الأمواج العاتيـة والتيار الرهيب المراسي، وقطعـت الحبال ،وصارت السفن فـريسة بأيـدي الأمواج الهائلـة، فتبددت جميع الآمـال بالنجـاة، تراهـم الآن قد رفعوا عالياً،ثم مالبثوا أن نـزلوا نحو الأعماق ،وبسرعة جرى لفظهم خارج الأعماق ورميهم فـوق الرمال أو فوق الصخـور، وتبعثروا بشكل بـائس من جانـب الى جانب، وبـالتدريج تحطمـوا الى قطع بقوة التيـار ، ولم تسمح لهم قـوة العـاصفـة بـالعـودة سـالمين الى البحـر،ولم يسمـح لهم انحـدار الشاطـىء بالوصـول الى البر بسلام،وكيف يتسنـى لنا الحديث عـن أسى الملاحين والحجاج عنـدما تبددت جميع آمـالهم،فقد ظل بعضهـم محصوراً بالسفن،وتعلق بعضهـم بالسواري،وبعضهم أمسك بشيء مـن البقايا،أو تعلق بقطع من الخشب،وماذا يمكننـي أن أقول أكثر؟ وغرق بعضهم من الذين استبد بهم الـرعب،وحدث لبعض الذين كـانوا متعلقين أن قطعت رؤوسهم بوساطـة أخشاب سفنهم،وقد يبدو هذا أمـراً لايصدق لكثير من النـاس ،ومع ذلـك أنـا رأيت مـاحدث،وجـرف بعضهـم من على ظهـر سفنهم،فحملـوا مجدداً الى الأعماق،وألقى بعض الـذين يحسنون السبـاحة أنفسهم عن طـواعية بين الأمواج،وبهذا غرق كثير منهم،وقليـل جداً ،ممن كـان واثقاً بقـوتـه،وصلوا سـالمين الى الشاطـىء،وهكـذا من بين ثـلاثين سفينـة كبيرة،ممـن كـان بعضه يعـرف بـاسـم دور منـديDormundi أو غولافري Gulafri،أو كاتي(٢٧)Catti،وجميعها كانت محملة بالحجاج أو بـالبضائع التجـارية ،بـالكـاد بقي سبـع سفـن لم تغرق عنـدما غـادرت الشـاطـىء ،وهلــك في ذلـك اليـوم أكثـر مـن ألـف انســان مـن كـلا الجنسين،وهي أعظم كارثة أمكن لعين انسـان ان تراها في يوم واحد،ومن جميع هذه المخاطر أنقذني الرب بفضلـه،له الشرف والمجد ،وعالم بلا نهاية .آمين.

ومضينا من يافا الى مدينة القدس ،وهي رحلة يومين،عبر طريق جبلي،وصخري،وخطر جداً ،لأن المسلمين كانوا يقيمون الكمائن دوماً لاصطياد الفرنجة،فقد كانوا يختبئون في الأماكن المجوفة في الجبال،وفي الكهوف الصخرية،يراقبون الأوضاع ليل نهار،وينتظرون دوماً الذين يمكنهم مهاجمتهم بحكم صغر تعداد المجموعة المسافرة أو مهاجمة الذين تخلفوا وراء مجموعتهم بسبب الارهاق ،ففي لحظة واحدة يمكن أن تراهم حولك في مكان ما،ثم مايلبثون أن يختفوا كلياً، (٢٨) ويمكن لكل واحد يقوم بهذه الرحلة أن يرى هذا ،آه،كم كان عدد الأجساد البشرية الملقاة على الطريق أو على أطرافه،وقد مزقت من قبل الحيوانات الضارية،وربما يتساءل بعضهم لماذا توجب أن تبقى أجساد الفرنجة هكذا دونما دفن،لكن هذا لايجوز أن يكون موضع تساؤل،لأن هناك مساحة صغيرة من الأرض،وليس من السهل الحفر بالصخور،ويضاف الى هذا،لو افترضنا وجود أرض،من هو الأحمق الذي يقوم بالتخلي عن جماعته،وينشغل لوحده في حفر قبر لمرافقه؟إنه إذا مافعل ذلك يكون بالواقع قد تولى حفر قبر لنفسه وليس لمرافقه،وعلى ذلك الطريق ،ليس الفقير والضعيف من كان عرضة للخطر،بل حتى الغني والقوي تعرضوا للمخاطر،وقتل المسلمون أعداداً كبيرة لكن الحرّ والعطش قتل أكثر،فكثير هلكوا لقلة الماء ،وهلك الأكثر لأنهم شربوا كثيراً ،وعلى كل حال وصلنا نحن مع جماعتنا كلها دونما أذى،الى هدفنا المنتظر منذ وقت طويل،الحمد للرب،لأنه لم يهمل صلواتي،ولم ينأى برحمته عني.آمين.

وقام مدخل مدينة القدس في الجهة الغربية،تحت برج الملك داود،عبر الباب الذي يعرف بباب داود(٢٩)،وكنيسة الضريح المقدس التي تدعى«كنيسة الشهادة»هي أول بقعة توجبت زيارتهاوليس هذا بسبب اتجاه الشوارع،بل لأنها كانت أعظم شهرة من بقية الكنائس،وهي والحق يقال جديرة بكل ماقيل عنها من قبل الأنبياء المقدسين،في جميع أنحاء

العالم،لأن كل ما تعلق بمخلصنا يسوع المسيح أنجز هناك بالفعل،وبنيت الكنيسة نفسها،عندما عثر على صليب ربنا،من قبل رئيس الأساقفة مكسيموس،بمساعدة الامبراطور قسطنطين وأمه هيلانه(حنة)،وجاء البناء ملكياً رائعاً،وفي وسط هذه الكنيسة ضريح ربنا(٣٠)،محاط بسور قوي ، ومغطى جميعه،خشية الدمار،وتتساقط الأمطار فوق الضريح المقدس،لأن الكنيسة فوقه بدون سقف،وهذه الكنيسة قائمة على سفوح جبل صهيون ،مثلها بذلك مثل المدينة نفسها،وبعد هذا قام الامبراطوران الرومانيان تيتوس وفسبسيان بتدميرها انتقاماً من الرب ولكي تتحقق النبوءة الالهية،آنذاك اقترب الرب من اورشليم وحين رأى المدينة بكى عليها وقال:

«لأنه لو عرفت أنت: إن الأيام ستأتي عليك وسيحيط الأعداء بك وبأسوارك ويتزاحموا عليك من كل مكان وسيرمون بك الى الأرض وبأبنائك الذين يعيشون فيك، ولن يتركوا فيك حجراً على حجر»الخ

ونحن نعرف أن خارج الباب خطوة يكون الرب.

ولكن الامبراطور هادريان أعاد بناء مدينة اورشليم،التي دعيت هلياس (إيليا)،وكذلك هيكل الرب ووسع المدينة حتى برج داود، الذي كان قبل ذلك قد بعد كثيراً عن المدينة،وكل من يريد يستطيع أن يراه من جبل الزيتون،حيث كانت تقوم الأسوار الغربية النهائية للمدينة قبل ذلك،والى أي حد توسعت بعدها، وأعاد الامبراطور تسمية المدينة باسمه:«إيليا»والذي فُسِّر على أنه بيت الاله.ولكن بعضهم يقول إن المدينة قد أعيد بناؤها من قبل الامبراطور جستنيان وكذلك هيكل الرب بصورة مشابهة مثل ماهو عليه اليوم،ولكن يقولون إن ذاك رواية أخرى،وليس حقيقة أخرى،لأن السريان،الذين كان آباؤهم يقطنون في تلك البلاد منذ الاضطهاد الأول،يقولون إن المدينة كانت للمرة السابعة قد احتلت ودمرت بعد آلام الرب،وصعوده الى السماء ولكنها لم تندثر

بصورة كاملة.وفي باحة كنيسة الرب يمكن رؤية أماكن القبور المقدسة، مثلما أيضاً السجن،حيث كان سجن ربنا يسوع المسيح بعد تسليمه،وذلك حسب الروايات السريانية،وبعدها بقليل الى الأعلى يظهر المكان الذي وجد فيه الصليب المقدس مع الصلبان الأخرى حيث بني بعد ذلك تكريماً من الملكة هيلانه كنيسة عظيمة، ولكنها بعد ذلك دمرت تدميراً كاملاً على أيدي الكفار،والى الداخل ليس بعيداً عن السجن يمكن رؤية الأعمدة المرمرية التي كان قد ربط اليها ربنا يسوع المسيح في قصر الحاكم،وعذب بأقسى أنواع السياط،وبالقرب منها يوجد المكان حيث جرد ربنا من ثيابه من قبل الجنود ،ثم يأتي المكان حيث ألبسه الجند رداء أرجوانيا،وتوجوه بتاج من شوك،واقتسموا ملابسه حسب القرعة ،وبعد ذلك إقتيد الى جبل الجمجمة حيث أراد الأب الأكبر إبراهيم قبلها أن يضحي بابنه على مذبح صنعه بناء على أمر الله. وفي المكان ذاته تم بعد ذلك تقديم ابن الاله، الذي جسده بنفسه، ضحية للاله الأب من أجل افتداء العالم،لكن صخرة الجبل ذاته هي شاهد الآلام الربانية. والى جانب الحفرة التي ثبت فيها صليب الرب،كثيراً من الشظايا، لأنه بدون شظايا لايمكن تحمل موت الخالق، مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«كذلك الصخور تفتتت»

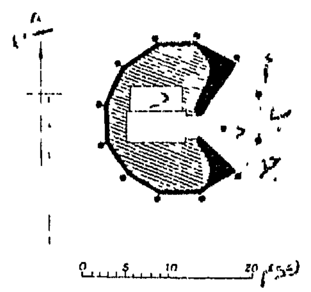
وفي الأسفل يوجد المكان المدعو الجلجلة حيث يقال إن آدم، من جريان الدم الالهي المتساقط عليه،قد نهض من بين الموتى مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«وكذلك ستبعث كثيراً من أجساد القديسين الذين يرقدون»،هذا ونقرأ في روايات القديس أوغسطين أن قبره في الخليل حيث يوجد إثر ذلك أيضاً ثلاثةدفنوا مع زوجاتهم : ابراهيم مع سارة ، واسحق مع رفقه ، ويعقوب مع ليا ، وعظام يوسف مع أبناء اسرائيل جلبت معهم من مصر. وإلى جانب مكان الصلب كنيسة مريم المقدسة ، في المكان الذي أخذ فيه جسد ربنا من الصليب ، فدهن قبل

دفنه بالـدهون ذوات الروائح الطيبة ، ولف بقطـع من قماش الكتان ، أو برباطات طويلة .

وعند رأس كنيسـة الضريح المقـدس بقعة تدعـى «البوصلـة» ، فهي قد عينها ربنا يسوع المسيح نفســه بيده على أنها وسط العالم (٣١) ، وهذا ما أكـدته المزامير بقـوله : « والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض » ويقـول بعضهم إنه في هذا المكـان حسبما قالوا ظهـر ربنا يسوع المسيـح للمرة الأولى لمريـم المجدلية ، عنـدما كـانت تبحـث عنه وهي باكية ، واعتقد أنه البستان حسبما روى أصحاب الأناجيل (٣٢) .

بيعة الضريح المقدس حسبما رؤيت من قبل سيولف ودانيال

الرسم التوضيحي رقم ١



١ -أ.ب.جـ:الأبواب الثلاثة

-د:الحجر الذي جلس عليه الملاك.

-هـ:المقعد الذي مدد عليه جسد المسيح.

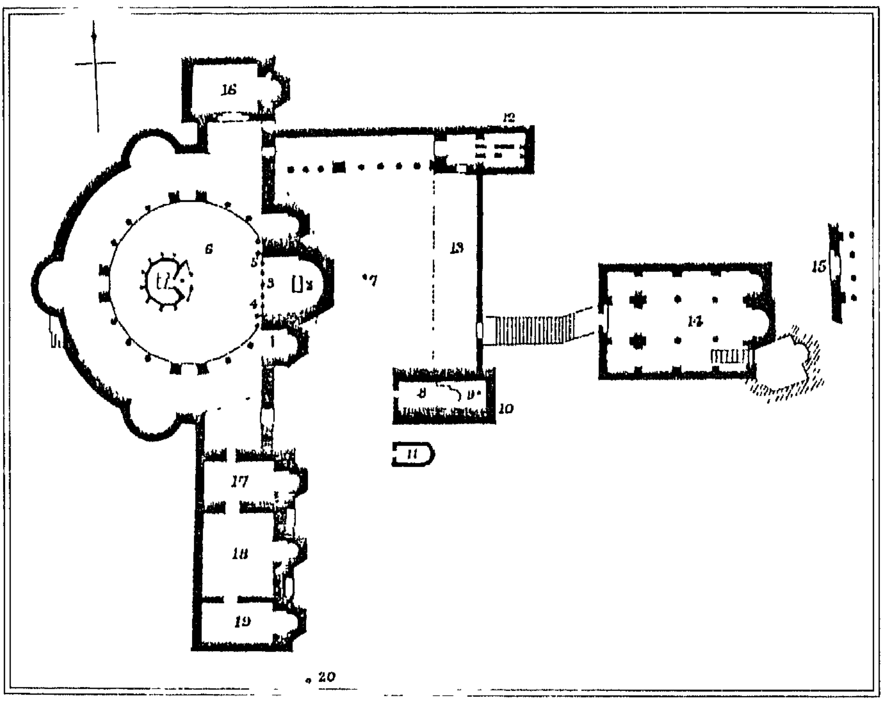
وأعظم هـذه البيع قـداسة مـوجودة في ردهـة ضريح ربنـا في الجانب الشرقـي ، وعلى جـانبـي الكنيسـة نفسهـا هنـاك البيعتـان المشهـورتـان المغلقتـان ، كـل واحـدة على جـانــب أي المقـامتـان على شرف مـريـم المقدسـة، والقديـس يوحنـا لأنهما نفسيهما شاركـا في الآم ربنا، ووقفـا الى جانبـه ، أحدهما على يمينـه والآخر على يسـاره ، ومن الممكـن أن نرى على جدار البيعة نفسهـا المكرسة لمريم المقدسة صـورة لأم الرب نفسها ،

رسمت على الجانب الخارجي ، مع مواساة رائعة لمريم المصرية ، منذ زمن طويل ،وقد امتلأ قلبها بالندامة ، وهي ترجو بإخلاص مساعدة أم الرب ، وهي تتحدث إليها في الصورة المرسومة بوساطة روح القدس ، حسبما نقرأ في سيرة حياتها (٣٣) ، وعلى الجانب الآخرمن بيعة القديس يوحنا ، يقوم الدير الجميل جداً المعروف باسم دير الثالوث المقدس ، حيث يوجد مكان للتعميد ، ارتبطت به بيعة القديس جيمس الرسول ، الذي نال أول كرسي أسقفي في القدس ، وجميع هذه الأماكن منظمة ومرتبة بشكل يمكن به لأي إنسان يقف في نهاية الكنيسة أن يرى بوضوح الكنائس الخمسة من باب الى باب (٣٤).

وفي خارج باب كنيسة الضريح المقدس ، نحو الجنوب ، تقوم كنيسة مريم المقدسة ، التي تدعى باسم الكنيسة اللاتينية ، لأن القداسات يتم تقديمها للرب فيها باللاتينية ، ويقول السريان إن أم الرب المقدسة نفسها،وقفت وقت صلب ابنها،على البقعة نفسها حيث يقوم مذبح الكنيسة،ومرتبط بهذه الكنيسة كنيسة أخرى مكرسة لمريم المقدسة،وهي تدعى بارفاParva ،وعليها يتردد بعض الراهبات حيث يتولين خدمتها وخدمة ابنها بتقوى عظيمة،وبقربها المشفى حيث الدير المشهور المقام على شرف القديس يوحنا المعمدان.(٣٥)

وتنزل في (الشارع)من ضريح ربنا، بقدر رميتى سهم، الى هيكل الرب،الواقع على الجانب الشرقي من الضريح المقدس ،وصحنه طويل جداً وعريض،وله أبواب كثيرة،لكن الباب الرئيسي الذي يواجه الهيكل،ويدعى الباب الجميل بسبب سمات العمل الحرفي فيه ولتعدده بالألوان،فهناك أبرأ بطرس المقعد،عندما ذهب ويوحنا الى الهيكل في الساعة التاسعة،وهي ساعة الصلاة حسبما نقرأ في أعمال الرسل(٣٦)،ويدعى المكان الذي بنى فيه سليمان قديما هيكل الرب بيت إيلBethelوالى هناك ذهب يعقوب في رحلته -ربما بناء على أوامر

الـرب ـ واستراح هنـاك ، ورأى في المكان نفسـه السلم الـذي يلامـس رأسه السمـوات ، ورأى الملائكة ينـزلون عليـه ويصعدون ، وقـال كما نقرأ في سفر التكوين : « حقاً إن الـرب في هذا المكان وأنا لم أعلم » ، وهناك أقام الحجـر دليلاً ، وبنى مذبحاً ، وصب الـزيت عليه (٣٧) ، وفي هـذا المكـان نفسـه ، بنـي فيما بعدسليمان بـوحـي ربـاني الهيكـل ، وكرسه للرب ، وكـان بناءً رائعاً ولا يوجد مثيل لـه ، وقد زينه بشكل بهي بجميع أنواع التزيينات وذلك حسبما نقرأ في سفـر الملوك ، وبدا بإرتفاعه وهو يساوي جميـع التلال من حوله ، وتفـوق على جميع الجدران أو الأبنية في لمعانه وعظمتـه ، ويرى في وسط ذلك الهيكل صخرة عـالية وواسعة ، ومجوفة مـن أسفلها ، وعليها كـان قدس الأقداس ، وهنـاك وضع سليمان تـابوت العهـد الـذي كـان فيه المن وعصـا هـارون التـي زرعت هنـاك وأخضرت وأزهرت وأعطت بعض اللوز.



الرسم التوضيحي رقم ٢

كنيسة القيامة

١-القبر

٢-المذبح العالي في الجهة الشرقية

٣-مكان وقوف الكهنة اللاتين
أثناء نزول النور المقدس

٤-موقع الملك بلدوين

٥-مكان رحالتنا

٦-مكان الكهنة الأرثوذكس

٧-وسط الأرض

٨-مزار أكرا (الجمجمة)

٩-الجلجلة-مكان الصلب

١٠-مذبح ابراهيم

١١-مكان النزول

١٢-سجن المسيح

١٣-المكان الذي وضعت فيه الملابس،
وأدوات السخرية،والطعن،والتاج،الخ

١٤-كنيسة صغيرة تتعلق باكتشاف الصليب

١٥-الباب الذي دخلت منه مريم المصرية

١٦-مزار القديسة مريم

١٧-مزار القديس يوحنا

١٨-مزار الثالوث المقدس

١٩-مزار القديس جيمس

٢٠-المكان الذي وقفت عليه العذراء أثناء الصلب.

وأيضاً لوحي الوصايا ، وهنا اعتاد مولانا يسوع المسيح ، أن يستريح بعدما يكون قد أنهكه النقاش مع اليهود ، وهنا مكان الاعتراف ، حيث اعترف حواريوه به (أنه المسيح) (٣٩) وهنا ظهر الملاك جبريل للكاهن زكريا قائلاً له : « سيلد لك ولد في عمرك المتقدم» (٤٠)، وابن زكريا بن براخيا هذا نفسه قد ذبح فيها بين الهيكل والمذبح ، وهناك ختن الطفل يسوع في يومه الثامن ، وسمي يسوع الذي معناه المخلص ، وهنا جرى تكريس الرب يسوع من قبل والديه مع العذراء مريم ، أمه ، في يوم الطهارة ، ووضعه بين ذراعيه الرجل الشيخ سمعان (٤١) ، وهناك أيضاً، وجد يسوع عندما كان في الثانية عشرة من عمره جالساً وسط المعلمين يسمع منهم ويسألهم أسئلة ، وذلك حسبما نقرأ في الإنجيل (٤٢) ، ومن هناك رمى فيها بعد ، وأخرج من الهيكل الثيران والأغنام والحمام قائلاً : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى» (٤٣) وقال هناك لليهود : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه»(٤٤) ، وما يزال مرئياً في الصخرة آثار قدم ربنا ، عندما أخفى نفسه ، ومضى إلى خارج الهيكل ، حسبما نقرأ في الانجيل ، حتى لا يرمي اليهود الحجارة نحوه ، الحجارة التي حملوها (ليرموه بها) (٤٥) ، وهناك أحضرت المرأة ، التي أمسكها اليهود وهي تزني ، الى أمام يسوع ، حتى يجدوا شيئاً يحتجون به ليتهموه ويشتكون عليه (٤٦) ، وهناك باب المدينة في الجهة الشرقية من الهيكل الذي يدعى الباب الذهبي ، ففي هذا المكان التقى يواكيم ، والد مريم المقدسة ، بأمر من الملاك ، بزوجته حنة، (٤٧)ومن خلال الباب نفسه ، دخل الرب يسوع الى المدينة ، أثناء قدومه من بيت عنيا يوم أحد سعف النخيل ، وحين دخل كان راكباً ظهر أتان ، والأطفال يغنون «أوصنا لابن داود»(٤٨) ومن خلال الباب نفسه عاد الامبراطور هرقل منتصراً من بلاد فارس ومعه صليب الرب، لكن في البداية تساقطت الأحجار ضد بعضها وأغلقت الباب ، وصار الباب منطقة لتجمع أكوام من الفضلات ، حتى

تواضع الامبراطور نفسـه ، بعد ما تلقى لوماً مـن الملاك، وترجل من على ظهـر حصـانه ،ونظـف المدخـل لأجلـه ، وفي صحن هيكـل الـرب ، في الجنـوب، هناك هيكـل سليمان ، بحجـم رائع وفي جهتـه الشرقية هنـاك مكان مهبط الـوحي ، ويحتوي على غرفة ليسوع المسيـح وحمامه ، وفراش أمه المباركة ، وذلك حسب روايات السريان .

وتذهـب من هيكـل الرب نحو الشمال، إلى كينسـة القديسـة حنة، أم مريم المباركـة، فهناك عاشت مع زوجها، وهناك ولدت ابنتهـا مريم التي هي أم أعظـم الناس محبـة، مخلص جميع المؤمنين، وعلى مقـربة مـن هناك بركـة الإبراء، التي اسمهـا بالعبرانية بيـت حسدا، وكان لها خمسـة أروقة، فعنها نقـرأ في الإنجيل، فأعلى منهـا بقليل كـان المكان الذي شفيـت فيه المرأة من قبل مـولانا بلمسها طرف ثوبـه، عندما كان مطـوقاً بحشد كبير مـن الناس، وكـانت المرأة تعـاني من صـدور الدم منهـا منذ اثنتـي عشرة سنة، ولم تحصل على الشفاء بوساطة الأطباء(٤٩).

وتذهب مـن كنيسة القديسة حنة خلال البـاب الذي يؤدي إلى وادي يهوشافاط (جهنم) فـإلى كنيسة مريم المباركة في الـوادي نفسه، إلى حيث حملت بعـد موتها بتشريف عظيـم من قبل الرسـل حتى تدفـن، وضريحها والحق يقال جدير بالتبجيل والتشريف العظيم من قبل المؤمنين.

ويتـولى الرهبـان هناك خـدمة مـولانـا يسوع المسيـح وأمه ليـلاً ونهاراً، وهناك بـركة قـدرون، وكان أيضـاً جيسماني، إلى حيث ذهـب مولانـا مع حوارييه قبل السـاعة التي تعرض فيها للخيانة، ذهـب من جبل صهيون عبر بركـة قدرون، وهناك موقـع نوع من أنـواع الوحي في البقعة التـي ترك فيها بطرس وجيمس ويوحنا حيث قـال: « امكثوا ها هنا واسهروا معي»، وتابـع تقدمـه نحو الأمـام، وسجد وصلى، وجـاء إلى حوارييـه فوجـدهم نائمين(٥٠)، وهنـاك مايـزال من الممكـن رؤية الأمـاكن التـي نام فيهـا الحواريون، وكل مكان منفرد بنفسه، فجيسماني عنـد سفح جبل الزيتون ،

وبركـة قدرون دونها بين جبل صهيـون وجبل الـزيتون ، وكأنـه يفرق بين الجبلين، لكن البقعـة المستوية بين الجبلين تـدعى وادي يهوشـافاط، وإلى الأعلى قليلاً فوق جبل الزيتون هناك مكـان وحي، في موقع صلى فيه ربنا، وذلك حسبما نقرأ في الآلام : « وانفصـل عنهم نحو رمية حجـر. وإذ كان في جهـاد كان يصلي بـأشد لجاجـة، وصار عـرقه كقطـرات دم نازلـة على الأرض»(٥١) ثم يمكنـك أن (ترى) أكلدامـاك، وهو الحقـل الذي شري بثمن الرب، وهـو أيضاً قائم عند سفـح جبل الزيتون، مـلاصق للوادي، على بعد ثلاث أو أربـع رميات قوس من جيسماني بـاتجاه الجنوب، وهناك عدد لايحصى من الأوابد الجديرة بالزيارة.

وهـذا الحقـل قـائم على مقربـة مـن قبري الأبين المقـدسين: سمعـان العدل، ويوسف جدّ ربنا، وجرى بناء هـذين القبرين منذ زمن قديم على شكلِ بـرجين منقورين بـالصخر من جـذر الجبل نفسه، وتمضي بعـد هذا مروراً بـأكلدامـاك إلى النبع الـذي يعرف باسـم بركـة سلوان، حيـث قام رجل أعمى بناء على أمر من ربنا، فغسـل عينيه، وكان ربنا قد صنع طينا بوساطة بصاقه ثم دهن له عينيه(٥٢).

وتـذهب مـن كنيسة مـريم المقـدسة المذكـورة أعلاه بـوساطـة طريـق منحدر إلى أعلى نقطـة تقريبـاً من جبل الـزيتون، نحـو الشرق، إلى المكان الذي صعد فيه ربنا إلى السماء على مشهد من حوارييه.

والبقعـة محاطـة ببرج صغير، وبعنايـة كبيرة مقـام هنـاك مذبـح فـوق البقعـة، وهي أيضـاً محاطة بسـور من جميـع الجوانب، ويـوجد في المكـان الذي وقـف فيه الـرسل مـع مريم المبـاركة— أمـه— وهـم يعجبـون من عروجه، مـذبح كنيسة القديسة مـريم، ووقف إلى جانبهـم رجلان بلباس أبيض فقالا:« أيها الـرجال الجليليون ما بـالكم واقفين تنظرون إلى السماء» (٥٣) الخ، وقرب ذلك على رميـة حجر كتب ربنا الدعاء الـرباني باصبعه شخصياً على الرخـام بالعبرية، فهذا مـاذكره السريان، وبني هنـاك كنيسة

جميلة جداً، غير أنها دمرت فيما بعد كلياً من قبل الكفار، لأن جميع الكنائس كانت خارج الأسوار.

وكنيسة روح القدس موجودة على جبل صهيون خارج السور إلى الجنوب بقدر رمية سهم، فهناك تلقى الرسل وعد الأب، أي روح قدس الفارقليط، في يوم عيد الحصاد، وهناك صنفوا الشريعة، وفي تلك الكنيسة مقام فيه توفت مريم المباركة، وفي الجانب الآخر من الكنيسة هناك مشهد قائم على البقعة التي ظهر فيها ربنا يسوع المسيح، بعد قيامته، إلى الرسل، وتدعى الجليلية، وقال هو نفسه للرسل:« بعد أن أقوم ثانية، سأذهب قبلكم إلى الجليلية»، وحمل هذا المكان اسم الجليلي، بسبب أن الرسل الذين عرفوا باسم الجليليين، غالباً ما ارتاحوا هناك(٥٤).

والجليل مدينة كبيرة قرب جبل الطور، على مسيرة ثلاثة أيام من القدس، ويقوم على الجانب الآخر من جبل الطور المدينة التي تدعى طبرية، وتأتي بعد هذا إلى كفر ناحوم والناصرة قرب بحر الجليل وبحر طبرية، إلى حيث عاد بطرس والرسل الآخرون، بعد قيامة ربنا، إلى صيدهم، وحيث أظهر ربنا نفسه لهم على بحر طبرية(٥٥)، وإلى جانب مدينة طبرية السهل الذي بارك فيه الرب يسوع الخمسة أرغفة مع السمكتين، وأطعم بهم بعد ذلك أربعة آلاف رجل، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل(٥٦)، لكن دعوني أعود إلى مابدأت به.

وفي جليلية جبل صهيون حيث اختبأ الرسل واجتمعوا خوفاً من اليهود، وكانت الأبواب مغلقة، وقف يسوع بينهم في وسطهم وقال: « سلام لكم» .(٥٧) وأظهر لهم نفسه مرة ثانية هناك عندما وضع توما اصبعه في جنبه وفي مكان المسامير(٥٨)، وهناك تعشى مع حوارييه قبل آلامه، وغسل أقدامهم، ومازال هناك المائدة التي أكل عليها العشاء، وهناك أيضاً آثار القديس ستيفن، ونيكوداميوس، وجماليل، وعبيدو، وقد

وضعوا هناك بتشريف من قبل البطريرك القـديس يوحنا بعدما تم العثور عليهم (٥٩)، وأحجـار القديـس ستيفن موجـودة خارج السـور على بعد رميتـي سهم أو ثـلاث رميـات، وهناك كنيسـة جميلـة بنيت على الجانـب الشمالي، وقد هدمت هذه الكنيسة تمامـاً من قبل الكفار(٦٠)، ومثل هذا كنيسة الصليب المقدس، التي تبعد حـوالي الميل من القدس على الجانب الغربي، في مكـان قطع منه الصليب المقـدس، وهي مبجلة جـداً، وجميلة جداً، لكنهـا تعرضـت للافسـاد من قبـل الكفار، علما أنـه لم يهدم سوى القليل منهـا، باستثناء الأبنية والخلـوات من حولها، وتحت سـور المدينة في الخارج، على منحدرات جبل صهيون، توجد كنيسـة القديس بطرس التي تدعى جاليكانتوس Gallicantus (أو عرف الديك)، حيث أخفى نفسه في كهـف عميق جـداً، مايـزاك من الممكـن رؤيته، وذلـك بعد مـا أنكر ربنا، وبكى هناك لما اقترفه من جريمة بكاءً مريراً جداً.

وعلى الجانب الغربي لكنيسة الصليب المقـدس، وعلى مسافة ما يقارب الثـلاثـة أميـال، هنـاك دير جميـل جـداً وواسـع كثيراً مكـرس على شرف القـديـس سـابـا، الذي كـان واحـداً مـن الاثنين وسبعين حـواريـا، أي حواريـي ربنا يسوع المسيح، ويعيـش الآن هناك أكثر من ثـلاثمائة راهب ارثـوذكسي على شكـل جماعة، ويعبـدون ربنـا والقـديس، وجـرى تمزيـق القسم الأعظم من الرهبان مـن قبل المسلمين، لكن بعضهم مازال يعيش داخـل أسـوار المدينـة، قـرب بـرج داود في ديـر آخـر مكـرس للقـديـس نفسه(٦١)، وتعرض الدير الآخر للهدم كلياً.

وتبعد مدينة بيت لحم، في اليهودية، مسافة ستة أميال عن القدس، في الجهة الجنوبيـة، ولم يبق هناك شيئاً قـابلاً للسكنى بوسـاطة المسلمين، بل كـل شيء قد عيـث به، مثلما حـدث للأمـاكـن المقدسـة الأخرى خـارج أسوار مدينة القـدس، باستثناء دير العذراء مريم المقـدسة، أم الرب، وهو ديـر عظيم ومشهـور، وفي تلك الكنيسـة نفسها هنـاك مغارة تحت مكـان

جوقة المرتلين، وفي وسطه يمكن أن ترى البقعة التي ولد فيها ربنا، وهي قائمة بعض الشيء إلى اليسار، وأسفل قليلاً هناك على اليمين، قرب مكان ولادة ربنا المعلف الذي وقف أمامه الثور والأتان، وذلك عندما وضع ربنا الرضيع أمامهما في المزود، والحجرة التي استراح عليها رأس مخلصنا في الضريح جلبت إلى هنا من القدس من قبل القديس الراهب جيرومي، وغالباً ما يمكن رؤيتها في المزود، والقديس جيرومي نفسه مدفون تحت المذبح في الشمال من الكنيسة نفسها، والأبرياء الذين قتلهم هيرود وهم رضع عوضاً عن المسيح الرضيع، مدفنهم في الجانب الجنوبي من الكنيسة تحت مذبح، ومدفون أيضاً هناك سيدتان مقدستان جداً هما: باولا وابنتها العذراء يوستوخيوم Eustochiom ، وهناك مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مريم المباركة مع الحكماء (المجوس) الثلاثة عندما قدموا لها هداياهم، وهناك بئر في الكنيسة، ملاصق إلى مغارة ولادة ربنا، وقد قيل سقط فيه نجم(٦٢)، وقيل أيضاً هناك حمّام العذراء مريم المباركة.

وبيت عنيا هو المكان الذي أقيم فيه لازاروس من قبل ربنا بعدما كان ميتا، وهذا المكان واقع على مسافة تقارب الميلين من المدينة نحو الشرق، على الجانب الآخر من جبل الزيتون، وهناك تقوم كنيسة القديس لازاروس، التي من الممكن أن نرى فيها ضريح عدد كبير من أساقفة القدس، وتحت المذبح المكان الذي غسلت فيه مريم المجدليه قدمي ربنا يسوع بدموعها، ومسحتهما بشعرها، وقبلت قدميه، ودهنتهما بالدهون.

وبيت فاجي هو المكان الذي أرسل منه ربنا حوارييه أمامه إلى المدينة، وهو قائم على جبل الزيتون، لكن نادرا ما يمكن رؤيته بشكل مطلق.

وأريحا هي المكان الذي خرج منه إبراهيم(٦٣)، وهي على مسافة حوالي العشرة مراحل من القدس، والمنطقة خصبة جداً بالأشجار،

وبجميع أنواع النخيل وكل أنواع الفواكه، وهناك بئر النبي الياس He-lisseus الـذي كان مـالـح الماء كثيراً، ولذلـك كـان غير قابـل للشرب، والمنطقة حولـه جرداء وبلا مزروعـات، لكنه تحول إلى الحلاوة (٦٤)، بعد ما باركه ووضع ملحاً فيه.

وتمضي من هناك صعوداً إلى جبل مرتفع حيث صام ربنا لمدة أربعين يوماً، وهناك على بعد ثلاثة أميال حيث حاول الشيطان فيها بعد إغواءه.

ويقع نهر الأردن على مسافة تقارب الأربع مراحل إلى الشرق من أريحا، ومن ذلك الجزء من الأردن وصولاً حتى البحر الأدرياتيكي (المتوسط)، أي إلى الميناء الذي يدعى يافا، تقع المنطقة التي تدعى يهودا، ويقوم على الجانب الآخر من الأردن العربية Arabia ، وهي منطقة معادية جداً للمسيحيين (الفرنجة)، وليست صديقة لكل من يعبد الرب، ويقع هناك الجبل الذي ذهب منه إيليا Helias إلى السماء في عربة من نار. ومن الأردن مسيرة ثمانية عشر يوماً إلى جبل سيناء، حيث تجلى الرب لموسى في نار العليقة المشتعلة، ثم صعده بعد ذلك، بناء على أوامر الرب، وصام أربعين يوماً والعدد نفسه من الليالي، وتسلم من الرب اللوحين من الحجارة، وقد كتبا باصبع الرب ليعلم بني ا سرائيل الشريعة والوصايا الموجودة في هذين اللوحين.

والخليل هي المدينة التي دفن فيها البطارقة المقدسين: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، وكل واحد منهم معه زوجته، وآدم الانسان المخلوق الأول، دفن هناك، وقبره قائم على مسافة أربع مراحل من بيت لحم نحو الجنوب، وهناك حكم الملك داود لمدة سبع سنوات قبل أن يستحوذ على مدينة القدس من أسرة الملك شاؤول، وكانت مدينة الخليل عظيمة جداً وجميلة للغاية، لكنها الآن مهدمة بوساطة المسلمين، وفي الجزء الشرقي منها آبدة البطارقة المقدسين، أقيمت في العصور القديمة ومحاطة بحاجز قوي، وكل واحد من القبور واسع بقدر كنيسة كبيرة، وفي داخله ناوسين،

واحد للـرجل والآخر لـزوجته، وهـم ممـددون بشكل مجيد وبـوضع مشرف، وإلى الـوقت الحاضر تملأ روائح البلسـم والعطور الثمينـة التي دهنـت بها الأجساد المقدسـة، خياشيم الذيـن يذهبون إلى هناك بشكـل طيب جداً، ودفنت عظام يـوسف — التي حملها بنـو اسرائيل، تنفيذا لما أوصاهـم به، فجلبـوهـا معهـم مـن مصر — بالأسفـل أدنـى مـن البقيـة في الطـر ف الأقصى من القلعة، ومـاتزال البلوطات اللواتي وقف إبـراهيم في ظلهن، ورأى الشباب الثـلاثة قادمين عبر الطريـق، حية، ويحملن أوراقـاً، وذلك اعتماداً على مـاقـاله السكـان المحليين، وذلـك ليـس بعيداً عـن القلعـة المذكورة أعلاه (٦٥).

والناصرة هـي مدينـة الجليل، وفيها تلقـت العذراء مريـم المباركـة من الملاك تحيات ميـلاد ربنا، وهي على مسافـة حوالي الأربعة أيام سفـراً من القدس، ويمـر الطريق إليهـا خلال شكيم، مدينـة السامرة، التـي تعرف الآن باسم نابلس، وفيها تسلم القـديس يوحنا المعمدان من هيرود الحكم بقطع رأسه، وهناك أيضـاً بئر يعقوب، الذي وصل إليه يسـوع وهو متعب من رحلتـه، فجلس إلى جانـب البئر المذكور، وطلـب إعطائه الماء ليشرب من امرأة سـامرية جاءت إلى هناك لنضح الماء، فلـم تعطه حسبما نقرأ في الإنجيـل(٦٦)، ومـن شكيـم يمكـن للانسـان أن يسـافـر إلى قيسـاريـة فلسطين، ومن قيسارية إلى حيفا Cayphas ومن حيفا إلى عكارون، وتقـع النـاصرة على بعـد حوالي الثمانيـة أميـال إلى الشرق مـن عكـارون (٦٧)، وكانـت مدينـة الناصرة شبـه مدمـرة وقد أصبـح عاليهـا سافلهـا بوساطة المسلمين، ومع ذلك فإن الـدير المشهور فيها يشير إلى مكان بشارة ربنا، ومايزال النبـع القائم قرب المدينة تتفجر منه الميـاه نقية، ومابرح — كما كان من قبل — محاطاً بأعمدة رخـامية وبـبلاط، ومن هذا النبع نضح الطفل يسوع مع أطفال آخرين الماء مراراً لاستخدام أمه.

وجبل الطور، هو الجبل الذي صعـده ربنا، وتجلى أمام بطرس، ويوحنا،

وجيمس، وهو واقع على مسافة تقارب الأربعة أميال من الناصرة باتجاه الشرق، وهو جبل كثير الأعشاب والأشجار، وهو قائم منتصب في وسط سهل الجليل الأخضر والعظيم الاستواء، وهو أعلى من جميع الجبال من حوله لمسافة بعيدة، وماتزال الديرة الثلاثة التي بنيت قديما على قمته قائمة، وأحد هذه الديرة مكرس على شرف ربنا يسوع المسيح، والثاني على شرف موسى، والثالث، وهو أبعد قليلاً، على شرف إيليا، ووفقاً لما قاله بطرس: « يارب جيد أن نكون هنا، فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة »(٦٨).

ويقع بحر الجليل أو بحر طبرية على مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال الشرقي، ومساحة هذا البحر عشرة أميال طولاً، وخمسة أميال بالعرض، ومدينة طبرية قائمة على الشاطيء في أحد الأطراف، وهناك في الطرف الآخر جرزيم وبيت صيدا، وهي مدينة أندرو وبطرس، ويمتد من طبرية سهل جنسار حوالي الأربعة أميال نحو الشمال، وهناك أظهر ربنا نفسه إلى حوارييه، عندما كانوا يصطادون، وذلك حسبما جاء في الانجيل (٦٩)، ومن جنسار وعلى مسافة تقارب الميلين إلى الشرق يقوم الجبل الذي أطعم عليه الرب خمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين، ويدعى ذلك الجبل من قبل السكان المحليين باسم مائدة الرب، وعند سفح هذا الجبل كنيسة القديس بطرس، وهي كنيسة جميلة جداً، مع أنها مهجورة، ومن الناصرة إلى قانا الجليل (كفر كنّا) — حيث حول ربنا الماء إلى خمرة أثناء حفل زواج — مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال، وهي قائمة على رابية، ولم يبق هناك شيئاً فيما عدا الدير الذي يدعى أرشيتركليني(٧١) Architriclini.

وفيما بين الناصرة وقانا الجليل، في منتصف الطريق قريه تدعى رومة، حيث يجري الترحيب بجميع الحجاج القادمين من عكا إلى طبرية، وتكون الناصرة على اليمين وطبرية على اليسار،ومن طبرية سفر يوم نحو

الشمال حيث جبل لبنان(٧٢)، فمن سفوحه تنبع مياه نهر الأردن من نبعين يدعى أحدهما « أر» والثاني «دن» وتلتقي مياه هذين النبعين، فتكونان نهراً سريع الجريان اسمه « الأردن»، وهذا الجبل قائم بجوار قيصريه مدينة فيليب (بانياس) التيرا آرخ Tetrareh (حاكم ولاية صغيرة)، وإلى أحوازها جاء يسوع وسأل حوارييه قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الانسان»؟(٧٣). وذلك حسب رواية الإنجيل، وجريان نهر الأردن من منبعه سريع جداً، ويصب في بحر الجليل في إحدى النهايات، ويفتح بقوة اندفاعه لنفسه ممرا عند النهاية الأخرى، ويستمر بالجريان مسافة ثمانية أيام ثم يصب في البحر الميت، ومياه الأردن بيضاء، وتشبه الحليب أكثر من شبهها جميع أنواع المياه، ومن الممكن رؤية ذلك وتتبعه طوال الطريق حتى البحر الميت.

وبعدما دخلنا إلى كل واحد من الأماكن المقدسة في مدينة القدس وأحوازها بقدر ما كان بوسعنا وقدمنا تعبدنا وتبجيلنا، صعدنا ظهر سفينة في يافا، في يوم عيد الحصاد، من أجل العودة إلى الوطن، لكن لخوفنا من المسلمين، لم نتجرأ على الابحار داخل عرض البحر الأدرياتيكي (المتوسط) كما فعلنا عندما قدمنا، ذلك أننا كنا خائفين من اسطولهم، ولذلك مررنا عبر مدن الساحل التي احتل الفرنجة بعضها، وأسماء هذه المدن هي: أقربها إلى يافا أتسوف Atsuph أو أزتوس Azotus في اللاتينية (٧٤)، ثم قدمنا إلى قيسارية فلسطين، وبعدها إلى مدينة كيفاس (٧٥)، ويمتلك هاتين المدينتين بلدوين الذي هو زهرة الملك، ويلي هاتين المدينتين مدينة أكراس، وهي مدينة حصينة جدا، واسمها أيضاً أكارون (٧٦)، ويأتي بعد هذا صور وسيغيت وهما صور وصيدون(٧٧)، وعقب هذا مدينة جيوبلت (٧٨)، ثم بيروت (٧٩)، وكذلك طرطوسا (٨٠)، التي يمتلكها الدوق ريموند، وبعد ذلك جيبل(٨١)، ثم طرابلس وبعدها ليك (٨٢)، وقد مررنا بهذه المدن وجزناها (٨٣).

وفي يوم الأربعاء التالي لعيد الحصاد عندما كنا مبحرين فيها بين حيفا وعكا فوجئنا بظهور ست وعشرين سفينة مسلمة أمام نظرنا، وكانت هذه السفن تابعة لأمير مدينتي صور وصيدا، وهي متوجهة نحو مصر، وتحمل جيشاً لمساعدة الفاطميين Chaldeans في حربهم ضد ملك القدس (٨٤)،، وتخلى عنا اثنتان من السفن التي جاءت معنا من يافا، وهما محملتان بالحجاج وتركتا سفينتنا لوحدها، لأنهما كانتا أخف من سفينتنا، وبوساطة جهود المجدفين وصلتا إلى قيسارية، وأبحرت السفن الاسلامية نحونا وطوقت سفينتنا، وتوقفت على بعد رمية سهم منا، وفرحوا بوقوع مثل هذه الغنيمة في أيديهم، وعلى كل حال كان رجالنا على استعداد للموت في سبيل المسيح، وحملوا أسلحتهم، وحصنوا سفينتهم بقدر ما سمح لهم الوقت، وأوقفوا الرجال المسلحين للدفاع عنها، فقد كان تحت إمرة قيادتنا حوالي المائتين من الرجال القادرين على الدفاع عنها، وبعد انتظار حوالي الساعة، وبعدما عقد مُقدّم الأعداء مجلساً حربياً، أمر واحداً من ملاحيه أن يصعد إلى أعلى صواري السفينة، فمن هناك كان بإمكانه التأكد مما كان يجري في سفينتنا، وما الذي كنا نقوم به، وعندما تفهم من الملاح قوة دفاعاتنا، حرك أشرعته وانطلق نحو البحر المفتوح، وهكذا انقذنا الرب، بفضل نعمته في ذلك اليوم من أعدائنا، وتمكن شعبنا من أهل يافا من الاستيلاء فيها بعد على ثلاث من هذه السفن نفسها، وأغنوا أنفسهم بأسلابها.

وأبحرنا على مقربة من ساحل سورية وفلسطين بقدر ما استطعنا، ووصلنا بعد ثمانية أيام إلى ميناء القديس أندريا Andrea في جزيرة قبرص، وأبحرنا من هناك في اليوم التالي نحو رومانيا (بيزنطة)، ومررنا بميناء القديس سمعان ثم بميناء القديسة مريم، ووصلنا بعد عدة أيام إلى ميناء أنطاكية الصغرى (٨٥)، وغالبا ما تعرضنا أثناء تلك الرحلة لهجمات القرصان، لكن بفضل الحماية الربانية لم نفقد شيئاً سواء من

جراء هجمات الأعداء أو من تقلب أحوال المناخ، ثم وجهنا مسارنا على طول خط ساحل رومانيا، ومررنا بمدينتي: ستاميرا (٨٦) Stamirra ، وباتراس Patras (أوبترا، وهي مدينة) القديس نيقولا، ووصلنا إلى جزيرة رودس قبل عشية عيد القديس يوحنا المعمدان (٨٧)، مع شيء من المصاعب، لأن خليج مدينة ساتالوس (٨٨) Satalus كاد أن يبتلعنا، لولا أن رحمة الرب قامت بالدفاع عنا، واستأجرنا في رودس سفينة أصغر حتى نتمكن من السفر بسرعة أكبر، وعدنا ثانية إلى رومانيا، ثم وصلنا إلى مدينة ستروملو (٨٩) Stromlo وهي مدينة جميلة جداً، وكانت مدمرة كليا من قبل الترك، وجرت اعاقتنا هناك لأيام كثيرة بوساطة رياح معاكسة قوية.

ثم وصلنا إلى جزيرة ساموس، واشترينا من هناك ما احتجنا إليه من المؤن الضرورية، وهذا ما كنا قد فعلناه في جميع الجزر، ثم لامسنا جزيرة سكيو Scio، وتركنا هناك سفينتنا وكذلك رفاقنا، وبدأنا رحلتنا إلى القسطنطينية، من أجل أن نصلي هناك، وعبرنا في اليوم التالي مدينة سميرنا العظيمة، ووصلنا إلى جزيرة ميتيلينا Metelina ، ثم إلى تنيت (٩٠) Tenit، وكان هناك في منطقة رومانيا فيما مضى مدينة طروادة القديمة جداً، وكانت خرائبها ماتزال تشاهد — حسب روايات الاغريق — مغطية مساحة أميال كثيرة.

ثم حولنا مسارنا، فقدمنا إلى جزيرة البحر الذي يدعى ذراع القديس جورج (٩١)، الذي يفصل فيها بين بلاد رومانيا وبلاد مقدونيا، وأبحرنا في هذا البحر فوصلنا إلى سينت فيموس Phemus ، وهنا صارت بلاد الاغريق على يميننا ومقدونيا على يسارنا، وتقوم مدينة الأسقف القديس فيموس على أحد جانبي الذراع في مقدونيا، بينما تقوم مدينة أخرى تدعى سامثي (٩٢) Samthae على الطرف الآخر في بلاد الاغريق، وعلى هذا فإن ثلاث رميات قوس عقار بإمكانها أن تحمل الرمية من

المدينـة الأولى إلى المدينـة الثـانيـــة، ويطلـق على هــاتين المدينتين اســم مفتاحي القسطنطينية، ثم أبحرنا إلى مدينة كاليبولي(٩٣)، وبعدها اجتزنا القديس جـورج وبانيادوس (٩٤) Paniados ، فسهل مقدونيا الشهير، ووصلنا إلى مدينة روثوستوك (٩٥) Rothosto ، وكان ذلك بعد عيد القديس ميكـائيل، ثم تحركنا من هناك فيها بعـد ووصلنا إلى راكليا (٩٦) Raclea ، وهــي مدينـة جميلة، ويـذكـر الاغريـق أن هيلين خطفت مـن هناك من قبل باريس الاسكندر.

حواشي رحلة حج سيولف

١ — باري.

٢— بارليتا.

٣— سيبونتوم ممثلة الآن بـ «مانفردونيا» التي على مقربة منها قرية اسمها زابونتا.

٤— تراني.

٥— أوترانتو.

٦— تقع مونوبولي على بعد حوالي العشرين ميلاً من باري، ولقد جرى تقدير رحلة اليوم الواحد بعشرين ميلا.

٧— انظر المدخل.

٨— برنديزي.

٩— كورفو.

١٠— ٢٤ تموز.

١١— سيفالونيا.

١٢— مات روبرت غويسكارد في جزيرة سيفالونيا سنة ١٠٨٥، وكان وقتها يعد العدة للهجوم على القسطنطينية.

١٣ — من المعتقد أن هذا الاسم تصحيف باليوبولس Palaeoplis ، أو هو اسم لمدينة قديمة ،وتقع خرائب اليس على بعد خمسة أميال داخل البر، وهناك على كل حال مكان يدعى باليوآخيا، في خليج بتراس، من الممكن أنه كان على الطريق المباشر.

١٤— غالبا ما دعيت الأماكن التي كان الوصول إليها يتم بحراً

باسم «جزر» من قبل بقية رحالة العصور الوسطى.

١٥— ٩— آب.

١٦— ليفادي أوستا تصحف إلى ليفادوسترو.

١٧— أعمال الرسل: ١٧/ ٣٤.

١٨— جزر بيتالي ليست بعيدة عن ماراثون.

١٩— قامت أندروس وتينوس، وسيرا وميكونوس وناكسوس كلها على الطريق إلى كريت.

٢٠— يبدو أنه أبحر على محاذاة جزر: أمورغو، وساموس، وسيكو، وميتايلين وهكذا إلى سميرنا، ثم رجع إلى باتموس وليرو، وكالمنو وكوس، (أوستانشيو) وليدو (التي لابد أنها غندوس قرب رأس كريو) وآسوم (لعلها جزيرة سيمي) وهكذا إلى رودس.

٢١— غلطة وقع فيها أكثر الناس معرفة.

١٢٢ ربما ماكرونيسوس أريد بها جزيرة كاكافا.

٢٣— المقصود هنا اسكندرونة السورية.

٢٤— كان القديس نيقولا من أبناء باتارا، وتسلم أسقفيه ميرا، وهناك توفي سنة ٣٤٢، وتم نقل رفاته إلى باري سنة ١٠٨٧، من قبل أحد التجار، الأمر الذي أحدث اثارة عظيمة في ايطاليا كلها، وكان قبره فارغاً عندما زاره سيولف.

٢٥— لعل جزيرة خيلدونيا هي نتوء بحري يحمل الاسم نفسه عند نهاية خليج فينيكا، وربما هي تسمية خطأ لـ «اكسندا كوبو».

٢٦— هناك مزج بين العملين : ١٣/ ٢— ٤ و ١٥/ ٢٢، وعمرّ

القديس برنابا بشكل عام طويلاً، وإذا كان القديس بطرس قد جلس على كرسي أنطاكية لمدة سبع سنوات، تبعا للقديس غريغوري الكبير، وخمس وعشرين سنة في روما، لابد أنه مضى إلى أنطاكية خلال سنوات ثلاث من صعوده.

٢٧— من شبه المؤكد أن دورمندي هي دور مونس، التي ذكر جيبون أن الامبراطور الكسيوس كومينوس امتلك فيها اسطولا جيداً، وقال: « كانت هذه الشواني الخفيفة العائدة للامبراطورية البيزنطية تمتلك صفين من المجاذيف، وفي كل صف خمسة وعشرين مقعداً، ووضع لكل مقعد مجذافين وصفت المجاذيف على جانبي السفينة ». (تدهور وسقوط — الفصل ٥٣).

وربما كانت الكاتي شبيهة بسفن النقل النروجية التي كان لكل منها مؤخرة ضيقة، ووسط عميق وهي ما تزال تعرف باسم كات.

ولعل الغولافري نوع من أنواع الشواني، لكن ليس من الهين شرح الاسم.

٢٨— ينبغي أن نتذكر أن بلدوين لم يكن ملكاً للقدس أكثر من عامين، وأن عكا وعسقلان كانتا ما تزالان بأيدي المسلمين، وتراجع رواية الراهب دانيال المقبلة فهو قدم رواية مماثلة بعد أربع سنوات.

٢٩— اسمها الآن باب يافا.

٣٠— انظر الرسمين التوضيحيين رقم / ١/ ورقم / ٢/ .

٣١— المزامير: ٧٤/ ١٢. انظر الرسم التوضيحي ٢/ ٧.

٣٢— يوحنا: ٢٠/ ١٥.

٣٣— حكت القديسة مريم المصرية بنفسها ماحدث فقالت: « تابعت المضي في طريقي الشرير حتى بلغت التاسعة والعشرين من

العمر، وشاهدت عدداً من الأشخاص متوجهين نحو البحر، فسألت إلى أين هم ذاهبون، وأخبرت أنهم كانوا على نية الاقلاع للسفر إلى الأرض المقدسة، للاحتفال بالقدس بعيد تمجيد الصليب الرائع، أي صليب مخلصنا (تأسس سنة ٣٢٥م).

فأقلعت معهم، متطلعة نحو فرصة جديدة للاستمرار في إغوائي، وكان الجميع في يوم العيد ذاهبين إلى الكنيسة، فاختلطت بالحشد لأذهب إلى الكنيسة، حيث عرض الصليب المقدس أمام المؤمنين لمشاهدته وتبجيله، لكن وجدت نفسي غير قادرة على دخول المكان ومعاقة من قبل قوة غير مرئية، وحدث هذا لي ثلاث مرات أو أربع، وتراجعت نحو زاوية الساحة وبدأت أقدر بنفسي ما سبب هذا وما هو مصدره، وقدرت عن جدّ أن حياتي الآثمة لابد أنها السبب، وانهمرت دموعي وشرعت أضرب صدري الآثم وأبكي وأنوح، وشاهدت هنا فوقي صورة لأم الرب، فثبت ناظري عليها، وخاطبت بنفسي العذراء المقدسة، ورجوتها الحصول على طهارة كاملة لضمان نفسي الآثمة والمحملة بثقل من الموبقات، والتمست منها التمكن من الدخول الى الكنيسة من أبوابها حتى أشاهد الصليب المقدس لمخلصي، واعدة من تلك اللحظة أن أكرس نفسي للرب في الحياة الحاضرة، آخذه إياها كفيلاً لي في هذا التغيير لحياتي، وبعد هذه الصلاة الصعبة شعرت بروحي بانفراج سري وزوال لحزني، وحاولت مجدداً الدخول الى الكنيسة، فدخلت إليها بكل سهولة وصرت في وسطها، وتمتعت وابتهجت بتعبدي للخشبة الثمينة للصليب الرائع الذي يجلب الحياة للانسان، وتقديراً مني — بناء عليه — لرحمة الرب التي لاتقدر، واستعداده لتقبل المذنبين حتى يتوبوا ، ألقيت بنفسي على الأرض، وبعدما قبلت البلاط بدموع نهضت ومضيت نحو صورة أم الرب، وجثوت هناك على ركبتي، ورجوت وساطتها وأن تكون دليلي، وبعدما أنهيت صلاتي، خيل إليَّ

سماع صـوت يقول: (إذا مـا ذهبت إلى مـاوراء نهر الأردن سوف تجديـن هناك الراحـة والمواساة)» وقد أمضت هنـاك سبعاً وأربعين سنة في أعمال التوبـة والاستغفار، وتلقت القـداس الأخير من القديـس زوسيموس Zo-simos قبل أن تتوفى في سنة ٤٣١. (انظر Actass, Bolland, IN2 (April

٣٤— انظر الرسم التوضيحي رقم ٢.

٣٥— تأسست رهبـانية الاسبتارية في سنة ١٠٩٩، بعـد انتخاب غود فري دي بوليون. وكان جيرارد، كـونت دي أفنسس أول مقدم أعظم لهذه الرهبانية، وغدت رهبانية عسكريـة في سنة ١١١٨، وكان مقرها قريباً من الضريح المقدس. (كنيسة القيامة).

٣٦— أعمال الرسل: ٣/ ١—٨.

٣٧— التكوين: ٢٨/ ١٧—١٨.

٣٨— يبدو أن سيـولف لم يكـن على دراية بـالعهد القـديم بقـدر ما كان متعمقـاً بالعهـد الجديد، فقـد قال قبـل قليل إن معنـى ايليا «بيـت الـرب»، ولعله مـزج هـذا مع «بيـت ايـل» التي معنـاهـا «بيت الـرب». وسنـرى حــول هـذا المزج في المستقبــل روايـات جــون أوف وورزبيرغ وثيودورك، وفوكاس.

٣٩ —أعمال الرسل: ٣/ ١١؛ ٥/ ٢١.

٤٠— لوقا: ١/ ١٣.

٤١— لوقا: ٢/ ٢٨.

٤٢— لوقا: ٢/ ٤٦.

٤٣— متى: ٢١/ ١٣.

٤٤— يوحنا: ٢/ ١٩.

٤٥— يوحنا: ٨/ ٥٩.

٤٦— يوحنا: ٨/ ٣.

٤٧— انظر انجيل جيمس الأبوغرفاوي — الاصحاح: ٤.

٤٨— متى: ٢١/ ١٥.

٤٩— يوحنا: ٥/ ٢، الخ.

٥٠— متى: ٢٦/ ٣٦،الخ.

٥١— لوقا: ٢٢/ ٤١— ٤٤.

٥٢— يوحنا: ٩/ ١٧.

٥٣— أعمال الرسل: ١/ ١١.

٥٤— يبدو أن سيولف كان دليله في البداية سريانيا، غير أنه عندما تعرف على الجليل الصحيح أضاف هذا الايضاح وبين أن قانا هي في الجليل.

٥٥— يوحنا: ٢١/ ٣—٤.

٥٦— متى: ١٥/ ٣٢— ٣٨. «سبعة أرغفة وقليلاً من السمك».

٥٧— يوحنا: ٢٠/ ١٩.

٥٨— يوحنا: ٢٠/ ٢٧.

٥٩— في سنة ٤١٥، من قبل الكاهن لوسيان في كافا جمالا على نحو عشرين ميلاً من القدس (انظر: تلمونت Tillemont. ج٢ ص ٥، الخ). وكرس تاريخ الثالث من آب تخليداً لهذه الحادثة، وكان أبيباس

ابن جماليل.

٦٠— اكتشفت هذه الخرائب مع بلاط فسيفسائي جميل لهذه الكنيسة أو لواحدة مجاورة لها في سنة ١٨٨١، من قبل الميجر كوندر.

٦١— في الدير الأخير أمام الراهب دانيال ووجد راهبا كان دليلاً أفضل من السرياني الذي رافق سيولف، وتبعاً للراهب دانيال لقد كان دير القديس يوثيموس هو الذي تخرب. توفي القديس سابا في ٥— كانون أول سنة ٥٣٢ عن عمر ٩٤ سنة.

٦٢— لابد أن السريان بذلوا جهداً كبيراً لاقناع سيولف بهذه الحكايات، ومع هذا روى الحكاية نفسها جون ماندفيل في سنة ١٣٢٢.

٦٣— انظر التكوين: ١٣/ ٣. وفي ١٣/ ١٠ مقارنة هذا السهل مع الفردوس.

٦٤— الملوك: ٢/ ٢/ ٢١— ٢٢.

٦٥— التكوين: ١٨/ ٤.

٦٦— يوحنا: ٤/ ٦—٧.

٦٧— عكا.

٦٨— متى: ١٧/ ٤.

٦٩— يوحنا: ٢١/ ٤.

٧٠— هناك حجرة تدعى «حجرة المسيح» موجودة على قرني حطين.

٧١— أرشيتركليني تعني «بيت حاكم العيد».

٧٢— جبل الشيخ (حرمون).

٧٣— متى: ١٦/ ٣—.

٧٤— أرسوف.

٧٥— حيفا.

٧٦— عكا.

٧٧— صور وصيدا.

٧٨— جبيل.

٧٩— بيروت.

٨٠— طرطوس. وقد استولى عليها ريموند كونت طولوز في ١٢ — آذار سنة ١١٠٢، وقد توفي أثناء حصار طرابلس في حوالي سنة ١١٠٨.

٨١— جبلة.

٨٢— اللاذقية.

٨٣— الترتيب ينبغي أن يكون: يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. عكا. صور. صيدا. بيروت. جبيل. طرابلس. طرطوس. جبلة . اللاذقية.

٨٤— كانت الخلافة الفاطمية قد أرسلت حملة في هذه الآونة للتفريج عن عسقلان التي كان الملك بلدوين يحاصرها، وكان العرب في هذه الآونة يقاتلون في الجزيرة مدينة الرها، وكانوا قد هزموا تانكرد مع الصليبيين عند حران، وأسروا كل من جوسلين وبلدوين دي بورغ، وكان الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد محصوراً في أنطاكية، وقد نجا منها بتظاهره با لموت.

٨٥— كانت هناك بلدة على الساحل قرب جبل كراغوس، تدعى أنطاكية الصغرى.

٨٦— مايرا MYRA .

٨٧— ٢٣ — حزيران.

٨٨— هي أضاليا الحالية، انظر أعمال الرسل: ١٤/ ٢٤.

٨٩— هي الآن سترانبالي Stranpali.

٩٠— تينيدوس Tenedos.

٩١— مضيق الدردنيـل، وقد دعا آسيا الصغـرى باسم بلاد الاغـريق ورومـانيا ، وفي هـذا اشارة فقـط إلى الأماكـن التـي كانـت ماتـزال تحت حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية.

٩٢— كان هنـاك عذراء قديسة اسمهـا يوفيميا هلكـت في خلقيدون بأعمال تعـذيب ديـوكلشيان وفي كنيستها الكبرى (بـازيكليا) عقـد مجمع خلقيدون المسكوني، وعلى اسمهـا كرست عدة كنـائس في القسطنطينية ، ومن الممكن أن مـدينة كرست على اسمها حيث تقـوم الآن قلعة أوروبا، في حين إن سامثي (ربما المقصـود هو ايناني أو ايناثـي) تقوم الآن حيث قلعة آسيا على الطرف الآخر من مدخل الدردنيل.

٩٣— غاليبولي.

٩٤— بانادوس.

٩٥— رودوستو.

٩٦— اراكيا، من قبل هرقليا .

رحلة حج الراهب الروسي دانيال
(١١٠٦ — ١١٠٧)

مدخل

يعود تاريخ رحلات حج الروس إلى الأرض المقدسة إلى أواخر القرن العاشر، عندما تحول الروس إلى المسيحية، وهناك ايماءة مبكرة، يعود تاريخها إلى ١٠٢٢، وردت في ترجمة القديس ثيودوسيوس من كييف، إلى وجود حجاج روس في فلسطين، لكن أول المعروفين من هؤلاء هو القديس فارلام Varlaam الذي كان راعياً للدير في كييف، وأنه زار القدس سنة ١٠٦٢م، وأقدم رواية حج روسية إلى الأرض المقدسة وصلتنا هي رواية حج دانيال الذي كان راعي دير روسي، وهو لانعرف شيئاً مؤكداً حوله، ويمكن أن نستخلص من اشارته الى نهر سنوف Snov ،على أنه نهر يمتلك كثيراً من سمات نهر الأردن،على أنه جاء من منطقة تشيرنغوف Tchernigov، في روسيا الصغرى ، التي يجري فيها نهر سنوف، ومن المفترض أنه كان دانيال نفسه الذي كان أسقف سورييف Suriev في١١١٥، والذي توفي في ٩- ايلول ١١٢٢م.

وكان دانيال معاصراً لنصطور،الذي هو أقدم صاحب حوليات روسية،وروايته هي واحدة من أعظم الوثائق الروسية أهمية مما يعود الى بداية القرن الثاني عشر ،ويبدو أن سماتها الأصلية أكسبتها شعبية واسعة جداً ،حيث هناك مايزيد على خمس وسبعين مخطوطة منها ،أقدمها تاريخه ١٤٧٥. ومن الممكن تحديد تاريخ الحج بشيء كبير من اليقين، باستخراجه من مواد دانيال نفسه، فهو قد أتى على ذكر الدوق الروسي الأعظم ميخائيل سيفا توبولك اشعياسلافووتشMichel Sviatopolk Isiaslavowitsch (١٠٩٣ — ١١١٥)، وبلدوين ملك القدس (١١٠٠ — ١١١٨)، وذكر أيضاً أن عكا كانت بحوذة الفرنجة، وبما أنه

تـم الاستيلاء على هـذه المدينة في ٢٦ — أيـار ١١٠٤، لابـد أن تاريـخ الرحلـة كان فيما بين ١١٠٤ و ١١١٣. ومـن الممكن اجـراء تدقيـق أكثر، فقد حدثنا دانيال أنه رافق بلدوين في حملته ضد دمشق، ويعتقد أن هذه الحملة وقعـت فيما بين ١١٠٦ و١١٠٨، ومرة أخـرى تحدث عن الهجمات التي تعـرض لها الحجاج من قبل مسلمـي عسقلان، وأتى وليـم الصوري على ذكـر إحـدى هذه الهجمات على فـرنجـة كـانـوا يعبرون من يـافـا إلى القـدس سنـة ١١٠٧ (تـاريـخ أعمال أنجزت فيما وراء البحـار — ط. باريس ١٨٧٩ ج١ ص ٣٨٤)، وينبغي أن نلاحظ أخيراً، أنه في اللحظة التـي يصف فيهـا دانيال احتفـال النـور المقدس، ليـس هناك اشـارة إلى بطريرك لاتيني، وأن واحداً من الأسـاقفة احتل هذا الموقع، أي أن فولتشر أوف تشارتـرز جرى تعيينـه لمنصب البطركيـة، ومامن أحـد يعرف بـوجود بطـريرك لاتينـي بالقـدس أثناء فصـح سنة ١١٠٧، لأن دوغـوبرت تـرك المدينة في سنة ١١٠٣، وأن ايبريمار Ebremar ، الذي كـان وكيله أو بديلـه أخذ الطريق إلى رومـا في نهاية سنة ١١٠٦، وعلى هذا كـان اسبوع الفصح الذي أمضاه دانيال في القدس، لابد أنه كان اسبوع عام ١١٠٧، وأن حجه ربما كان فيما بين سنتي ١١٠٦ و ١١٠٧م.

والميدان الـواسع الذي تغطيـه رواية دانيـال، أوسع من الميـدان الذي غطته رحلـة الحج المتقدمة، فضلاً عـن هذا تلقي التفاصيـل الكثيرة التي تقدمها، الضـوء على أوضاع البلاد بعيد عدة سنوات مـن الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، ثم إن المصداقية التي كتبت فيها تعطيها قيمة أكبر، لم تكن مـلاحظة من قبـل، وسافـر دانيال بشكل مكثـف في فلسطين غربي الأردن، وزار معظم الأماكن المقدسة والمعـابد والأديرة، ولأنه زود نفسه في كل مكان بـأفضل الأدلة، لقد كتـب وصفاً دقيقاً لكل مـارآه، وذكر هو في رحلته أنـه لم يصف شيئـاً لم يره بعينيه، وهـذا مؤيد مـن خلال الشـواهد الداخليـة في روايته، لأنه عنـدما لم يستطع زيـارة مكان ما، ذكـر بصراحة

أنه اعتمد على الآخرين بالنسبة لمعلوماته، وبالمناسبة ألقى الراهب الروسي بعض الأضواء الغريبة على الأوضاع غير المستقرة للبلاد، والمخاطر التي كان المسافرين يتعرضون لها على الطرقات خلال السنوات الأولى من تاريخ المملكة اللاتينية، ففي اللد على الطريق الرئيسي من يافا إلى القدس، اعتاد الحجاج على امضاء الليل في خوف عظيم من امكانية تعرضهم لغارات المسلمين من عسقلان، وغالباً مانشط قطاع الطرق على الطريق من القدس إلى أريحا، وكمنت جماعات مسلمة من عسقلان فوق التلال المكسوة بالغابات قرب بركة سليمان، بانتظار الذين كانوا يسافرون من بيت لحم إلى القدس، وكانت الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم مليئة بقطاع الطرق إلى حد أن دانيال ورفاقه توجب عليهم السفر تحت حماية واحد من المقدمين المسلمين، فما من أحد كان بإمكانه السفر من القدس إلى بحيرة طبرية بدون حراسة مسلمة، وهاجم المسلمون من بيسان الرحالة عندما كانوا يقطعون مخاضات الأنهار، وقتل المسلمون الفرنجة الذين كانوا يسافرون من جبل الطور إلى الناصرة، ولم يكن بالإمكان زيارة لبنان بسبب نشاط المسلمين، ونعلم من الرحلة أيضاً أن النمور وحمر الوحوش كانت ماتزال تعيش في براري يهودا، وأن الأسود بأعداد كبيرة كانت موجودة في أحراش وادي الأردن، وفي الوقت نفسه ازدهرت زراعة النخيل —التي اختفت— في مناخ أريحا وبيسان شبه الاستوائي.

وتنبع أهمية رواية دانيال أيضاً من كون أن كاتبها لم يكن فقط عضواً في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، بل راعياً لواحد من الأديرة، ولأنه كان كما هو مفترض رجلاً مثقفاً وفهيماً، وقد كتبت بروح تقية مؤمنة، كما هو متوقع من رجل هو رجل دين ارثوذكسي، وليس فيها أدنى أثر لروح عدوانية تجاه الديانة اللاتينية، ورافق دانيال أثناء حجه راهب من دير القديس سابا الأرثوذكسي «وكان رجلاً تقياً ومتقدماً بالسن، ومتمكناً من

معرفة الكتابات المقدسة»، وكان دانيال ضيفاً مرحباً به في عدد كبير من الأديرة الأرثوذكسية في أرجاء البلاد، وكانت تقاليد هذه الأديرة هي تقاليد الكنيسة الشرقية المحلية، التي أشار إليها سيولف، مع التقاليد السريانية الأخرى، ومن المؤكد أنه كان يعرف الأناجيل الأبوغرفاوية بأشكالها الاغريقية، ونقل من الانجيل الأبوغرفاوي المعزو إلى جيمس، الذي صدرت عنه كثير من التقاليد، وكانت العلاقة فيما بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية في هذه الآونة علاقة صداقة حميمة، ورفع ملك القدس الخلافات إلى رجال الدين الأرثوذكس وإلى رهبان القديس سابا ضمن ملاحظات هامة خاصة، وكان رجال الدين الأرثوذكس مسؤولين عن كنيسة القيامة، واحتفظوا بمفاتيح أبواب الضريح، وفي أثناء احتفالات الفصح وضعت المصابيح الأرثوذكسية على الضريح نفسه، في حين علقت المصابيح التي عادت إلى اللاتين فوقه، وهناك توافق بين وصف دانيال ووصف فولتشر أوف تشارترز (١١٠١م) لنزول الضوء ،أو النار المقدسة، فقد كان فولتشر حاضراً مناسبة الذكرى هذه، عندما لم تشعل النار المقدسة المصابيح حتى أحد الفصح، وكلاهما وصف اللهب بأنه كان وردي اللون، وذكر أن جميع الموجودين شاركوا الأرثوذكس بصراخهم «Kyrie Eleison»، وذكر دانيال أن الأرثوذكس واللاتين قرأوا قداس سبت الفصح مع بعضهم، وقال فولتشر بأن الفرنجة قرأوا كل مقطع باللاتينية أولاً، ثم قرأ الأرثوذكس المقاطع نفسها بالاغريقية، وجاء في الرواية الفرنجية عن الاحتفال بأن البطريرك هو الذي فتح باب الضريح، في حين جاء بالرواية الروسية أن الذي تولى ذلك واحد من الأساقفة اللاتين، ويتضح هذا الاختلاف بغياب البطريرك اللاتيني أثناء زيارة دانيال.

ومادة دانيال على العموم صحيحة، لكنه اقترف بعض الأخطاء أحياناً، وتظهر بعض أخطائه جهلاً بالكتابات المقدسة التي لم تكن

معتمدة لديه أو لدى دليله، الراهب المثقف من دير القديس سابا، ويمكن أن نعزو الأخطاء الجغرافية إلى جهل عام بتلك الحقبة، ومن هذه الأخطاء جعله كفر ناحوم على شاطىء البحر قرب الكرمل، وأن اللد هي الرملة وأن قيصرية فيليب (بانياس) هي قيسارية فلسطين، وأن السامرة هي نابلس، وأن باشان هي بيسان، وأن الأسقفيات العشر ديكابولس Decapolis كانت بلدة، وهناك أوهام أخرى، من الصعب أن نجد لها تسويغاً، من ذلك على سبيل المثال: الرواية الطريفة عن معركة قرب أريحا، توقفت خلالها الشمس عندما كان يوشع يتغلب على عوج ملك باشان، وقد قال بأن المعركة قد وقعت في بيسان، وكذلك مزج فيما بين مرقص: ١٦/١ — ١٨ مع ١٩/١ — ٢٠. هذا وقليل من الاعتماد يمكن أن يكون على المسافات والمساحات التي وردت في النص، وكانت نصوص الرحلات الرومانية قد أهمل استخدامها، والمسافات في هذه الرحلات هي تقديرية، بينما هي في رحلة راهبنا في غالب الأحيان مغلوطة بسبب تصحيفات لحقت بالنص أو أن النص كتب على سرعة، ومعلوماته غير كاملة، المهم أن الأخطاء كثيرة، وبالنسبة لإعطاء اتجاه الأماكن، اعتاد دانيال على اعتماد وضع الشمس في الانقلابين الشتوي والصيفي، وكان هذا الاستخدام من بقايا الأيام الخوالي، عندما كانت تقام حجرة اشارة لتسجيل أقصى انحراف للشمس نحو الشمال والجنوب، وكانت البهجة تعم عندما يتم الاعلان أن نقطة شروق الشمس بدأت تعود نحو الشمال.

وبدأ دانيال رحلته من القسطنطينية، فمنها ذهب بحراً إلى يافا، وقد زار على الطريق عدة أماكن مثل إفسوس وقبرص، ويبدو أن رحلته كانت بلا حوادث، واعتنى بشكل خاص بالمواقع التي دفن فيها مختلف القديسين والرجال المقدسين، وأتى على ذكر «الغبار المقدس» الذي ينبعث كل سنة من قبر القديس يوحنا، والصليب المعلق وسط الهواء

فوق جبل ترودوس في قبرص، ووصف الطريقة التي جمع بها صمغ الميعة في جبال ليكيا Lycia وسافر من يافا عبر اللد التي وجدها مهجورة، ثم مرّ بالنبي صموئيل، وقال هي أرماثم Armathem (راماثيم زوفيم Ramathaim Zopnim) ثم وصل القدس، ووقف في أعلى جبل سكوبوس، حيث شاهد المدينة المقدسة كاملة، فترجل من أجل الصلاة، ثم وقد امتلأ بغبطة عظيمة، تابع سيراً على الأقدام، فجاز بكنيسة وضريح القديس ستيفن، إلى باب يافا الحالي، حيث اعتاد جميع الرحالة على دخول القدس، في ظل القلعة، أيام حكم الفرنجة.

واتخذ الراهب مقراً له في الميتوشيا Metochia، أو «بيت الحجاج» في دير القديس سابا، قرب برج داود، وكان هذا الدير مشغولاً الآن من قبل الرهبان الأرثوذكس (الاغريق) الذين نجوا لتوهم من مقتلة عند دير القديس سابا — الآن مارسابا — الأكثر شهرة، والواقع خارج الأسوار، وزار بمساعدة دليل كان من رهبان الدير، الأماكن المقدسة، ووصفه لهذه الأماكن، قبل أن يقوم الفرنج بأية أعمال بناء ضخمة، مفيد جداً، وروايته أغنى من رواية سيولف الذي زار القدس قبله بأربع سنوات أو خمس، وذكر عدداً من الأماكن المقدسة الأقل شأناً مثل «مدفن ارميا» و«بيت أوريا» و«منازل يودس وبولص»، التي لم يرد ذكرها لدى الحاج الأنكلو ـ سكسوني، ووصفه لكنيسة القيامة والضريح المقدس ومجموعة الأماكن المقدسة حول القيامة جدير بالعناية، وكذلك وصفه لقدس الأقداس «قبة الصخرة»، ولقد ذكر بأن البناء تولاه واحد من قادة المسلمين اسمه آمور Amor وهو تصحيف واضح لاسم الخليفة عمر فاتح القدس، وتقدم الحكايات الطويلة التي جمعت حول قبر العذراء في وادي قدرون، وحول الكنيسة فوق جبل صهيون، التي من المفترض أنها كانت بيت القديس يوحنا الانجيلي شرحاً موضحاً لنوعية المعلومات التي قدمها الأدلاء المقدسيون في أوائل القرن الثاني عشر لحاج من حجاج

الكنيسة الشرقية.

وقام دانيال من القدس برحلتين: الأولى إلى الأردن، وبراري اليهودية، وكانت الرحلة الثانية إلى بيت لحم والخليل، حيث لم يكن الصليبيون قد بنوا بعد كنيستهم مع دير القديس شارتون Chariton، وبعدما عاد من الخليل إلى القدس حصل على أذن من الملك بلدوين سمح له بموجبه بمرافقة القوات التي كانت على وشك الانطلاق للهجوم على دمشق، بقيادة الملك نفسه، ويبدو أن الطريق الذي سارت عليه العساكر هو عبر: البيره، لُبَّن، نابلس، التياسير ثم بيسان، حيث كانت قد وقعت هناك بعض الأحداث المتعلقة بحياة ربنا، من ذلك شفاء الأعميين من أهالي بيسان، وزحف الجيش إلى جسرين كانا قريبين من ينابيع الأردن، وشكلت هذه الينابيع بالنسبة لدانيال نهرين هما «أر» و «دن» اللذان يصدران عن بحيرة طبريا، ويبدو أن الجسرين كانا على مقربة من النقطة التي يغادر فيها الأردن الآن البحيرة، حيث مازال بالإمكان رؤية آثارهما، ويعرفان باسمي: جسر السيد، وهو مخرب الآن، وقائم تحت نقطة لقاء النهرين: «أر» و«دن»، ثم يخرجان من البحيرة ويشكلان جزيرة اسمها «الكرك»، والموقع الوحيد المعروف لجسر آخر هو موقع «جسر المجامع»،لكن في هذه الحالة علينا أن نفترض أن النهرين اللذين التقيا هما الأردن واليرموك، وهما المعنيانِ بالذكر، وعندما عبر بلدوين الأردن، ذهب دانيال إلى طبرية، وأمضى هناك عشرة أيام في زيارة الأماكن المقدسة على حدود بحيرة طبرية، ويبدو أنه لم يستطع مغادرة أحواز البحيرة، وكان فقط قادراً على رؤية أطراف بحيرة الحولة، التي دعاها باسم بحيرة جنسارث Gennesareth ، ورأى الراهب الروسي بأن الأردن أول مخرجه من بحيرة طبريا، وقد لاحظ وجود جزء منه فوق البحيرة، وهو عريض عرضه عرض نهر، ويتدفق من بحيرة جنسارث، وذهب دانيال من طبرية إلى جبل الطور حيث سمع حكايات غريبة

حول كهف «ملكي — صادق»، وكانت الناصرة آنذاك بيد اللاتين، وكذلك قانا الجليل وعكا، وبعد ما ارتاح لمدة أربعة أيام في عكا، سافر جنوباً عبر حيفا وقيسارية ونابلس فبيت ايل إلى القدس.

وبعدما شاهد احتفال نزول «النور المقدس» في كنيسة القيامة، يوم سبت عيد الفصح لسنة ١١٠٧، بدأ الحاج الروسي رحلة العودة نحو وطنه، وبعدما سافر عبر دير الصليب، فعين كارم، بلد زكريا ومكان ميلاد يوحنا المعمدان، مر بعمواس التي كانت مهدمة من قبل المسلمين، ووصل إلى يافا، ومنها توجه إلى أرسوف، فقيسارية فحيفا، ومن ثم إلى صور، فصيدا، فبيروت، ولاندري إن كان نزل إلى بيروت أو إلى السويدية ميناء مدينة أنطاكية، وفي جميع الأحوال ساير الساحل عن قرب، وبعدما سلبه القراصنة أمام ساحل ليكيا قرب باتارا Patara ، وصل أخيراً سالما إلى القسطنطينية.

– ١٠٥٦ –

رحلة حج راعي الدير الروسي دانيال في الأرض المقدسة (حوالي: ١١٠٦— ١١٠٧)

أنا دانيال، راعي الدير الروسي، والعبد غير الجدير، والأقل بين الرهبان، شعرت بالضيق بسبب ذنوبي الكثيرة، وأعمالي الصالحة غير الكافية، فاستولت علي — أولا — فكرة رؤية مدينة القدس المقدسة مع أرض الميعاد، ثم استبدت بي الفكرة، وبت عديم الصبر مشتاقاً لرؤية الأماكن المقدسة: ولقد زرت الجليل كله، وجميع الأماكن المقدسة حول مدينة القدس المقدسة، التي مشى عليها المسيح ربنا بقدميه، وحيث أظهر نفسه بوساطة معجزات رائعة.

ولقد رأيت جميع هذه الأماكن بعيني الخاطئتين، وتفضل الرب برحمته بتمكيني من رؤية ما تطلعت بشوق منذ سنين طوال إلى رؤيته؛ اغفروا لي ياأخواني، ويا آبائي وياسادتي، أخطائي، وتجاوزوا عن جهلي وسذاجتي في الوصف (الذي أنا مقبل على القيام به) الذي سأقوم به لمدينة القدس المقدسة، في الأرض المباركة، والطريق الذي يقود إلى الأماكن المقدسة. وكل من قام بهذه الرحلة بتواضع وبخوف من الرب، لن يذنب بحق الرحمة الربانية، فلقد سرت على هذا الطريق المقدس، مع أنني لا أستحق ذلك، سرت بضعفي كله وبكسلي، بدون عائق، وسلمت نفسي لكل شر من الشرور، لكن أملي برحمة الرب وبدعواتكم لصالحي، أن سأنال عفو ربنا يسوع المسيح عن ذنوبي التي لاتعد ولاتحصى، ولقد وصفت الأماكن المقدسة بدون تفاخر بأي شيء جدير بالثواب، وهذا التفكير بالحقيقة بعيد عني، لأنني لم أفعل شيئاً جيداً خلال رحلتي، وفقط صدوراً عن حبي لهذه الأماكن المقدسة توليت كتابة ما رأيته بعيناي،وذلك حتى أتذكر كل ما سمح لي الرب برؤياه، دونما اعتبار لعدم

جدارتي، وخشية من مثل ذلك الخادم الكسول الذي دفن مهارات سيده دون ترجمتها إلى شيء نافع، قمت بكتابة هذه الرحلة للمؤمنين، من أجل أنهم لدى سماعهم لوصف الأماكن المقدسة، يمكنهم تصورهم في أذهانهم، ومن داخل أرواحهم، وبذلك يحصلون من الرب على الثواب نفسه مثل الذين زاروهم.

فلقد وصل كثير من الناس الأفاضل إلى الأماكن المقدسة، من خلال قيامهم بأعمال جيدة، والاحسان إلى الفقراء، وصلوها دون أن يغادروا أوطانهم، وبذلك جعلوا أنفسهم أهلاً لثواب أعظم من ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، وهناك بعض الناس الذين أنا مقدمهم، قد زاروا مدينة القدس المقدسة والأماكن المقدسة، فتفاخروا بأنفسهم وكأنهم قد فعلوا شيئاً جديراً بالثناء، وبذلك خسروا ثمار تعبهم، ومرة ثانية هناك آخرون قاموا بالحج، وعادوا دون رؤية كثير من الأشياء الثمينة، لتشوقهم بالاسراع بالعودة إلى وطنهم، لأن هذه الرحلة لايمكن القيام بها بسرعة، كما أنه من غير الممكن الاسراع بالمرور بجميع الأماكن المقدسة في القدس والمواقع الأخرى.

١ — *القدس ودير القديس سابا*

ثم وصلت أنا الراهب دانيال غير الجدير إلى القدس، ومكثت هناك ستة عشر شهراً في بيت حجاج دير القديس سابا، وبذلك كنت قادراً على زيارة وتفحص جميع الأماكن المقدسة، وليس من الممكن زيارة جميع الأماكن المقدسة وتفحصها من دون دليل جيد وترجمان، وبناء عليه دفعت كل ما كان بإمكاني دفعه من وسائلي المتاحة جائزة للذين كانوا على دراية كاملة بالأماكن المقدسة وقادرين على اطلاعي عليها، مع المواقع الأخرى، حتى أتمكن من رؤية كل تفصيل، وفي هذا المقام، وتبعاً له، كنت ناجحاً.

وبنعمة من الرب، وجدت في دير القديس سابا، رجلاً تقياً جداً، ومتقدما بالعمر، كان واسع المعرفة بالكتابات المقدسة، فقد حنن الرب قلب هذا الرجل المقدس ليحبني أنا غير الجدير، ولقد كان هو الذي أراني بعناية كبيرة جميع الأماكن المقدسة، في كل من القدس وجميع أرجاء البلاد، وأخذني إلى بحيرة طبرية، وإلى الطور، والناصرة، والخليل، والأردن، وعطفا منه علي، قادني— مع أنه عانى من تعب عظيم — إلى عدد كبير من الأماكن المقدسة، التي سأتحدث عنها فيما بعد.

٢ — *الطريق إلى القدس*

هذا هو الطريق الذي يقود (من القسطنطينية) إلى القدس، هناك ثلاثمائة فرسخ (روسي) من القسطنطينية إلى البحر الكبير، وسايرنا الشاطىء المتعرج، وقطعنا مائة فرسخ (كل فرسخ = ٥٠٠ر٣قدم) إلى جزيرة بيتالا Petala (مرمرة)، وهي أول جزيرة في البحر الضيق (بحر مرمرة)، ويقوم على هذا الطريق بلدة واسعة هي هرقلية (إيريغلي)، حيث يوجد ميناء واسع، وهناك مقابل هذه البلدة، زيت مقدس (اسفلت) ينبع من أعماق البحر، لأنه في هذه البقعة جرى اغراق كثير من الشهداء المقدسين من قبل معذبيهم.

ويقولون هناك مائة فرسخ من بيتالا إلى غاليبولي، وثمانين (الصحيح ثلاثين) من غاليبولي إلى بلدة أبيدوس، التي يقابلها مدينة دفن فيها القديس يوثيموس الأصغر.

ومن هناك إلى كرايت Criteمسافة عشرين فرسخاً، وبعدها يدخل الانسان إلى البحر الكبير، فينعطف نحو اليسار ليؤم القدس، ونحو اليمين إلى جبل (أثوس) المقدس، وسالونيك وروما.

وهناك ثلاثين فرسخاً من كرايت إلى جزيرة تندوس Tenedos، التي هي أول جزيرة يصلها الانسان في البحر الكبير، وهنا يرقد الشهيد

المقدس أفنوديموس Avnudimos.

وكان على الشاطىءالمقابل لهذه الجزيرة في الماضي بلدة كبيرة اسمها تراوس Troas (اسكي ستامبول)، وإليها قدم الرسول بولص للتبشير، وقد عمّد جميع المنطقة.

ويوجد مائة فرسخ فيما بين تندوس، وجزيرة ميتيلين Mitylene ، وهناك دفن مطران ميتيلين المقدس (القديس جورج ٨١٦م)، ومن هناك إلى جزيرة كيوس مائة فرسخ، وفي هذا المكان يرقد القديس ايزودور الشهيد، وتنتج هذه الجزيرة، اللبان، والخمور الجيدة، ومختلف أنواع الخضروات.

٣— مدينة إفسوس (عرب سوس)

يوجد ستين فرسخا من جزيرة كيوس إلى إفسوس، ويشاهد في إفسوس قبر القديس يوحنا الانجيلي، ويثور في يوم ذكرى موته غبار مقدس من قبره، حيث يجمعه المؤمنون ليكون شفاء من كل داء، وعلى مقربة منه هناك الكهف الذي ترقد فيه أجساد السبعة النائمين، الذين ناموا لمدة ثلاثمائة وستين سنة، فقد سقطوا نائمين أيام حكم الامبراطور ديكيوس Decius وأفاقوا في أيام الامبراطور ثيوديوس، ويوجد في الكهف نفسه (آثار) ثلاثمائة من الآباء المقدسين مع القديس الاسكندر، وضريح مريم المجدلية هو هنا أيضاً وكذلك رأسها، ويرقد هنا أيضاً الرسول تيموثي Timothy المقدس، الذي كان حواريا للقديس بطرس، داخل تابوت قديم، ومحفوظ في الكنيسة القديمة صورة العذارء المقدسة، ورفضت هذه الكنيسة مع أولئك (الآباء) المقدسين بدعة نسطور.

ويمكن للمرء أن يشاهد هنا أيضاً حمام ديوسكوريدس Dio-scorides حيث عمل القديس يوحنا الانجيلي مع بروكورس Proch-orus في بيت رومانا Romana ، ورأينا أيضاً الميناء الذي اسمه «الميناء

الرخامي»، حيث لفظ البحر القديس يوحنا الانجيلي، وقد بقينا هناك لمدة ثلاثة أيام.

وتقوم بلدة إفسوس بين الجبال، وتبعد عن البحر مقدار أربعة فراسخ، وفيها وفرة من كل شيء، وتعبدنا هناك القبر المقدس، ثم ارتحلنا من هناك مسرورين في ظل حماية نعمة الرب وصلوات يوحنا الانجيلي.

وهناك أربعين فرسخاً من إفسوس إلى ساموس، والبحر هناك مليء بالأسماك، والجزيرة خصبة جداً.

٤ــ جزيرة باتموس

لقد قدروا وجود عشرين فرسخاً من ساموس إلى جزيرة ايكاريا Icar-ia (نيكاريا الآن) ، ومن هناك إلى جزيرة باتموس Patmos ستين فرسخاً، وتقع هذه الجزيرة في طرف البحر، وهي الجزيرة التي كتب فوقها القديس يوحنا الانجيلي انجيله عندما نفي مع بروكورس؛ ثم جاءت جزر: ليروس Leros (ليرو) وكاليمنوس Calimnos (كالمنو) ونيسرا Nicera (نيسرو) وجزيرة كوس Cos (كوس KQs) ، التي هي واسعة جداً ومكتظة بالسكان، وغنية بالقطعان، وجئنا أخيراً إلى تيلوس Telos المشهورة بالنسبة لتعذيب هيرود، وتحتوي على كبريت يحترق، وهو يباع بعد تنقيته، ويستخدم لاشعال النار*، وبعيداً على مسافة من هناك جزيرة خرقيه (خلقي)، وجميع هذه الجزر مسكونة بالناس، وهي غنية بقطعان المواشي، وتبعد الواحدة عن الأخرى عشرة فراسخ أو أكثر، وجزيرة رودس أيضاً جزيرة كبيرة جداً، وخصبة جداً، وهنا أمضى الأميرالروسي أولغ، Oleg

---

*ــ الصحيح أن الينابيع الكبريتية في نيسيرو، وأخطأ الراهب حين ذكرهم في تيلوس.

شتائين وصيفين (١٠٧٩)، وهنـاك مائتي فـرسخ من سـاموس إلى جزيرة رودس، وستين فـرسخاً مـن رودس إلى مكـري Makri (تلمسوس Tel-messus القديمة على الساحل الجنوبي لـ «ليكيا»).

وتنتج بلدة مكـري هذه والمنطقة المحيطة بها امتداداً حتى مـايرا اللبان الأسود والميعة، وهـي تخرج من الشجرة بأشكـال مختلفة، وتجمع بوسـاطة آلة معـدنية حادة، وتدعـى الشجرة باسـم «زغيا Zygia » وهي تشبه شجرة الألدر Alder ، وهناك نوع آخر من الشجر يشبه الحور الرجراج، يدعـى «راكا Raka » ، وهناك حشرة كبيرة، مـن أكبر أنواع اليُسروع، تعيش في أسفـل الشجرة تحت الجذع، ويسقـط الغبار النـاجم عـن عمل الحشرة مثل الدقيـق على الأرض، مشكلاً صمغاً مثل صمـغ شجرة الكرز، ويجمع هـذا الصمغ ويمزج مـع ما تنتجه الشجـرة المتقدمة، ثـم يتم غلي الجميع داخـل وعاء نحـاسي، وبهذه الطريقـة يحضرون لبان الميعـة، ويباع إلى التجار داخل أوعية جلدية.

وقدروا وجـود أربعين فرسخـاً فيما بين مكري وبلـدة باتـارا، التي ولـد فيها القديـس نيقولا، فهي موطنـه وبلده، ومنها إلى مايـرا أربعين فرسخاً، ويحتوي هـذا المكان الأخير قبر القديس نيقـولا، وهناك ثلاثين فرسخـاً من بلـدة مايـرا إلى خلدونيـا Chelidonia (شيلـدان بورون في أقصـى خليج أضاليا) ومائتي فرسخ من هذا المكان إلى جزيرة قبرص الواسعة.

٥ــ جزيرة قبرص

هـذه الجزيـرة واسعـة جـداً، ومكتظـة بـالسكـان، وفيهـا جميـع أنـواع المنتجات، وفيهـا عشرين أسقفـاً، ومطران واحـد، ومالايمكـن عدّه مـن الآثار، فهنا يرقد القـديس ايبيفانوس Epiphanius (٣٨٢م)، والرسول برنابا، والقديس زينو، والقديس فيلا غريوس Philagrius وهو الأسقف الذي عمده بولص الرسول.

٦ — الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليباً

يوجد هنا جبل عظيم الارتفاع (اسمه جبل ترودوس Troodos) أقيم على قمته صليب من الخشب القبرصي من قبل الامبراطورة القديسة هيلانة (حنة) لطرد الأرواح الشريرة ولشفاء جميع أنواع الأمراض، ووضعت في الصليب واحداً من الأظافر المقدسة للمسيح، وظهر في هذه البقعة العديد من المعجزات وعملت هناك وعلى مقربة من الصليب، ومازال هذا يحدث حتى اليوم الحالي، وهذا الصليب معلق بالهواء دون أن يستند على أي شيء في الأرض، فهو مربوط من قبل روح القدس ومدعوم منها، وعبدت أنا الذي لا أستحق هذا الشيء المقدس والعجيب، ورأيت بعيني الخاطئتان النعمة الربانية الملقاة على هذا المكان، واكتشفت هذه الجزيرة بشكل دقيق وتعرفت إليها.

٧ — البلسم

وبخور البلسم موجود هناك، وهو ينزل من السماء ، وهم يجمعونه من الأشجار. وينمو كثير من هذه الأشجار فوق الجبال، وهي ليست أعلى من نباتات الأعشاب الطبية، فعلى هذه يسقط البلسم الجيد، ويكون هذا خلال شهري تموز وآب.

ويسافر الانسان بوساطة البحر مسافة أربعمائة فرسخ من قبرص إلى بلدة يافا، والمسافة من القسطنطينية إلى جزيرة رودس ثمانمائة فرسخ، ومن جزيرة رودس إلى يافا ثمانمائة فرسخ أيضاً، وبذلك تكون المسافة التي يتوجب على المرء عبورها بحراً إلى يافا ألفا وستمائة فرسخ.

ويافا ليست بعيدة عن القدس، وهي قائمة على شاطيء البحر، والرحلة منها إلى القدس تكون براً، والمسافة بينهما هي ثلاثين فرسخا، وهناك عشرة فراسخ فوق أرض منبسطة إلى القديس جرجس (اللد)، فقد بنيت هناك كنيسة كبيرة كرست على اسم القديس جرجس، وهي

تحتوي في داخلها على مذبح وضريح القديس الذي استشهد هناك، وهناك عدد كبير من الينابيع في هذا المكان، وعلى مقربة منها يأتي الحجاج للراحة ولإمضاء الليل في خوف عظيم، لأن المكان مهجور وليس بعيداً عن بلدة عسقلان، التي يخرج المسلمون منها فيقتلون الحجاج على طريقهم، وهناك خوف عظيم جداً من هذا المكان يدفع المرء إلى حد اللجوء إلى الجبال.

ويقدرون وجود عشرين فرسخاً من القديس جرجس إلى القدس، والطريق هو في منطقة جبلية وعرة، وهو طريق مخيف ومقلق جداً.

٨— *جبل النبي صموئيل*

هناك على مقربة من القدس، وعلى يمين الطريق من يافا، جبل مرتفع يحمل اسم أرما ثم Armathem (النبي صموئيل)، ويوجد على هذا الجبل قبر النبي صموئيل، وقد عثر عليه هناك، وكذلك قبر والده إلقانه Elkanah ، وقبر مريم المصرية، وكان المكان والقرية موطن هؤلاء الأشخاص المقدسين، والبلدة محاطة بسور، ولهذا دعيت باسم أرماثم.

٩— *القدس*

تقوم مدينة القدس المقدسة في واد وعر، وفي وسط جبال صخرية عالية، وأول شيء يراه الانسان عندما يقدم إلى المدينة هو برج داود (قرب باب يافا)، ثم إلى الأمام قليلاً جبل الزيتون، فقدس الأقداس (الصخرة)، فكنيسة القيامة التي فيها الضريح المقدس، وأخيراً المدينة بأكملها، وعلى بعد حوالي الفرسخ أمام القدس هناك جبل منبسط بعض الشيء، وهو الذي عندما يتم الوصول إليه يترجل كل مسافر، فيرسم علامة الصليب، ويتعبد القيامة المقدسة على مرأى من المدينة.

ويمتلىء كل مسيحي ببهجة عارمة لدى مشاهدته لمدينة القدس المقدسة، وتنهمر الدموع من عينيه بإيمان، وما من أحد يمكنه أن يختار

سوى البكاء عندما يرى هذه الأماكن التي طالما اشتاق إليها، حيث تحمل ربنا المسيح الآلام في سبيل محو ذنوبنا، وهكذا بعد الشعور بهذه البهجة تتم متابعة الرحلة إلى القدس على الأقدام.

وإلى اليسار، على مقربة من الطريق، تقوم كنيسة الشهيد الأول، القديس اسطفان، ففي هذا المكان رماه اليهود بالحجارة، وقبره مرئي هناك، وهناك أيضاً جبل صخري وعر انشطر وقت صلب المسيح ويدعى المكان جيهنا Gehenna (الجلجلة)، وهو على رمية حجر من سور المدينة.

ويدخل الحجاج بعد هذا مدينة القدس المقدسة، وهم ممتلئين بهجة من الباب القائم قرب بيت داود، ويتجه هذا الباب نحو بيت لحم، ويدعى باب بنيامين، ولدى دخول المدينة هناك طريق عابر لها، ويقود نحو اليمين إلى قدس الأقداس (قبة الصخرة)، وإلى اليسار نحو كنيسة القيامة الحاوية للضريح المقدس.

١٠ — كنيسة قيامة الرب

كنيسة القيامة ذات شكل دائري، وفيها اثني عشر عموداً من الحجارة الضخمة، وست سواري، ومبلطة بألواح رخامية جميلة جداً، ولها ستة مداخل، وشرفات مع ستة عشر عموداً، وتحت السقف، فوق الشرفات، جرى تمثيل الأنبياء بالفسيفساء كما لو أنهم أحياء، ومطوق أعلى المذبح بصورة المسيح بالفسيفساء، وهناك عند المذبح العالي تمثيل لآدم بالفسيفساء، ويمثل الفسيفساء فوق القوس صعود ربنا، وهناك «بشارة» بالفسيفساء على الأعمدة على جانبي المذبح، وقبة الكنيسة ليست مغلقة بأقبية حجرية، بل مشكلة من إطار مصنوع من العوارض الخشبية، وهكذا فإن الكنيسة مفتوحة بالأعلى، والضريح المقدس موجود تحت القبة المفتوحة.

وهاكم وصف الضريح المقدس: هو عبارة عن مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، ولها مدخل منخفض إلى درجة أنه من الصعب بالنسبة للانسان أن يمر من خلاله، وهو راكع على ركبتيه، وارتفاعه ليس كبيراً، وبالنسبة لمساحته فالطول يساوي العرض، وهو ليس أكثر من أربعة أذرعة، وعندما يدخل الانسان إلى المغارة بوساطة الممر الصغير، يمكن للانسان أن يرى على الجانب الأيمن نوعاً من أنواع المقاعد (نضد)، قدّ من صخرة الضريح، فعلى هذا النضد مدد جسد ربنا يسوع المسيح، وهو مغطى بالألواح الرخامية، ومن الممكن رؤية هذه الصخرة المقدسة التي يقبلها جميع النصارى، من خلال ثلاث فتحات صغيرة مستديرة، قائمة على أحد الجوانب،وهناك خمسة مصابيح زيتيه تحترق ليل نهار، وهي معلقة في ضريح ربنا، والنضد الذي رقد عليه جسد المسيح هو أربعة أذرعة بالطول وذراعين بالعرض، وذراع ونصف الذراع بالارتفاع، وعلى ثلاثة أقدام أمام مدخل المغارة هناك الحجرة التي جلس عليها الملاك الذي ظهر للنساء وأعلن لهن قيامة المسيح، والمغارة المقدسة مغطاة من الخارج برخام جميل، وهي قائمة مثل منصة، ومحاطة بإثني عشر عموداً من الرخام نفسه، ويعلوها برج جميل يقوم فوق الأعمدة، وينتهي بقبة مغطاة بألواح فضية مذهبة، تحمل في أعلاها تمثالاً فضياً للمسيح، على ارتفاع عادي، وقد وضع الفرنجة هذا التمثال ، وهذا البرج قائم تماماً تحت القبة المفتوحة، وله ثلاثة أبواب منفذة بصورة بارعة على شكل شعرية، وبوساطة هذه الأبواب يدخل الانسان إلى الضريح المقدس، وعلى هذا إن هذه المغارة ، هي التي تمثل ضريح الرب، وقد وصفتها تبعاً لشهادة السكان القدماء، الذين يعرفون الأماكن المقدسة بشكل دقيق.

وشكل كنيسة القيامة دائري، ومقاسها ثلاثين سغنس Sagenes (يساوي كل سغنس سبعة أقدام انكليزية) في كل اتجاه، وفيها حجر واسعة في الجزء العلوي يعيش فيها البطريرك، ووجدوا أن المسافة فيما بين

مدخل الضريح وجدار المذبح العالي تساوي اثني عشر سغنس، وخلف المذبح فيها وراء الجدار هناك «صرة الأرض»، وهي مغطاة ببناء على (قبته) تمثيل للمسيح بالفسيفساء مع هذا النص «يتخذ قدمي وحده مقياساً للأرض وللسماء».

١١ — *مكان مركز الأرض الذي صلب فيه المسيح*

هناك اثني عشر سغنس «من صرة الأرض» إلى المكان الذي صلِب فيه ربنا، وإلى النهاية، ومكان الصلب نحو الشرق، فوق صخرة مستديرة مثل رابية صغيرة، أعلى من ارتفاع رمح، ويوجد في ذروتها، في الوسط فتحه محفورة عمقها ذراع واحد، ومحيطها أقل من قدم، فها هنا نصب صليب ربنا.

وترقد تحت هذه الصخرة جمجمة آدم الانسان الأول، وفي الوقت الذي صلب فيه ربنا، وعندما أسلم الروح فوق الصليب تصدع حجاب الهيكل، وتفتت الصخرة وتبعثرت، وانفتحت الصخرة القائمة فوق جمجمة آدم، وجرى الماء والدم اللذان صدرا عن جنب المسيح نحو الأسفل من خلال الصدع فوق الجمجمة وبذلك تمت إزالة ذنوب البشر وغسلها، ومازال هذا الصدع موجوداً حتى هذا اليوم، ومن الممكن رؤية هذه الهبة المقدسة على يمين مكان الصلب.

١٢ — *الجمجمة*

ويحيط بهذه الصخرة المقدسة مع بقعة الصلب جدار، وهما مغطيتان ببناء مزين بفسيفساء رائعة، ويوجد على الجدار الشرقي تمثيل أشبه بالحياة لعملية صلب المسيح، لكن أعلى من الحجم الطبيعي، وعلى الجانب الجنوبي تمثيل رائع مماثل للنزول من الصليب، وهناك أيضاً بابين، ويصعد الانسان سبع خطوات إلى البابين، وخطوات كثيرة بعد ذلك، والأرض مبلطة برخام رائع، ويوجد دون مكان الصلب، حيث ترقد

الجمجمة بيعة صغيرة، مزينة بالفسيفساء بشكل جميل، وتعرف باسم الجمجمة، وفي هذا اشارة إلى مكان الجمجمة، والمسافة فيما بين بقعة الصلب ومكان النزول من الصليب خمسة سغنس، وفي جوار مكان الصلب، على الجانب الشمالي المكان الذي انتزع فيه رداء ربنا، وملاصق له البقعة التي وضعوا فيها على رأسه تاج الشوك، واستهزاءاً أو سخرية منه ألبسوه رداء ارجوانيا.

١٣ — *مذبح ابراهيم*

وملاصق لهذا المكان مذبح إبراهيم، الذي قدم عليه ذبيحة للرب، وذبح كبشاً عوضاً عن اسحق، وإلى هذا المكان نفسه الذي اقتيد إليه اسحق، تمّ حمل المسيح بمثابة أضحية، وصلب من أجل خلاص المذنبين، والمكان الذي ضرب فيه المسيح ربنا على الوجه يبعد سغنسان عن هذه البقعة، وثلاثة سغنس من هناك موقع السجن الذي دخله المسيح، وبقي فيه لبعض الوقت حتى حضّر اليهود الصليب ونصبوه، وهو الصليب الذي صلب عليه، وجميع هذه الأماكن موجودة تحت السقف نفسه، وإلى جانب بعضها، على الطرف الشمالي.

ويوجد خمسة وعشرين سنغس من سجن المسيح إلى المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب، والحربة، والاسفنجة، والقصبة، والمسامير، وتاج الشوك، ويقوم الضريح المقدس، ومكان الصلب، وجميع الأماكن المقدسة في منطقة مجوفة من الأرض، حيث ترتفع على الجانب الغربي أعلى الضريح المقدس ومن مكان الصلب، وليس بعيداً من هناك، فوق مرتفع هناك البقعة التي وصلت إليها العذراء المقدسة مسرعة وهي تتبع المسيح باكية، وخاطبته بالكلمات التالية وهي حزينة جداً في قلبها: « إلى أين أنت ذاهب يابني؟ لماذا أسرعت بخطاك؟ هل أنت مضغوط عليك لتصل إلى عرس آخر مثل ذاك العرس في قانا الجليل، يابني ويا إلهي؟ لاتذهب صامتا هكذا عني، عني أنا التي

ولدتك، قل كلمة لعبدتك».

وعلى كل حال عندما وصلت الأم المقدسة إلى ذلك المكان، ورأت من فوق أن ابنها قد تعرض للصلب، استولى عليها رعب شديد، وسقطت على الأرض، وغلبها حزنها وأساها، وبذلك تحققت نبوءة سمعان، فقد تقدم له أن قال متنبئاً للعذراء المقدسة: «هذا الطفل معين لسقوط ثم لرفع كثيرين في اسرائيل، ولسوف يخرق سيف روحك عندما سترين ابنك وهو يصلب» (لوقا: ٢/ ٣٤— ٣٥).

ووقف عدد كبير من أصدقاء يسوع ومعارفه في هذا المكان، ينظرون من بعيد، وكان بينهم مريم المجدلية، ومريم أم جيمس، وسالومي، وكذلك الذين قدموا من الجليل مع يوحنا وأم يسوع، وهكذا وقف جميع أصدقاء يسوع وأقربائه ينظرون من بعيد حسبما قال النبي متنبئاً: «وقف أصدقائي وأقربائي بعيداً عني».

وتقع هذه البقعة على بعد مائة وخمسين سغنس إلى الغرب من مكان الصلب، وتدعى «سبودي» Spudi التي ترجمتها «وجد العذراء المقدسة». وهناك الآن دير مكرس للعذراء المقدسة، ولكنيسته سقف من خشب.

١٤ — *برج داود*

وهناك مائتي فاثوم Fathoms (قامة) من هناك إلى برج داود وبيته، والبرج قائم حيث كان بيته، وهو المكان الذي نظم فيه النبي وكتب مزاميره، وقد بني بشكل غريب بأحجار ضخمة، وهو مرتفع كثيراً، وشكله رباعي، وهو متين شكله لايرام، وكأنه حجر واحد من أسفله إلى أعلاه.

ويحتوي على وفرة من الماء، وخمسة أبواب حديدية، وتقود مائتا درجة إلى قمته ويجري تخزين كميات هائلة من القمح في هذا البرج، ومن

الصعب جداً الاستيلاء عليه، ويشكل الدفاع الأساسي للمدينة، وهو محروس بعناية كبيرة، ولايسمح لانسان بدخوله إلاّتحت الاشراف، وبنعمة من الرب، سمح لي أنا غير الجدير كليا، بالدخول إلى هذا البرج المقدس مع اسد سلاف، فهو كان الوحيد الذي سمح له بالدخول معي.

١٥ — *بيت أوريا:*

وكان على مقربة من هذا البرج بيت أوريا، الذي سبب داود قتله حتى يستحوذ على زوجته، التي رآها وهي تستحم، وعلى رمية حجر من هذا البرج يوجد الآن« بيت حجاج» القديس سابا، وموضع الحمام من الممكن رؤيته حتى اليوم الحاضر.

ويبعد المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب المقدس عشرين سغنس إلى الشرق، وذلك على مقربة من مكان الصلب، وقد بني فوق الموقع كنيسة واسعة جداً، ولها سقف خشبي، وعلى كل حال لايوجد الآن شيء سوى كنيسة صغيرة، ويوجد باتجاه الشرق باب كبير، وهو الباب الذي أتت إليه مريم المصرية راغبة بالدخول إلى الكنيسة وتقبيل (الصليب)، لكنها منعت من الدخول بوساطة روح القدس، وبعدما استغاثت بالعذراء المقدسة، التي كانت صورتها في الرواق قرب الباب، كانت قادرة على دخول الكنيسة، وتقبيل الصليب المقدس، وخرجت من هذا الباب في طريقها إلى صحراء الأردن، وعلى مقربة من هذا الباب يمكن رؤية المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة إلى الصليب الحقيقي الذي رد إلى الحياة العذراء الميتة، وعلى مسافة قصيرة من هناك، بإتجاه الشرق، يوجد البراتوريوم Praetorium (عند النهاية الشمالية للحرم الشريف حيث كانت ثكنة عثمانية) إلى حيث جلب الجنود يسوع إلى بيلاطيس، فقام بيلاطيس هذا وغسل يديه وقال: « إني بريء من دم هذا البار». (متى: ٢٧/ ٢٤)، وجعل يسوع يتعرض للجلد ثم سلمه إلى اليهود، وهناك أيضاً السجن اليهودي، الذي أطلق

منه الملاك سراح بطرس الرسول المقدس في الليل، وكان حوش يهوذا الذي خان يسوع في هذه البقعة، وهي الآن مشعثة وملعونة، حيث ما من انسان يجرؤ على سكناها خوفاً من اللعنة، وعلى مسافة قريبة نحو الشرق نأتي إلى البقعة التي شفى فيها يسوع المرأة التي كانت تنزف دماً، وملاصق لهذا المكان الحفرة التي ألقى فيها النبي إرميا، وكان بيته هناك، وكذلك حوش الرسول بولص حينما كان يهودياً.

وعلى مسافةقصيرة من هناك باتجاه الشرق، وبعيداً بعض الشيء عن الطريق بيت يوشيم Joachim وحنة، وهناك تحت المذبح مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، فهناك ولدت العذراء المقدسة، وهناك أيضاً القبرين ليوشيم المقدس وحنة.

١٦ — *بركة الغنم*

ليس بعيداً عن رواق سليمان، توجد بركة الغنم، فهناك شفى المسيح المقعد، ويقوم هذا المكان إلى الغرب من بيت القديس يوشيم وحنة، وهو على رمية حجر منه، وملاصق له، باتجاه الشرق يقوم باب المدينة الذي يقود إلى جيسماني. (هو الآن باب ستي مريم).

١٧ — *كنيسة قدس الأقداس*

تقع كنيسة قدس الأقداس (قبة الصخرة) على بعد رميتي سهم من كنيسة قيامة المسيح، وداخل قدس الأقداس رائع ومزين بشكل فني بالفسيفساء، وفي الحقيقة جمالها لايمكن وصفه، وشكلها دائري، وخارجها مغطى بألوان جميلة جداً، ولروعتها لايمكن للمرء أن يوفيها حقها بالوصف، والجدران وكذلك الأرض مغطاة بألواح مَن الرخام الثمين، ويوجد تحت الإطار الدائري اثني عشر عمود حجري ضخم، وثمانية أعمدة أصغر، وهناك أربعة أبواب مغطاة بألواح من النحاس المذهب، وداخل القبة مزين بأشكال جميلة ورائعة من الفسيفساء، وفي

الخارج مغطاة بنحاس مذهب، ويوجد تحت هذه القبة نفسها مغارة قدت من الصخر، فهناك قتل النبي زكريا، وكان من قبل يمكن رؤية قبره وعلامات الدم، لكن ليس الآن، ومايزال هناك تحت القبة صخرة خارج المغارة، وعلى هذه الصخرة رأى يعقوب في منامه سلماً يصل إلى السماء، وملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وعندما أفاق يعقوب اصطرع مع الملاك وقال: « ما هذا المكان إلا بيت الله وهذا باب السماء» (التكوين: ٢٨/ ١٠— ٢٢)، وعلى هذه الصخرة نفسها رأى النبي داود ملاكاً واقفاً وبيده سيف مشهر يضرب به شعب اسرائيل، ودخل إلى المغارة وبكى وخاطب الرب بدعائه قائلاً: «يارب أنا الذي أخطأت.... وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟» (صموئيل : ٢/ ٢٤/ ١٧)، ومقياس الكنيسة ثلاثين سغنس بكل طريق، ولها أربع مداخل، ولقد جرى تدمير كنيسة قدس الأقداس، ولم يبق شيء من البناء القديم العائد لسليمان ما عدا الأساسات الأصيلة العائدة للهيكل التي بدأ داود بإرسائها، والمغارة مع الصخرة القائمة تحت القبة هما الأثران الوحيدان الباقيان من البناء القديم، لأن الكنيسة الحالية بنيت من قبل رئيس المسلمين الذي اسمه عمر.

١٨— *بيت سليمان*

وكان هناك أيضاً بيت سليمان، وكانت له واجهة كبيرة ذات جمال مدهش وعظمة، مغطاة بألواح رخامية، وهو قائم على أقواس، وكان مزوداً بصهاريج واسعة، وكانت المخادع مزينة بشكل فني بوساطة الفسيفساء، وبصفوف رائعة الجمال من الأعمدة الرخامية، وقامت القاعات فوق هذه الأعمدة بشكل بارع وأصيل، والبيت كله مغطى بالرصاص.

وباب هذا القصر مغطى بشكل جميل وفني بالرصاص، ومزين بالفسيفساء والنحاس المذهب، ويدعى «الباب الجميل»، وهنا شفى

بطرس ويوحنا المعـاق، ومايزال هذا المكان قائماً حتـى الآن قرب الباب، وهناك ثلاثة أبـواب أخرى، ويدعى الباب الخامس بـاسم باب الحواريين (الباب الذهبي)، وقـد بني بقوة وببراعة من قبل النبـي داود وهو مغطى بألـواح نحاسية مـذهبة، ومن الخارج مغطى بشكـل متين بوساطـة ألواح من الحديد، وهناك أربعـة مداخل لهذا الباب، وهي مع بـرج داود وحدها المتبقية مـن البلدة القديمة، والبـاقي هو جـديد، ذلك أن مدينـة القدس القديمة قد هدمت أكثر من مرة.

ومن هذا البـاب دخل المسيح إلى القدس عنـدما جاء من بيـت حنينا مع لازاروس الذي أقـامه من الموت، ويقوم بيت حنينـا في الشرق، مقابل جبـل الزيتـون، ومن هـذا الباب إلى كنيسـة قدس الأقـداس هناك مـائة وثمانية سغنس.

١٩ـــ قرية بيت حنينا

بيـت حنينا بلـدة ذات منطقـة صغيرة قـائمة في وادي خلـف الجبـل، وتبعد فرسخين عن القدس إلى الجنوب، ولـدى دخول الانسان من باب البلدة يـرى على اليمين مغارة، فيها قبر القـديس لازاروس، وهنـاك أيضاً زنزانة وقـع فيها مريضاً ومـات، وهناك أيضاً كنيسة كبيرة عـالية في وسط البلـدة كانـت مزينـة بالطـلاء بشكـل بهي، وقالـوا إنها تبعد اثنـي عشر سنغس عن كنيسـة قيامة لازاروس، القائمة إلى الغـرب من الكنيسة، بينما الكنيسة نفسهـا متجهة نحوالشرق، وخـارج البلدة، باتجاه الغـرب، هناك نبع ماء لطيـف، ينبع من مكان عميق تحت الأرض، ينزل إليـه بدرجات، وعلى مسافة فرسخ من بيت حنينـا، على جانب القدس، هناك برج، أقيم على البقعة التـي التقى فيهـا مرثـى بيسوع، وفي هـذا المكان أيضـاً ركب يسوع ظهر أتان بعدما أقام لازاروس.

٢٠ — *قرية جيسماني*

جيسماني قرية ملاصقة للقدس، وهي تحتوي على ضريح العذراء المقدسة، وهي قائمة فوق جدول قدرون في «وادي الدموع»، فبين نقطتي الصيف والشتاء تشرق الشمس في القدس.

٢١ — *أبواب المدينة*

على بعد ثمانية سنغس من أبواب المدينة المكان الذي حاول فيه اليهودي أوخونياس Okhonias أن يلقي أرضا من على النعش جسم العذراء المقدس الذي كان محمولاً من قبل الحواريين ليدفن في جيسماني، لكن الملاك قطع يديه بسيفه، ووضعهما على النعش، وكان هناك ديراً في هذا المكان فيما مضى،لكن جرى تدميره من قبل الكفار.

٢٢ـ *مكان ضريح العذراء المقدسة*

وقدروا وجود مائة سنغس بين هذا المكان وبين ضريح العذراء المقدسة، وهذا الضريح قائم في واد، داخل مغارة صغيرة قدّت من الصخر، مع مدخل منخفض إلى حد يصعب فيه على انسان واقف المرور فيه، وفي نهاية المغارة، أمام المدخل، يمكن للانسان أن يرى نضد صغير قدّ من الصخر، ففوق هذا النضد وضع الجسد المقدس لسيدتنا المقدسة جداً التي هي أم الرب، وقد قامت وانتقلت من هناك دون أن يلحقها فساد إلى الفردوس، وارتفاع هذه المغارة بقدر قامة رجل، وهي بعرض أربعة أذرع وبالطول نفسه، ويحمل واقع المغارة من الداخل منظر بيعة صغيرة، لها واجهة مغطاة بألواح رخامية جميلة، وكان مبني من قبل هناك كنيسة كبيرة بمناسبة صعود العذراء المقدسة بعد ما قامت فوق قبرها، والمكان في الوقت الحالي مشعث مخرب من قبل الكفار.

٢٣ــ الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه

يبعد الكهف الذي سلم فيه المسيح إلى اليهود من قبل يهوذا مقابل ثلاثين قطعة من الفضة عشرة سغنس عن ضريح العذراء المقدسة،وهو قائم على الجانب الآخر من جدول قدرون، عند سفح جبل الزيتون، وليس بعيداً عن هذه البقعة، باتجاه الجنوب،، وعلى رمية حجر،يقوم المكان الذي أمضى فيه المسيح الليلة التي سلم بها لليهود ليصلب، وهناك صلى لأبيه وقال:« يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس» (متى: ٢٦/ ٣٩)، ويقوم الآن في هذا المكان كنيسة صغيرة. وعلى بعد مقدار رمية سهم يوجد قبر يهوشافاط، وكان ملكاً لليهود، ولهذا السبب يُدعى هذا الوادي باسم وادي يهوشافاط.

وفي الوادي نفسه أيضاً ضريح القديس جيمس أخو الرب.

ويقع جبل الزيتون إلى الشمال الشرقي من القدس، وهو جبل مرتفع جداً، عندما يتسلقه الانسان من جهة جيسماني، والمسافة أكثر من ثلاث رميات سهم، لكن من جيسماني إلى الأب نسطور رمية سهم واحد.

٢٤ــ المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حوارييه

جرى بناء كنيسة كبيرة في هذا المكان، ويوجد تحت المذبح كهف علم فيه المسيح حوارييه الصلاة للرب، ومن هنا إلى قمة جبل الزيتون، حيث حدث صعود الرب، مسافة تسعين سغنس.

٢٥ــ جبل الزيتون

المكان الذي حدث فيه صعود ربنا قائم فوق قمة جبل الزيتون، ويوجد على الجانب الشرقي رابية صخرية صغيرة، كان فوقها صخرة مستديرة، ارتفاعها أعلى قليلاً من ركبة الانسان، ومن فوق هذه الصخرة صعد ربنا المسيح إلى السموات، وهذا المكان المقدس مغلق بشكل

دائري، ومبلط بـألواح رخـامية، ومحاط بغـرف على شكل أقبيـة، وبني في وسـط داخل الفنـاء بيعـة دائرية صغيرة، وهـي مكشـوفة للسماء وبـدون بلاط، وتحت هـذه القبة المفتوحـة تقوم الصخرة التـي وقفت عليها قـدما ربنا ومعلمنا، وقد بنـي فوق هذه الصخرة مذبح من ألـواح الرخام، وإنه هنـا في هذا المكـان يترأسون الآن القـداسات، وتقـع هذه الصخـرة تحت المذبح المقـدس، وهي مغلفه بـالرخام، وبذلـك يمكن للانسـان أن يرى الجزء العلـوي منهـا وهـو الذي يقبلـه المسيحيـون، وللبيعـة بـابين، وعلى الانسـان أن يصعد اثنتين وعشريـن درجة حتـى يصـل إلى مكان صعـود الرب.

ويشرف جبل الزيتون على القدس، ومـن على ذروته يمكن للانسان أن يرى كـل شيء في المدينة: قـدس الأقداس، وجميـع المنطقة امتـداداً حتى بحر سـدوم، والأردن، لابل حتـى إلى ما وراء النهر، وذلـك بقدر مـا جبل الزيتون هو أعلى الجبال قرب القدس.

٢٦ — *مدينة القدس*

القدس مدينة كبيرة، ومحاطة بأسوار متينـة، وقد بنيت على شكل مربع، أطرافـه الأربعة متساويـة الطول، وهي محاطـة بعدد مـن الوديان الـوعرة، والجبـال الصخـرية، وهـي مكـان بـلا مـاء تماماً، ولايجد الانسـان قـرب القدس، لانهر، ولا آبار، ولاينابيع، اللهم باستثنـاء بركة سلوان، وبناء عليه لايتملك سكـان البلدة مـع قطعانهم سوى مـاء المطر لـلاستخدام، وعلى الرغـم من ذلـك ينمو القمـح بخصب في تلـك المنطقة الصخـرية التـي تفتقر إلى المطـر، لكن بفضـل رضا الـرب ورحمته مـواسم القمـح والشعير ممتازة، ففـي بزر مكيـال واحد يحصـد الانسان تسعين ضعفـاً أو مائة. أو ليست مباركـة الرب ملقاة فوق هذه الأرض المقدسـة؟ وفي أحواز القدس هنـاك وفرة مـن الكروم، وأشجـار الفـاكهة، وشجـر التين، وشجر الجميـز، وشجر الزيتون، وشجر الخروب، وما لايحصى عدّه من الأشجار الأخرى.

ويوجد فوق جبل الزيتون، في الجانب الجنوبي، قرب مكان الصعود، كهف عميق يحتوي على قبر القديسة فيلاجيا Pelagia المحظية، وعاش هناك رجل عمودي ومستقيم جداً.

٢٧— *الطريق الذي يقود إلى الأردن*

يمر الطريق إلى الأردن فوق الجانب الشمالي الشرقي من جبل الزيتون، وهذا الطريق متعب جداً وخطير، ومعدوم الماء، وغالبا ما يطرأ قطاع الطرق على هذه الجبال الصخرية المرتفعة والشعاب المخيفة.

وقالوا هناك ستة وعشرين فرسخاً من القدس إلى الأردن، بما في ذلك خمسة عشر إلى كوزيبيا (دير القلط)، حيث صام القديس يوشيم بسبب عقمه، وهذا المكان هو إلى جانب مجرى مسيل قرب الطريق وعلى اليسار.

ومن كوزيبيا إلى أريحا خمسة فراسخ، ومن أريحا إلى الأردن ستة فراسخ كبيرة، وذلك عبر سهل رملي صعب، هلك عليه كثير من الحجاج بسبب الحرّ والعطش، وليس بعيداً عن هناك بحر سدوم الذي يصدر أبخرة محرقة ويحيط به جو منتن، مما يسبب دماراً لجميع المناطق المجاورة، وقبل الوصول إلى الأردن تأتي إلى دير القديس يوحنا المُبَشِّر، وهو قرب الطريق، وقائم فوق جبل.

٢٨— *جبل حرمون*

يقع جبل حرمون على مسافة تقارب العشرين سغنس من الدير، وهو على يسار الطريق، وهو هضبة رملية، صغيرة وليست كبيرة، والمسافة من حرمون إلى دير القديس يوحنا القديم هي رميتي سهم واسعتين، وكان هناك أربع كنائس واسعة مكرسة للقديس يوحنا المبشر.

٢٩— *المكان الذي رآه فيه البحر وهرب وحيث ينعطف الأردن عائداً*

هناك ليس بعيداً عن هذه الكنيسة، وفوق مرتفع على الجهة الشرقية،

بيعة صغيرة فيها مذبح، ويبين هذا المكان الذي تولى فيه يوحنا المُبَشِّر تعميد ربنا يسوع المسيح، ويصل الأردن إلى هذه البقعة، وعندما رأى خالقه مقترب للتعميد، ترك مجراه، واستدار مرعوبا عائداً ،وكان بحر سدوم فيما مضى يصل حتى مكان التعميد، لكنه الآن على مسافة تقارب الأربعة فراسخ، وعلى هذا رأى البحر الرب عارياً في وسط مياه الأردن، فهرب مرعوباً ، واستدار نهر الأردن عائداً حسبما قال النبي: «لماذا هربت أيها البحر؟ وأنت أيها الأردن لماذا استدرت عائداً»؟ (المزامير: ٦٤/ ٥).

٣٠— المكان الذي عُمد فيه المسيح

يبعد المكان الذي تعمد فيه المسيح عن نهرالأردن مسافة رمية حجر صغير من قبل الانسان.

٣١— مكان الاستحمام

هنا « مكان الاستحمام» في نهر الاردن، وهنا يستحم جميع المسيحيون الذين يزورون البقعة، والمخاضة التي تقود إلى العربية قائمة هنا فوق الأردن، ففي هذا المكان نفسه تقدم لمياه الأردن أن التفت عائدة، فيما مضى من الزمن أمام الاسرائيليين، ويمر جميع الناس فوق أرض جافة، وهنا أيضاً ضرب اليسايوس Elisaeus الماء بعباءة اليـاس، وعبر الأردن على أرض جافة، وهنا أخيراً عبرت مريم المصريه الماء لتتسلم القربان المقدس من الأب زوسيموس Zosimus، وبعدما تسلمت جسد المسيح عادت عبر الطريق نفسه إلى الصحراء.

٣٢— الأردن

نهر الأردن نهر سريع: الضفة على الطرف الأقصى المقابل جرفية منحدرة جداً، وعلى هذه الجهة منبسطة، والماء متوحل كثيراً، لكنه مقبول الطعم، ولايستطيع الانسان أن يشرب كثيراً من هذا الماء المقدس، لأنه

لايضر، ولايعكر المعدة.

ويشبه نهر الأردن في كل مجال نهر سنوف، فله العرض نفسه والعمق،وله التعرجات نفسها والمجرى السريع، وعمقه أربعة سغنس في مكان الاستحمام فأنا جربت ذلك وقسته بنفسي، وعبرت إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن وتجولت طويلاً هناك، وعرض نهر الأردن، هو عرض نهر سنوف نفسه عند مصبه، وعلى هذا الطرف من الأردن، قرب مكان الاستحمام هناك نوعاً من أنواع الغابة ذات الأشجار الصغيرة، مثل الصفصاف، وبعيداً على محاذاة الشاطيء هناك نوعاً من أنواع الشجيرات ليست مثل الموجود لدينا، لكن أكثر شبهها بصفصاف الصحراء، وهناك أيضاً الكثير من القصب، والخلجان الصغيرة الكثيرة، كما الحال في نهر سنوف، والحيوانات البرية كثيرة، والخنازير الوحشية كثيرة جداً، وهناك كثير من النموروالأسود، وعلى الطرف الآخر من الأردن، بعيداً عن الشاطيء، هناك جبال وعرة، وعند سفوح الجبال هناك جبال أخرى لونها شديد البياض، وتمتد هذه نزولاً حتى الأردن، وتدعى المنطقة الواقعة على الطرف الآخر من الأردن باسم زبلون ونفتالي.

٣٣ــ *كهف القديس يوحنا المعمدان*

ليس بعيداً عن النهر، وعلى رميتي سهم نحو الشرق، يوجد المكان الذي حمل منه النبي الياس إلى السماء في عربة من نار، وهنا أيضاً كهف القديس يوحنا المعمدان، ويجري هنا جدول جميل فوق حصاة ويصب بالأردن، والماء حلو جداً، وبارد كثيراً، وقد شرب منه يوحنا المُبَشِّر بالمسيح، عندما سكن في هذا الكهف المقدس.

٣٤ــ *كهف النبي الياس*

ويوجد هنا كهف رائع آخر، ومن الممكن رؤيته، وهو الكهف الذي سكنه النبي الياس مع حوارييه اليسايوس (إليجا)، ولقد رأيت ــ برحمة

من الـرب— هذه الأماكن كلهـا بعيني الخاطئين، وسمح لي الرب بـزيارة الأردن المقدس ثـلاث مرات، وكنـا هناك أيضاً يـوم عيد الغطـاس، ولقد رأينا تبريكـات الرب تنـزل على مياه الأردن، وكـان على طرف النهـر عدد لايحصى من النـاس، وغنوا بشكل جميل جداً جميعاً أثنـاء الليل، وأشعلت نماذج كثيرة من المشاعل، وتمت تبريكات الماء في منتصـف الليل، ونزلت آنذاك روح القـدس فوق ميـاه الأردن، وكان هـذا يمكن رؤيتـه من قبـل النخبة فقـط، ولم تر حشود الناس شيئـاً، مع أن كل مسيحي شعـر ببهجة عارمة وبـاشراق في قلبه، وعندما صرخوا: « تقبل الـرب التعميد بالأردن» قفز جميـع الناس إلى الماء، وتعمـدوا بماء الأردن في وسط الليـل، مثلهم في ذلك مثل المسيح.

وعلى الطرف الأقصـى من النهر هناك جبـل مرتفع كثيراً يمكـن رؤيته من مسافة من على كل جانـب، فعلى هذا الجبل مات موسى، على مشهد من أرض المعياد.

والمسافـة هي فـرسخ واحد مـن دير القـديس يوحنـا إلى دير القـديس جيراسيموس، والمسـافة نفسها من هـذا الدير الأخير إلى قلمونيـة، أي دير العذراء المقدسة، فهنـا أمضت العذراء المقدسة الليل مـع يسوع المسيح، ويـوسـف، وجيمس أيـام فـرارهـم إلى مصر، وآنـذاك لقبت هـذا المكـان بقلمونيـة، الذي يعني «المسكن الجيـد»، ومازال روح القدس ينـزل هناك حتى اليـوم الحالي على صورة للعـذراء المقدسة، وهـذا الديـر الصغير قائم عند مصـب نهر الأردن، حيث يصـب في بحر سـدوم، وهو محاط بـأسوار، ويسكنه عشرون راهبـاً، وعلى بعد فـرسخين من هناك يقـوم دير القـديس يوحنا خـريسوستوم Chysostom (عند قصر حجلة ، أوتـل الكرسي)، وهو محاط بسور ومشهور بغناه.

٣٥ ـ بلدة أريحا

والمسافة من هناك إلى أريحا هي فرسخ واحد فقط ، وكانت هذه فيما مضى مدينة واسعة وقوية جداً، استولى عليها يوشع بن نون وهدمها بشكل كامل ، وهي في الوقت الحالي مجرد قرية مسلمة ، وفيها بيت زكريا ، وجزع شجرة تسلق عليها ليرى فيها إذا كان المسيح ما يزال موجوداً ، وهناك أيضاً مسكن شونامايت SHunamite الذي أعيد ابنه الى الحياة من قبل اليسايوس ، والأرض حول أريحا خصبة جداً ومنتجة ، وسطح الأرض مستو وجميل ، وفي تلك الأحواز كميات من أشجار النخيل العالية وجميع أنواع أشجار الفواكه ، وتنتشر عدة ينابيع فوق المنطقة وهناك الكثير من الأقنية ، وهي مياه (عين السلطان) اليسايوس ، التي جعلها النبي عذبة المذاق .

وعلى مسافة فرسخ من أريحا بإتجاه الشمال الشرقي ، المكان الذي ظهر فيه ميكائيل رئيس الملاكة الى يوشع بن نون ، بحضور جيش بني اسرائيل ، فعندما رفع يوشع رأسه رأى أمامه رجلاً مسلحاً مرعباًفقال له :« هل لنا أنت أو لأعدائنا » ؟ فأجابه رئيس الملائكة قائلاً: « أنا ميكائيل ، قائد جيوش الرب ، وقد أرسلني الرب لعونك ، كن جريئاً، وأنت سوف تسحق أعدائك وزيادة على هذا قال له : « اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس (يشوع : ٥/ ١٣ــ ١٦) ثم سقط يشوع على وجهه فوق الأرض ، وتعبد الرب .

وقد أقيم فوق هذا المكان دير وكنيسة ، وقد كرسا على اسم القديس ميكائيل ، وفي هذه الكنيسة اثنتي عشرة صخرة نقلت من مجرى نهر الأردن ، عندما تراجعت مياه النهر أمام بني اسرائيل ، لتكون ذكرى لذراريهم ، وكان الكهنة الذين حملوا تابوت عهد الرب ، قد جمعوا من الصخور ما يساوي عدد أسباط بني اسرائيل ، ويعرف هذا المكان باسم

جلجال، وهنا عسكر الاسرائيليون بعد عبورهم للأردن .

٣٦ ـ *جبل جبعون*

إلى الغرب من هـذا المكان يوجد جبـل يدعى جعبون (جبـع) (جبل قرنطـل) الذي هو جبل مـرتفع وواسع جـداً ، ففوق هذا الجبل تـوقفت الشمس عـن الحركة لمدة نصـف يوم ، حتى يتمكـن يوشـع بن نـون من الانتصار على أعـدائه عندما قـاتل ضد عـوج ملك بـاشان وجميع ممـالك كنعان ، وعندما سحقهم يوشع تماماً غابت الشمس .

٣٧ ـ *الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً*

وعلى جبل جبعون هـذا نفسه هناك كهف مرتفع كثيراً ، فيـه صام ربنا المسيـح لمدة أربعين يـوماً وعنـدمـا كـان جـائعاً فيها بعـد ، اقترب منـه الشيطان ، ورغب في أن يغـريه وقال له :« إذا كنت أنت ابـن الرب فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً » (متى : ٤/ ٣).

وعلى مسـافة قـريبة ، أي على نصـف فرسـخ من جبعـون هناك بيـت النبي الياس ، وكذلك كهفه وبئره .

ويقع دير القديس ثيوديوس (ديـر دوسي أو العبيدية أي خربة دير ابن عبيد) على بعـد ستة فراسـخ من القـدس ، وهو قائم على جبـل ، وكان محاطاً بسور ، ومـن الممكن رؤيته من القـدس ، ويوجد في داخل الـدير كهف واسع، أمضى فيه الحكماء المجوس الليـل عندما هربوا من هيرود ، وترقـد الآن فيه هناك بقـايا القديس ثيـوديوس مع بقـايا عدد مـن الآباء المقدسين وذلـك بالاضافقة الى بقـايا أم القديس سـابا وكذلك بقـايا أم القديس ثيوديوس .

٣٨ـ *دير القديس سابا*

ويقـولون هنـاك ستة فـراسـخ من هـذا الديـر الى ديـر القديـس سابـا

ويواجه كلا الديرين الجنوب ، ويقوم دير القديس سابا في وادي يهوشافاط أو «وادي الدموع» ، الذي يبدأ من عند القدس، ويعبر جيسماني ، ويدخل في الدير ، وينتهي في بحر سدوم ، وبنعمة من الرب وضع دير القديس سابا رائع يعجز المرء عن وصفه ، وقعر الوادي صخري جاف ، يرعب الناظر اليه وهو عميق جداً ، وهو مغلق بجدران عالية من الصخور ، عليها تم اثبات حجر الخلوات وحفظت بيد الرب بشكل مدهش ومرعب، وهذه الخلوات مربوطة بالجروف التي تحلق فوق قعره الصخري المرعب ، وهي مثبتة على الصخور مثل النجوم في قبة السماء .

وهناك ثلاث كنائس وسط الخلوات ، وهناك في الجانب الغربي تحت صخرة مغارة مدهشة تحتوي على كنيسة مكرسة للعذراء المقدسة ، وكشفت هذه المغارة الى القديس سابا بوساطة عمود من نار ، فقد كان آنذاك يسكن وحيداً منقطعاً في قعر الوادي ، وتبعد الخلوة التي سكن القديس بها بالأصل نصف فرسخ عن الدير الحالي ، ومن هناك أراه الرب بوساطة عمود من نار ، المكان المقدس ، الذي يقوم فيه الآن دير القديس سابا ، ويقع قبر القديس سابا بين الكنائس الثلاث ، على بعد أربعة سغنس من الكنيسة الرئيسة ، وهو مغطى الآن بمزار جيد البناء ، وترقد هناك بقايا عدد كبير آخر من الآباء المقدسين منهم :الأسقف القديس يوحنا الصامت ، والقديس يوحنا الدمشقي ، والقديس ثيودروس الرهاوي ، وحفيده ميخائيل ،والقديس أفروديوس،وعدد كبير آخر من القديسين،وبقاياهم محفوظة بشكل تام،ويصدر عنها روائح طيبة بلا حدود ، ورأيت أيضاً بئر القديس سابا ، الذي دلته عليه أتان حمار الوحش في إحدى الليالي ، في قعر ذلك الوادي ، أمام خلوته ، ولقد شربت من ماء هذا البئر الذي هو بارد جداً ومقبول ، ولا يوجد في تلك الأطراف لا نهر ولا مجرى ماء ولا بئر غير بئر القديس سابا ، ويقع المكان

في وسط جبال صخرية وعرة وجرداء ، والمنطقة من حوله كلها جافة بسبب الحاجة الى الماء ، ولا يمتلك النساك الذين يعيشون هناك سوى مياه الأمطار.

وعلى مسافة قصيرة من الدير وباتجاه الجنوب ، هناك مكان يدعى روبا RUVA،وذلك ليس بعيداً عن بحر سدوم،وهو مغلق بوساطة جبال عالية،تحتوي على الكثير من الكهوف،رقد فيها بعدما سكن عدد من الآباء المقدسين،في هذه الصحراء المرعبة،ويعيش هناك أيضاً الكثير من النمور وحمار الوحش. وبحر سدوم بحر ميت،لايحتوي على أي كائن حي سواء من الأسماك أو القواقع أو الأسماك الصدفية،وإذا ماحمل المجرى السريع للأردن أية أسماك إليه،لايمكنها العيش هناك ولو لساعة واحدة،بل تهلك على الفور، وينبع اسفلت أحمر اللون من قعر البحر، ويتجمع على شكل كتل كبيرة على الشاطىء، وهذا البحر يصدر روائح كريهة مثل الذي يصدر عن الكبريت المحترق، فجهنم الحمراء تقع تحت هذا البحر.

٣٩-*دير القديس يوثيموس*

ويقف على بعد ثلاثة فراسخ الى الشرق من دير القديس سابا،وخلف الجبل،دير القديس يوثيموس Euthymius (خربة مــــردو أو خان السحل، أو خان أخضر) ومـاتزال أثاره ترقد هناك مع آثار عدد كبير من الآباء المقدسين الآخرين،وهذا الدير قائم في وادي،ومحاط على مسافة منه بجبال صخرية وعرة،وكان بالعادة محاطاً بسور،ويمتلك كنيسة جميلة وعالية،وكان دير القديس ثيوكتستوس theoctistus (خربة الزرنق) ملاصق له تماماً،عند سفح الجبل ،الى الجنوب،من دير يوثيموس، وهذه الأماكن كلها مخربة بوساطة الكفار.

٤٠-جبل صهيون

صهيون جبل واسع ومرتفع،وهو يواجه الجنوب، ومنحدرراته من جانب القدس لطيفة جداً،وعليها بني قديماً مدينة القدس القديمة،التي دمرت من قبل نبو خذ نصر،ملك بابل،في أيام النبي إرميا،وجبل صهيون في هذه الأيام قائم خارج أسوار المدينة، الى الجنوب من القدس،وكان على جبل صهيون هذابيت القديس يوحنا الانجيلي،وقد بني هناك كنيسة كبيرة ذات سقف خشبي، والمسافة بين سور المدينة،والكنيسة المقدسة لجبل صهيون تقارب رمية حجر لطيفة،وخلف مذبح هذه الكنيسة توجد الحجرة التي غسل فيها المسيح أقدام حوارييه.

٤١-بيت يوحنا الانجيلي الذي جرى فيه تناول العشاء المقدس

ونمشي من هذه الغرفة باتجاه الجنوب،ونصعد الى حجرة أخرى بوساطة درج،سقفها مدعوم بوساطة أعمدة، وهي مزينة بالفسيفساء،كما أن هذه الحجرة مبلطة،ومثلها مثل كنيسة فيها مذبح قائم في النهاية الشرقية ،ولقد حدث في بيت يوحنا الانجيلي أنه تمّ العشاء المقدس للمسيح مع حوارييه،وهنا كان أن قال يوحنا وهو متكىء على صدر المسيح:«مولاي،من هو الذي سوف يخونك»؟(يوحنا:١٣/ ٢٥)،وفي هذا المكان نفسه نزلت الروح القدس على الحواريين يوم عيد الحصاد،ويوجد في هذه الكنيسة نفسها،في الطابق الأرضي،حجرة منخفضة أخرى،ظهر فيها المسيح في وسط حوارييه،مع أن الباب كان مغلقاً ،وقال:«سلام لكم»(يوحنا :٢٠/ ١٩)،وهنا أيضاً ارتبك توما في اليوم الثامن،وأرونا هناك صخرة مقدسة جلبوها من جبل سيناء بوساطةملاك،وعلى الجانب الآخر من الكنيسة،نحو الغرب،هناك حجرة أخرى أيضاً موجودة في الطابق الأرضي،فيها أسلمت العذراء المقدسة الروح،ووقعت هذه الحوادث كلها في بيت القديس يوحنا الانجيلي.

وكان هناك بيت كيفاس،حيث أنكر بطرس المسيح ثلاث مرات،قبل أن يصيح الديك، ويقوم هذا المكان الى الشرق من صهيون.

٤٢-المكان الذي أنكر فيه بطرس المسيح ثلاث مرات،فبكى بحرقة

وليس بعيداً من هناك،على السفوح الشرقية للجبل،هناك مغارة عميقة ينزل إليها الانسان باثنتين وثلاثين درجة،فهناك بكى بطرس بحرقة(بعد) انكاره،وبنيت كنيسة فوق هذه المغارة وأطلق عليها اسم الرسول بطرس المقدس.

٤٣-بركة سلوان

وأبعد قليلاً الى الجنوب ،عند سفح الجبل،توجد بركة سلوان،حيث رد المسيح البصر الى رجل أعمى.

٤٤-حقل الفاخوري

عند سفح جبل صهيون نفسه هناك حقل الفاخوري،(الخزاف)الذي اشتروه، والمسيح ثمنه،ليكون مدفناً للغرباء،وهو في الجانب الآخر من الوادي ،أسفل جبل صهيون،والى الجنوب من ذلك الجبل، وهناك كثير من الكهوف محفورة على جوانبه،وفي هذه الكهوف قبور جاهزة تماماً،وهي منحوتة بشكل جميل في الصخور.

وهم يدفنون هناك الرحالة الغرباء بلا مقابل،ولا يسمحون بأخذ أي شيء من هذا المكان المقدس،لأنه شري بدم المسيح

٤٥-بيت لحم

تقع مدينة بيت لحم المقدسة على بعد ستة فراسخ الى الجنوب من القدس المقدسة، وهي على بعد فرسخين عبر السهل الى المكان الذي ترجل فيه ابراهيم من على ظهر مطيته،وترك هناك خدمه الصغار مع الأتان،وأخذ ابراهيم ابنه ليضحي به،وطلب منه أن يحمل معه الخشب

والنـار،ثـم قـال لـه اسحـق:«هـو ذا النـار والحطـب ولكـن أيـن الخروف للمحرقة»؟وأجابه ابراهيم:«اللـه يرى له الخروف للمحرقة».(التكوين:٢٢ / ٧-٨)،وسار اسحـق وهو مبتهج على الطريـق المؤدي الى القدس،وحمل الى المكـان نفسه الـذي صلب فيـه المسيـح فيما بعد ، وعلى بعـد فرسـخ واحد فقـط من هنـاك توجـد البقعة التـي رأت فيها العـذراء المقدسـة رجلين ، بكى أحدهما والآخـر ضحك ، وبني فوق المكـان كنيسة ودير ، وكرسـا للعذراء المقدسـة ، لكنهما الآن مهدمـان من قبل الكفـار ، ومن هناك الى ضريح راحيل أم يوسف مسافة فرسخين .

٤٦ - *الكهف الذي ولدت فيه العذراء المقدسة المسيح*

وعلى بعد فـرسخين من هناك يوجـد المكان الذي شعرت فيـه العذراء مريـم بآلام المخاض ، فترجلت مـن على ظهر أتانها ، وهنـاك صخرة كبيرة ، استراحت عليهـا بعدمـا ترجلـت ، ثم تـابعت رحلتهـا سيراً على الأقدام حتـى الكهف المقـدس ، وفي ذلك الكهـف ولدت المسيـح ، والمسافـة من تلك الصخرة الى مكان ميلاد المسيح ، تساوي رمية سهم جيدة .

٤٧ - *كنيسة ميلاد المسيح*

هـي كنيسـة كبيرة على شكل صليـب لها سقـف خشبـي قائمـة فـوق مغارة المهد ، والسقف مغطى تماماً بالـرصاص ، وداخله مزين بصور من الفسيفسـاء ، وفيها خمسـون عموداً رخـامياً ضخماً ، ومبلطة بـألواح مـن الرخـام الأبيض ، ولها ثـلاثة أبـواب ، وطولها حتـى المذبح الكبير خمسين سغنس وعـرضها عشرين سغنـس ، وتحت المذبح الكبير هنـاك المغارة والمزود حيث حدثـت ولادة المسيح ، وهذه المغارة عبارة عـن كهف جميل وواسع ، وتنزل درجـاً بسبع درجات حيث باب المغارة المقـدسة ، الذي لـه مدخلين ، وتهبـط من كـل مـدخل سبـع درجات ، وإذا دخلـت الى المغارة المقدسـة بوساطة الباب الشرقي ، يمكنـك أن ترى على الطرف

الأيسر، فوق الأرض ، المكان الذي ولد عليه ربنا المسيح ، ويوجد فوقه مذبح يقيمون من عليه القداس .

٤٨ ـ *مزود المسيح*

يقوم مكان الميلاد على الجانب الأيسر، ومقابل ذلك الى اليمين قليلاً مهد المسيح تحت صخرة قائمة على الجانب الغربي ، ففي هذا المهد المقدس وضع ربنا المسيح ، ولف بأقمشة رخيصة بالية ، وهو الذي عانى لخلاصنا ، وهذين المكانين ـ مكان الولادة والمهد متلاصقين إلى جانب بعضهما بعضاً، ويفصل بينهما ثلاث سغنس ، وهما موجودان في المغارة نفسها المغطاة بالفسيفساء والمبلطة بشكل جيد ، وتحت الكنيسة عدد من الكهوف يرقد فيها بقايا الكثير من القديسين ، وعند مخرجك من الكنيسة ، هناك على اليمين كهف عميق قائم تحت الكنيسة ، فيه دفنت بقايا الأبرياء المقدسين ومن هناك نقلت هذه البقايا إلى القسطنطينية ، ويحيط بالكنيسة سور مرتفع ، وقام مكان الميلاد فوق جبل غير مسكون ومهجور، وهو الآن محاط بالأسوار، ويشير إلى مكان ميلاد المسيح ، الذي يدعونه بيت لحم ، وكانت بيت لحم القديمة مكاناً صغيراً أمام المكان الفعلي لميلاد المسيح ، وهناك في أيامنا عمود صومعة والصخرة التي ارتاحت عليها العذراء المقدسة ، فهنا كانت بيت لحم القديمة .

وتدعى المنطقة المحيطة باسم أفرانه وأرض يهودا ، التي قال عنها النبي :« أما أنت يا بيت لحم ، أرض يهودا ، لست الأدنى بين المدن الرئيسية ليهودا ، لأنه منك سوف يخرج القائد الذي يقود شعبي شعب اسرائيل » (ميخا : ٥/ ٢) ، وأحواز بيت لحم هي جبال وهي جميلة جداً ، فالسفوح المنخفضة للجبال مغطاة بأشجار الفواكه ، والزيتون والتين ، وأشجار خروب تفوق الحصر، والكروم كثيرة قرب بيت لحم ، وهناك العديد من الحقول الخصبة في الوادي .

وليس بعيدا عن كنيسة المهد ، وخارج الأسوار ، وعلى مسافة رمية سهم نحو الجنوب هناك مغارة كبيرة ، محفورة في الجبل ، وفيها سكنت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف .

٤٩ - بيت يسي والد داود

وعلى رمية سهم الى الشرق من بيت لحم هناك مكان اسمه بيت إيل ، وهو بيت يسي والد داود ، فهناك كان ، وحدث في هذا البيت أن قام النبي صموئيل بمسح داود ملكاً لبني اسرائيل ، مكان شاؤول .

٥٠ - بئر داود

وهناك أيضاً بئر داود الذي رغب مرة في الشرب من مائة ، وهو قرب المكان الذي أعلن فيه الملائكة للرعاة عن ميلاد المسيح ، فعلى بعد فرسخ الى الشرق من مكان الميلاد هناك في السهل البقعة القائمة عند سفح الجبل ، ففيها أعلن الملائكة المقدسين عن ميلاد المسيح للرعاة ، وكان يوجد هناك كهف بني عليه وأحيط بكنيسة جميلة ، أطلق عليها اسم القديس يوسف ، وكان إلى جانبها دير جميل ، وجرى تدمير هذه الأماكن من قبل الكفار ، ويقوم هذا المكان وسط سهل جميل حيث الحقول خصبة جداً ، وحيث الزيتون كثير جداً ، ويدعون هذا السهل باسم أغيا بيمينا (حقل الرعاة) أي « المرعى المقدس» ويمتلك دير القديس سابا أرضاً هناك ، قائمة على سفح الجبل الى جانب بيت لحم .

٥١ - الكهف وبلوطات ممرا

وتقوم الخليل ، والكهف المزدوج وبلوطات ممرا الى الجنوب من بيت لحم ، والمسافة من القدس الى الخليل هي ثمانية وعشرين فرسخاً ، ويمر الطريق ببيت لحم الذي يقولون إن المسافة إليها ستة فراسخ ، وهناك ثلاثة فراسخ من هذه المدينة الى نهر إيثام (Etham وادي أرطاس) ففي هذا النهر قال النبي داود في المزمور :« أنت جففت أنهار

ايثام : لك النهار، والليل لك أيضاً » (المزامير: ٧٤/ ١٥ ـ ١٦) .

ومجرى هذا النهر جاف جداً هذه الأيام، لكنه يجري تحت الأرض ويعاود الظهور قرب بحر سدوم، الذي يصب فيه، وهناك على الطرف الآخر من النهر جبل وعر مرتفع، وهو مغطى بغابة واسعة وكثيفة، والطريق عبر هذا الجبل الموحش خطرة، وينقض المسلمون، مستفيدين من هذا الممر، على الذين يغامرون في مواجهة المخاطر بأعداد صغيرة، وبالنسبة لي هيأ الرب لي جماعة كبيرة وجيدة، وبذلك كنت قادراً على عبور هذا المكان المخيف بدون معيقات، وليس بعيداً عن ها هنا بلدة عسقلان، التي يقدم منها المسلمون بأعداد كبيرة، ويهاجمون المسافرين في هذا الممر وعلى هذا الجبل، وفي هذه الغابة الكثيفة قتل أبسلوم بن داود، فقد كان هارباً من وجه جيوش أبيه، وحمله بغله الى أكثف مكان في الغابة، وأمسكه أحد الأغصان من شعره فبقي معلقاً الى الشجرة، وتلقى ثلاث رميات في قلبه، وعلى هذه الصورة مات على الشجرة وقالوا بوجود عشرة فراسخ من هناك الى بئر حلفاء ابراهيم وستة فراسخ من هذا البئر الى بلوطات ممرا .

٥٢ ـ *الموضوع نفسه*

وتقوم هذه البلوطات على جبل مرتفع الى جانب الطريق، على الجهة اليمنى، ومنظرهن منظر رائع، وبلط الرب حول جذورهن الأرض برخام أبيض مثل أرضية كنيسة، وإنه لأمر رائع أن ترى هذه البلوطات المقدسات منتصبات قائمات من وسط هذه الصخور، وقمة الجبل هذا حول الشجرات عبارة عن أرض مفتوحة بدون صخور، والى جانب هذه البلوطات، بإتجاه الشرق، نصبت خيمة ابراهيم، والبلوطات ليست عالية جداًلكن كثيرات العقد ولهن أغصان كثيرة محملة بالثمار، والأغصان ليست عالية الى حد أن الانسان الواقف على الأرض يستطيع أن يلامسهن، ومحيطهن حسبما قسته بنفسي هو

سنغنسـان ، وارتفـاع الجزع حتـى الغصـــن الأول سغنـس ، ولا يستطيـع الانسـان إلا أن يعجب نحـو هذه الأشجـار الرائعـة التي تـوجت هـذا الجبل المرتفع لمثل هذا العدد الكبير من القرون ، وهي لم تقع ولم تهترىء ، بل ما تزال صامدة محفوظة مـن قبل الرب ، وكأنهن قد زرعن الآن ، وهناك بارك الثـالوث المقـدس ابراهيـم وزوجته سـاره ، عندمـا كانـا متقدمين بالسن ، ورزقهما بولدهما اسحق ، وأرى الثـالوث المقدس أيضاً ابراهيم النبع الذي يشكل في هـذه الأيام بئراً عند سفح الجبل مـلاصقاً للطريق، وتدعـى جميع المنطقة المحيطـة بالبلوطـات باسـم ممرا ، ويقولـون هناك فرسخان من هناك الى الخليل .

٥٣ - *جبل الخليل*

الخليل هي جبل مرتفع ، يوجد عليه بلدة واسعة جداً ، وأبنيتها قديمة جداً ، وسكن الجبل فيما مضـى أعداد كبيرة من السكان ، لكنه الآن مشعث ، وكـان أول من سكـن جبل الخليل هـو كنعان بـن حام حفيد نـوح الذي جاء بعـد الطوفان وبنـاء برج بـابل ، واستوطـن جميع المنطقـة من حـول الخليل، ولهذا السبـب دعيـت أرض كنعان ، وهـذه هي الأرض التي وعد الـرب بها ابراهيم عندما كان في بـلاد الرافدين في حران حيث كان بيـت أبيه . وقال الرب لابراهيم :« اذهـب من بلادك وبيت أبيك ، واسكـن في أرض كنعان ، وأنا سوف أعطـي تلك الأرض إليك وأجعلك مخصبـاً دوماً وسأكون معـك»(التكوين: ١٢/ ١) ، وفي الوقـت الحالي هذه الأرض والحق يقال هـي أرض ميعاد الـرب والعطاء له مـع جميع الأشياء الجيـدة : فالقمح ، والكـروم ، والزيتون وجميـع أنواع الخضروات تنمو فيها بوفرة ، والقطعان كثيرة ، فـالأغنام وبقية الحيوانات تلد مرتين في السنة ، وهناك أعداد واسعة من الغزلان تعيش بين صخور هذه الجبـال الجميلة ، وسفوح هـذه الجبال مغطـاة بالكروم وبـأعداد لا تحصـى من أشجـار الفواكـه مـن زيتون ، وتين وخـروب ، وتفاح وتـوت

وأشجار أخرى ، وجيع أنواع الخضار ، التي هي هنا من أفضل وأكبر مما هو موجود في بقية الأرض ، فما من مكان تحت السماء يعادلها ، والماء في هذه البلاد رائع ويتوافق مع مذاق كل انسان ، وجميع المناطق المحيطة بالخليل متميزة بجمالها وبخصبها الذي لا يمكن وصفه ، وعلى جبل الخليل كان هناك أيضاً بيت داود ، الذي عاش فيه ثمانية أعوام ، وعندما طرد من قبل ابنه ابسلوم ، ويقع كهف الخليل المزودج على نصف فرسخ فقط من الخليل ، وهومحفور بالصخر ويحتوي على قبور : ابراهيم واسحق ويعقوب ، واشترى ابراهيم هذا الكهف المزدوج من عفرون الحثي ، ليكون مدفناً لجميع أولاده وكان ذلك عندما جاء من بلاد الرافدين الى أرض كنعان ، وكان هذا الكهف المزدوج ، الذي اشتراه ليكون مدفناً له ولأسرته أول شيء استحوذ عليه ، ويحيط بالكهف حصن قوي وصغير ، وقد بني بشكل رائع من حجارة منحوتة شكلت أسواراً عالية ، والكهف هو داخل الحصن ، وجميع الاطار المحيط به مبلط بألواح رخامية بيضاء ، وتحت هذا البلاط يوجد الكهف المنحوت حيث يرقد : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وأولاده ، وزوجاتهم : سارة وربيكا (رفقة) ، وليس راحيل ، لأنها دفنت الى جانب طريق بيت لحم ، وهذه الأضرحة مفصولة عن بعضها بعضاً داخل الكهف ، وكل واحد منها محاط ببيعة مستديرة صغيرة وضريح ابراهيم وكذلك ضريح زوجته سارة الى جانبي بعضهما ، وكذلك الحال بالنسبة لقبري اسحق وزوجته ربيكا ، ويعقوب وزوجته ليا .

٥٤ - قبر يوسف

قبر يوسف « الأثير» موجود خارج المبنى ، وهو على رمية حجر من الكهف المزدوج ، ويحمل هذا المكان في هذه الأيام اسم « القديس ابراهيم » وعلى مقربة من هذه البقعة ، وعلى بعد فرسخ من الكهف المزدوج باتجاه الشرق ، هناك جبل مرتفع صعده الثالوث المقدس مع

ابراهيم الذي رافقهم من بلوطات ممرا ، وعلى قمة هذا الجبل هناك مكان جميل سجد فيه ابراهيم الى الأرض ، وتعبد الثالوث المقدس ، وقدم إليهم الدعاء التالي :

٥٥ - دعاء ابراهيم

« فتقدم ابراهيم وقال : : أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسين باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشى لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشى لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، فأجاب ابراهيم وقال : إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إني شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال : لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة » (بالأصل : خمسة).

وصمت إبراهيم ولم يتجرأ أن يجيب، وأرسل الثالوث المقدس من هذا الجبل اثنين من الملائكة إلى سدوم لتمكين لوط ابن أخي إبراهيم من الفرار من المدينة، وهناك قدم إبراهيم أضحية إلى الرب، ورمى قمحاً في النار، وبناء عليه يدعى هذا المكان «أضحية إبراهيم»، وهو قائم على ارتفاع معتبر، ومنه يمكن رؤية جميع بلاد كنعان.

والمسافـة من «أضحية إبـراهيم» إلى وادي «جـرزنووا» Greznowa فرسخ واحد، وكذلك من وادي جرزنووا إلى عتبات الأناضول. (أندرو؟)

٥٦— *ضريح لوط في سيجور*

ومـن هناك إلى سيجـور فرسخين، وهنـاك يمكن رؤيـة ضريح ابنتيـه، وهما مدفـونتان في ضريحين منفرديـن، ويوجـد في هذا الجبل كهـف واسع اتخذه لوط مـع ابنتيه ملجئاً، وهنـاك أيضاً بقايـا مدينة تعـود إلى السكان الأول لهذه البـلاد، وهي قـائمة على أعـالي هـذا الجبل، ويـدعى المكـان سيجور، وعلى فـرسخ مـن سيجور، باتجاه الجنـوب، هناك عمـود حجري، هو زوجة لـوط، وهناك مسافة فـرسخين من هناك إلى سدوم، ولقـد رأيت هذا كله بعيني، لكن لم يكن بإمكاني الـذهاب إلى مكان سدوم خوفاً من الكفار، ومنعني المؤمنون من الذهـاب إلى هناك قائلين: «ليس هناك شيئاً مفيداً لتراه هناك، وستنال فقـط الازعاج والتعب، لأن روائح النتن منتشرة هناك وسوف تجعلك مـريضاً، ونتيجة لذلك عدنا إلى «القـديس إبراهيم» وبحمايـة الرب ورحمتـه وصلنا إلى مـزار الكهـف المزدوج بصحة جيـدة، وبجلنا هـذه الأماكـن المقدسـة واسترحنا هنـاك لمدة يومين، وحمداً للـرب وجدنا جماعة كبيرة متـوجهة إلى القدس، فالتحقنا بها، وقمنا بـالرحلة معاً مسروريـن وبـدون خـوف، وهكـذا وصلنـا سـالمين إلى مـدينـة القـدس المقدسة. وحمدنا الـرب الذي سمح لنا نحن الذين لانستحـق بزيارة هذه الأماكن، التي مـن غير الممكن وصف قداستها بأية طـريقة من الطرق لا بالكلام ولا بالكتابة.

وإلى الجنـوب مـن بيـت لحم، يقـوم ديـر القديـس شـارتـون (خـربـة الخرتون) على نهر ايسـام المتقدم ذكره، وهـو ليس ببعيد مـن بحيرة سدوم، في وسط جبال وعرة، وفي مكان مهجور، وهذا المكان مخيف، وأجرد، وهو محروم من الماء تماماً، يقوم أمـامه جـرف صخري وعـر، وكان الـدير محاط بـالأسـوار، وفي داخـل المزار هنـاك كنيستين، تحتـوي الكبيرة منهـن قبر

القديس شيراتون، ويوجد خارج الأسوار كهف مقبرة واسع يحتوي على بقايا آباء مقدسين، رقدوا هناك، وقد يصل عددهم إلى أكثر من سبعمائة، وبين بقايا عدد كبير هناك بقايا القديس سرياقوس المعترف، الذي مايزال جسده محفوظ بحالة سليمة مع قبري يوحنا وأركاديوس ابني اكزنفون، وعنهما تصدر روائح طيبة، وقدمنا احترامنا إلى هذا المكان المقدس وتسلقنا الجبل فرسخاً إلى الجنوب من الدير.

وهناك مكان ناعم في الحقل، حمل منه الملاك النبي حبقوق المقدس، عندما كان يحمل طعاماً وشراباً إلى الحواصيد، وجلبه إلى بابل، إلى عرين (الأسد) العائد للنبي دانيال، وبعدما أشبع دانيال وأزال جوعه وأطفأ عطشه، حمله عائداً في اليوم نفسه والساعة نفسها إلى الحواصيد حيث أعطاهم غداءهم، وبني على البقعة نوع من أنواع المزارات إحياء لذكرى هذه المعجزة، ذلك أن بابل تبعد عنها مسافة أربعين يوماً، وهناك أيضاً قرب هذا المكان كنيسة كبيرة لها سقف خشبي، مكرسة للأنبياء المقدسين، ويوجد تحت الكنيسة كهف كبير، يرقد فيه في ثلاثة صناديق بقايا اثني عشر نبيا هم: حبقوق، ناحوم، ميخا، حزقيا، عوبيدا، زكريا، حزقيال، اسماعيل، ساول، باروخ، عاموس، وهوشع، وعلى الجبل المجاور هناك قرية كبيرة جداً، مسكونة من قبل عدد كبير من المسلمين والمسيحيين، وهي القرية التي ولد فيها الأنبياء المقدسون، وحيث بيوتهم أيضاً، وأمضينا ليلة هناك بحماية نعمة الرب، واستقبلنا استقبالاً جيداً من قبل المسيحيين الساكنين هناك، وبعدما استرحنا ليلة جيدة هناك استيقظنا باكراً، حتى نمضي إلى بيت لحم، وحمل مقدم المسلمين سلاحه ورافقنا وحرسنا حتى وصلنا إلى بيت لحم، وصاحبنا إلى كل مكان، ولولاه لما كان بإمكاننا السفر في هذه الأماكن بسبب وجود أعداد كبيرة من المسلمين يقطعون الطريق في الجبال، وهكذا وصلنا بسعادة إلى بلدة بيت لحم المقدسة، وبعدما عبدنا مكان ميلاد المسيح، أمضينا الليلة

هناك وعدنا مسرورين إلى مدينة القدس المقدسة.

٥٧— *المكان الذي قتل فيه داود جالوت*

وإلى جوار القدس، وعلى رمية سهم إلى الشرق من برج داود يوجد المكان الذي قتل فيه داود جالوت، وهو في سهل قرب صهريج ماء (قلعة جالوت)، ومن الممكن أن يرى الآن هناك حقل قمح جميل.

وعلى رمية سهم من هناك الكهف الذي ترقد فيه بقايا عدد كبير من الشهداء الذين قتلوا في القدس أيام حكم هرقل، ويدعى هذا المكان باسم حاجيا ماملا.

٥٨— *المكان الذي نمت فيه شجرة الصليب المقدس*

المسافة من هذا المكان إلى مكان الصليب المقدس هي فرسخ واحد، والمكان هذا قائم إلى الغرب من القدس، خلف جبل، فمن هناك قطعوا أعواد الصليب، الذي سمرت إليه القدمين المقدسين لربنا يسوع المسيح، ومحاط هذا المكان بأسوار، يقوم في وسطها كنيسة كبيرة، مكرسة للصليب المقدس، وهي مزينة بالرسومات بشكل ثري، وعند المذبح العالي، ودونه، يوجد جذع الشجرة المقدسة مغطى بألواح رخامية بيضاء، ومتروك هناك فتحات صغيرة مستديرة، يمكن من خلالها رؤيته، وهناك يقوم الدير الاسباني.

٥٩— *بيت زكريا*

هناك أربعة فراسخ من هذا الدير إلى بيت زكريا، القائم عند سفح جبل غربي القدس، وإلى بيت زكريا هذا جاءت العذراء المقدسة لتحيي اليزابث، وماأن سمعت اليزابث صوت مريم حتى قفز طفلها في داخلها لسروره وصاحت بصوت مرتفع:«مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة

بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ». (لوقا: ١/ ٤٢). وولد في هذا البيت نفسه يوحنا المبشر، وتشغل هذا المكان الآن كنيسة، ولدى دخولك إلى هناك، باتجاه اليسار، تحت المذبح المنخفض، هناك كهف صغير، فيه ولد يوحنا المبشر، والمكان كله محاط بحصن حجري.

٦٠ـــ *الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبشر*

على نصف فرسخ من هناك، وعلى الطرف الآخر من الوادي المليء بالأشجار، يقوم الجبل الذي هربت إليه اليزابث مع ابنها وقالت: «تسلم أيها الجبل الأم والطفل»، وانفتح الجبل، ومنحهما مأوى، وعندما وصل جند هيرود الذين كانوا يطاردونهما إلى هذا المكان، لم يبصروا أحداً، وعادوا خائبين، ومكان هذا الحادث يمكن أن يرى في الصخرة حتى هذا اليوم، وتقوم فوقه كنيسة صغيرة، يوجد تحتها مغارة صغيرة، عند المدخل إليها هناك كنيسة أخرى صغيرة، وينبع من هذه المغارة نبع ماء (عين ستي مريم عند عين كارم) شربت من مائه اليزابث ويوحنا أثناء اختفائهما في الجبل، حيث بقيا، برعاية أحد الملائكة، حتى وفاة هيرود، وهذا الجبل، القائم إلى الغرب من القدس، مرتفع جداً، ومغطى بغابات كبيرة، ومحاط بعدد كبير من الوديان، وتدعى أورويني (لوقا: ١/ ٣٩)، وفي هذا الجبل أيضاً اتخذ داود ملجئاً، عندما عذبه الملك شاؤل وهرب من القدس.

٦١ـــ *رامة*

تقوم رامة على فرسخين إلى الغرب من هذا الجبل، وعن رامة هذه قال النبي إرميا: « صوت سمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها، وتأبى أن تتعزى على أولادها لأنهم ليسوا بموجودين» (ارميا: ٣١/ ١٥).

ورامة وادي واسع توزعت فيه قرى كثيرة، وتحمل جميع الأحواز هناك اسم رامة، وهي تشمل أراضي بيت لحم، وإلى رامة كان الملك هيرود قد بعث الجنود لقتل الأبرياء المقدسين.

٦٢ — *عمواس*

عندما يوجه الانسان خطواته باتجاه الغرب، يصل بعد أربعة فراسخ إلى عمواس، حيث ظهر المسيح إلى لوقا وكليوباس في اليوم الثالث بعد القيامة، وكانا ذاهبين من القدس إلى البلدة، ولاحظاه عندما قطع خبزة، وكانت بلدة واسعة، وقد بنيت هناك كنيسة، وقد هدمت الآن من قبل الكفار، وبلدة عمواس بلدة مهجورة، وهي قائمة خلف جبل إلى اليمين، ليس بعيداً عن الطريق الذي يقود من القدس إلى يافا.

٦٣ — *اللد*

من عمواس إلى اللد أربعة فراسخ عبر السهل، وكانت فيها مضى بلدة كبيرة اسمها اللد، لكن اسمها الآن هو الرملة، وهنا حدث أن شفى بطرس إنياس Eneas الذي كان ممدداً لمرضه على فراشه.

٦٤ — *يافا*

من اللد إلى يافا عشرة فراسخ مستمرة عبر السهل، وفي هذه المدينة أقام الرسول بطرس طابيثا Tabitha من الموت، وهنا صام بطرس أيضاً، وعندما صعد إلى أعلى البيت في حوالي الساعة التاسعة رأى ملاءة مربوطة من الزوايا الأربعة نزلت من السماء، وعندما وصلت إليه رأى أنها مليئة بوحوش الأرض وبجميع أشكال الأشياء الزاحفة، وخاطبه صوت من السماء قائلاً: «قم يابطرس اذبح وكل. فقال بطرس: كلا يارب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية: ماطهره الرب لاتدنسه أنت» (أعمال الرسل: ١٠/ ١٣ — ١٥)، وهناك الآن كنيسة عند هذه البقعة تدعى كنيسة القديس بطرس، وبلدة يوبا

قائمة على شاطىء البحر، وتصل الأمـواج إلى أسوارها، وتعرف الآن باسم يافا بلغة الفرنجة، ومن يافا إلى أرسوف ستة فراسخ.

٦٥— *قيسارية فيليب*

مـن أرسـوف إلى قيسـاريـة فيليـب (اقـرأ: قيسـاريـة فلسطين) أربعـة وعشرين فرسخـاً عبر طريق يجري على طول شاطىء البحـر، وفي قيسارية هذه عمّد الـرسول بطرس المقدس كـورنليوس Cornelius، وليس بعيداً عن هذه المدينة، على مسافة فرسخين إلى الجنوب، هناك جبل عاش عليه الأب مارتنيان Martinian، وإليه جاءت المحظية لأغوائه.

٦٦— *كفر ناحوم*

تبعد قيسارية فيليب ثمانية فراسخ عن كفـر ناحوم، وكانت كفر ناحوم (عثليت) فيما مضـى هامـة جداً، وبلدة مكتظـة السكان، لكنهـا في هذه الآونة مهجـورة، وقائمـة ليس بعيداً عـن البحر الكبير، وعـن كفر نـاحوم هذه قـال النبي: «الـويل لك يـا كفر نـاحوم، سـوف ترتفعين إلى السماء، ولسـوف تنحدريـن إلى أعماق الجحيـم»، وفي هـذه المدينة سـوف يظهـر المسيح الدجال، ولهذا السبب هجرها الفرنجة.

٦٧— *جبل الكرمل*

المسافة من كفـر ناحوم إلى جبل الكرم تقارب سـتـة فراسخ، وعلى هذا الجبل عـاش النبي اليـاس المقدس، وغـذي من قبـل غراب أسـود، وهنا أيضاً ذبـح كاهـن بعل قـائلاً:«إنني أحـرق برائحـة طيبة لمولاي الـرب»، وهذا الجبـل مرتفع جداً، وعلى حـوالي الفرسخ عن البحـر الكبير، وتقارب المسافة من جبل الكرمل إلى حيفا فرسخاً واحداً.

٦٨— *بلدة عكا*

المسافة فيما بين حيفا وعكا هي خمسـة عشر فرسخاً، وعكا بلدة واسعة،

متينة البناء وتمتلك ميناء جيداً، وكانت بيد المسلمين، وهي الآن محتلة من قبل الفرنجة، وهناك من عكا إلى بلدة صور عشرة فراسخ، والمسافة نفسها من صور إلى صيدا، وقرية الصرفند ليست بعيدة عن صيدا، ففي الصرفند أعاد النبي ابن الأرملة إلى الحياة.

٦٩— *بلدة بيروت*

المسافة بين صيدا وبيروت هي خمسة عشر فرسخاً، وفي هذه البلدة خرق اليهود صورة المسيح بحربة فاندفع منها الدم والماء، ووقتها تحول عدد كبير من الناس وتعمدوا باسم الآب والابن وروح القدس، وإلى بلدة بيروت هذه نفسها جاء يوحنا وأركاديوس ولدي اكزنفون ليدرسا الفلسفة، ومن بيروت إلى جبيل عشرين فرسخاً، ومن جبيل إلى طرابلس أربعين فرسخاً، ومن طرابلس إلى نهر السويدية ستين فرسخاً.

٧٠— *أنطاكية الكبرى*

تقوم أنطاكية الكبرى على النهر المذكور أخيراً، وهي على ثمانية فراسخ عن البحر، وعلى بعد مائة فرسخ منها لوديكيا Laodicea ، ثم تأتي أنطاكية الصغرى، وكانينورس Kaninoros ، ومافرونوروس Mav-ronoros، وبلدة ساتاليا (أضاليا) الصغيرة، وجزيرة خيلدونيا الصغيرة، وجميع هذه البلدات قائمة على شاطىء البحر، ولهذا لم نلق المراسي حتى خيلدونيا، وتابعنا سيرنا من هناك إلى بلدة مايرا، وقرب هذه البلدة واجهنا أربعة غلايين، تحمل قراصنة، هاجمونا وسلبونا، ومن هناك وجهنا طريقنا نحو القسطنطينية، التي وصلناها بصحة جيدة.

٧١— *الجليل وبحر طبرية*

الطريق يقود هنا من القدس إلى الجليل باتجاه بحر طبرية، وجبل الطور والناصرة، وجميع المنطقة محدودة من قبل بحرطبرية الذي يدعى بحر الجليل، وهو قائم باتجاه الشمال الشرقي من القدس، وتبعد بلدة

طبريـة مسيرة أربعـة أيام عـن القـدس لـلانسـان المسـافر على قـدميـه، والطـريق خطـر جداً ومـرهق، فـالانسـان يسير لمدة ثلاثـة أيام عبر طـرق جبلية، وفي الأمـام يتبع المسـافر وادي الأردن، ويتجـه دوماً بـاتجاه الشرق حتى ينابيع الأردن في مكان يصدر فيه هذا النهر عن البحر.

ولقد كـان هذا الطـريق الذي عبرتـه بعون الـرب أثناء رحلتـي، وكان بلـدويـن أمير القدس وقتهـا متـوجهـاً للحرب ضـد دمشـق، والسير عبر الطريـق إلى بحر طبريـة، لأنه الطـريق الـذي يؤدي إلى دمشـق، وعندمـا علمت بـأن الأمير سوف يأخـذ هذا الطريـق، ذهبت إليه، وحييتـه وقلت له: «أرغب رغبـة عظيمة في أن أذهب معكم حتى بحـر طبرية لكي أزور الأماكن المقدسة هناك»، وسمح لي الأمير بكل سرور بالذهاب معه وأمرني أن أنضـم إلى حـاشيتـه، وسررت شخصيـاً سروراً عـارمـاً بهذا الأذن، واشتريت حيـوانات للركـوب، وهكذا اجتزنـا بدون خوف أو رعـب هذه الأماكـن الخطرة بصحبة عساكـر الأمير، لأنه بدون مرافقـة لايستطيع المرء عبورهم،والقديسة هيلانة وحدها التي استطاعت أن تنجز ذلك.

وبناء عليـه إليكم وصف طـريق طبرية: المسـافة من القـدس إلى «بئر العـذراء المقدسـة» هي عشرة فـراسخ، ومـن هذا البئـر إلى جبال جلبـوع (لبّن) مسـافة أربعة فـراسخ، وعلى هذه الجبـال كان مقتل الملـك شاؤول وابنه يونـاثان، وهي جبال مرتفعـة، صخرية، جرداء وعرة وبـلاماء، حتى الندى لاينـزل عليها، ومـن هذه الجبال إلى «بئـر داود» مسافـة فرسخين، ومن البئر إلى «كهـف داود» أربعة فراسخ، ففي هذا الكهـف وضع الرب الملك شاؤول في يـدي داود، الذي لم يقتله بل قطـع أطراف ردائة، وانتزع منه سيفه وأحزمته.

والمسافة مـن هناك إلى جبال شكيم أربعـة فراسخ وكذلـك إلى «جب يوسـف» (عورتـا)، ورعى على هـذه الجبال أبنـاء يعقوب قطعـان أبيهم، وإلى هناك جاء يوسف «صاحب الحظوة» ليحمل إلى أخوته تحيات أبيهم

يعقوب ووده وتبريكاتـه، لكنهم ما أن رأوه حتى انقضـوا عليه، وأمسكوه وألقـوه في الجب، الذي مـازال موجـوداً حتى الآن، وهـو يشكل صهـريجاً عميقاً، مبنـي بشدة بـوساطـة حجارة كبيرة، وحـدث أن أمضيا الليـل في هذا المكـان، الذي هو ليس ببعيـد عن الطريق الـرئيسي وقائم إلى اليمين منه.

٧٢— وقـالوا: هنـاك عشرة فـراسخ مـن هنا إلى قـريـة يعقوب التـي تدعـى سكر، Sichar (العسكر)، وبئر يعقوب موجـود هناك، وهـو بئر واسع وعميق، وماؤه بارد وطيب المذاق، وتكلـم عند هذا البئر المسيح مع امرأة سامرية، وهناك أمضينا الليلة.

٧٣— السامرة

قرب هـذا المكان، وعلى بعـد نصف فـرسخ منـه تقوم مـدينة السـامرة (شكيـم أي نـابلس)، وهـي واسعـة جـداً، وفيهـا وفرة بجميـع الأشيـاء الجيدة، وهـي قائمـة فيما بين جبلين عاليين جـداً، ويجري في البلدة عـدد من الينابيـع الجيدة ذات الماء البارد، والبلاد خصبة بجميـع أنواع أشجار الفواكه مثل: التين، واللـوز والخروب، والزيتون، وهي تحيط بالسـامرة مثل غابة كثيفـة، والحقول المجاورة غنية بجميع أنواع الحبـوب، والمنطقة كلها جميلة بشكـل مدهـش، وانتاجهـا من الـزيتون كبير، وكـذلك مـن النبيذ، والقمـح والفواكـه، وبكلمـة موجـزة تجلـب مدينـة القـدس جميع مـؤنها وأطعمتها مـن هذا المكـان، وتدعـى بلدة السـامرة في هـذه الأيام بـاسم نابلس.

وعلى بعـد فرسخين مـن هذه البلـدة، وباتجاه الغـرب تقوم سبسطيـة، وهناك مكـان مغلق صغير يحتـوي على سجن القديـس يوحنـا المعمدان، وفيه جـرى قطع رأس هذا المبشر بالمسيـح بناء على أمر مـن الملك هيرود، ومـن الممكـن رؤية قبره هنـاك، وأقيـم هنـاك كنيسة حملـت اسـم المبشر،

وكذلك دير فرنجي غني جداً.

٧٤— بلدة أرماثيا

تقع بلدة أرماثيا Arimathea (رامة) التي تضم قبري القديس يوسف، والقديس مالإيل على بعد أربعة فراسخ، وهي قائمة بين الجبال إلى الغرب من السامرة، وقد بني هناك بناء صغير مغلق، ويوجد فوق قبر يوسف هناك كنيسة ذات سقف خشبي، وهم يدعون هذا المكان باسم أرماثيا، واتجاه الطريق من السامرة إلى بحر طبرية هو نحو الشمال الشرقي.

٧٥— بلدة بيسان

ومن السامرة إلى بلدة بيسان هناك ثلاثين فرسخاً، وهناك عاش عوج ملك بيسان الذي قتل من قبل يوشع بن نون، قرب أريحا، وهذا مكان مرعب جداً وخطير، وينبع من البلدة سبعة أنهر، وعلى أطرافهم شعراء كثيفة، وهناك في هذه البلدة حدائق عظيمة من شجر النخيل، وهذا المكان والحق يقال مرعب، ومن الخطورة بمكان المرور به، فهناك يعيش مسلمون أشداء وقساة بأعداد كبيرة، ويستغلون مخاضات الأنهار لمهاجمة المسافرين، ويوجد في هذه الأجزاء الكثير من الأسود، وبيسان ليست بعيدة عن الأردن، ويفصل هذه البلدة عن الأردن عدد كبير من المستنقعات ذات الماء الآسن، وتصب هذه الأنهار في الأردن، وهناك تكثر الأسود، وعلى مقربة من البلدة هناك على الجانب الشرقي كهف عجيب طبيعي له شكل صليب، ومنه ينبع نبع يجري في داخل خزان عجائبي، لم تصنعه الأيدي، بل خلقه الرب، واستحم في هذا الخزان المسيح نفسه مع حوارييه، ومن الممكن رؤية الحجر الذي جلس عليه حتى اليوم، واستحممنا نحن المذنبين الذين لانستحق هناك، وإلى بلدة بيسان هذه نفسها جاء اليهود إلى المسيح، جالبين فلساً وسألوه: «هل هو شرعي أن ندفع الجزية أم لا»؟ غير أنه سألهم: «رسم من هذا؟ .... أعط لقيصر

الأشياء التـي لقيصر، وإلى الرب الأشياء التي للـرب» ثم توجه بـالخطاب إلى بطرس، وقـال المسيح لـه: «امض وألـق بخيطك بـالبحر، وافتـح أول سمكة تسحبهـا من الماء، فستجـد هناك قطعـة نقد ذات أربعـة دراهم، فـادفعها لهم عنـي وعنك»، وشفـى المسيح قـرب بيسان الـرجل الأعمـى الذي تبعه وسأله أن يشفيه.

٧٦— نهر الأردن

ومن بيسان إلى منـابع الأردن وبيت تعشير متى هناك عشريـن فرسخاً، وتتجه دومـاً نحو الشرق، ويعبر الطـريق سهـولاً على طرف الأردن، الـذي ماؤه حلـو المذاق ونقي حتـى منابعـه، وينبع الأردن مـن بحر طبريـة على شكل نهريـن، يتدفقـان بشكل رائع، ويدعـى أحد هـذين النهـرين «أر» والآخـر «دن» وهكذا يصـدر الأردن عـن بحـر طبرية على شكـل نهريـن، يبتعـد أحدهما عـن الآخر ثـلاث رميـات سهم، وبعـد مسيرهما منفصلين لحوالي النصـف فـرسـخ، يعـاودان الاتحاد بمثابـة نهر واحـد، يـدعـى نهر الأردن، وذلك من اسمـي الفرعين، وجريان نهر الأردن سريـع جداً وقوي، والماء نقي جداً، وهـو يشبه كثيراً نهر سنوف في عرضـه وعمقه ومستنقعات مائه الآسـن، والأسماك عند نبعه كثيرة، وهنـاك جسرين من الحجـارة بنيا بشكل شـديد فـوق قناطر، يمـر من خلالها الماء ويتـدفق، ويمتـدان فوق الفرعين.

٧٧— بيت تعشير متى

وكان بيت تعشير متى حواري المسيح قـريب من هذين الجسرين، لأن جميع الطرق التـي تتجه إلى دمشق وبلاد الـرافدين تلتقي هنـاك، وتغدى الأمير بلدويـن مع عسـاكره قرب هـذين الجسرين، وعسكـرنا أيضـاً معه قرب منابـع الأردن واستحممنا في بحر طبرية، ثم ارتحلنا بعـد ذلك وسرنا على طـول شواطـىء ذلك البحـر دونما خـوف من أي خطـر، وزرنا جميـع

الأماكـن المقدسة التـي داسها المسيح ربنا بقـدميه، وواحد مـذنب مثلي، سمح لـه الرب بالمرور خلال جميـع بلاد الجليل ورؤيتها، وهـو أمر لم أتجرأ أن آمل بـه، وتجولت قدمـاي المذنبتان فـوق جميع الأراضي المقدسـة التي تشوقـت كثيراً لرؤيتها، ووصفـت هذه الأماكـن المقدسـة بأمانـة وصدق، وبـدون كـذب، فقـط كما رأيتهم. ولم يستطـع عـدد كبير ممـن زاروا هـذه الأماكـن تفحصهم والتعرف إليهـم بشكل دقيق، وروى آخـرون لم يصلوا إلى هذه الأمـاكن المقدسـة، أكاذيب وحكايـات مخترعة، وبالنسبـة لي أنا المذنـب، منحني الـرب التعـرف إلى رجل تقـي متقـدم بـالسن، وواسـع المعرفة كثيراً، وتقي، وأمضى ثلاثين سنـة في الجليل، وعشرين سنة في دير القديـس سابـا، وقدم هذا الـرجل جميـع الأوصاف الموجـودة في الضريح المقدس، فكيـف لي، أنا المذنب، أن أقدم الشكـر بما فيه الكفايـة للنعمة التي أبديت نحوي.

وبقينا طيلـة ذلك اليـوم قرب الجسر، وعنـد المساء، عبر الأمير بلـدوين مـع عسـاكره الأردن وزحـف نحـودمشـق، في حين ذهبنا نحـن إلى بلـدة طبرية، حيث مكثنا لمدة عشرة أيام حتـى عاد الأمير من حملته إلى دمشق، وزرنا خلال هـذه المدة جميع الأماكن المقـدسة القائمة على شـاطىء بحر طبرية.

٧٨— *بحر طبرية*

يمكـن للانسـان أن يجوز حـول بحر طبريـة وكـأنه بحيرة، والماء حلـو المذاق كثيراً، ولايمكـن للانسـان مطلقاً أن يشرب كثيراً منـه، وطول هـذا البحـر خمسين فرسخـاً، وعـرضه عشريـن، وهـو مليء بالأسماك، ويحتـوي بشكل خـاص على سمك مثـل الشبوط، مما كـان المسيح مغـرم به كثيراً، والذي هـو متفوق على جميع أنـواع الأسماك بطعمه، وقد أكلـت أنا نفسي منه مـراراً خلال اقـامتي في البلـدة، وهو نـوع السمك نفسـه الذي أكـل المسيح منه بعد قيـامته، عندما جاء إلى حوارييـه وهم يصطادون السمك

وقال لهم: «أيها الأولاد أليس لديكم مانأكله»؟ وأجابوه «كلا»، فقال لهم: «أرموا الشباك على الجانب الأيمن»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

٧٩— منابع الأردن

يوجد من منابع الأردن والجسرين إلى المكان الذي استحم فيه المسيح، والذي استحمت فيه العذراء المقدسة، والذي استحم فيه الحواريون، ستة فراسخ، ومن أماكن الاستحمام المقدسة هذه إلى بلدة طبرية فرسخ واحد، وبلدة طبرية واسعة جداً، طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد، وقائمة على شاطىء البحر، وصنع ربنا المسيح هناك عدداً من المعجزات، ويرون في وسط البلدةالمكان الذي شفى فيه المجذوم، وهناك أيضاً كان بيت حماة بطرس، وقد دخله يسوع وشفاها من الحمى المستمرة، وقد بنوا هناك كنيسة مستديرة كرسوها للرسول بطرس، وهناك أيضاً بيت سمعان المجذوم، والمكان الذي غسلت فيه المحظية قدمي ربنا يسوع المسيح الطاهرتين بدموعها، وجففتهما بشعرها، وبذلك تلقت الغفران لذنوبها الكثيرة، وفي هذه البلدة بالذات شفى المرأة المقعدة، وهناك حدثت معجزة قائد المائة، وهنا أيضاً أنزلوا الرجل المريض من خلال السقف المحطم، وهنا كان محسناً إلى المرأة الكنعانية، وينبع نبع بارد جداً، ماؤه نقي، ويخرج من كهف تراجع إليه المسيح عندما رغبوا في جعله ملكاً للجليل، وقام بمعجزات أخرى كثيرة في هذه البلدة، وفي هذه البلدة نفسها ضريح النبي إلياس بن يهوشافاط، ويوجد أيضاً قرب الطريق ضريح يوشع بن نون، وهناك على مقربة من البحر، باتجاه الشرق، وعلى رميه سهم من البلدة، صخرة كبيرة وقف عليها المسيح، عندما علّم الناس، عندما بادروا إليه مسرعين من شواطىء صور وصيدا، ومن المدن العشرة، ومن الجليل، وأرسل من هناك الناس إلى حوارييه الذين عبروا في قارب إلى الجانب المقابل، بينما بقي يسوع، ومشى بعد ذلك على وجه الماء وكأنه يسيرعلى الأرض، ووصل إلى الناس على

الشاطىء المقابل قبلهم، وعندما وصل هؤلاء ووجدوا يسوع هناك قالوا له: «أيها المعلم متى وصلت»؟، فأجابهم: «هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع»، (متى: ١٩/ ٢٦)، ويوجد عشرة فراسخ عبر البحر من هذا المكان إلى طبرية، فهناك بقعة من الأرض مرتفعة تبعد فرسخاً عن البحر.

٨٠— *المكان الذي أشبع المسيح فيه خمسة آلاف رجل*

وهذا المكان قائم في سهل مغطى بالعشب: هناك أشبع المسيح خمسة آلاف رجل، دون عدّ النساء والأطفال ، أشبعهم بخمسة أرغفة، وعبوة اثنتي عشرة سلة من الكسر.

٨١— *المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته*

ليس بعيداً عن شاطىء بحر طبرية، عند سفح جبل، يقع المكان الذي ظهر فيه المسيح لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته، ووقف إلى جانب البحر، وقال لهم: «أيها الأولاد هل لديكم مانأكله» وأجابوه: «لا» فقال لهم: «ارموا الشبكة على الجانب الأيمن كما أخبركم، ولسوف تجدون»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

ورموا وكانوا الآن غير قادرين على سحبها لما فيها من أعداد هائلة من الأسماك، وعندما جلبوها إلى اليابسة وجدوا مائة وثلاث وخمسين سمكة، ورأوا قرب الشبكة خبزاً وناراً وسمكاً مشوياً، وأكل المسيح الوجبة، وأعطاهم ماتبقى، ويوجد هناك كنيسة مكرسة في هذا المكان على اسم الرسل المقدسين، وعلى مقربة من هناك بيت مريم المجدلية المقدسة، التي استخرج منها يسوع سبعة شياطين، ويدعى هذا المكان المجدل.

٨٢— *بلدة بيت صيدا*

ويوجد في الجبال على بعد قليل، مدينة بيت صيدا، وهي مدينة أندرو

وبطرس، وهي أيضاً المكان الذي جلب فيه ناثان ايل إلى بطرس وأندرو.

٨٣— *المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حوارييه الذين كانوا يصطادون السمك*

ويوجد على شاطىء البحر مكان اتجه منه المسيح نحو أندرو وبطرس ولدي زبداي، اللذان سحبا شبكتيهما وجمعاها، وهناك لاحظا يسوع فتركا قاربهما وشبكتيهما وتبعاه، وكانت قرية زبداي، والد يوحنا ملاصقة للبحر، وكذلك بيت القديس يوحنا الانجيلي، وهناك طرد المسيح فرقة من الشياطين من انسان، وأمرهم أن يدخلوا داخل قطيع من الأوز أغرقوا أنفسهم في البحر.

وتقوم قرية كفرناحوم على مسافة قصيرة من هناك، ويجري على مقربة نهر كبير يصدر من بحيرة جنسار (الحولة)، ويصب في بحر طبرية، وبحيرة الحولة واسعة جداً هي أربعين فرسخاً في الطول والعرض، وعلى مقربة من هذه البحيرة بلدة اسمها الحولة، وهي السبب في أن البحيرة تدعى الحولة.

٨٤— *بلدة ديكابولس*

وهناك بلدة أخرى هناك، تحمل اسم ديكابولس (الأسقفيات العشر)، وعلى مقربة من البحيرة مكان وعظ فيه يسوع الناس الذين جاءوا إليه من الأسقفيات العشر، ومن شاطىء صور وصيدا، وأتى الانجيل على ذكر هذه البقعة، وصنع يسوع قرب البحيرة عدداً كبيراً من المعجزات الأخرى.

٨٥— *جبل لبنان*

وعلى الطرف الآخر من البحيرة، باتجاه الشمال الشرقي، هناك جبل واسع ومرتفع قمته مغطاة بالثلج حتى أثناء الصيف: إنه يدعى لبنان.

وهو ينتج بخور لبنان والراتنج الأبيض، وينبع من هذا الجبل، جبل لبنان اثني عشر نهراً واسعاً، يسير ستة منها باتجاه الشرق وستة باتجاه الجنوب، وتصب الستة الأخيرة في بحيرة الحولة، وتتجه الستة الأخيرة باتجاه انطاكيا الكبرى، وتدعى هذه البلاد بلاد الرافدين، أي البلاد القائمة بين النهرين، وحران التي خرج منها إبراهيم، واقعة فيما بين هذين النهرين، وتغذي هذه الأنهار بحيرة طبرية بشكل واسع، فمنها يصدر ذلك النهر الواسع الذي يصب في بحر طبرية، ويزيد من حجم ماء البحيرة التي — كما قلت أعلاه — يصدر منها نهر الأردن.

ولم أستطع الوصول إلى جبل لبنان خوفاً من الكفار، لكنني كونت فكرة جيدة عنه من خلال أدلائي المسيحيين الذين عاشوا هناك، ولم يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك، لأن عدداً كبيراً من الكفار يسكنون في ذلك الجبل، ورأيناه فقط، ورأينا أحواز بحيرة الحولة عن بعد، ويوجد بين بحر طبرية وبحيرة الحولة، فرسخان، وتقع الحولة إلى الشمال الشرقي من بلدة طبرية.

٨٦— *جبل الطور*

يقع جبل الطور والناصرة إلى الغرب من بحر طبرية، وهناك ثمانية فراسخ واسعة إلى جبل الطور، وماعلى الانسان سوى أن يعلو ظهر أحد الجبال ويتسلق آخر ارتفاعه خفيف، ويعبر بقية الطريق السهل وصولاً حتى الطور، وجبل الطور عمل رائع من أعمال الله، لايستطيع الانسان أن يصفه فهو جميل جداً، ومرتفع كثيراً، وعظيم للغاية، وله شكل كومة قش، ويرتفع بشكل جليل في وسط سهل رائع، وهو منفصل عن بقية الجبال الأخرى، ويجري نهر في السهل عند سفحه، وتنمو على سفوحه جميع أنواع الأشجار: زيتون، وتين، وأشجار الخروب بأعداد كبيرة، وهو أعلى من جميع الجبال الأخرى من حوله، وهو منفصل تماماً عنها، ومساحته معتبرة، وهو يقف بشكل جليل في وسط سهل مسكون،

ومستدير بعناية مثل كومة قش، ويساوي ارتفاعه من القمة إلى الأسفل أربع رميات سهم، وأكثر من ثمان رميات من القاعدة حتى القمة، وهووعر وهذا يجعل تسلقه منهك وصعب، وينبغي تسلقه بشكل حلزوني على طريق وعر جداً، فقد بدأنا بتسلقه في الساعة الثالثة من النهار، وتسلقنا بكل نشاط، وبصعوبة وصلنا إلى قمة هذا الجبل المقدس في الساعة التاسعة، وفي أعلى نقطة منه، نحو الجنوب الشرقي، هناك بقعة مرتفعة مثل رابية صخرية، أخذت شكل قمة مخروطية، وهذا هو مكان تغيير هيئة المسيح، ربنا، وتجليه على الجبل، ويوجد هناك في الوقت الحالي كنيسة جميلة مكرسة للتجلي، وكنيسة أخرى إلى جانبها باتجاه الشمال، وهي مكرسة للنبيين المقدسين: موسى وإلياس.

٨٧— *المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح*

يحيط بمكان تجلي المسيح وتغيير هيئته أسوار حجرية متينة مع بوابات معدنية، وكانت المنطقة من قبل مقر أسقفية، وهي الآن مقر دير لاتيني، ووفرت ذروة الجبل مكاناً منبسطاً جيداً، لكنه صغير قائم أمام هذا الموقع المغلق، وإنه والحق يقال لنعمة عظيمة من الرب أن وفرة من الماء يمكن وجودها على هذا الارتفاع، كما أن الجبل كله مغطى بحقول جميلة مع أعداد كبيرة جداً من أشجار الفواكه، والمنظر من القمة واسع جداً وفسيح.

٨٨— *كهف ملكيصادق*

ويجعلونك ترى على جبل الطور موضع منبسط، عنده كهف غيراعتيادي قدّ في الصخر،مثل قبو له نافذة صغيرة في سقفه، وفي قعر الكهف وباتجاه الشرق هناك مذبح، وباب الكهف صغير جداً، وتنزل إليه بوساطة درجات من الجهة الغربية، وتنبت أمام المدخل شجرات تين صغيرة، وهناك من حولهن أنواع أخرى من الأشجار، وكان هنا فيما

مضـى غابـة واسعة، لكـن الموجـود الآن شجيرات صغيرة فقط، وسكـن ملكيصادق المقـدس في هذا الكهف الصغير، وهنـاك زاره ابراهيـم ودعاه ثلاث مرات قـائلاً: «رجل الرب» فخرج ملكيصادق حامـلاً خبزاً ونبيذاً، وبنى مـذبحاً في الكهـف، وقدم قربـاناً من الخبـز والنبيذ حملـه الرب إلى السمـوات، وهناك بـارك ملكيصادق إبـراهيم، الـذي تولى قطـع أظافـره وقص شعـره، لأن ملكيصادق كان كثيف الشعـر، ومن هنا جاءت بـداية القـداس مع الخبـز والنبيـذ عوضـاً عـن الخبـز الفطير، حسبما قال النبـي: «أنت كاهن دوماً بناء على أمر ملكيصادق» (المزمور: ١٠٩/ ٤).

ويقع هـذا الكهف على رمية سهم جيـدة إلى الغرب من المكـان الذي تغيرت فيه هيئـة المسيح، وأبـدوا نحونـا في دير التجلي المقـدس كثيراً من الاحترام، وبعـدما استرحنـا هنـاك وتغدينـا زرنـا كنيسة التجلي المقـدس، وتعبدنـا المكان المقدس حيـث تغيرت هيئة ربنـا المسيح، وبعد مـاقبلناه بحب وسرور كبير، وبعـدما تلقينا التبريكـات من راعـي الدير ومـن جميع الرهبـان، غادرنـا الديـر المقدس، وقمنـا برحلـة زرنا فيهـا جميع الأمـاكن المقـدسـة في ذلـك الجبـل المقدس، ويمـر الطـريـق المؤدي إلى النـاصرة، والقائم إلى الغـرب من جبل الطور، مـن أمام كهف ملكيصـادق، وللمرة الثانية زرنا تائبين الكهف المقدس، وانحنينـا بأنفسنا أمام المذبح المقدس الذي شيـد من قبل ملكيصـادق وإبراهيم، وهـذا المذبح موجـود في هذا الكهـف حتى هـذا اليوم، وغـالباً مـاجاء ملكيصـادق المقدس إلى هنـاك للقيام بالقـداس، وأكد هذه الحقيقة لي جميع المؤمنين الذيـن يعيشون فوق هذا الجبل والذيـن يعبدون (المغارة)، ووقتها حمدنا الرب الـذي سمح لنا نحـن المذنبين والذيـن لانستحـق، بـرؤية هـذه الأمـاكـن المقدسـة، وأن نقبلهم بشفـاهنا المذنبـة، ونزلنـا بعد ذلـك من جبـل الطور إلى السهـل، وارتحلنا لمسافة فرسخين نحو الغرب باتجاه الناصرة.

ومن جبل الطـور إلى الناصرة هناك خمسة فراسخ، فـرسخان عبر السهل

وثلاثـة عبر الجبل، حيـث الطريق منهـك، فهو ضيـق ووعر جـداً، واعتاد المسلمون غير الأتقيـاء، الذين تـوزعت قـراهم فوق الجبـال والسهل، على الخروج من مـواطنهم وقتـل الرحالـة فوق هـذه المرتفعات الصعبـة، ومن الخطر الجواز من هناك مـن دون مرافقة جيدة، الأمر الذي لم يتـوفر لنا هذه المرة، لأننـا كنا ثمانيـة أفـراد فقط بـدون سلاح، لكـن وقـد وضعنا ثقتنـا بالـرب، فقد حمانـا برحمتـه، وأعاننـا بصلوات سيـدتنا العـذراء المقدسـة، فوصلنـا سالمين معافيين إلى مـدينة الناصرة المقـدسة، حيـث تمّ بوسـاطة تدخـل الملاك جبرائيل الإعلان لسيـدتنا العذراء المقـدسة، وحيث تـربى يسوع ونشأ.

٨٩— *بلدة الناصرة*

النـاصرة بلدة صغيرة قـائمة في واد في قلـب الجبـال، ويمكن رؤيتهـا فقط عندمـا يصبح الانسان فوقهـا، وترتفع في وسط البلـدة كنيسة واسعة وعاليـة، فيها ثـلاثة مـذابح، ولـدى دخولـك لها تجد على الجانب الأيسر، أمام مـذبح صغير كهف صغير لكن عميـق وله بابين صغيريـن، واحد في الشرق والآخـر في الغـرب، ومــن خـلالهما يمكـن الـدخــول إلى المغـارة والـوصـول إليهـا، وإذا مـادخـل الانسـان مـن البـاب الغـربي، يجد على الجانب الأيمـن حجيرة، لها مدخل ضيق، فيهـا عاشت العذراء المقـدسة مع المسيح، ولقد نشـأ وتربى في هذه الحجيرة المقدسة، التـي تحتوي أيضاً على الفـراش الذي تمدد عليـه يسوع، وهـو منخفـض كثيراً إلى درجة بـدا فيها وكأنه على سوية الأرض.

٩٠— *ضريح يوسف خطيب العذراء*

لدى الدخـول إلى الكهف نفسه بوساطـة الباب الغربي، يجد المرء على يسـاره ضريح يـوسـف قـرين مـريـم، الذي أدخـل إلى هنـاك بـاليديـن المقدستين للمسيح، وتتساقط نقاط مـن الماء الأبيض، مثل زيت مقدس،

من الجدار، قرب هذا الضريح، ويجمعها الناس من أجل معالجة المرضى.

٩١-الكهف حيث جلست العذراء المقدسة

في الكهف نفسه،قرب الباب الغربي،يوجد المكان الذي جلست عليه مريم العذراء المقدسة تغزل لونا أرجوانيا،أي تصنع خيطاً أرجوانيا، وعندها مثل أمامها رئيس الملائكة جبرائيل مرسلاً من قبل الرب.

٩٢-المكان الذي أعلن فيه رئيس الملائكة الأخبار الطيبة الى العذراء المقدسة

لقد ظهر أمام ناظريها بعيداً قليلاً عن المكان الذي كانت العذراء المقدسة جالسة عليه،وهناك من الباب الى المكان الذي وقف عليه جبرائيل ثلاثة سغنس،وأقيم فوق هذا المكان مذبح صغير مستدير على عمود،وتقام هنا القداسات.

٩٣-بيت يوسف خطيب العذراء

كان المكان الذي يحتله الكهف المقدس،بيت يوسف،وكل شيء حدث في ذلك البيت،ففوق الكهف هناك كنيسة مكرسة للاعلان،وكان هذا المكان قد هدم من قبل،وتولى الفرنجة اعادة البناء بعناية فائقة، ويعيش هنا أسقف لاتيني غني جداً،والمكان المقدس تحت اشرافه وحكمه،وقد استقبلنا بحفاوة،وقدم لنا لحماً وشراباً وأمضينا الليل في هذه البلدة،ونمنا جيداً،ونهضنا في الصباح التالي،فذهبنا الى الكنيسة لتقديم الاحترام للمعبد،ودخلنا الى الكهف وتعبدنا الأماكن المقدسة فيه،ثم غادرنا بعد ذلك البلدة،وتوجهنا باتجاه الشمال الشرقي فوصلنا الى بئر عميق جداً،فيه ماء كثير البرودة،وينزل الانسان اليه بوساطة عدة درجات،وهذا البئر مغطى بكنيسة مستديرةمكرسة لرئيس الملائكة جبرائيل.

٩٤-بئر الإعلان الأول

هناك رمية سهم جيدة من بلدة الناصرة الى هذا البئر المقدس فقرب هذا البئر تلقت العذراء المقدسة الاعلان الأول من رئيس الملائكة،وكانت قد جاءت لتنضح الماء،وعندما ملأت ابريقها،سمع صوت الملاك غير المرئي قائلاً: «أحييك،أيتها المليئة بالنعمة،الرب معك»، ونظرت مريم من حولها، ولم ترأحداً،لكنها سمعت الصوت فقط،فتناولت الإبريق وعادت مندهشة قائلة لنفسها:«مامعنى هذا الصوت الذي سمعته دون أن أرى أحدا»؟ ، وبعد عودتها الى بيتها في الناصرة جلست على البقعة المتقدم ذكرها،وأخذت تغزل خيوط الأرجوان،ووقتها ظهر رئيس الملائة جبرائيل إليها،ووقف على المكان المذكور أعلاه،وأعلن لها عن ميلاد المسيح،وقالوا هناك خمسة فراسخ من الناصرة الى قرية ايساوEsau (مشهد مابين الناصرة وكفر كنا)

٩٥-*قانا الجليل*

والمسافة من هذه القرية الى قانا في الجليل هي فرسخ واحد ونصف الفرسخ،وقانا في الجليل قائمة على الطريق الرئيسي،فهناك غيّر المسيح الماء الى نبيذ،وواجهنا هناك قافلة كبيرة كانت ذاهبة الى عكا، وبسرور التحقنا بها،وتوجهنا الى عكا،التي كانت بالعادة بلدة إسلامية،لكنها الآن في حوذة الفرنجة،وهي مدينة محصنة على شاطىء«البحر الكبير»،ولها ميناء جيد:والبلدة مزودة بشكل جيد بكل شيء،وتقع عكا الى الجنوب من الناصرة،والمسافة منها إليها ثمانية وعشرين فرسخاً واسعاً.

وبقينا أربعة أيام في عكا،وبعدما استرحنا بشكل جيد،وجدنا قافلة كبيرة متوجهة الى مدينة القدس المقدسة،فانضممنا إليها بأنفسنا،وسافرنا معاً بكثير من السرور،ووصلنا الى حيفا،ومن هناك زرنا جبل الكرمل،وعلى ذلك الجبل كهف القديس إلياس،النبي المقدس،وتعبدنا فيه،ثم سافرنا الى كفرناحوم،وذهبنا من بلدة كفرناحوم الى قيسارية فيليب(اقرأ:فلسطين)،وساير الطريق شاطىء البحر العظيم،أحياناً فوق

السهل،وأحيانـاً فوق الرمال وصولاً حتـى قيسارية،وأمضينا ثـلاثة أيام في تلك البلدة التـي عمّد فيها بطرس الرسـول كورنيليوسCorelius الذي عاش فيها.

وتوجهنـا من قيسـارية بـاتجاه اليسار لنـزور السامـرة،والمسافـة فيما بين البلدتين هـي عشرين فـرسخاً،ووصلنا في اليـوم التالي،في حـوالي منتصف النهار الى السـامرة،وذلـك أننا سرنا ببطـيء بسبب الحر الـذي أزعج كثيراً المسافـرين على أقدامهـم أثناء سيرهم،وأمضينا الليـل أمام بلدة السـامرة قرب بئر يعقوب،حيث تحدث المسيح مع امرأة سامرية.

٩٦ -*القدس*

وعنـدمـا استيقظنـا التحقنـا مجدداً بـالطريـق الـذي جئنـا عليـه مـن القدس،ووصلنا أخيراً الى المدينـة المقدسة سعداء،وفي سرور عـارم،وسمح لنا الرب بـالقيام بهذه الرحلة دونها أي ضرر،ومنحنـا بالوقت نفسـه فضل أن نرى بـأعيننا جميع الأماكـن المقدسة التـي زارها المسيح ربنا مـن أجل خـلاصنـا،وسمح لنـا نحـن المذنبين أن نلقـي نظـرة على هذه الأمـاكـن المقدسـة ،والترحال على أرض الجليـل الرائعـة وفي جميع فلسطين،ورحلنـا في جميع أرجـاء فلسطين بحماية من الفضل الـرباني وحراسةمـن صلوات العـذراء المقـدسـة دون أن يلحقنا أذى،واسـم فلسطين تعـرف بـه جميـع المنطقـة الواقعـة حول القـدس،وبتأييـد من عـون الرب زرنـا جميع هـذه الأماكـن دون أن نواجه الكفـار أو الحيوانـات الضارية، ولم يلحـق بنا أي شر،ولم أعان مـن أي مرض البته، بل كنـت مثل نسر يحلق عاليـاً،وشعرت بنفسي أننـي مـؤيـد من قبـل النعمـة الـربـانيـة،ومدعـوم بقـوة الأعظـم علواً،وإذاكنـت سأتفـاخر بـأي شيء فبعـون المسيح،وبضعفـي كما يقول الرسـول:«صارت قوتي كاملـةبضعفي»(أخبار الأيام الثـاني:١٢/ ٩)،كيف لي أن أنوه يامـولاي بما فعلته لأجلي أنا المذنب البائس،بـالسماح لي بزيارة هذه الأماكـن المقدسة ورؤيتها،وهكـذا تمكنت بعون الرب مـن تنفيذ كل

مارغبته بقلبي،وبتفحص جميع الأماكن الذي سمح لي برؤيتها،أنا عبده المسكين الذي لاأستحق.

سامحوني يا أخواني،ويا آبائي ويا سادي،ولا تزدروا الجهل الذي قادني الى وصف الأماكن المقدسة في القدس وفي أرض الميعاد بكلمات بسيطة ، وبدون براعة أدبية ، وإذا لم أكن قد كتبت وفق طرائق العلماء، على الأقل ليس هناك كذب ، وأنا لم أصف شيئاً لم أره بعيني نفسي .

٩٧ـ النور المقدس وكيفية نزوله على الضريح المقدس

فيما يلي وصف للنور المقدس الذي ينزل على الضريح المقدس ،

حيث تلطف الرب فأراه لي أنا عبده السيء والذي لا يستحق، لأنني رأيت بكل صدق بعيني المذنبتين كيفية نزول النور المقدس على الضريح المخلص لربنا يسوع المسيح ، وخطأ وصف العديد من الحجاج تفاصيل نزول ذلك النور المقدس ، فبعضهم قال بأن روح القدس ينزل على الضريح المقدس على شكل حمامة ، وقال آخرون بأن البرق من السماء هو الذي يشعل المصابيح فوق ضريح الرب ، وهذا غير صحيح لأنه لا يرى في تلك اللحظة لا حمامة ولا برق ، بل تهبط النعمة الربانية غيرمرئية من السماء وتضيء مصابيح ضريح ربنا وأنا سوف أصف فقط بشكل كامل من الصدق ما رأيته ، ففي يوم الجمعة ، بعد العشاء ، نظفوا الضريح المقدس ، وغسلوا جميع المصابيح الموجودة هناك ، وملأوا المصابيح بزيت صاف بدون ماء ، وبعدما وضعوا الفتائل، تركوا المصابيح بدون إشعال ، وثبتوا الأختام إلى الضريح في الساعة الثانية من الليل، وأطفأوا بالوقت نفسه جميع المصابيح وحوامل الشموع في كل كنيسة من كنائس القدس وفي يوم الجمعة نفسه ، دخلت أنا الذي لا أستحق في الساعة الأولى من النهار

إلى حضرة الأمير بلدوين ، وانحنيت أمامه حتى الأرض ، ولدى رؤيته لي وقد انحنيت، أمرني بطريقة صديقة بالاقتراب منه وقال : « ما الذي تريده أيها الراهب الروسي» ؟ ذلك أنه عرفني وأعجب بي ، لأنه كان رجلاً لطيفاً جداً ، ومتواضعاً ، وليس متكبراً ، وقلت له : « يا أميري ويا مولاي ، اسمح لي من أجل محبة الرب ،وتقديراً لأمراء روسيا، في أن أضع مصباحي على الضريح المقدس باسم جميع بلاد روسيا ، » ثم إنه بلطف خاص ورعاية أعطاني الأذن في أضع مصباحي على ضريح الرب ، وبعث بواحد من أعيان حاشيته معي الى المسؤول عن حفظ القيامة ، والى حافظ مفاتيح الضريح المقدس .

وطلب مني المسؤول عن القيامة مع حافظ المفاتيح أن أجلب مصباحي مليئاً بالزيت ، وشكرتها وبادرت مسرعاً ببهجة عارمة فاشتريت مصباحاً كبيراً جداً من الزجاج ، وبعدما ملأته بالزيت الصافي ، حملته قبيل المساء الى الضريح المقدس ، وقد وجهت الى حافظ المفاتيح المتقدم الذكر، الذي كان لوحده في مزار الضريح ، وبعدما فتح لي الباب المقدس ، أمرني بخلع حذائي ثم سمح لي بالدخول الى الضريح المقدس وأنا حافي القدمين ومعي المصباح الذي حملته ، ووجهني لوضعه فوق ضريح الرب ، وقد وضعته بيدي الخاطئتين على البقعة التي تشغلها القدمان المقدسان لربنا يسوع المسيح ، وكانت المصابيح الاغريقية موضوعة حيث رقد الرأس ، ووضعت المصابيح العائدة لدير القديس سابا ولجميع الديرة ، فوق مكان الصدر لأن العادة جرت أن يضع الاغريق وكذلك دير القديس سابا مصابيحهم هناك كل عام، وبفضل من الرب اشتعلت هذه المصابيح الثلاثة في تلك المناسبة، لكن المصابيح العائدة للفرنجة، والمعلقة فوق الضريح لم تتلق النور، وكنت بعدما وضعت مصباحي فوق الضريح المقدس وبعدما تعبدت وقبلت بدموع التوبة والتقوى المكان المقدس الذي تمدد عليه

جسد ربنا يسوع المسيح، بعد هذا كله تركت الضريح المقدس مليئا بالبهجة، وعدت الى حجرة خلوتي.

واحتشد الجميع في اليوم التالي، وهو يوم السبت المقدس، في الساعةالسادسة من النهار، أمام كنيسة القيامة المقدسة، وتجمهر الأجانب والمحليون من جميع البلدان: من القاهرة ومن انطاكية، ومن كل جزء من أجزاء العالم، واجتمعوا في ذلك اليوم في أعداد لاتحصى، وملأت الحشود المكان المفتوح حول الكنيسة وحول مكان الصلب، وكان الضغط مرعبا، والجيشان عظيما الى درجة ان عددا كبيرا من الاشخاص اختنقوا في وسط ازدحام الناس الذين وقفوا وبأيديهم مشاعل غير مشتعلة، ينتظرون فتح أبواب الكنيسة، وكان الكهنة لوحدهم في داخل الكنيسة، وانتظر الكهنة وكذلك الحشود، وصول الأمير مع حاشيته، وما أن فتحت الابواب حتى اندفع الناس يدفعون بعضهم بعضا ويصطدمون بالمناكب، وملأوا الكنيسة والشرفات، ذلك ان الكنيسة لم يكن بامكانها استيعاب مثل هذه الحشود، واضطر جزء كبير من الناس الى البقاء في الخارج حول الجلجلة ومكان الجمجمة، وامتدادا حتى البقعة التي اقيمت فوقها الصلبان، وامتلأ كل مكان بحشد لايعد ولايحصى ، وصرخ الناس في داخل الكنيسة وفي خارجها بدون توقف مرددين <<Kyrie eleison>> «ارحمنا يارب»، وكان الصراخ عاليا الى درجة ان المبنى كله ردد الاصوات وتنفس بها، وبكى المؤمنون وسكبوا دموعا كثيرة، حتى الذي امتلك قلبا من حجر ماكان بامكانه التمنع عن البكاء، وكان كل واحد يبحث في اعماق نفسه، ويفكر بذنوبه ويقول بشكل سري في قرارة نفسه: « هل ستمنع ذنوبي نزول النور المقدس»؟ وبقي المؤمنون هكذا ينوحون بقلوب مثقلة، وبدا الأمير بلدوين نفسه نادما ومتواضعا جدا، يذرف سيلا من الدموع من عينيه، ووقفت حاشيته من حوله واجمة قرب المذبح العالي، مقابل الضريح.

ففي حوالي الساعة السابعة من يوم السبت غادر الامير بلدوين بيته، وسار على قدميه نحو ضريح ربنا، وبعث الى نزل القديس سابا من اجل راعي دير القديس سابا ورهبانه، وبناء عليه انطلق راعي الدير يتبعه الرهبان وسار نحو الضريح المقدس، وذهبت انا غير الجدير معهم، وعندما وصلنا الى الامير حييناه جميعا، ورد علينا التحية ووجه راعي الدير وانا العبد الحقير، لنمشي الى جانبه، في حين مضى رعاة الديرة الآخرون والرهبان أمامه، وسارت الحاشية من ورائه، وهكذا وصلنا الى الباب الغربي لكنيسة القيامة، لكن الازدحام الشديد أعاقنا ولم نستطع الدخول، وبناء عليه أمر الأمير بلدوين عساكره بتفريق الحشود وفتح طريق لنا، ونفذوا هذا وفتحوا الزقاق الى الضريح، وبهذه الوسيلة تمكنا من الجواز من خلال الحشد، ووصلنا الى الباب الشرقي للضريح المقدس العائد لربنا، واتخذ الأمير مكانا له الى اليمين قرب درابزون المذبح العالي، أمام الباب الشرقي للمذبح، ففي هذه البقعة هناك مكان مرتفع مخصص للأمير، وأمر الأمير راعي دير القديس سابا أن يتخذ موقعا له خلف الضريح ومعه رهبانه والكهنة الأرثوذكس، أما بالنسبة لي، انا الانسان الوحيد، فقد وجهني لأجلس نفسي أبعد قليلا، فيما وراء أبواب الضريح المقدس، أمام المذبح العالي، حتى استطيع أن أرى من خلال الأبواب الضريح، وكانت هذه الأبواب التي عددها ثلاثة، مغلقة ومختومة بالخاتم الملكي، ووقف الكهنة اللاتين الى جانب المذبح العالي.

وفي الساعة الثامنة بدأ الكهنة الأرثوذكس، الذين كانوا وراء الضريح المقدس بإنشاد تراتيل قداس العشاء، ومعهم رجال الدين، والرهبان، والنساك، وشرع اللاتين الواقفين إلى جانب المذبح العالي يتمتمون مثلهم ويرددون بعدهم، وبينما كان الجميع يغنون على هذه الصورة بقيت في مكاني صارفا انتباهي نحو مراقبة أبواب الضريح، وعندما بدأوا يقرأون الـ <<paroemia>> (نص مقدس خاص بالأرثوذكس يقرأ

عـادة عشيـة الفصح) لأجـل السبـت المقـدس، وفي أثناء قـراءة المقطـع الأول، تـرك الأسقف يتبعـه الشماس المذبـح العـالي، وذهبا نحـو أبـواب الضريح، ونظـرا من خلال الكـوة، وعندما لم يريـا الضوء عادا، وعنـدما شرعـوا بقـراءة المقطع السـادس مـن الـ <<paroemia>> ، عاد الأسقف نفسـه الى باب الضريح المقـدس، لكنه لم ير تغييرا، وبـدأ الناس جميعا يبكون ويصرخون <<Kyrie eleison>> ، التي معناهـا «ارحمنا يارب» وفي نهاية السـاعةالتاسعة، عنـدما بدأوا يترنمون بقطعـة من أغنية الخروج، جـاءت سحـابـة صغيرة فجأة مـن الشرق، ووقفـت فـوق القبـة المفتوحة للكنيسة، وتسـاقط مطر لطيف فوق الضريح المقـدس وبللنا مع الـذيـن وقفـوا وراء الضريـح، وفي هــذه اللحظـة أضـاء النـور المقـدس الضريـح المقدس، الـذي أشـع بنـور باهـر، وضيـاء رائع، وعنـدها فتـح الأسقـف الـذي تبعـه أربعـة شمامسـه أبـواب الضريـح، ودخلـه ومعـه شمعدان الأمير بلدويـن ليشعله أولا من قبل النور المقدس، ثـم عاد بعد ذلك الى الأمير الـذي غير مكانـه، وأمسك الشمعـدان بيديـه وهو مسرور غاية السرور، وأشعلنا شمعداناتنـا من شمعدان الأمير، وأمررنا الشعلة الى كل انسان في الكنيسة.

ولايشبه هذا النـور المقدس اللهب العادي، لأنه يحترق بطـريقة عجيبة رائعـة، ويعطي ضيـاء لايمكن وصفـه، ولونـا أحمر يشبه لـون الزنجفـر «كبريتيد الـزئبق»، ومكـث الناس جميعا واقفين، وبـأيديهم الشمعـدانات المشتعلة، وهـم يرددون بصـوت مرتفع وبسرور عـارم: « لقد رحمنـا الرب» ولايمكـن لانسان أن يشعـر بسرور يضـاهي السرور الـذي يشعـر به كـل مسيحي في اللحظة التـي يرى فيها نور الرب المقـدس، والانسان الذي لم يشارك في روعة ذلـك اليوم لن يصدق الـرواية التي دونتها والحاويـةلكل ما شاهـدته، وفقط الرجال العقـلاء والمؤمنين هم الذين سيضعـون كامل الثقة في تصديق هذه الرواية، وهـم الذين سوف يستمعون بسرور إلى جميع

التفاصيـل المتعلقة بـالأماكـن المقدسـة، والصادق بـالقليل سـوف يكون صـادقاً بـالكثير، لكن بـالنسبة للشريـر وعديـم الثقة يبـدو الصدق دومـاً بـالنسبة لـه كذب، ويشهـد الرب والضريـح المقدس لـربنا على روايـاتي وعلى شخصي المتواضع، وكـذلك يفعل رفاقـي من روسيا، ومن نـوفغورد، وكييف وهـم: ايزيـاسلاف، وايفانوفتش، وغوروديسـلاف، وميخائيلوفتش والاثنين كاشكتش، وعدد كبير آخر ممن كان هناك في اليوم نفسه.

وأعود إلى روايتي: ومـا أن أشع النور في الضريح المقدس حتـى توقف الغناء، وصرخ الجميع: "Kyrie Eleison"، وتحركوا جميعاً نحـو الكنيسة بسرور عارم، يحملون الشمعـدانات المشتعلة في أيديهم، ويتـولون حمايتهم مـن الريـح، ووقتهـا ذهب كـل إنسـان إلى بيته، وبعـدمـا أشعل النـاس مصـابيح الكنـائس بـوساطـة شمعدانـاتهم، بقيـوا هناك لإكمال قـداس العشاء، في حين بقـي الكهنة لـوحدهـم وبدون مسـاعدة أكملـوا قداس العشاء في داخـل كنيسة الضريـح المقدس الكبيرة، وعـدنا ونحـن نحمل الشمعدانات المشتعلة إلى ديـرنا مع راعي الدير والـرهبان، وأكملنا قداس العشاء هنـاك، ثم توجهنـا نحو خلواتنا، ونحـن نحمد الرب لأنـه تنازل فأرانا نحـن الذين لا نستحق نعمه الـربانية، وتلقينا التحليـل، وإثر ذلك انطلقنـا في حـوالي الساعـة الأولى مـن النهـار في التـوجه نحـو الضريـح المقـدس، وقـد حمل الراعـي بيـده الصليـب والـرهبـان ينشدون تـرتيلـة: «رفضـت أيها الـواحـد الخالـد الـذهـاب إلى القبر»، وبعـدمـا دخلنـا إلى الضريح المقـدس غطينا ضريح الـرب المانح للحيـاة بالقبلات والـدموع المنهمرة، وشممنـا بوجـد ونشوة العطر الـذي خلفه حضـور روح القدس وحدقنـا بإعجاب بالمصـابيح التي كانـت ما تزال مشتعلة بعظمـة رائعة وضياء عظيم، وأخبرنـا الحافظ للضريح المقدس وحامل المفـاتيح وراعي الدير بأن المصابيح الثلاثـة التي وضعت في الأسفل على الضريح المقدس قـد اشتعلت، وكـانت الخمسـة مصابيـح الأخرى المعلقـة فوق الضريـح

مشتعلة، لكن نورهم اختلف عن نور الثلاثة الأولى، ولم يتملكوا ذلك الإشعاع الرائع، ثم غادرنا فيما بعد الضريح بوساطة الباب الغربي، وكنا عندما سرنا نحو المذبح العالي قد قبلنا الكهنة الأرثوذكس، وتلقينا التحليل، وإثر هذا غادرنا هيكل القيامة المقدسة مع راعي الدير والرهبان، وعدنا إى ديرنا للاستراحة حتى وقت القداس.

وفي اليوم الثالث بعد قيامة ربنا، ذهبت بعد القداس إلى حافظ مفاتيح الضريح المقدس وقلت: « بودي أخذ مصباحي»، وقد استقبلني بلطف، وجعلني أدخل إلى الضريح لوحدي تماماً، ورأيت مصباحي على الضريح المقدس ما زال مشتعلاً بلهب الضوء المقدس، وسجدت أمام المكان المقدس، وباستغفار غطيت المكان المقدس، حيث تمدد الجسد النقي لربنا يسوع ، بالقبل والدموع، ثم قمت بعد هذا بقياس طول الضريح وعرضه وارتفاعه حسبما هو الآن، وهو أمر لم يكن بإمكان أحد القيام به من قبل، وأعطيت «حافظ مفاتيح» ضريح الرب بقدر ما استطعت، وقدمت له بقدر ما توفر لي من إمكانيات، وذلك مجرد هدايا صغيرة وبسيطة، ولدى رؤية حافظ المفاتيح مقدار حبي للضريح المقدس، أزاح الألواح التي تغطي بعضاً من الضريح المقدس، حيث تمدد رأس المسيح، وقطع كسرة من الصخرة المقدسة، وأعطاها إليّ بمثابة تذكار مباركة، ورجاني بالوقت نفسه ألا أقول شيئاً حولها في القدس، وبعدما قبلت ضريح الرب ثانية، سلمت على حافظ المفاتيح، وحملت مصباحي وهو مليء بالزيت المقدس، وغادرت الضريح المقدس مليئاً بالغبطة، وغنياً بالنعمة الربانية، وحاملاً بيدي هدية من المكان المقدس، وذكرى من الضريح المقدس لربنا، ومضيت في طريقي مسروراً وكأني الحامل لثروة واسعة، وعدت إلى خلوتي مليئاً بالغبطة.

والرب يشهد والضريح المقدس أنني لم أنس في هذه الأماكن المقدسة أسماء الأمراء الروس والأميرات مع أولادهم، وكذلك لم أنس الأساقفة

ورعاة الديرة والنبلاء، أو أبنائي الروحيين وجميع المسيحيين، فقد تذكرت كل واحد، وصليت أولاً من أجل جميع الأمراء، ثم من أجل ذنوبي، والشكر لفضل الرب، الذي سمح لي، أنا الشخص غير الجدير لأن أكتب أسماء الأمراء الروس في دير القديس سابا، حيث يصلون الآن من أجلهم في أثناء القداسات، ومن أجل زوجاتهم وأولادهم، وها كم هي أسماؤهم: ميخائيل سفياتوبولك Sviatopolk [دوق كييف الأعظم: ١٠٩٣ — ١١١٣]، وفاسيلي فلادمير، وداود سفياتوسلافتش Sviatoslavitsch، وميخائيل أولغ بانكراسي Pancrace وسفياتوسلافتش Svi-atoslavitsch، وغلب Gleb أوف منسك، واحتفظت فقط بهذه الأسماء التي كتبتها في الضريح المقدس، وفي جميع الأماكن المقدسة، وذلك دون تعداد بقية الأمراء الروس الآخرين والنبلاء، وأقمت خمسين قداساً من أجل الأمراء الروس وجميع المسيحيين، وأربعين قداساً من أجل الموتى.

علّ تبريكات الرب، والضريح المقدس وجميع الأماكن المقدسة تكون مع الذين يقرأون هذه الرواية بإيمان وحب، وعلهم يتلقون من الرب الجوائز نفسها مثل الذين قاموا بالحج إلى هذه الأماكن المقدسة، وسعداء هم الذين شاهدوا وآمنوا، وسعداء ثلاثة أضعاف الذين لم يروا ومع ذلك آمنوا، فبالإيمان حصل إبراهيم على أرض الميعاد، لأنه والحق يقال يعدل الإيمان الأعمال الصالحة، وباسم الرب لا تلوموا أخواني وسادتي جهلي وسذاجتي، ومن أجل خاطر الضريح المقدس لربنا لا تفسدوا هذه الرواية، فلعل الذي يقرأ بحب يتلقى الجزاء من ربنا ومنقذنا يسوع المسيح، وليكن سلام الرب معكم جميعاً حتى نهاية الدنيا. آمين

فيتيلوس

مدخل

قسم الكونت دي فوغ Vogue (في ملحق لعمله العظيم "كنائس الأرض المقدسة") أوصاف الأماكن المقدسة التي كتبت خلال العصور الوسطى إلى فئتين: الفئة الأولى وهي التي تضم ما يمكن أن يعد انطباعات شخصية، وهو ما يمكن أن ندرجه الآن تحت عنوان رحلات،وتضم الفئة الثانية مؤلفات مختصرة لمؤلفين مجهولين، يمكن أن ندرجها الآن تحت عنوان أدلة (ج. دليل)، وهي قد صممت لتزود الحجاج بالمعلومات التي يتطلبونها، أو لتساعد الذين لا يمكنهم الذهاب للحج، لتكون لديهم بعض الأفكار عن مشاهد الأرض المقدسة، وأشهر كتب الفئة الأولى كتاب أركولف Arcolfus ، الذي عدّ كتاباً معتمداً في بابه من الأيام التي كتب فيها (حوالي سنة ٦٧٠م) حتى حل محله كتب أخرى كتبت بأعداد كبيرة في أيام الحروب الصليبية، مثل كتب: سيولف Saewulf، وجون أوف وورزبيرغ Wurzburg ، وجون فوكاس، وولبراند فون أولدنبيرغ Wilbrand Vonoldenburg ، وتواريخ الأخبار العسكرية مثل كتب ألبرت دي أكس، وغيوبرت دي نوغت، ووليم الصوري، وفولتشر دي تشارترز، وجاك دي فيتري، الخ. وبالنسبة للفئة الثانية لدينا كثيراً مما يمثلها، وعندما تعقد مقارنة فيما بين الكتابات التي كتبت أيام الحروب الصليبية، أو بعدها، يتضح على الفور أنها جميعاً استقت إلى أبعد الحدود من مصدر عام، فقد جرى نقل وتكرار بعض النصوص كاملة من قبل واحد ثم آخر، فآخر، وتبين للكونت دي فوغ أثناء أبحاثه وجود نماذج عدة من هذه الأدلة، عدلت أو غيرت من قبل كتاب خاصين لتوائم العصر، مع أوضاع الكتاب نفسه، ولاثنين من هذه الفئة أهمية خاصة، وأول نموذج منها ممثل في الكتاب الذي هو قيد الترجمة، ويعود بتاريخه إلى بداية القرن الثاني عشر م، وهو يظهر أوضاع

البلاد عند بداية الحروب الصليبية، وصنف الآخر في حوالي سنة١١٨٧، وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال اللاتيني لمدينة القدس المقدسة (سوف تتم إن شاء الله ترجمة كل النماذج المتوفرة)، وصنف النموذج الأول باللاتينية، والنموذج الثاني هو نموذج نورماندي — فرنسي.

وأقدم نسخة لدليل من الفئة الأولى، مما أمكن للكونت دي فوغ أن يحصل عليه، قد كتب فيما بين سنوات ١١٥١ و ١١٥٧، وهو موجود في مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (المكتبة الامبراطورية — المخطوطات اللاتينية رقم ١٢٩, ٥)، وذلك في نهاية تاريخ الراهب روبرت، ويبدو أن هذا المجلد قد كتب فيما بين السنوات المتقدمة أعلاه، ذلك أن قائمة الأمراء التي فيه تتوقف عند البطريرك فولتشر (١١٤٦ — ١١٥٧م)، والملك بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢)، وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس (١١٥١ — ١١٨٧م)، ويبدو أن الرسالة ترقى إلى تاريخ أبكر من هذا، فهي متقدمة على بناء جوقة المرتلين في الضريح المقدس (القيامة)، وجاءت بعد وقت قصير من تأسيس أخوانية رهبان الداوية، والتاريخ الذي اختتمت به كما يبدو أصلاً وتوقفت عنده هو من عهد بلدوين الثاني (ربما سنة ١١٣١)، وأضيفت الإشارات إلى الملك فولك والملك بلدوين الثالث من قبل كاتب متأخر، وعلى هذا يمكن أن نفترض أن تاريخها هو حوالي سنة ١١٣٠، ومصنفها غير معروف كلياً، ومع أنها معروفة تحت اسم فيتيلوس، من المؤكد تماماً أنه لم يكن كاتبها، وارتبط اسم الرسالة باسمه فقط بسبب أنه تولى إخراج نسخة تولى هو تحريرها، والرسالة الأصل كانت معروفة قبله، وهذا يمكن استنتاجه من نصها، وفيتيلوس نفسه نعرف القليل عنه، ويكتب اسمه أحياناً "فريتيلوس Fretellus والشيء الوحيد المؤكد حوله أنه كان رئيس شمامسة في أنطاكية في حوالي سنة ١٢٠٠م، ولقد اختصر النص الأصيل

اختصاراً كبيراً في النسخة التي حررها، خاصة في وصف صحراء التيه، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، وغير الأجزاء الواضح أنها ترقى إلى تاريخ أبكر، مثل ذكر بناء كنيسة في صور فهو قد أحل كلمة أسست محل كلمة تبنى، وأضاف بعض الخصوصيات الأخرى، ووصلتنا نسخ أخرى من الرسالة، فقد نشر ليون ألاتيوس Leon Allatius في سنة ١٦٥٣ كتاباً تحت اسم Eugesippus وهو وصف للأماكن المقدسة، وهو على الرغم من عدد من التصحيفات نص فيتيلوس نفسه، وهي حقيقة ذكرها م.دي فوغ، ليظهر السهولة الكبيرة التي نسبت بها هذه الرسالة إلى مؤلفين آخرين.

وفي التفاتة نحو الرسالة نفسها، نجد من الصعب قول كثير من الثناء على ترتيب موادها، وفي هذا المجال لا يختلف كاتبنا الذي لا نعرفه عن كثير من كتاب الحجاج، ويبدأ وصفه برواية عن مدينة القدس مع أماكنها المقدسة، والمواقع المقدسة في أحوازها، وأشار إلى مختلف البقاع في المدينة المقدسة، التي يتعامل معها غالبية الحجاج، ثم يأخذنا إلى بيت لحم استطراداً بشكل غريب وهو ما يزال يتحدث عن القدس وعن وادي يهو شافاط، وجبل الزيتون، ثم مرّ بشكل سريع إلى الأردن قرب أريحا، والبحر الميت، والخليل وأحوازها، ثم عاد إلى البحر الميت، ويأتي هنا على حديث طويل حول طريق الخروج، وفي أثنائه ذكر بعض الأساطير العجيبة، وقدم تفاسير غريبة حول أسماء المحطات في صحراء التيه، وجرى تبني هذه الشروح آنذاك للإثارة، وظلت هكذا حتى أوقات قريبة نسبياً، وبعد إكماله لهذه القائمة، والاشارة إلى بعض الأماكن التي كانت هامة في الأيام الأولى لاحتلال أرض الميعاد، نقلنا إلى دمشق، عاصمة سورية، ثم تابع نحو ينابيع الأردن، وأحوازها حتى بحيرة طبرية، والناصرة، وجبل الطور، والسامرة، وشكيم، والقدس، وجاءت إشارته هنا إلى المدينة المقدسة عابرة، حيث جاز من هذه المحطة إلى بيت لحم

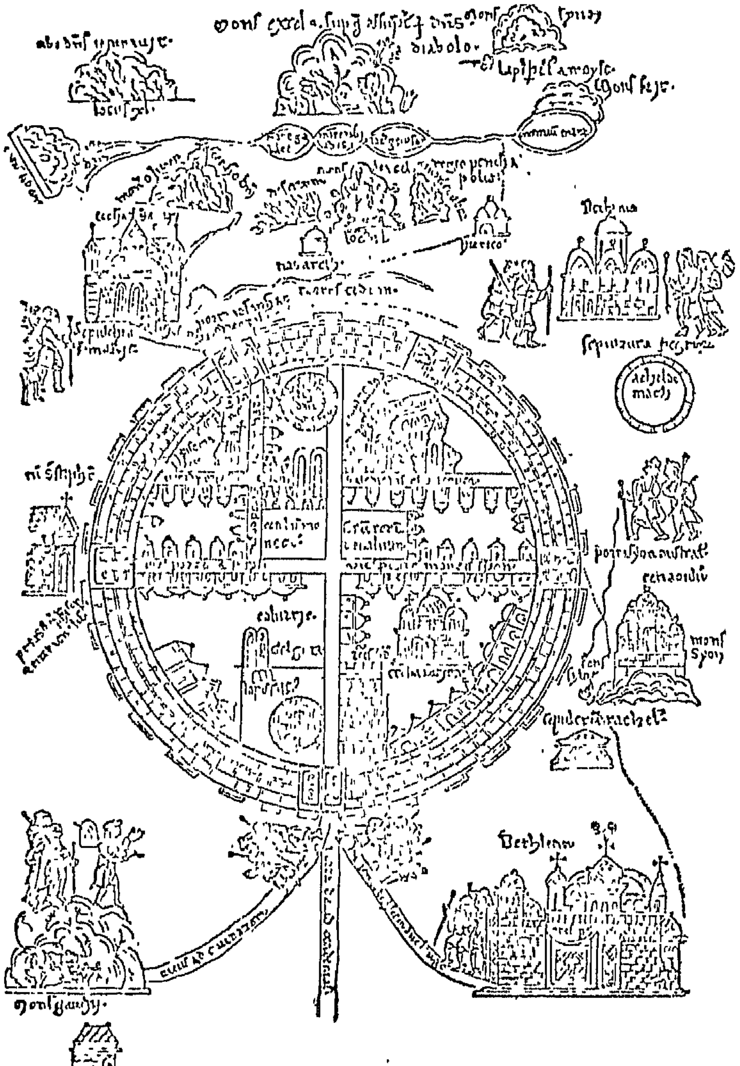
والمناطق المجاورة لها، وعاد من الجنوب إلى القدس، وقدم رواية متخلفة نوعاً ما حول تاريخها، ووضعها الطبوغرافي، ووصف إلى بعض الحدود مواقعها المقدسة، وعبر من القدس نحو الشمال، غير أنه عاد ثانية إلى بعض المواقع الجنوبية حول الخليل، ثم أخذنا من هناك إلى أريحا، وذلك قبل أن يتابع سيره عبر اللد إلى الشاطىء، فسايره إلى قيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وبعيداً حتى طرابلس، وختم رسالته بتجديد الإشارة إلى القدس، وأولى ذكر برج داود اهتمامه بربطه باسم غود فري دي بويلون، وأقحم هنا الأسطر التي كتبت على قبره في كنيسة القيامة، وهذه هي الإشارة الوحيدة حول هذا النقش معروفة بالنسبة إلينا، وأتى على ذكر خلفاء غود فري في فقرة ختامية ذكر فيها رواية عن الملك بلدوين الأول، وقد حذفناها مجاراة لما قام به م. دي فوغ.

وتنبع الأهمية الرئيسية لهذه الرسالة المجهولة المؤلف — كما أشرنا من قبل — من أنها تقدم لنا وصفاً لأوضاع الأماكن المقدسة أيام بداية الحروب الصليبية، ففي الحديث عن كنيسة القيامة — على سبيل المثال — ذكر المؤلف أن مقر جوقة المرتلين كان قيد البناء، وكان الدخول إلى البناء المستدير ما يزال ممكناً عبر أربعة أبواب في الجهة الشرقية، وتبنى الرواة الذين جاءوا من بعده أوصافه ونقلوها خطوة خطوة، وهذا من الممكن رؤيته بمقارنة بعض الفقرات المتعلقة بوصف شمال فلسطين لدى ما جاء عند جون أوف وورزبيرغ (الذي ستأتي ترجمة نصه فيما بعد إن شاء الله)، والتشابه بين النصين كثيراً وقريباً، وليس من المفيد الإشارة إليه بالتفاصيل هنا في الحواشي.

واعتمدت الترجمة على النص الذي ألحقه م. دي فوغ بكتابه، الذي تقدمت الإشارة إليه، (كنائس الأرض المقدسة، تأليف الكونت مليكيور دي فوغ، باريس ١٨٦٠، ص ٤١٢ ـ ٤٣٣)، واعتمد في إخراجه لهذا النص على مخطوطتين من رسالة فيتيلوس، ترقيان إلى القرن الثالث عشر،

وذلك مع المخطوطة الأقدم التي تقدم ذكرها، وإحدى المخطوطتين موجودة في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) في باريس، (F.de 574,Fo,172 s.victor,no)، والأخرى موجودة في المكتبة الامبراطورية في فينا (مخطوط — مجموع رقم ٦٠٩)، وجرى في حالة أو حالتين إكمال وصف القدس من قبل الكونت دي فوغ، والاستعانة بكتاب غريب، وجده في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) حوى رواية عن الحملة الصليبية الأولى، ووضع هذه الإضافات في الحواشي، وعلى العموم تمت ترجمة حواشي م. دي فوغ، وجرت الإفادة من نصوص الرحلات التي ستترجم، ومن كتاب لي سترانج «فلسطين في ظل الحكم الإسلامي».

هذا وجرى تزويد هذه الرسالة بمصور للقدس خلال القرن الثاني عشر، أيام جون وورزبيرغ وثيوديرك، أي بعد ثلاثين أو أربعين سنة من تاريخ تحرير رسالتنا الحالية.



القدس (مخطط القرن الثاني عشر)

JERUSALEM (PLAN OF THE TWELFTH CENTURY).

- ١١٣٠ -

وضع مدينة القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة نفسها أو في أحوازها

مدينة القـدس قائمة في المنطقة الهضبيـة ليهوذا، في بلاد فلسطين، ولها أربعة مداخل:في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال.

ويقع في الشرق الباب الـذي ينحدر الإنسان منه إلى وادي يهوشـافاط، ويذهب الإنسـان عبره إلى جبل الزيتون،وإلى نهر الأردن، ويقـع في الغرب بـاب داود، الـذي تواجـه إطـلالتـه البحـر، ومن ثـم عبر عسقـلان، وفي الجنـوب يقع البـاب الذي يـدعـى باب صهيـون، فعبره يخرج إلى مقربـة القديسة مـريم فوق جبل صهيـون،وفي الشمال هناك الباب الذي يـدعى باب القـديس اسطفـان، لأنه هناك رمـي بالحجـارة خارج المدينـة، وهذا الباب نادراً مـا يفتح، ذلك أننا دخلنا إلى المدينة المقـدسة عبرباب داود، الموجود على يمين الـداخل منه بـرج داود، وهو لم يكـن بعيداً عنا عنـدما دخلنا، ويقـع برج داود على الجانب الغربي، ويعلـو بارتفاعه فـوق المدينة كلها.

يقوم هيكل الـرب على مسافة قريبة، ويـواجه اتجاه شروق الشمس، في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة فـوق وادي يهوشافاط، وله أربعة أبواب: بـاب مـن الشرق، وباب مـن الغـرب، وبـاب مـن الجنوب، وبـاب مـن الشمال، وأعلى نقطة فيـه هي في صخرته في الـوسط، حيث هناك مـذبح، وهناك جرى تقديم الرب من قبـل والديه وتسلمه القديس سمعان، وإلى هنا اعتاد أن يصعد عندما كان يتولى وعظ الناس.

ويقع ضريح الـرب في أسفل المدينة، على يسارنا قليـلاً ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس (القيامـة) مستديرة الشكل، وبناؤها جميل، ولها أربعة أبواب، فتحتها مـواجهة لاتجاه إشراق الشمس، وضريح

الرب قائم في وسطها، وهو محمي بما فيه الكفاية، ومزين بشكل معقول، وفي خارجها، في الجهة الشرقية هناك موقع الجمجمة، وهو المكان الذي صلب فيه الرب، ويصعد الإنسان هناك ست عشرة درجة حيث يجد صخرة عظيمة، فهناك أقيم صليب المسيح، وفي الأسفل الجلجلة، حيث انساب دم المسيح إلى الأسفل من خلال وسط الصخرة، ومقام هناك مذبح مكرس على اسم القديسة أم الرب، وخارج هذا، وعبره في مواجهة لإتجاه مشرق الشمس، يقوم المكان الذي وجدت فيه هيلانة المباركة الصليب المقدس، وهناك مبنى كنيسة واسعة، [يومىء هنا إلى شرفة جوقة المرتلين في القيامة التي كانت يومها قيد الإنشاء] وفي الجانب الآخر وعبره في مواجهة الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى للفقراء والمعاقين، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وبجوارها كنيسة القديسة مريم اللاتينية، ويوجد في الكنيسة المشار إليها أعلاه، أعنى كنيسة المبارك يوحنا إبريق من الحجر حول فيه الرب الماء إلى نبيذ.

وكما سلف بنا القول يتفوق هيكل الرب بجماله على جميع الكنائس، وهناك فيه أيضاً إبريق ماء مصنوع من الرخام، فيه حول أيضاً الماء إلى النبيذ في قانا الجليل، وأسفل الصخرة القائمة في وسط الهيكل، البقعة التي كان فيها مرة قدس الأقداس، وإليها ينزل الإنسان ببضع درجات، وهناك كان زكريا يصلي عندما أعلن له الملاك جبرائيل عن ولادة المبارك يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً المكان الذي كان الرب جالساً فيه عندما جلب إليه الفريسيون المرأة التي أُمسكت وهي تزني، وعلى الجانب الأيمن أيضاً قصر سليمان [المسجد الأقصى]، وهناك مقابل اتجاه إشراق الشمس، إلى جانب القصر المذكور أعلاه، كنيسة القديسة مريم، حيث ينزل إليها الإنسان درجات كثيرة، فهناك مهد المخلص، وحمامه وفراش أمه، وعلى الطرف الأيسر (أي الشمال) للهيكل، فيما وراء الأسوار كنيسة القديسة حنة، أم أم المسيح، وفي الخارج قيل هناك بركة الغنم.

وليس بعيداً، خلف أسوار المدينة، إلى الجنوب هناك الكنيسة التي تدعى كنيسة مريم جبل صهيون (جامع النبي داود)، حيث غادرت المباركة جداً الجسد، وفيها مكان يدعى الجليلية، حيث ظهر المسيح بعد القيامة إلى حوارييه، ووقتها لم يكن توما موجوداً هناك، وفي الكنيسة المتقدم ذكرها، في الشرق، يوجد المكان الذي ظهر فيه ثانية بعد ثمانية أيام، وكانت الأبواب مغلقة، ولقد ظهر لحوارييه، ووقتها كان توما حاضراً وقال: «سلام لكم»، وأراهم يديه، وجنبه، ومنحهم أن يلمسوه، حسبما روى الانجيلي، وإلى الأعلى يصعد الإنسان بدرج إلى المكان الذي تعشى فيه مع حوارييه، وفيه المائدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك أعطاهم جسده ودمه للأكل في سبيل التحلل من الذنوب، وهناك أنارت روح القدس الحواريين في يوم عيد الحصاد، وعلى الطرف الأيسر هناك كنيسة القديس ستيفن، حيث دفن من قبل البطريرك يوحنا، بعدما جلب من كفر جمالا (بيت الجمال)، وأسفل قليلاً هناك جبل أكلداماك، أي حقل الدم، فهناك يدفن الغرباء، وعلى الطرف الآخر من الجبل، على منحدراته تقوم كنيسة القديس بطرس، حيث عندما صاح الديك بكى بحرقة لذنبه بالإنكار، وفي الأسفل أيضاً هناك نبع، يدعى بركة سباحة سلوان، حيث بناء على أمر من الرب، استرد الرجل الذي ولد أعمى بصره، ولا تمتلك مدينة القدس ماء للحياة غير هذا الماء.

وبيت لحم هي مدينة داود، وهي على بعد مرحلتين كبيرتين من القدس، في مقابل الساعة التاسعة (أي الجنوب الغربي)، وفيها كنيسة القديسة مريم، وهي مبنية بجمال معتبر، وفيها السرداب الذي حملت فيه العذراء مريم المباركة جداً بمخلص العالم، وفيه المزود الذي وضع فيه المسيح، وأمام السرداب مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مع الملوك الثلاثة، وما يزال أمام ذلك السرداب البئر الذي فيه ماء بارد وحلو المذاق، وقد قيل فيه سقط النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى مدخل

ذلك السرداب، زد على هـذا إن الذين يخرجـون من الكنيسـة يجدون قرب الباب سردابين آخرين، أحدهما أعلى من الآخر، ويرقد في السرداب العالي باولا المقـدسة جـداً، ويرقـد عند قدميهـا ابنتها، أقصـد العذراء المقـدسة جـداً،يوستوخيوم Eustochium ،وينـزل الانســـــان الى السرداب المنخفض بـوساطـة كثير من الدرجـات، وهناك الضريح الـذي يرقـد فيه الجسد المقدس لأرميـا المبارك كثيراً،والطبيب المشهور،وهـذه هي بيت لحم التي أيضاً أمر فيها هيرود بذبح الرضع بشكل وحشي.

وتقع الكنيسـة التي تعرف بـاسم كنيسـة القديسة مـريم في وادي يهو شـافـاط،وتقـوم في وسـط الـوادي بين القـدس وجبـل الـزيتـون،حيـث يـوجـدضريـح القـديسـة مريـم أم الـرب،فهنـاك قبر جسـدهـا المقـدس جـداً،الرسـول يـوحنـا المبارك،ويـوجـد خـارج الكنيسة المكـان المسمـى جيسماني،حيث السرداب الـذي خان فيه يهوذا الرب الى اليهـود،وعلى بعد حوالي رميـة حجر بـاتجاه اليمين مكان وحـي حيث صلى لأبيـه في ساعـه آلامه، وصار عرقه مثل نقاط من الـدم تتساقط نحو الأرض،وظهر له ملاك لطمأنته ومـواساته،وعلى قمة ذلـك الجبل مكان وحي، ومـن هناك صعد الـرب الى السماء،وبـالجوار هنـاك كنيسة أخــرى حيـث عمــل الـرب الصلاة(الرقيـة)الربانية،والى جانبهـا بيت فاج،الذي كان فيها مضـى قريه للكهنه،وعلى بعـد ميل واحد في مواجهـة الساعة الثـالثة تقوم قريـة بيت حنينا،حيث أقام المخلص لازاروس الميـت،وهنا ضريحه وهنا أيضاً كنيسة مريم المجدلية،التي كانت فيها مضى بيت شمعون المجذوم،حيث أعفاها الرب من ذنوبها.

ونهر الأردن بعيـد بعـض الشيء عـن القـدس، وعلى حـوالي العشريـن ميلاً، والـرحلة اليـه متعبة بمافيـه الكفايـة،زد على هذا،تبعـد مدينـة أريحا مــرحلتين عـــن الأردن،ويـــأتي الأردن الآن مـــن الشمال،ويجري نحـــو الجنوب،والى جـانـب الأردن تقوم كنيسـة القديـس يوحنا المعمـدان،حيث

يوجد فيهـا نحو عشرين راهباً أرثـوذكسيا يعبدون الرب،وتقـع العربية فيما وراء الأردن.

وليـس بعيداً عـن المكـان الـذي جرى تعميـد الـرب فيـه يقع البحـر الميـت،حيـث يصـب نهر الأردن،وكـان يـوجـد هنـا أربعـة مـدن هـي: سدوم،وعاموره،ودومـه،وساعور،التي أهلكت بعدالـة حكم الرب،ويعرف البحـر الميـت بهذا الاسم لأن مـامـن شيء يمكنـه العيش فيـه،ولايمكـن لـلأسماك أن تسبح فيـه أو تعيـش،كمالايمكـن لأي مخلوق الشرب منـه، وإذا ماطـار أي طائر فوق هذا البحـر،ووقع فيه فـإنه يموت،ويدعـى هذا البحر أيضاً باسم نهر الشيطان، ويقـع الجبل الذي صام فيه الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة على مسافة ثلاثة أميال من أريحا.

وصف الأماكن القائمة حول القدس

كـانت حبرون مـن قبل حـاضرة فلسطين منـذ مابعـد الفيضان حتـى وصول بني اسرائيل،وكانت مكان سكنى العمالقـة،ومدينة كهنوتية،ومدينة مأوى لسبـط يهوذا، وهي واقعـة على بعد ستة أميـال عن القـدس باتجاه الجنوب،على تخوم صحراء اليهـودية،وحدث في هذه المنطقـة أن خلق الله القادر أبـانا آدم،والمكـان محفوظ تحت آبـدة بعضها اصطنـاعي وبعضهـا طبيعي،وتأسست حبرون من قبل من قبـل العمالقة قبل سبع سنوات من تأسيسهم لمدينـة تنيس في مصر،ودعيت حبرون بهذا الاسم مـن خلال ممرا Mambre صديق ابـراهيم،وهناك جبل مشرف على المدينـة يحمل الاسم نفسه،وعنـد سفحه عـاش ابراهيـم لمدة طويلـة، ومايـزال موجـوداً هناك البلـوطـات التـي ظهـر لـه عنـدها الملائكـة الثـلاثـة،وقـد تعبـد واحـداً منهم،حيـث أخبرنا أن الثالـوث المتحد، يتوجب إجـلاله،وعندمـا اقتربوا إما بفضل الضيافة أو بفضل الحب،ليأخذوا أماكنهم الى مائدته،وضع هو أمامهم عجلاً من قطيعه مع حليب وزبدة، ومدفوع بهذه الرؤيا،بنى أول مذبح للرب،وعليـه ضحى له بمحبة،ويحتفل سنوياً الى جـانب البلوطات المتقدمـات الذكـر،احتفالاً عظيماً بـاسم الثـالوث المقـدس،وتبعاً لما ذكـره إرميـا انتشرت البلـوطـات منـذ ذلك الـوقـت نـزولاً الى أيـام الامبراطـور ثيودوسيوس،ومن الجذوع الحالية،تنمو كما يقـال على جذورها،ومهما كانت جافـة تبرهن أنها مـاتزال تحتفظ بخـواصها الدوائيـة،الى حد لـو أن راكباً حمل معه قطعة منها فإن حصانـه لن يخذله،وتدعى حبرون Arba ومعنى هذا بلغة المسلمين أربعة، وإليها يضاف كلمة «قرية » التي معناها باللغة نفسها «مدينة»،وهكذا صار اسم المدينـة«قرية الأربعة»وأول هؤلاء الأربعة آدم المخلـوق الأول،ثـم يليـه الآبـاء الـرئيسيين:ابـراهيـم،واسحـق ويعقـوب،فهـؤلاء يـرقـدون مـدفـونين في كهـف مـزدوج في حقـل

عفرون،ومعهم زوجاتهم الأربع:حواء ،وسارة،ورفقه،وليا، وحبرون واقعة قرب وادي الدموع،وحمل وادي الدموع هذا الاسم،لأن آدم ناح على ابنه هابيل لمدة مائة سنة،وولد له في حبرون شيث،الذي سيلد منه المسيح،وكذلك أبناء وبنات.

ويرى في حبرون الحقل الذي قيل من ترابه صيغ آدم،ومن هناك نقل من قبل الرب الى الجنوب ليتملك في جنات عدن،التي معناها بالاغريقية والعبرية«نبع البهجة»،ونرى في التواريخ القديمة أنه بعد سقوطه،ساقه الرب من هناك الى حبرون،بدون فخر،بل على شكل نفي،فعاد ليعمل بجد في تربته المحلية،وللتعاسة والعمل بالفلاحة.

ويحفر الذين يقطنون قرب تلك المنطقة في الحقل المذكور أعلاه،ويأخذون ترابه للبيع في بعض أجزاء مصر وشبه جزيرة العرب،حيث هناك حاجة اليه،لأنه يستخدم في أماكن كثيرة بمثابة دواء وتوابل،ومهما حُفر هذا الحقل المذكور،ومهما بلغ عمق ذلك وعرضه،نجد أنه مع نهاية السنة،قد تجدد بشكل كامل، وذلك بفضل الرحمة الربانية، ولون تربة هذا الحقل حمراء،ومن هنا ذكرت التقاليد العبرية أن آدم كان أحمر اللون،وفي حبرون كان الجدان كالب ويوشع أول من لامس أرض الميعادالمقدسة، وبعدما انتخب داود ملكاً من قبل الرب وعمّد من قبل صموئيل حكم في حبرون لمدة سبع سنوات،وعنه قال الرب:« وجدت داود رجلاً حسب قلبي»(أعمال الرسل:١٣/ ٢٢)،وولد في حبرون سته أولاد لداود هم: عمون صاحب أخنوآم،وسيلآن صاحب أبيغل،وأبسالوم صاحب ماآخا،وأدونياس صاحب أغيس،وسافتياس صاحب أبيثال،وجتران صاحب أغلال،وكانت حبرون ملكا لكالب بن يفنه الذي طرد من هناك أبناء عناق الثلاثة: شيشاي،وأخيمان، وتلماي، وفي المنطقة المرتفعة من حبرون في مقابل بلاد الفلسطينيين بلدة دبير،التي كانت تحمل من قبل اسم سفر،أي مدينة الكتابه،التي استولى عليها

عنثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من حبرون، باتجاه الجنوب،هناك مكان قبر لوط،ابن أخي ابراهيم.

وعلى عشرة أميال من حبرون.باتجاه بلاد الفلسطينيين،توجد بير السبع،وهي مدينة جميلة وذات قدر في اسرائيل وقبل ذلك بكثير،وهي تدلل على «بئر الميثاق»،فهناك أقام ابراهيم واسحق ميثاقاً مع أبيمالك،وزرع ابراهيم في بير السبع حديقة حيث كان يدعو اسم الرب السرمدي،لأنه أقام هناك لوقت طويل،ومن بعده أقام أيضاً اسحق، الذي ظهر له الرب هناك وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعد ستة أميال،باتجاه الجنوب،يوجد بيت فاروايل Bethef-aroel فيما بين حدود يهوذا ومصر،وهي بلاد الفلسطينيين والعربية، وقد كانت فيها مضى مدينة غنية ومليئة بالسكان،وهنا سكنت أولاً أم المخلص،عندما هربت من يهوذا الى مصر مع ابنها يسوع، وذلك أخذاً بتحذيرات الملاك،وبقيادة، خطيبها يوسف.

وعلى بعد عشرة أميال من حبرون،وباتجاه الشرق،تقوم بحيرة اسفلت،وتدعى هذه البحيرة باسم البحر الميت،وأيضاً باسم بحر الشيطان،لأنه بإغوائه وإثارته جرى تدمير المدن الأربعة الأكثر تعاسة وهي:سدوم،وعموره، ودومه،وساعور،بنار الكبريت،ولإسرافهن في أحوال الترف والغواية، ولاصرارهن على انحطاطهن أغرقن في تلك البحيرة، ومعنى كلمة سدوم:الجمهور الصامت أو العميان،وعموره: خوف الناس أو اللواطة،وساعور:البحر،أومحطة البحر،ودومه:الشهوة،وبعيد البحيرة على مسافة ميل منها،وفي إطار يهوذا تقع سيجور،ومعنى سيجور:صغير أو قليل، وتعني سيجور أيضاً بلع التي معناها امتص،وكذلك زرع، وهو اسم سرياني، وبتوحيد هذين الاسمين ودمجهما معا يصبح

الاسم«بلعزرع»،وسيجور هذه هي التي فرَّ إليها لوط من سدوم،تحت قيادة الملائكة،وقد حفظت من التعرض للنار وقلب عاليها سافلها استجابة لصلواته،وفي المخرج من سيجور،تحولت زوجة لوط الى تمثال من ملح،ولهذا مابرحت تترك أثرها هناك، وحدث على بعد من سيجور في جبل مقابل يهوذا،أن لوطاً كان قد شرب كثيراً،فتمدد مع ابنتيه،فأولدهما مآب وعمون،وتدعى سيجور أيضاً باسم«قلعة النخيل» ،وتدعى منطقة هذه المدن الخمسة باسم«بنتابولس»Pentapolis وذلك بسبب وجود هذه المدن الخمسة،وكانت البنتابولس،قبل أن يقلب عالي المدن سافلها مع المنطقة،وادياً مليئاً بالاشجار،ويحتوى على المدن نفسها،التي شن منها خدر لامور chodor laomorأو خدر لغومير chodolagomer ملك العيلاميين وعمرافيل Amrapfhel ملك شنعار Sennaar ،وعروج Ariogملك بنطش Pontus،وثدس THADES ملك الأمم، الحرب على بسا Basa ملك سدوم، وبرسا Barsa عمورة، وسنعاب Sennaabملك دومه، وسمبر Semeber ملك ساعور،وملك بلع، وقد هُزم هؤلاء الملوك،وسلب المنتصرون وحملوا معهم أسلاب شعب سدوم وعمورا، وكذلك أخذوا أطعمتهم، وحملوا معهم لوط ابن أخي ابراهيم أسيراً.

وبين سيجور وأريحا تقوم المنطقة التي تعرف باسم نجدي Engadi، وهناك أيضاً كروم نجدي، حيث ينمو البلسم بشكل رائع بوفرته وخصبه،ويوجد فوق بحيرة الاسفلت الكثير من الشب وأيضاً الكثير من القطران، والشب هو ماء ملح الأرض،ويتكون في الشتاء من تمازج الفطر الغروي والماء،وينضج بوساطة شمس الصيف،.... والقطران نوع من أنواع السوائل،له رائحة قوية،وهو ضروري لدهن الجمال لإزالة الجرب،ولطلاء الكروم لطرد الحشرات التي تأكلهم،وقرب بحيرة اسفلت هناك جبل يبدو كله وكأنه من الملح، ويستخرج من البحيرة أحجار

الطـواحين،وهي الآن ضرورية في تلك المنـاطـق،ويستخرج مـن البحيرة الحمر (القـار)الذي يستخدمه الأطبـاء،والبحيرة نقية الى درجة يمكـن من خلالها رؤية الأبنية والخرائب بشكـل واضح،لكـن ملوحتهـا شديـدة الى درجـة أنه لايمكـن لأي مخلوق تحملهـا، كما لايمكن لأي طـائر أن يطير عبرها،ويوجد في البحيرة جزيرة تنتج تفـاحات خضر فاقع لونها،يبدون من شكلهن أنهن شهيات جداً ، لكن ما أن يمسكهن الانسان حتى يتفتتن ويتحولن الى رمـاد، ويخرج منهن دخان كما لو أنهن مازلن يحترقـن، وغالباً ماظهـرت أخشاب الجزر مبعثـرة مثل الرمـاد والجمرات،وكـأنها تمثل المدن المحترقة،وتجلب الأخشاب من الجزر بوسـاطة السفن لتستخدم بالأغراض والحاجـات المحلية،وإذا حـدث وأمضى أحـد النـاس ليلة فـوق البحيرة وترك زجاجـة مملوءة بالنبيذ أو الماء على الأرض،يجدها في اليـوم التالي وقد تحولـت مـن الحلاوة الى المرارة وغـدت غير سـائغـة للشراب،وهنـاك في البحيرة الجزيرة المواجهـة لزدرم،التـي زارها سابـا،وأمضى فيهـا الصيام في خلوة،وهنـاك كاد أن يحترق تمامـاً بسبب إغـواء الشيطان،وذلـك بوسـاطة صاعقة نارية مفاجئة،وبقي بلا حياة لمدة سبعة أيـام غير أنه حفظ برحمة الرب،واسترد قـوته،ومـع ذلك بقـي فيها بعد بـدون لحية،وعنـدما عـاد الى بلده نادراً ماعرفه أخوانه أنه سابا.

ويلي مناطـق اسفلت نـزولاً نحو المنطقـة العربيـة مدينـة الصفا Sava القديمة التي هدمها خدر لغومير chdorlogomer،والبنتابولس المتقدمة قائمة على التخوم بين يهوذا والعربية.

وكانـت العربيـة في أيام خـروج بني اسرائيـل من مصر أرضـاً معزولـة وواسعة،وكـانت مـرعبة ولايمكـن المرور بها،ولاماء فيهـا،لكن تحت قيـادة مـوسـى،وبـرحمة مـن الـرب امتـلأت بـالينـابيـع،وتحولـت الى أرض خصبـة جـداً،وأبقى الـرب بنـي اسرائيـل في العربيـة لمدة أربعين سنـة،في اثنتين وأربعين محطـة،ولم تهترىء مـلابسهـم خـلال هـذه المدة كلهـا،

وأشبعهم الـرب من طـل السماء ومن المن،وكـان كل واحـد منهم يجمـع لأسرتـه وآل بيته جميـع الطيبـات المتنوعـة واليـابسة،وتـوليـت تبيان هـذه المحطات الهامـة وأحصيتهن ورتبتهـن حتى أدونهن في رسـالتي:ولابـد أن العبرانيين الحقيقيين قد أسرعـوا لدى اجتيازهـم أثناء عبورهـم من الأرض الى السماء،ولدى تسـابقهم في سبيـل ذلك،ولابد أنهم عنـدما تـركوا مصر الدنيا قد دخلوا الى أرض المعياد،أي الى أرض الأب السماوية.

وكانـت أول محطة هي رعمسيس،وهـي مدينة داخـل تخوم مصر،حيث منهـا دخـل حشـد بنـي اسرائيـل الصحـراء،في اليـوم التـالي لعيـد الفصح،وذلـك على مرأى مـن المصريين،الذيـن حرمـوا الى حد كبير مـن آنيتهـم الفضيـة والـذهبية،وتفسر كلمـة رعمسيـس أنها تعنـي: هيـاج أو عاصفة.

وكـانت المحطـة الثانيـة هي سكـوت،حيث خبـزوا للمرة الأولى خبـز فطير،ولأول مرة نصبوا خياماً،ومعنى كلمة سكوت خيام العهد،أو خيام.

وكانـت إيثام هـي المحطة الثالثـة،حيث مضـى الرب أمـامهم،ورأى شعبه في الليـل عموداً مـن نار،وظللتهـم الغمامة في النهـار،ومعنى كلمـة إيثام البهاءأو الكمال.

وكانت المحطة الـرابعة هي الحيروثFyairoth التي قبالة بعل صفون،وتعنـي كلمة حيروث«فم النبلاء»،وكلمـة بعل صفون«رب الـريح الشمالية».

وكـانـت المحطة الخامسـة هـي مـارة،وعبروا البحـر الأحمر بعد ثـلاثـة أيام،ومعنى كلمة مارا«مرارة».

وكـانت إيليـم هي المحطـة السـادسة،حيـث وجدوا اثنتـي عشر عين وسبعين نخلة.

وكانـت المحطة السابعـة ثانية بعـد بعض التجوال حـول البحر الأحمر والتيه هناك.

وكانت المحطة الثـامنة في برية سين،التي تمتد حتـى جبل سينا،ومعنى كلمة سين عليق أو كراهية.

وكانت المحطة التاسعة هي دفقة التي معناها:نبضة.

وكانـت المحطة العـاشرة هي ألـوش،التي معنـاها عـدم الرضـا،وتبرم الاسرائيليـون في البرية وتضـايقـوا من الجوع،وكـانـوا يتلقون السلـوى في المساء والمن في الصباح التالي.

وكانت المحطة الحادية عشرة هي رفديـم التي معناها عزل الشجاع أو اعـادة القوة، وهنـا عنـدمـا عطش النـاس نبـع الماء مـن صخرة حـورب Oreb،وهنـا حارب يـوشـع أمالـخ Amalech ،والى هـاهنا جـــاء جـرتــو الى مـوســى،وهنـا تمتـم النـاس ضـــد الـرب في أثنـــاء غيـاب موسى،وصنعوا عجلاً من ذهب،وعبدوه.

وكـانت بـرية سينـاء هي المحطـة الثـانية عشرة، ومعنـى كلمة سينـاء العليق،وجبل سيناء في العـربية مرتفع كثيراً، ومن الصعب الـوصول اليه، ويساوي طـريق الصعـود اليه ثلاثـة الاف وخمسمائة درجة،وقـال النساك المقدسـون جداً والـرهبان عـن سيناء ،الـذين سكنـوا هناك إنـه لم ينقطع ترداد الملائكة عليها وسيرهم عليها منذ أيـام موسى،ويخرج الدخان دوماً مـن جبل سينـاء مع لمعـان أضـواء ناريـة،وقالـوا عـن سيناء،ومـاقالـوه حقيقي،بـأن هناك نـاراً سماوية تطير حـول سيناء كـل يوم سبـت غير أنها لاتحرق،،وبعـض الناس لمسهـا لكنها لم تـؤذهم، وفي الغـالـب تظهـر على شكل غيمات بيضـاء،وتتحرك بشكل لطيف وتطـوق الجبل،وتهبط أحيـاناً بصوت مـزعج ومخيـف،ووقتها يفـر المقدسـون الذيـن يسكنون هنـاك من خلال السراديـب والخلوات الرهبانيـة،وهناك على قمة جبل سينـاء كنيسة

مبجلـة وجميلة،وهـي قائمـة على البقعة التـي أعطـى فيها الـرب موسـى الشريعة مكتوبة باصبعه على ألواح مـن الحجارة، وللكنيسة المتقدم ذكرها مكانـة عاليـة وتبجيلاً عظيماً الى درجة أن مـامن أحـد يجرؤعلى دخولها،أو حتـى على صعـود الجبـل،مـالم يقـم بـاجـراءات القبـول بـالاعتراف ثـم بمجاهـدة النفس بالصـوم والصلوات، والرهبـان والنساك هناك متـدينون الى درجة عـالية حتـى أنهم يعبدون الـرب بإرادتهم لـوحدهـم وبدون أي ضغط جسـدي أو عقلي،وسمعتهم رفيعـة جداً،فهـم موضـع الاحترام من تخوم أثيـوبيـا الى حـدود بـلاد الفـرس،ويطـرى عليهـم بكـل لسـان شرقـي،ويتصرفون بممتلكـاتهم بحـريـة وبهدوء فيما بينهم أنفسهـم،ولهم خلواتهم في أرجـاء مصر وفي فارس وحـول البحر الأحمر،وفي العـربية التـي تأتي منهـا كل طلباتهم ملباة بكـرم زائد،وهـم مبجلون جـداً الى درجة أن مامن أحـد يتجرأ على التفكير بايذائهم بأي شيء، وإذا مـاحدث وحاول أحد لمسهم بـأي سبيل،فانه يلقـى الانتقام ثقيلاً من الـرب،وهـم يسكنون حول الجبل،كل واحـد في خلوته،ولايعيشون بشكل جماعي بـل يتشاركون بالممتلكـات والمقتنيات، وفي سينـاء العليقة التي ظهـر فيها الـرب لموسى داخل لهب نار ماتزال آثارها قائمة.

وكان اسم المحطـة الثالثة عشرة هو قبروت هَتَأوَهَ(قبـور الشهوة)،فهناك اشتهى أبناء اسرائيل اللحم كثيراً، ولهذا السبـب أثاروا غضب الرب،فنال الناس ذلك،وهلك بذلك عدد كبير، ومن هنا نال ذلك المكان اسمه.

وكـانـت حضيروت هي المحطـة الـرابعـة عشرة،حيث انتقـص هـرون ومـريـم مـن قدرمـوسـى لأنـه تـزوج مـن امـرأة أجنبية،هـي ابنـة ملـك أثيوبيا،فضر بامن قبل الرب،فهنـا تزوج في وقت نصره العسكري في مدينة سبا Sabaالتي اسمها الآن مارو Maro،وذلك على مسافة من النيل فيما بين أستابوس Astabusوأستابورا Astabura ،وهي مدينة تنتج كثيراً من الثروات بفعل تعاون الحرفة والطبيعة،ومعنى كلمة حضيروت إهانة أو

عدوان.

وكانت رثمة هي المحطة الخامسة عشرة، ومعنى هذا الاسم:صوت أو باقلاء،ومن هنا جرى ارسال الاثني عشر جاسوساً الى أرض الميعاد التي جلبوا منها عناقيد من العنب.

وكانت المحطة السادسة عشرة هي كاموس Camoth التي معناها : توزيع الرمان(رمون فارص).

والمحطة السابعة عشرة هي لبنة، والتي معناها باللاتينية:في الجانب

والمحطة الثامنة عشرة هي رتسه التي معناها:الجام.(في سفر العدد:٣٣/ ٢١-رسه ومعناها ندى).

والمحطة التاسعة عشرة هي قهيلاته التي معناها:كنيسة .

والمحطة العشرون هي جبل شافر(جبل الجمال)التي معناها:خيانه،أي خيانة المسيح.

والمحطة الحادية والعشرون هي عربة التي معناها: معجزة(في سفر العدد:٣٣/ ٢٤-حرارة ومعناها مكان الرعب).

والمحطةالثانية والعشرون هي مقهيلوت،التي معناها: في الاجتماع أي في الكنيسة.

والمحطة الثالثة والعشرون هي تاحت التي معناها:خوف.

والمحطة الرابعة والعشرون هي قارح التي معناها:للخدمة أو للمرعى.

والمحطة الخامسة والعشرون هي مثقة التي معناها:بهجة.

والمحطة السادسة والعشرون هي حشمونة،التي معناها:سرعة.

والمحطة السابعة والعشرون هي أفيروث(مسيروت)التي معناها:روابط

أو نظام.

والمحطة الثامنة والعشرون هي بني يعقان التي معناها :أبناء الضرورة أو السحق.

والمحطة التاسعة والعشرون هي جدجاد التي معناها:رسول،أو حاد،أو ختان.

والمحطة الثلاثون هي يطبات التي معناها: طيبات أي المسيح.

والمحطة الحادية والثلاثون هي عبرونة،التي معناها:العبور.

والمحطة الثانية والثلاثون هي عصيون جابر،التي معناها:عظام الرجل .

والمحطة الثالثة والثلاثون هي برية صين،وهي قادس أو قادس بارن،ومعنى صين:مقدس.وهناك توفيت مريم أخت موسى وهرون ودفنت،وهناك ضرب موسى الصخرة بالعصا مرتين،وجرى هناك جدولين لسقاية تلك الأجزاء من العربية.

والمحطة الرابعة والثلاثون هي جبل أور في تخوم أرض أدوم،وهناك توفي هرون في مكان اسمه هورث.

وفي منطقة أور هناك جبل اسمه جبل عدن،الذي يعرف أيضاً باسم«جبل الرمل»،لأنه قائم في منطقة رملية،وهو جبل يصعب الوصول اليه،وله ارتفاع رائع،مشيد بشكل طبيعي وكأنه برج،قد فصل بشكل اصطناعي،ومحيطه أكثر من مسيرة يوم،ونادراً ما يمكن رؤية أشجار على طرفي الجبل،وتطير أنواع مختلفةوكثيرة من الطيور حول الجبل على شكل أسراب،مع أن الجبل يبدو أنه بدون خضار أو ماء، وبعيد تماماً عن الخصب،لأنه قائم في صحراء ،وبالنسبة لهذا الجبل أكد الذين يعيشون على مقربة منه بشكل يقيني، أنه في إحدى المرات كان صعود الجبل مفتوحاً لاثنين من الرجال وذلك بإرادة من الرب، وتمكن الأول بينهما

بخطوات سريعة وبحرية من اجتياز حدود الجبل، في حين لم يستطع الآخر بصعوبة الوصول إلى وسطه، فتعب وانقطع نفسه فجلس ولم يتابع تسلقه، في حين عبر الآخر الأجزاء العالية، وهو يتعجب من جمال الجبل، ومن الهدوء والسكون في البقعة، ومن نقاء الهواء، وجمال وروعة الورود،، ومن روائح الأعشاب الجميلة، ومن أنواع الأحجار الثمينة في مجاري الجداول الصادرة عن الينابيع، ومن صفاء الينابيع، ومن وفرة الفواكه التي تحملها الأشجار، ومن جمال تلك الفواكه، ومن تغريد وغناء الطيور، ومن المواقع الظليلة وخضارها، ورغب وهو مبتهج، وتعهد أن يعيش هناك وأن يموت أيضاً إذا ماسمح له الرب، ونظر من حوله فاندهش لغياب رفيقه، وبسرور عارم وبهجه، قام وهو يضحك في نفسه وصفق بيديه، فسارع نحو قمة الجبل، فدعا رفيقه، واستدعى صديقه الذي رغب تماماً في أن يسكن معه فوق ذلك الجبل، حيث — كما قال — هناك نبع دائم، ووعده أن مايدعوه إليه هو جنة ثانية، وصحيح أنه ألح كثيراً على رفيقه للالتحاق به، نحن لانعرف، هل أدهشت هذا الصديق مصاعب الجبل أو أنه دفع عائداً بموجب منع رباني، فتخلى عن الصعود والدخول وبقي حيث هو، وبعدما لاحظ وأدرك ماسمعه ومارآه، طلب الوداع من رفيقه، ونزل بعد صعوبات جمة، وعاد إلى حيث أتى، وحكى كل مارآه وماسمعه،وهناك حول جبل عدن جبال أخرى، وعدد كبير من التلال، والصخور والأكوام الحجرية، المنفصلة عن القمة نزولاً بوساطة أقواس، وكهوف وسراديب، ومغائر متنوعة قابلة للسكن، حيث قالوا بأن نساكاً أتقياء ورهباناً عاشوا فيها في الأزمان القديمة.

وينبع عند سفح جبل عدن نبع قصير وبلا جدول، وأنت إذاما رأيت هذا النبع تظن أنه لايكفي بكل صعوبة لإرواء فرسين أو ثلاثة، ومع ذلك إنه يكفي عدة رؤوس حيث تبرهن أن ماءه لايزداد ولاينضب.

والمحطة الخامسة والثلاثون هي صلمونة.

والمحطة السادسة والثلاثون هي فونون، وهاتـان المحطتان لاوجود لهما في السياق التاريخي.

والمحطة السابعة والثلاثون هـي عيبار على تخوم مآب، ومعناها: أكوام من العابرين.

والمحطـة التاسعـة والثلاثـون هـي أوبوت التـي تغيرت فصار اسمهـا ماجي Magi أو فيتونس Phitons.

والمحطة التاسعـة والثلاثون هي ديبـون جاد، التي قاتـل فيها اسرائيل ضد سيمـون ملك الآموريين وعوج ملـك باشان، ومعنى كلمـة سيمون: إغواء العين، وعوج: خاتمة، وباشان: فوضى.

(الصحيح: سيمون: يجرف كل ماأمامه، عـوج: الرقبة الطويلة: الناعم أو التربة الرملية)

والمحطة الأربعون هـي علمون دبلاتايـم، وهنا في مواجهة أريحا مـوقع حشبون حيث كتب موسى سفر التثنية.

والمحطة الحاديـة والأربعون هـي جبل عباريـم في مواجهـة نبوب، وفي عبـاريم مـات موسـى، وفيهـا دفن، غير أن معـالم قبره غير ظاهـرة في أي مكان، ويقـول العبرانيون إن إرميا وقد أعطـي رؤيا سقوط القـدس، فخبأ في كهف تحت جبل عباريم تابوت العهد مع محتوياته.

والمحطـة الثانيـة والأربعون هـي سهل مـآب عبر الأردن غير بعيد عـن أريحا، لكن الأردن بينهما، وهنـاك نصبوا خيامهم التـي امتدت من مـوطن البرية حتى بسّـاخاتياس Bessachatais في سهل مَـــاب حيث عسكرت اسرائيـل عندما تمت مبـاركتها من قبل بلعـام فوق جبل كـرنيم (كرك؟) في جبـل مآب، وتـرجمة هذه الكلمـة:«جبل انفصـل بسبب تمزق عنيف»، وأقام في المكـان نفسه في السهل الآنف الذكر بـالق — بناء على

نصيحة بلعام — امرأة للاكتراء حتى ينخدع بها اسرائيل. وهناك طعن فنحاص زمري والعاهرة برمح، وهناك جرى احصاء بني اسرائيل ودخلوا في معركة ضد المدينيين، وهناك عبروا الأردن، وبعد عبور الأردن كان أبناء رأوبين وأبناء جاد، ونصف سبط منسي أول من تسلم ملكاً في أرض الميعاد عبر الأردن، لكن يوشع نصب خيمته في الجلجال حيث وضع هناك تابوت عهد الرب، وتدلل كلمة جلجال على لف أو وحي، وهنا جرى تحذير بني اسرائيل ومنعهم من جلب الأصنام إلى الأرض المقدسة: ومن هناك قدموا إلى أريحا وحاصروها، ودمروها تدميراً كاملاً، ومعنى كلمة أريحا: قمر أو انقضى.

وبين الأردن وأريحا يقوم بيت أجلا Bethagla ومعنى هذه التسمية بيت الدائرة، لأن هناك التف أولاد يعقوب حول جنازة أبيهم وهم ينوحون وذلك عندما جلبوه من مصر إلى حبرون.

وبين أريحا والجلجال أم كنخور Emecanchor التي معناها: وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك رجم عخان حتى الموت لأنه أخذ أشياء ملعونة، وفي الجلجال ختن يوشع الناس مرة ثانية، وهم أقاموا الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد ثبت هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم في تخوم بوصترون Bostron التي هي بصرة التي كان منها برخئيل البوزي، لكن هناك بصرة أخرى في جبال أدوم، التي ذكرها إشعيا بقوله: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة؟» (إشعيا: ٦٣/ ١)، وأجزاء من أدوم هي طرخونة وعيطورة التي تطل على دمشق، ومن هاتين اتخذ فيليب — تبعاً للوقا الانجيلي — دويلة، وكان الذي أسس طرخونة هو عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام، ولهذا السبب عرفت باسم بلاد عوص، ومنها جاء يعقوب البصروي المبارك، الذي كان من قبل مطران أدوم، وأدوم هي جزء من سورية، وفي سورية

تقوم دمشق.

وكان أليعازر ابن وكيل ابراهيم قد أوجد دمشق في ذلك الحقل الذي قتل فيه قائن أخاه، ولهذا السبب تعرف دمشق باسم ابنة الدم أو قبلة الدم، وكانت دمشق من قبل عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وحملت سورية اسمها من سوري حفيد ابراهيم، وهو ابن قطوره Ceturah ، وتعرف دمشق أيضاً باسمها الثاني وهو أرام، وباسم ثالث هو أرفات Arfath ، ولدمشق مكانة عالية في سورية، لأنها كانت مطرانية من قبل، وتبعاً لزكريا عرفت دمشق باسم حدراخ، وسكن عيسو أجزاء منها، وامتلك أيضاً سعير وأدوم، ونسبة لأدوم يعرف جزء من سورية باسم أدمة، وفي سعير تقوم مدينة أدمة، وفي أدمة، ليس بعيداً عن دمشق، يقع جبل سعير، وسكن في سعير الحوريون الذين قتلهم خدر لغومر.

وفي أحواز أدمة، وعلى بعد ثلاثة أميال من الأردن يقع نهر يعقوب، وعرف بهذا الاسم بعدما عبره يعقوب عندما عاد من بلاد الرافدين، وإثر ذلك تصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول وخاطبه قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، ولذلك هناك أيضاً في دمشق كنيسة محترمة مكرسة على شرفه وهي تحت ادارة رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعة وعشرين ميلاً من دمشق تقوم بانياس، وذلك عند سفوح لبنان باتجاه الجنوب، وهي مدينة عظيمة تدعى أيضاً باسم بلنياس، وهذا الاسم مشتق من كلمة بيلينا Bilina بسبب جمال الموقع، وتعرف أيضاً باسم قيصرية فيليب، حيث تلقت من قيصر اسمه.

وعلى بعد (خمسة وعشرين) ميلاً من دمشق، وذلك باتجاه الشرق يقوم

مدخل وادي البقاع، وهناك تقوم بعلبك، وهي مدينة قائمة على موقع جميل جداً، وقد جرى تأسيسها من قبل سليمان، وبسبب خصب غابتها بمختلف الأشياء الجيدة وشهرتها، دعاها باسم «غابة لبنان»، فقد بنى فيها بيتاً من عاج، ومن هنا تعرف أيضاً باسم غابة لبنان.

وينبع عند سفح جبل لبنان فرفروأبانا،نهرا دمشق،ويفصل أبانا جبال لبنان ويتدفق عبر سهل عرقة،وفي تلك المنطقة يتصل بالبحر العظيم،والى هذه المنطقة انسحب يوستاخيوس Eustachius المبارك،لدى اعتزاله بعدما حرم من الزوجة والأولاد.

وعرقة مدينة لاترام تقريباً ،وقد أقامها عرقيوس الابن السابع لكنعان،عند سفح جبل لبنان،على بعد ثمانية أميال من مدينة طرابلس،وذلك باتجاه الشرق، وتشكل عرقة بداية فينيقية،التي حدها جبل الكرمل،وهناك تبدأ فلسطين، ويشطر لبنان سورية وفينيقية،ويجري فرفر خلال سورية الى ربلاتا (ربلة) أي أنطاكية،ويتدفق قرب أسوارها ليدع نفسه فيصب في البحر المتوسط في ميناء سلوقية (السويدية)أي القديس سمعان،وذلك بعد عشرة أميال من المدينة.وعند سفح لبنان،وليس بعيداً عن بانياس هناك«أر»و«دن» فمن هذين النبعين يتشكل نهر الأردن تحت جبل جلبوع،حيث جرى تعميد المسيح من قبل يوحنا،ويمتد من جبال جلبوع الى بحيرة الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن، ويعرف باسم الغور.

ويطلق بالعبرية(الصحيح بالاغريقية)اسم ألون على ذلك الوادي الواسع والمستوى الذي يحده من الطرفين استمرار امتدادات جبل لبنان الى صحراء فاران،ودون ألون هناك وادي بيسان،أي الوادي الذي يمتد من بيسان الى الأردن.

وفي الشمال ،فوق الأردن،هناك بعل،وبعل معون،وهما مدينتان لهما

شهرة واسعة،بنيتا من قبل رأوبين،ويوجد في الشمال بيت رام الذي بناه سبط جاد.وفي ألون،عبر الأردن،هناك عمون أي بيت حنينا الذي تعمد فيه يوحنا، وفي زاوية بيت حنينا هذه هناك:قرنايم وعشتاروث، فهناك-حسبما قالوا-سكن يعقوب،ويفصل الأردن فيما بين الجليل ومنطقة البترون،ومعنى كلمة الأردن:الانحدار،لأنه ينحدر دوماً عبر مجراه،ويرسل«دن» ماءه تحت أرض غالبية المنطقة من منبعه الى ميدان ليس بعيداً عن ثمان themanالتي هي مطرانية سوته(الحولة)،وميدان سهل جميل وخصب،فيه تظهر قناة«دن»بوضوح فوق الأرض،ولهذا السبب عرف باسم ميدان، لأن«دن»ينبعث ثانية في منتصفه.

وعند المسلمين تطلق كلمة ميدان على الطريق الواسع،ويقابلها باللاتينية فوريومForum،وللسبب التالي أطلق عليه اسم ميدان،ذلك أنه في كل صيف يحتشد عدد هائل من الناس هناك،ويقيمون في ذلك السهل،وهم يحملون أو يجلبون معهم كل شيء قابل للبيع والشراء،ويكون معهم قوة كبيرة من الفرس والعرب لحمايتهم، ولإطعام قطعانهم في هذه المراعي الخصبة جداً،وتتألف كلمة ميدان من كلمتي «مي»و«دان»،فكلمة «مي» معناها عند المسلمين الماء(في اللاتينية أكوا Agua)،ومعنى كلمة «»دان»نهر ،ويجري نهر «دن»من سهل دان الآنف الذكر الى الحولة.

والحولة الآن جزء من أرض الحصن(جمالا Gamala)،ومايزال يرى في الحولة آبدة يعقوب،وهي مسرح عيد سنوي يرعاه ويشارك فيه الأرثوذكس والسريان والمسلمون.

وبعد الحولة نعمان التي جاء منها سوفر Sophar النعماني، وينحرف«دن» المواجه لطبرية جانباً تحت مدينة جدر (أم قيس)،ويعبر السهول قرب الحمامات الطبية لسباينتومSpinetum(الحمة)ويتحد مع

«أر»تحت جلبوع.

وفي سبابنتوم انهزم جرفاس أوف باسيل،وهو الأمير الثالث لطبرية بعد تانكرد، وهو أيضاً انحدر من بيت فرنجي نبيل،انهزم أمام طغتكين ملك سورية وقد أخذه أسيراً وحمله الى دمشق،وهناك أسكر طغتكين نفسه الى أبعد الحدود،وفي هذه الحالة أمر بقطع رأسه، وبذلك حوله الى شهيد مشهور للرب،وعندما عاد الى نفسه في اليوم التالي شعر بالخجل وغضب لأنه أهلك مثل الرجل الجيد،فأمر بدفنه بدون رأسه،وأمر بقحفه فزينه بشكل جميل بالذهب وبالجواهر الثمينة واحتفظ به كتذكار عزيز عليه،ويشرب منه.

ويصبح «أر»على مقربة من بانياس بحيرة(الحولة)،ثم بعد ذلك يصير بحر الجليل الذي يبدأ بين كفر ناحوم وبيت صيدا،وجاء من بيت صيدا كل من بطرس وأندرو،ويوحنا ،وجيمس،وجيمس هو ابن ألفيوس وتقع على أربعة أميال من بيت صيدا كوروزينCorozainالتي سوف ينتعش فيها المسيح الدجال.

وتقع جدر على بعد أربعة أميال من هاهنا،وهي مدينة رائعة ،عنها قيل:«هو سكن مع سكان جدر»،ومعنى كلمة جدر: الظلام.

وتقع كفرناحوم على النهاية العليا من البحر،وعن وفائها تحدث المسيح،وعلى بعد ميلين من كفرناحوم يقع مهبط الجبل،الذي أقام فيه قداس وعظ للحشود،وهناك أيضاً أبرأ المجذوم.

وعلى مسافة ميل من ذلك المهبط المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل،ولهذا السبب يعرف المكان باسم«المائدة»،ومصاقب له المكان الذي أكل فيه المسيح معهم بعد قيامته.

ويقوم عبر شاطىء بحر الجليل جرجوسيا،وهو المكان الذي شفى فيه الذين تلبسهم الشياطين.وعلى يسار رأس البحر،في جوف الجبل تقوم

جنسار،ويحتوي المكان على ذهب،ومنه ينشأ مستنقع جنسار.

وعلى مسافة ميلين من جنسار يقع المجدل،الذي جاءت منه مريم المجدلية،وهنا زيادة على هذا يوجد كل من زبلون Zabulon ونفطليم Nephtalim التي جاء منها طوبياس، وكان في الأجزاء العليا من الجليل هذه عشرين مدينة أعطاها الملك سليمان بمثابة هدية إلى حيرام ملك صور.

وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث cynereth التي هي طبرية، وكان هيرود الأصغر قد أسس طبرية تشريفاً للقيصر طايبروس، وأطلق عليها اسمه، ونسبة إلى مدينة طبرية حملت البحيرة اسمها وباتت تعرف باسم بحيرة طبرية، ومحيطها يقارب رحلة يوم واحد، زد على هذا إن من سماتها نفسها أنها إذا لم تتلق قاذورات المدينة والقلاع المجاورة يصبح ماؤها غير قابل للشرب وله رائحة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (خطأ — الإشارة هنا إلى صفد ولعل بيت أوليا الآن: مثليا) التي جاء منها يودث الذي قتل أولوفرنس Olofernes.

وعلى بعد أربعة أميال من طبرية باتجاه الشمال تقع دوثيم (لعل المراد هنا خان يوسف وتقع دوثان قرب طولكرم) حيث وجد يوسف أخوته، وحيث هناك باعوه.

وتقع مدينة الناصرة على بعد اثني عشر ميلاً من طبرية، وهي حاضرة الجليل، وفيها نشأ يسوع وترعرع، ومعنى كلمة ناصرة هو: وردة، وفتح يسوع في الناصرة سفر يسياس Ysaias وشرح بعضاً منه لليهود، وعند أعلى نقطة من الناصرة، تجاه الشرق، ينبع نبع رائع اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء لحاجيات أمه ولحاجياته.

وعلى بعد ميلين من الناصرة تقع مدينة الصفورية، وذلك على الطريق

التي تقود إلى عكا، وقد نالت اسمها من صفت الذي أسسها، وكان من الصفورية حنة المباركة أم أم المسيح.

وعلى بعد خمسة أميال من الناصرة تقوم قانا الجليل (كفركنا)، وهي مدينة قديمة سكنها سبط أشير، وفيها حول يسوع عندما كان صبياً الماء إلى نبيذ، ومن قانا جاء شمعون الكنعاني وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميل واحد من الناصرة باتجاه الجنوب، هناك مكان يدعى Precipice(جبل قفزة)، وهو حافة جبل، رغب منها والدا يسوع أن يرمياه عندما اختفى عنهما.

وعلى أربعة أميال من الناصرة، باتجاه الجنوب، يقوم جبل الطور، وذلك في وسط الجليل، وهو جبل مرتفع له استدارة رائعة: وعليه تغير شكل يسوع وأظهر اشعاعه للذين كانوا معه، وعند منحدر جبل الطور التقى ملكيصادق بابراهيم وهو عائد من قتل أمالخ وقدم له خبزاً ونبيذاً، وعلى بعد ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل حرمون آخر في أدوم على مقربة من سلسة لبنان الشرقية، وتحت جبل الطور تعاهد ابراهيم وملكيصادق حول دفع العشور.

وتقع مدينة نين على بعد ميلين من الطور، وكانت فيها مضى من مدن بني اسرائيل، وعند بابها ردّ يسوع ابن الأرملة إلى الحياة، وعبر نين يقع جبل إندور (عين دور)، وفيما بين إندور والطور، في سهل نين تقوم كدوميم Kadumim ، أي مسيل قيسون (نهر المقطع)، ودون ضفته هزم باراخ الأدوميين، وذلك بناء على تحريض دبورة، لأن سيسرا Sysara كان قد قتل من قبل يثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من الطور، باتجاه الشرق، تقوم شارون Saron (تل صارم، أو سهل ابن عامر).

وعلى بعد خمسة أميال من الطور تقوم جرزيل، أي زرعين، وهي مدينة

قديمة، وفي جرزيل حكم أهاب وجيزبـل، وكان من جرزيل نبوت الذي قتل مـن قبل المتـآمرين التـابعين لجيزبل، وحـدث فيها بعد أن جـرزيل، قصفت من قبـل يهوه وقتل سكانها، وماتـزال بقاياها قـائمة هناك، وعلى مقربـة جرزبل يقوم سهـل مجيدو، فهناك هزم يـوشع وقتل من قبـل ملك السامرة، وحمل جسده إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى بعد ميـل من جرزيـل يقوم جبل جلبـوع (فقوعة)، حيـث سقط ومات كل من شاول ويوناثان، وفي جبل جلبوع هناك قرية اسمها جلبوع (جلبون).

وعلى بعـد ميلين من جلبـوع تقوم بيسـان التـي هي مطـرانية الجليـل، وعلى أسوار بيسـان جرى تعليق رأس شـاؤول، وفي الجليل قـرية هلكيسي Helchisi التي جاء منها النبي ناحوم.

وعلى بعـد خمسة أميـال من جـرزيل تقـوم بلدة جنين التـي تبدأ منهـا السامرة ويقع بين جنين ومجدو (لجون) غير (غور)، وهـو المكان الذي قتل فيه ياهو ملك اسرائيل أخزيا ملك يهودا (الملوك الثاني: ٩/ ٢٧).

وعلى بعد عشرة أميال من جنين تقع السامـرة، التي منها نالت المنطقة التي مـن حولها اسمهـا، وهي قد أسسهـا سنحريب، ومـن السامـرة جاء السامريـون، وكان أنطوخيوس قد هـدمها تماماً ثم أعاد بنـاءها هيرود بن أنتباتـر تشريفاً للقيصر أغسطـس، وأطلق عليها اسـم أوغسطة التـي هي بالاغـريقية سبسطية، وقـد قيل بأن يوحنـا المعمدان قد دفـن هنا فيما بين إليجا وعوبيـدا، وكان قد قتل من قبل هيرود عبر الأردن في قلعـة مكرونتا Macheronta، ويحكى بأن جسـده قد أحرق من قبـل الحواري يوليان، وذر رمـاده في الهواء، وكـان رأسـه قـد حمل منـذ القـدم إلى الاسكنـدريـة والذي حمله هـو مارسيلوس الكاهن، ثم حمل فيها بعـد إلى أكوتين، وذلك مع ثلاثـة من الأبرياء، والذي حملـه هو فلسيوس Felicius، وهو راهب

كان في أيـام بين، وكـان بين عـائداً آنذاك مـن مقتلة أوقعهـا بالـوندال، وبفضل فضائل يوحنـا المبارك عاد إلى الحياة عشرون من رجالـه كانوا قد سقطوا وقت القتـال، أما اصبعه التي أشار بها ليسوع ليـأتي للتعميد، فقد حملتها معها العذراء تغريس Tygris المباركة خلال جبال الألب، واحتفظ بها هنـاك وسط تبجيل عظيـم في كنيسة مـورين Maurienne، ومن سبسطيـة كانـت الأم التي أكلـت أولادها تحت ضغـط الجوع، ومثل هـذا حدث لمريـم في القـدس، وفي سبسطيـة تنبأ إليسيـوس Eliseus ، وأطعم مـائة نبي في كهوف، وفي السامـرة مدينة سـونا Suna (سنور بين جنين وسبسطية) التـي جاءت منهـا المرأة السامـرية، ومـن السامـرة كان شمعون مجوس.

وعلى بعد أربعة أميال مـن سبسطية تقع مديننة شكيم (نـابلس) التي بناها عمور Emor مع أولاده، وأطلق عليها اسـم شكيم، ودعيت فيها بعد بـاسم نيابـولس، أي المدينـة الجديدة، وهناك هـدم أولاد يعقوب شكيم، وقتلـوا عمور لغضبهم من مضـاجعته لأختهم، وفي شكيـم دفنت عظام يوسف التـي جلبت من مصر، وفي شكيم عند سفح جـرزيم، قرب نبع، صنع يربعام العجلين الـذهبيين، وقد وضع أحدهما في (دان) والثاني في بيت إيـل، ويحكي السامـرة والسوريـون أن أربعة جبال تظلـل شكيم هـي: جبـآل، ودان في الشرق، وبيـت إيل وجـرزيـم في الجنـوب، وهـذا ماكره جيروم بالنسبة لـلاثنين، قائلاً إنهما في أرض الميعاد عبر أريحا، يعني جبآل، حيث قام يوشع بناء على أوامر مـوسى ببناء مذبح من حجارة غير منحوتـة، وإلى جانبـه جرزيم، ومـن هذين يمكـن سماع أصوات الـذين يتبادلون تبريكات ولعنات بعضهم بعضاً.

وعبر شكيم تقـع لوزان (خـربة لـوزة) وذلك على بعـد ميل منـه، وقد أسست مـن قبل يبوس، وهي تعـرف بالعبرية بـاسم ألموس ulamaus، وهنا أراد إبـراهيم بنـاء على أمر مـن الملاك، أن يذبـح ابنه اسحـاق، وفي

حين انتظره ابنه الشاب مع الأتان عند سفح الجبل، تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وتقليداً لإبراهيم يقوم المسلمون بالتضحية هذه كل عام، ويضحي سلطان الفرس وهو أعظم رجل بينهم وكذلك أمير ممفيس (القاهرة) بأيديهما بجمال، وبعدما نام يعقوب في ذلك المكان، والرؤيا التي رأى فيها السلم، صار يطلق على المكان اسم «بيت إيل»، أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام العجل الذهبي هناك صارت تعرف باسم «بيت أول» أي بيت الصنم، كما أنها دعيت من قبل إبراهيم باسم «الرب يرى» وشيد يعقوب حجراً لتكون آبدة ذكرى.

وعلى بعد ميل من بيسان تقوم بلدة عسكر، وذلك على مقربة من الملكية التي أعطاها يعقوب لولده يوسف، وفيها يقوم نبع يعقوب، الذي هو بئر، وقال الانجيلي بأنه عبره تكلم يسوع مع المرأة السامرية.

وقد بنيت هناك كنيسة، وليس بعيداً عن بيسان مكان البطمة التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال من بيسان ثانزري Thanazare (تمنة) وذلك باتجاه الجنوب، وهي مدينة يوشع، حيث عاش ومات، وضريحه مايزال في هذا المكان.

وعلى بعد عشرة أميال من بيسان تقوم قلعة صنجيل (Egidius) التي نالت اسمها من الكونت صنجيل (الكونت ريموند الرابع، كونت طولوز، كان أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) الذي عسكر هناك مع جيش الفرنجة في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً من القلعة المذكورة أعلاه تقع القدس، التي هي أهم حاضرة مقدسة في يهودا.

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس تقع إفراته التي بنيت من قبل اليبوسيين، وقد سماها يعقوب فيما بعد بيت ليم (لحم)، أي بيت الخبز،

حيث هناك فيها ولد المسيح، وكان من بيت ليم (لحم): بوعز وعوفيد والد إيشا (يسي) والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، وفي بيت لحم، إلى جانب المهد هناك المزود الذي استلقى فيه الرضيع يسوع، وقد حمل إلى روما من قبل الملكة هيلانة، وبتشريف وضع في بازيليكا القديسة مريم الكبيرة.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وباتجاه الجنوب أشع النجم على الرعاة عندما ولد الرب، حيث أنشد الملائكة «المجد في الأعالي»، وإلى بيت لحم جاء الحكماء (المجوس) لعبادة الرب، وهناك أيضاً جرى ذبح الرضع من قبل هيرود.

ويرقد الجزء الأكبر من الأبرياء مدفونين على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من بيت لحم.

وعلى بعد ميلين من بيت لحم وباتجاه الغرب تقوم راما (بيت جالا) التي قيل عنها: «صوت سمع في راما». وفي بيت لحم يرقد جسد جيرومي المبارك مع جسدي باولا ويوستوخيوم Eustochium.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم تقوم تقوع التي جاء منها النبي عاموس الذي يرقد جسده هناك في ضريح، ومن أحوازها حمل النبي حبقوق بوساطة الملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الالتقاء للبحث في أشياء لاهوتية.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم، باتجاه حبرون تقوم كنيسة القديس كريتوث Karitoth (في خريطون قرب تقوع)، حيث عندما كان نفسه ينتقل من هذا العالم إنتقل جميع أصحابه تماماً معه، وحمل كريتوث المبارك فيها بعد إلى القدس حيث مايزال يرى في جسده.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وعلى الطريق المؤدي إلى القدس هناك قبراتا (قبة راحيل أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي ماتت فيه راحيل

بعدما ولـدت بنيامين، وكان موتها بـألام المخاض، فهناك دفنت مـن قبل يعقوب، وقد وضـع يعقوب فوق قبرها اثنـي عشر مصباحاً، وهي مـاتزال موجودة حتى الآن.

وعلى مسافـة ميل مـن قبراتا، بين بيـت لحم والقدس، وبـاتجاه اليمين هناك بيـت عرقة، وهـو المكان الذي قتـل فيه الملاك في ليلة واحـدة مائة وخمسة وثمانين ألفـاً من جيش سنحريـب، وقد هرب سنحريـب وعاد إلى نينوى وقتل من قبل ولديه.

وتبعاً للتقاليد العبريـة، قيل بأن أول من ولد لنوح هـو ابنه سام، الذي تدعـوه هذه التقاليـد باسم ملكيصادق، وهـو أول من أسس «سـالم» بعد الطوفـان حيث حكـم بمثابة ملـك وكاهن، واستـولى اليبوسيـون فيما بعد عليهـا وسموهـا «يبـوس» صدوراً عـن اسـم جدهـم يبـوس، وهو الابـن الثالـث لكنعان، ثم جـرى دمج كلمتي «يبوس» و«سـالم» فباتت تـدعى من قبل سليمان «يورو سلـوما» وكأنها «يبوس سلمونيا»، ودعيـت من قبل الشعراء «سـوليما» وباسـم «إيليا» مـن قبل «اليـوس هدريـان» لأنه هـو الـذي استردها، وهـي صهيـون التي معنـاهـا بالعبريـة «تـراقب» (يقـال معناها القمة أو المكان المشمس)، ومعنى كلمة أورشليم «رؤيا السلام».

والقدس هي حاضرة اليهوديـة، مثلما هي صرة الأرض، قائمة في وسط العالم، وبنـاء عليه قـال داود: «والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض» (المزمـور: ٧٤/ ١٢)، وتتفوق القدس على جميع مـدن العالم في الصلاة والإحسان، وحكم داود في القدس ثلاثـاً وثلاثين سنة بعد طرد شاؤول، ومن القـدس النبي يسياس Ysaias (زكريا) الـذي نشر مع الشجرة، وكان نشره من قبـل الملك منشا Manasseh ، وفي القدس جبل مـوريا، أي أرض بيدر خـرنام اليبوسي، التـي رأى داود عليها الملاك الضارب، والتي بني عليها فيما بعد الهيكل من قبل سليمان.

وبعد مرور ثـلاثة آلاف ومائة وسنتين من آدم وألـف وأربعمائة سنة من الطوفان وألف ومـائتي سنة من مغادرة ابراهيم لبـلاد الرافدين، وخمسمائة سنة وسنتين من خـروج بني اسرائيل من مصر، ومـائتين وأربعين سنة من تأسيس صور، بدأت أعمال البناء في هيكـل الرب، وقد بنى الملك سليمان الهيكل أي بيت إيل والمذبح الذي كـرس بتقوى واخلاص وانفاق لامثيل له، وهـذا الذي دنسه نبوخـذ نصر أيام الملك صـدقيا، ونهبه نهباً كـاملاً، وجعل عالي المدينـة سافلها، وأمر بصـدقيا وأولاده بأن يقادوا أسرى أمـامه إلى ربلة يعنـي أنطاكية، وهـي أيضاً قد عـرفت باسمين آخـرين هما حماة وأفـاميـا (تقـع ربلـة على الطرف الشرقـي مـن العـاصي على بعـد خمسـة وثلاثين ميلاً إلى الشمال الشرقي من بعلبك)، وهنـا قتل أبناء صدقيا وهو حـاضر، ثم حـرمه مـن عينيه، ودمـر بعـد هذا نبـوزردم صهيون والهيكـل تـدميراً كامـلاً، غير أنه أعيـدت عمارته فيما بعـد مـن قبل عـزرا الكاتـب ونحميا في ظل حكم قـورش ملك الفرس، وجرى تدمير الهيكل ثـانية من قبل أنطيوخس، وأعيـدت عمارته من قبل المكابيين، وتم تـدنيسه من قبل بومبـي، الذي مكـث فيه عنـدما هـرب من وجـه يوليـوس قيصر، وأخيراً جـرى تدمير الهيكـل الثـالـث من قبـل تيتـوس وفسبسيـان، وبشأن هـذا الموضوع يقولون: أعيدت عمارته من قبـل هيلانة في ظل حكـم الامبراطور قسطنطين، وقـال آخرون: لابـل الذي أعـاد البنـاء هو الامبراطـور هرقـل، لابـل قيل مـن قبل بعضهـم إن الـذي تولى ذلـك الامبراطور جستنيـان، وهناك مـن يقول: إن الـذي فعل ذلك واحـد من أمـراء ممفيس في مصر، وأوقفـه على اسـم «الكبير» أي «الله العظيم»، فهـذا مـاتـذكره الكتـابـات الاسلاميـة بشكل واضـح تماماً، لأنـه عندمـا وصل الفـرنجة لاشيء مـن الشريعة أو الاغـريقية وجـد مكتوبـاً عليه، ويـدعى الهيكـل الحالي باسـم الهيكل الرابع، وأمـام الهيكل الذي وجد قبله، جرى ختـان الطفل يسوع، وقد عرض أحد الملائكـة غرلته على شارلمان وجعله يشاهـدها في الهيكل، وهو الـذي جلبها إلى اكس لاشبيل (آخـن)، ثم جرى نقلها فيما بعـد من

قبل شارل الجريء إلى أكوتين في مقاطعة بواتو قرب كاروكس -Char roux، وجرى تقديم يسوع وعرضه في الهيكل من قبل أمه، وقد تسلمه سمعان،وطرد يسوع من الهيكل الذين كانوا يبيعون ويشترون، وهناك حرر الزانية من أيدي الذين اتهموها، ومن الهيكل جرى رمي المبارك جيمس، وفي الهيكل أعلن الملاك وكذلك أعلم زكريا بميلاد ابنه، وفيما بين الهيكل والمذبح سقط زكريا بن براخيا، وحول المسلمون فيما بعد هذا المذبح إلى مزولة، ومن الممكن رؤيته حتى الآن في القاعة، ويقع في القدس إلى جانب القديسة حنة، وليس بعيداً عن الباب الذي يمضي الانسان منه إلى يهوشافاط، بركة الغنم، وأقام يسوع في وسط القدس الفتاة من الموت، وفي القدس جرى اعدام جيمس الثاني من قبل هيرود بوساطة السيف، ومن هناك حمل إلى يافا، ومن ثم فيما بعد إلى اسبانيا، ودون موقع الهيكل يقوم الآن مكان إقامة الجنود الذين يحرسون القدس*.

وفي القدس Xenodochium أو Muscomion، وال Xeno-dochium بالاغريقية بيت استقبال للغرباء والفقراء، أما Mus-comion أي المشفى، فهو المكان الذي يجمع المرضى من الشوارع والقرى ويعتنى به بهم، ويوجد خارج أسوار القدس، فيما بين برج تانكرد وباب القديس ستيفن محطة لإيواء المجذومين، ويقال بأن هركانوس أمير اليهود أول من أسس مشفى بوساطة أموال استخرجها من ضريح داود، وفي ضواحي القدس، في وادي أبناء عنون باتجاه الجنوب، هناك مكان

* بعد استيلاء الفرنجة على القدس عام ١٠٩٩، أعطيت منطقة الحرم إلى فرسان الداوية الذين تأسس نظامهم حديثاً، وقد ترك هؤلاء قبة الصخرة بدون تغيير، غير أنهم أحدثوا تغييرات هامة في المسجد الأقصى، حيث بنوا مستودع أسلحتهم في جانبه الغربي على طول الجدار الجنوبي للمنطقة، وجعلوا اسطبلاً لخيولهم في بناء منخفض ألحق بالزاوية الجنوبية الشرقية إلى الغرب من مهد يسوع.

توفث Thopheth وهو المكان الذي كان بنــو إسرائيل لايخجلون به من عبادة أصنــام الكفار، ومعنــى وادي عنون هــو وادي جنون، لأن العبرانيين ضحوا هناك بأولادهــم للشياطين، ويدعى هذا الوادي أيضــاً باسم وادي الأوثــان، لأنهم عبدوا فيــه الأوثان، ووادي جيسماني هــو وادي يهوشافاط، ويتصــل وادي عنــون بــوادي جيسماني، ودون قصر سليمان (المسجــد الأقصى) عند منعطــف صهيون، وإلى حد كبير في وادي يهوشافــاط، تقع بركــة سباحــة سلوان، التــي تنبع، حسبما جــاء في التقاليــد العبرانية، مــن سيلو Sylo ويجري جدول سيلو بصمت، لأن جــريانه هو تحت الأرض، وتحت سلوان هنــاك نبع روجــل (عين أم الدرج)، وإلى جــانبها دفــن كما قيــل بسياس، ومــلاصــق لعين روجل « الــزاحفــة » وهــي الحجر التــي ضحــى عليها أدونيا بــأضاحــي (انظــر الملوك: ١/ ١/ ٩)، وعبر سلــوان، باتجاه الجنوب بركة سمك فولر Fuller، وحقل ملاصق لحقل الفاخوري وفيه أكلــداماك، حيث يجري دفــن الغرباء، وعبر أكلــداماك يوجــد مكان جيحون حيث مسح صادوق الكاهــن سليمان ملكاً، وقد قيل بأن جيمس المبــارك قد دفــن في وادي يهوشافــاط، ومن هنــاك نقل إلى القسطنطينيــة، وفي وادي يهوشافاط وتحت آبدة معلمة جرى دفن الملك يهوشافاط.

وعلى بعد ميل من القدس هناك بــاتجاه البحر الميت بيت حنينا، فهناك استقبل شمعــون يسوعــاً ضيفاً له، وهنــاك أيضاً استحقــت مريــم غفران الــذنوب، وحيــث أقام يســوع أيضــاً لازاروس من الموت، وفيما بين بيــت حنينا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وغسل في صهيــون يسوع أقــدام حوارييــه وتعشى معهــم، وفي القدس بــاع يهوذا يسوع إلى اليهــود، وعند منعطــف جبــل الزيتــون المكان الــذي صلى فيه يســوع لأبيه، وذلــك عندما قــال لبطرس: «ألا تستطيــع أنت أن تصبر معي ســاعة واحدة»؟، ولدى عــودته من هنــاك إلى جيسماني، جرت خيانتــه من قبل يهوذا لصالــح اليهود، وقدم هناك مغلــولاً إلى أناس -An

nas وكيفـاس في رواق سليمان، وأخذ مـن هنـاك إلى صهيون إلى المكـان الـذي يدعـى الــ «Litostrotosâ» الـذي مايـزال يـرى أمام بـــاب كنيسـة، وأخـذ بعـد هـذا إلى أكرا، وبعـد إهـانـان كبيرة صلـب فيها بين اللصوص، وفي ميدان التجار هناك كنيسـة تسمى «اللاتينية»، لأن اللاتين تملكوا هـذا المكان منذ أيـام الرسل، وهنـاك المكان الذي بكـت فيه الأم أولاً بعد الآلام مـن أجل ابنهـا، وكذلك فعـل الحواري من أجـل معلمه، ودون موقع أكرا (الجمجمة)، وباتجاه الجنـوب، في مدخل الكنيسة، هناك مكان وحـي، على مكان قيـل بأن ثـلاثة حملـن اسم مـريم قـد بكين من أجله، بينما هـو يعاني على الصليب، وليس بعيـداً من هناك المكـان الذي دفن فيه يوسـف يسوع، وتنزل هناك في ليلة عيد الصعـود على مشهد من عـدد كبير من النـاس، كـل سنة النـار المقـدسـة، ويجري تبجيل ضريـح الرب، وفي المكان الواقع في الـوسط فيما بين الضريح ومكان الآلام، ظهر يسوع لمريم المجدلية، وفي مكان يدعى السجن Carcer حبس يسوع بينما جرى اعداد الصليب له.

وعلى بعد تسعة أميال من القدس تقع يثروبولس Eutheropolis أي عمواس (خطـأ والصحيح بيت جبرين)، فعلى الطـريق هناك ظهـر الرب إلى اثنين من حوارييه عندما كـانا يسيران، وظهر في جبل صهيون لحوارييه أثناء غيـاب تومـا، وبعد ذلك ظهـر ثانيـة عندما كـان تومـا حاضراً، وفي جبل الـزيتون صعد إلى الأب، وهناك يـرقد أيضاً جسـد بلجيا Pelagia المبـاركـة، وقـد أخـذت إلى يهوشـافـاط مـن قبـل الحواريين، ويحكـى أن الملكين داود وسليمان مـع ملـوك القـدس الآخـريـن قـد دفنـوا في جبـل صهيـون، وأمام بـاب القدس المتجـه نحـو الغرب قـذف المبارك ستيفـن بـالحجـارة، وحمل مـن هنـاك إلى صهيـون ودفـن مـع نيقـوديمـوس Ni-codemus.

وفيما بين القدس ويهوشـافاط كنيسة، يقولـون جلس فيها شـاول وقت

تعرض ستيفن للقذف، وليس بعيداً عن القدس هناك كهف حمل منه أسد في ليلة واحدة — بارادة الرب — اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين قتلوا من قبل خسرو Chosroes.

وعلى مسافة ميلين من هناك المكان الذي نمت فيه شجرة صلب الرب، وليس بعيداً عن موقع الجمجمة المكان الذي عثر فيه على الصليب المقدس، وعندما جرى البحث والتقصي عن مكان الجمجمة بكل يقظة، أمرت هيلانة بتنظيف الموقع، وقد جرى تدمير تمثال فينوس إلى قطع، وهو التمثال الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وعلى محاذاة جبل الزيتون جبل العدوان حيث أغوي الملك سليمان من قبل زوجاته فبنى هيكلاً لكموش ولمولك.

وعلى بعد ثلاثة أميال من القدس تقع عناتا، التي جاء منها أرميا العناتي.

وعلى بعد ميل من القدس، وباتجاه جاجاس Gagas، يقع المكان الذي يدعى سكوبس، الذي خرج إليه سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى مسافة خمسة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة التي قدمت إليها مريم للسلام على اليزابث، وحيث يحكى بأن يوحنا قد ولد.

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس يقع جبل جبعة، ومدينة فنحاص، حيث يقال هناك دفن (المتداول هو أن القبر في عورتا جنوبي نابلس، وجبعة هي تل عاصور).

وعلى بعد ميل من عمواس، وباتجاه الجنوب تقع جبعة، حيث يرقد حبقوق، ومن جبعون كان شاؤول قد انتخب في الجلجال، وفي جبعون فسدت زوجة لاوي.

وبين القـدس وعسقلان، ومـلاصـق لبيت حنينـا يقـوم مـوقع «أبـوزر Abuezer ، وهو المكـان الذي أخـذ فيه الفلسطينيـون تابـوت الرب. (لعل الموقع هو دير أبان إلى الشرق من عين شمس).

وموقع بيـت عور موجود في أرض أبناء يـوسف التي إليها طـارد يوشع الملـوك، وهناك بيتـان تحت اسم عـور وهما: بيت عـور الفوقـا وبيت عـور التحتـا، وبنى سليمان الفـوقا والتحتـا، وملكهما إلى اللاويين، وفي منطقـة بيت عور ولد النبي يوئيل وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعـة أميال مـن القدس، وعلى الطـريق المؤدي إلى نـابلس تقع جبعـون التي جـاء منها الجبعونيـون، وهناك جبعـون أخرى مـلاصقة لراما ورامون، وهناك استحق سليمان الـوحي الرباني، ويحكى أن الشمس توقفت هناك عندما كان يوشع (بن) نون يقاتل.

وفي جبال حبرون مـوقع زيـف (تل زيـف) الـذي يدعـى أيضاً كـرمل (الكرمل مـوقع منفصل قريب من تـل زيف)، وهنا كانت قريـة الكرمل التي جاء منهـا نابال، وفي الكرمل طلـب داود أرغفة لرجالـه الشباب من نابـال، وذلك أثنـاء فراره مـن وجه شـاؤول، وقابلتـه «أبيجايـل» في أثناء الهبوط من الكرمل، وهدأته وأرضته بهدايـا كبيرة، وبعد وفاة نابال تزوجها داود، وهناك زيـف أخرى منها جاء الـزيفيون: وزار يوناثـان في الصحراء داود، وذلك عندما كان متخفياً مـن وجه شاؤول، وهناك استولى داود على ترس شـاؤول (في صموئيـل: ١/ ٢٦/ ١٢: أخذ داود الـرمح وكـوز الماء) ورمحه.

وعلى بعد ثمانيـة أميال مـن عمواس ، وعلى الطـريق الـذي يؤدي الى حبرون تقـع مدينـة كيلا (خـربـة كيلا) ، فهنـاك سكن داود في إحـدى المرات .

وعلى مسافـة تسعة أميال من القـدس ، وعلى الطريق الـذي يؤدي الى

الرملة يقوم جبل مودين (المدينة ميغوموديعيم) ، ومنه جاء متاثياس mattathias أبو المكابيين ، وكانت مودين في يوم من الأيام مدينة لا ترام ، ومنها كان يمكن للانسان أن يرى كل من البحرين : البحر الكبير والبحر الميت ، ويرقد في مودين متاثياس وأربعة من أولاده مع اثنين من أحفاده ، تحت آبده ما تزال قائمة هناك .

وعلى الطريق النازل من القدس الى أريحا تقوم أدونيم التي تدعى الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر) ، وقد ورد، ذكرها لدى ربنا أثناء حديثه عن الرجل الذي سقط بين اللصوص .

وتقع أريحا على بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس ، وعبر أريحا وفي مواجهتها حدث لدى وصول الياس واليسع أن انقسم الأردن ، ولأنه ارتعب ترك اليسع رداءه ، الذي هو محفوظ في القسطنطينية ضد المرض العظيم ،وعندما كان يسوع يمشي في أريحا تسلق زكريا شجرة جميز موجودة فيها ، وكان في أريحا في أيام المبارك سابا بيتاً للضيافة ، له احسان عظيم ، وقد ترأسه ، وقد حدث فيه أنه كان يتولى رعاية صديق له من مأدبا ، وهي مدينة في العربية وكان اسمه توما ، وبينما كانا يأكلان ومعهما بولص وثيودور وهما أكثر الناس قداسة تم اعلام المبارك سابا ، أنه لا يوجد هناك نبيذ ، ولا أي شراب بالفعل سوى القليل من مرق الحنظل لطبخ الخضار من أجل الإفطار ، وجلب ذلك الى أمام المبارك سابا ، وقد قام بتصفية ذلك الموجود ، وعندها تحول الى وفرة كبيرة من النبيذ كانت كافية لجميع الذين كانوا موجودين في دار الضيافة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وأعطى بعضاً منه لتوما ولرفاقه لدى عودتهم الى موطنهم ، وجرى الاحتفاظ بكمية قليلة منه ، وقد أعادت هذه الكمية الى الصحة أشخاصاً مرضى عندما دهنوا بها ، وكان الرجل الأعمى الذي رد له الرب البصر في أريحا يجلس على جانب الطريق .

وعلى رميتي حجر من أريحا يوجد المكان الذي صام فيه يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وهو يدعى الآن باسم « الأربعين» (خلف عين السلطان) ،، وهناك أيضاً حاول الشيطان اغواءه بقوله له :« إذا كنت ابن الرب فقل تصير هذه الحجارة خبزاً » .

وعلى بعد ميلين من الأربعين » وباتجاه طبرية هناك جبل مرتفع (قرن صرطبه) منه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم ، وتحت الأربعين هناك مغارة فيها ذلك النبع الذي حول اليشع ماءه الى ماء يشرب بعدما كان مراً ، وذلك برش بعض الملح فوقه .

وعلى عشرين ميلاً من القدس تقوم اللد ، التي هي ديوبولس ، ومعنى هذا : مدينة مزدوجة (الصحيح : مدينة جوبتير) ، وفيها تمنه التي كانت فيها مضى بلدة كبيرة ، وهنا جز يهوذا غنمة عندما اضطجع مع ثامار في مكان يلتقي فيه طريقان ، وذلك على بعد ميل من تمنه ، وقد أولدها فارص ورازح .

وعلى بعد أربعة أميال من اللد تقع أرماثياArimathia أي رمثا زو فيم Ramatha Sophim وهي مدينة القانه وصموئيل ، ومنها حسبما قال الانجيلي ، كان يوسف ، وهناك دفن ، وقد حمل جسده فيها بعد الى بيت لحم من قبل أحد البيتلحميين ، هو الآن أسقف ، ووجد معه الأربطة التي أنزل بها يوسف يسوع من على الصليب ، وأحد المسامير العائدة للرب ، والأربطة والمسمار معروضان في بيعة الملك في القدس .

وعلى بعد ميلين من اللد، وباتجاه البحر، تقوم قلعة بلنيا Balnea حيث نحت نيكوديموس من الخشب ما يشبه شكل المخلص، وهذا الشكل يبجل الآن في لوكا Lucca في ايطاليا .

وعلى بعد ميلين من اللد، وعلى شاطىء البحر تقع يافا التي أقام فيها بطرس طابيتا ، وحيث ظهرت «الملاءة» لبطرس (أعمال الرسل : ١٠ /

١١)، ويرى الانسان هناك صخرة ترى عليها آثار سلاسل أنـدروميدا . Andromeda

وعلى بعد ستة أميال من يافا تقع أرسوف، التي بناها سليمان .

وعلى بعد عشرين ميلاً من أرسوف، وباتجاه الشرق، تقع دور (خطأ دور هي الطنطورة قرب حيفا)، وهي التي سماها هيرود قيسارية، تشريفاً لأغسطس قيصر، وهناك بنى أيضاً ميناء لها من الرخام الأبيض، وفيها عمّد بطرس كورنيلوس، بعد ما حّول بيته إلى كنيسة، وقد عينه أسقفاً وهناك يرقد أربع نبيات عذراوات، ويقال بأن يوسيبوس الطيب كان في قيسارية هذه أسقفاً، وكان في قيسارية برج ستراتو Strato ، وفيه كان هيرود جالساًبثوبه الأرجواني عندما ضرب بقوة انتقامية ربانية ومات ، وازدهرت قيسارية كثيراًفي أيام المسلمين بدورها فيما بين بابليون وبابل ، أي فيما بين بغداد في فارس وممفيس في مصر (بغداد والقاهرة) ،ونمت حتى أصبحت مثل جنة للمسلمين ، وفيها دفن النبلاء ورجال السلطان ، ويوجد في محيط المدينة ، وسط الحدائق عدد كبير من الكهوف الصغيرة ، مبنية من حجارة منحوتة فيها كان يتم مزج أنواع البخور والطيب حيث كان هذا المزيج يحرق بالنار ، وبذلك كانت المدينة كلها تمتلىء بعبق الروائح الطيبة ، وبهذا كان يجري حجب الروائح السيئة وتبتهج الأعداد العظيمة من السكان ،لكن زال هذا كله الآن وبات معدوماً.

ويعيش في أنهار قيسارية التماسيح وهي ثعابين مرعبة ، وفم التمساح متميز عن جميع الأفواه في أن الفك العلوي لديه قابل للحركة ، في حين أن الفك السفلي ثابت ، وليس للتمساح مخرج سفلي ، وبعدما يأكل التمساح طعامه ، يتوجه نحو مكان استحمامه المعتاد على طرف النهر ، ويقف على ذراعيه ، وتمتد رقبته وفمه مفتوح ، وكأنه يساعد نفسه على التنفس ، ثم يقع نائماً ، وعندما يغرق في نومه تأتي بعض الديدان إليه ، وتأكل من طعام التمساح ، وتدخل الى أمعائه ، وتعمل

احداهن بمثابة بواب تراقب البقية ، خشية أن يفيق التمساح ويحبس الديدان في داخله ، وهكذا يجري خداع التمساح من قبل ذاته ، ويكره التمساح الانسان أكثر من كراهته لأي مخلوق آخر.

وهناك ثعبان آخر يدعى يدروسYdrus (ابن عرس) يحب الانسان أكثر من حبه لجميع المخلوقات ، وهو يكره التمساح كثيراً ، ولهذا يبحث كل واحد منهما عن الآخر ويطلبه ، ويستطيع ، اليدروس تمويه نفسه واخفائها بالوحل ، وبذلك لا يستطيع عدوه ملاحظته ، ويعرض نفسه على التمساح الذي يدور حوله مرتين أو ثلاث مرات ، ويقوم بجهل منه بابتلاعه ، ويقوم اليدروس في سجنه الذي أغلق عليه بأكل ما في داخل التمساح ، ويحرك الأمعاء بشدة ، ويقطع الكبد ، ويمزق القلب الى قطع ، ويحدث فتحات في جوانبه ، ومن ثم يخرج بعد قتله لعدوه ، لكن كيف حصل وجاء التمساح الى قيسارية ، هذا ما سوف أحكيه باختصار : حكم فيما مضى من الأيام أخوان اثنان معاً في قيسارية بسلطات متساوية ، وتآمر الكبير بينهما ضد أخيه لأنه لم يكن يحكم وحيداً و أراد أن يميته ، وكان معروفاً عن أخيه أنه مصاب بالجذام ، ولقد ظن في نفسه أنه إذا استطاع جلب زوجين من التماسيح من النيل ووضعهما في الأنهار المتقدم ذكرها ينال غرضه فقد كان أخوه قد اعتاد على السباحة فيها في الصيف ، وبهذه الواسطة أمل أن يُقتل ومن ثم يحصل على المملكة منفرداً ، وهذا قد حدث بالفعل ، وحكم الأكبر المملكة لوحده .

وعلى بعد عشرة أميال من قيسارية وباتجاه الشرق تقع أسخريط التي جاء منها الخائن يهودا الأسخريطي .

وعلى مسافة ستة أميال من أسخريط بورفيريوم Porfirium ، عند سفح الكرمل ، على شاطيء البحر الميت، وكانت فيما مضى مدينة جيدة (أراد هنا حيفا التي حلت محل سيكامنيوم Sycaminum

ووقعت بورفيريوم على بعد ثمانية أميال الى الشمال من صيدا)

والكرمل هو جبل ، تحادث فيه لبعض الوقت الياس مع اليسع ، وضحى هناك للرب أمام أربعمائة وأربعين كاهناً لبعل ، واستحق النار السماوية ، وأمسك هناك الكهنة ، وذبحهم بالسيف فوق مسيل سيحون ،وهرب من بعد هذا من جزبل Jezebel وجاء الى حورب ، وتقع حورب، الآن على طرف سيناء .

وعلى بعد ثلاثة أميال من الكرمل يقع جبل قاين (تل قيمون) الذي عند سفحه هناك عين بقربها قتل لامخ أباه قاين بوساطة سهم ، وقتل بقوسه قائده .

وعلى بعد عشرة أميال من قاين تقع عكا (عكون) التي سماها بطليموس ملك مصر ثولومياس tholomaic ذلك أنه هو الذي أسسها ، والى هناك يصل أكبر عدد من السفن (مما يأتي الى أي ميناء) يقع على ساحل البحر العائد للفرنجة والممتد من عسقلان الى جبال طوروس ، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوربا وافريقيا ، وحدث في احدى السنوات ، في شهر آب على شاطىء البحر وليس بعيداً عن الأسوار ، باتجاه الشرق ، أن تفجرت ينابيع ، فحولت الجداول العائدة لهم الى البحر ، الذي عمل بمثابة حل للذين كانوا يشربون منهم حسب هواهم ، ولهذا السبب يتردد عليهم الذين يسكنون فيما بين الفرات والنيل .

وعلى بعد ستة عشر ميلاً من عكا تقع مدينة صور ، التي كانت تدعى في العصور القديمة باسم سّرا Sara ، صدوراً عن اسم سمك كثيراً هناك ، وهو الذي يدعوه السوريون بلغتهم باسم سر Sar، ومنه جاء اسم سمك صغير يدعى نوعه باسم سريا Sarae أو سردين (معنى صور : صخرة) ويسمي العبرانيون تاير Tyre باسم سور ، أو

بالـدارجة باسم صـور ، وجاء الفينيقيون الـذين أسسوا صور مـن البحر الأحمر .

وتقع صيدا على مسافة أربعة عشر ميلا من صور .

وأسست صيدا مـن قبل صيدون ، الذي كان الابـن الأول لكنعان بن حام ، ومنه انحدر الصيداوييون وحكم في صور وصيدا فينكسFenix الذي كـان أخاً لكثمـوس (قدموس) الطيبـي في مصر ، والذي جـاء من سورية ، ومن اسمـه صار هؤلاء الناس يدعون بـالفينيقيين واسم المنطقة كلها فينيقيـا ، التي احتلـت فيها صـور المرتبة الأولى ، وحكـم في صور حيرام عندمـا حكم سليمان في القدس و أبـولونيـوس عندما حكـم حكم انطوخيـوس في أنطاكية ، ويـؤكد السـوريون أن صور رفضـت استقبال يسوع عنـدما سار على طول ذلـك الساحل ، لكـن عندما قام يسـوع من الموت ، استقبلت باسمه بولص الـذي بشر فيها بالشريعة والانجيل ، ثم إنه جثـا فيها بعد على ركبتيه ، وصلى على ذلـك الرمل ودعـا أن تمتن رحمة المسيح صور وتدعمها في الإيمان ، ويوجـد أمام صور الصخرة التي قيل بأن يسوع قد جلس عليها ، وهي قد بقيت كما هي دونها أذى من أيامه حتى وقت طـرد المسلمين من المدينة ،وقد حطمت فيها بعـد وقطعت من قبل الفرنجة وكـذلك من قبل البنادقة ، وقيد البناء الآن فـوق بقاياها وحـول موقعهـا كنيسـة مكرسـة للمخلـص ، وتبعا لبيـدBede المبجل قدمت صور عدداً كبيراً من الشهـداء للرب ، وأعداد الذين ينتمون لها نفسها العلم وحده قادر على تعدادهم .

وصور هي مكان دفن أورجين Origen، وقد استولى الاسكندر الكبير على صـور الذي وسـع أراضيهـا بـوساطـة سـور ، لأنها كـانت وقتـذاك مطوقـة بالبحر أيضـاً، وحوصرت في أيامنا صـور بفعالية مـن البر والبحر ، وتم الاستيلاء عليها من قبـل البطريرك وورموندWarmund صاحب الذكـرى الطيبة ، وذلـك بمساعدة البنـادقة ، وبـإذن من نعمـة الرب ،

وجاءت من أحواز صيدا وصور المرأة الكنعانية التي قالت ليسوع : « ارحمني يا بن داود » وعندما غادر يسوع هذه المناطق عاد إلى الجليل من خلال المدن العشرة » ، وأعاد السمع إلى الأصم والكلام إلى الأخرس

وعلى بعد ستة أميال من صيدا تقوم الصرفند على شاطىء البحر باتجاه صور ، وهي صرفند الصيداويين ، وإليها بعث الرب إلياس الى أرملة صرفندية، حتى تزوده بالطعام ، وحينها مكثا معاً كان قليل من الزيت في الابريق وبقايا الطعام كافية للوجبة ، وهنا أقام الياس ابن الأرملة ، أي يونه Jonahابن أماثوسAmathus وجمعت امرأة في الصرفند حزمتين ، ويقوم في جبال صيدا والصرفند جت حافر (المشهد على ثلاثة أميال من الشمال الشرقي للناصرة) ، وهي البلدة التي جاء منها يونه المذكور أعلاه ، وكان من صيدا ديدو Dido الذي بنى قرطاج في افريقيا ، وشهرت صيدا بوساطة الفينيقيين الذين تملكوها ، وقد ثبتوا اسمهاصيدا بسبب وفرة الأسماك ، لأنه معنى كلمة صيدا في لغتهم : سمك.

وعلى مسافةثمانية عشر ميلاً من صيدا تقع مدينة بيروت،وهي مدينة غنية جداً، ويوجد في بيروت تمثال لمخلصنا صنعه نيكوديموس بيديه،وحدث بعد أمد وجيز من آلام المسيح أن تم صلب هذا التمثال بشكل شائن من قبل بعض اليهود وذلك بشكل ساخر ،فصدر عنه دم وماء،ونتيجة لهذا الحادث آمن عدد كبير بالمسيح،وعاد كل واحد مسح بنقطة من التمثال الى الصحة.

وعلى بعد عشرين ميلاً من بيروت،وباتجاه الشرق،تقوم بيبلوس التي هي جبيل أو باللسان العبري جوبل،وجلب الى مرساها في أيام سليمان الخشب من جبل لبنان من أجل بناء بيت الرب في القدس، وقد نقل منها الى يافا.

وعلى بعد عشرين ميلاً من جبيل،وباتجاه الشرق،تقوم طرابلس،وهي حاضرة المنطقة،وهي مدينة محصنة بشكل رائع بالأسوار والبحر.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً من طرابلس،وباتجاه الشرق،يوجد ألباناً Albana [أبانا] ،وهو نهر عرقة،فمن هناك تبدأ مملكة القدس.

ويعود أصل الصلاة العامة على الميت والمنفعة العامة الى يهوذا المكابي،والى هركانوس يعود تأسيس المشفى العام،وتم بناء البرج الذي يدعى الآن باسم برج داود من قبل هيرود،وعندماهدم تيتوس وفسبسيان المدينة تركاه قائماً ليكون علامة على نصرهما،والقلعة التي بناها داودلنفسه،حيث أملى المزامير،قد احتل مكانها الكنيسة التي تحصن صهيون وتجمله،وذلك باتجاه بيت لحم على رابية مرتفعة جداً، وظلت القلعة قائمة حتى أيام الابن الأصغر لمتاثياس الذي هدم كل من القلعة والرابية،وعندما هدم تيتوس وفسبسيان المدينة، لم يأخذا منها سكانها فقط، بل أخذا أيضاً تابوت العهد وماكان فيه،وحملوا الجميع الى روما معهما، وذلك كماهو منقوش على أقواس النصر القائمة فيما بين البلاديوم Palladium وتل البلاتاين Palatineالى جوار كنيسة القديسة مريم الجديدة(في روما حيث مازال قوس تيتوس).

وأخذ الدوق غودفري مفاتيح البرج المذكور أعلاه من يد البطريرك داغوبيرت،وهيأ كل مايمكنه من إحسان وألطاف للبطريرك ولمكانة الكنائس،ولقد استحق عن جدارة أن ينال أعلى المراتب وأعظم الألقاب،غيرأنه لم يؤثر مكانة وألقاب الذين حكموا بل لقب عبد الرب، ونذر إذا ما أعطاه الرب عسقلان،وسلمها ليديه، سوف يعطي القدس كلها للذين يخدمون الرب في كنيسة الضريح المقدس،ولسوف يزيد من أملاك البطريرك،لكن عندما حلت السنة التالية،لم يستطع إكمالها،ووصل الى النهاية التي لايمكن الفرار منها،وقد دفن بحزن ونواح لانظيرله أمام الجلجلة،حيث جرى صلب ربنا،وقد كتبت هذه الأبيات على قبره:

النجم الرائع.هنا يرقد الدوق غودفري.

مرعب مصر، هازم العرب،ممزق صفوف الفرس.

ومع أنه انتخب ملكاً،رفض أن يلقب بملك.

وأن يتوج، وظل«عبد المسيح»فقط.

وكان همه أن يعيد الى صهيون حقوقها.

وككاثوليكي أن يتبع العقائد المقدسة للحق والمساواة.

وأن يزيل جميع الهرطقات من حوله وأن يرعى الحق.

وبذلك يمكنه أن ينال مع القديسين تاجاً.

وأن يكون مرآة الجيش،وقوة الشعب،وكهف الكهنوت.

وقد خلفه أخوه بلدوين،الذي كان أول قنصل للرها،والذي اختير من قبل جميع رجال الكهنوت والناس،وعندما ماكان في الحكم جلس الأدوميون والعمالقة صامتين،وارتعب العرب والفلسطينيون، ودفعت دمشق، وصور وعسقلان الجزية.... وخلفه في صهيون الذي خلفه في الرها، وأعني به بلدوين دي بورغ، الذي كان رجلاً حكيماً، وعظيم الشجاعة، وجاء من بعده المبجل فولك الثالث كونت أنجو ومين.

المحتوى